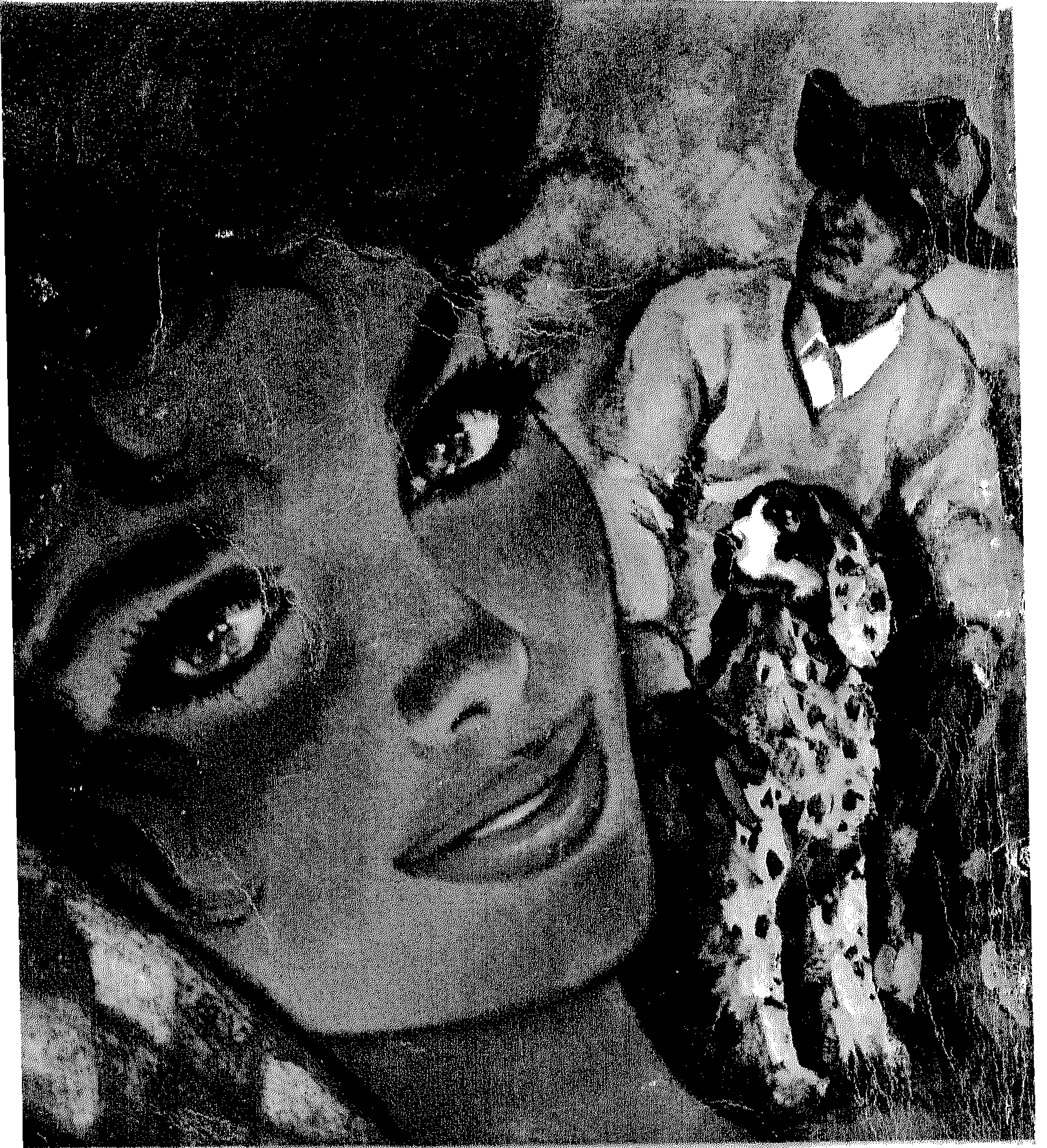
روايات الهلال

الفيلسوف أم الكلب؟



ماشادو دو أسيس

الجزء الأول

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٩٦ ــ اغسطس ١٩٧٣ ــ ١٦ رجب ١٣٩٣

No. 296 — August 1973

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٠٠ مليم - من الكميات المرسلة بالطائرة ــ فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا.
قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ــ فى سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٢ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى « جمهورية مصر العربية » ــ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ــ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ــ القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ عشرة « خطوط »

روايات الهلال

الفيلسوف أم الكلب؟



ماشادو دو أسيس

الجزء الثاني

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٩٧ — سبتمبر ١٩٧٣ — ١٧ شعبان ١٣٩٣

No. 297 — September 1973

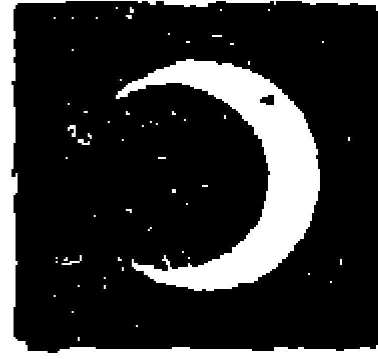
بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٠٠ مليم . من الكميات المرسلة بالطائرة — فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٢ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل او بشيك مصرفى قابل الصرف فى « جمهورية مصر العربيـة » — والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب — القاهرة

تلفون : ٢٠٦١٠ عشرة « خطوط »



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشـــــــــة
الفنان جمـــــال قطب

الفيلسوف أم الكلب؟

كونكاس بوربا

الجزء الأول

بقلم

ماشادو دو أسيس

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

●

دار الهلال

مقدمة

ليس فى الادب البرازيلى ، بين الاتجاه الباروكي فى القرن السابع عشر والاتجاه الحديث فى القرن العشرين ، فترة كلاسيكية كما فى معظم الآداب الاوربية . غير ان هناك كاتبا كلاسيكيا شاءت المعجزة أن يكون واحدا أحدا لا ثانى له . لاشك أن هذا الكاتب قد امتلأ بمنظر مدينة ريو دو جانيرو التى لم يخرج منها يوما ، وهو منظر منسوج كله من ضروب الاحتكاك وأنواع العنف ، يصارع فيه البحر الجبل ، وتجتاح فيه الغابة المنازل ، كما ذاق جميع « السموم » الرومانسية ، وعرف شهوانية الليالى الاستوائية ، وشهد انحلال الاسرة الابوية التقليدية ، التى أصبحت عاجزة عن الصمود لآثار تحول البلاد الى مدن ، شهد تمرد الطفل أو المرأة على السلطة المطلقة التى يمارسها رب الاسرة ، وارتقاء حامل البكالوريا والخلاسي فى مسرح الحياة ، وقيام طبقة بورجوازية . تلك مشاهد متناقضة فى مجتمع غير متجانس ، تضاف الى مشاهد متناقضة فى طبيعة مؤثرة . ولكنه أخرج من هذه المتناقضات انسجاما . فاذا صدق ما ذهب اليه أندريه جيد من أن الكلاسيكية انما تعرف بتغليب القاعدة ، والاقتصاد فى الوسائل ، والحشمة ، فما من كاتب يمكن أن يعد كلاسيكيا أكثر من ماشادو دو أسيس . ان فنه كله رهافة ونعومة ، وان أسلوبه كله ألوان هادئة لطيفة . لقد قطر السموم التى كانت تأكل أحشاءه ونفسه ، فأخرج منها أكاسير ، غير أن نقاء الاكاسير أو صفاءها الرائع لا ينفى احتراق الجوف .

ولد ماشادو دو أسيس فى اليوم الواحد والعشرين من شهر يونية عام ١٨٣٩ فى بيت من بيوت العمال بمدينة ريو دو جانيرو ، لأسرة فقيرة ملونة . كان أبوه دهانا ، وكانت أمه خادما . وقد ماتت أمه وهو صغير ، ثم ماتت أخته الوحيدة . فتزوج أبوه زواجا آخر من امرأة خلاسية ، هى « ماريا انيس » ، فكانت للصبى أما ثانية ، رغم انه هجرها بعد ذلك فيما يبدو . واضطر الصبى النحيل العليل الذى لابد انه كان يحس اذ ذاك بأول أعراض مرض الصرع ، اضطر أن يعمل أجيرا فى مطبعة ليساعد أسرته . ولكنه كان قد أوتى مع

ذلك ظمأ شديدا الى المعرفة ، وارادة قوية ، فكان يعمل آناء الليل. فيقرأ روايات مستعارة ، ويتعلم الفرنسية من غسال صحون ولد بفرنسا ، ويتهيأ بذلك لحياته الادبية المقبلة . لقد كان الادب ، دوما ، سبيل الخلاص الى الصعود فى البرازيل ، لكن بعضهم لم ير فيه الا وسيلة لدخول الصالونات أو لدخول حلقات « البوهيمية » الفنية على الاقل . أما ماشادو دو أسيس ، فقد اتحد بالادب اتحادا كاملا ، فكان يعمل فى الادب عمل صانع يتعلم مهنة ، يدرس كبار الكتاب ويقرأ آثارهم والقلم فى يده ، ويتقصى أسرار « البيان الجميل » ، حتى لقد ظل حياته كلها يصقل ملكته ويجود فنه ، فكانت آثاره مثالا للصبر الطويل والارتقاء الدائم .

وحين عرض أشعاره الاولى وجد حماة وأصدقاء : مثل باولا بريتو الذى كانت مكتبته ملتقى كتاب العصر ، والكاتب الروائى مانويل انطونيو دى أليدا ، مدير المطبعة الوطنية التى كان ماشادو يعمل فيها أجيرا متمرنا على فن الطباعة ، وكونتينو بوكايوفا الذى الحقه صحفيا بجريدة « ديارو دو ريو دو جانيرو » التى نشر فيها مقالات جميلة عذبة . وكانت الرومانسية هى المدرسة الادبية الرائجة فى ذلك الوقت ، فكان ماشادو دو أسيس رومانسيا أول الامر ، فنظم فى الغزل ، وكان غزله خياليا بعض الشيء ، وكتب عددا من الآثار على الطريقة الرائجة التى كانت تتحدث عن الهنود ، فنشر « كريز اليداس » عام ١٨٦٤ ، و « بياليناس » عام ١٨٧٠ ، و «أمريكاناس» عام ١٨٧٥ ، غير انه وهو ابن تلك البلاد التى تهوى الافاضة فى الكلام ، ووليد ذلك العصر الذى كثيرا ما اختلطت فيه الغنائية بالفصاحة ، ظل محافظا فى قصائده على اعتدال اللهجة ، فما هو بشاعر الصيحات الملتهبة ولا الصور العاصفة ! ثم انه ألف فى الوقت نفسه مسرحيات ، كتب بعضها بالفرنسية ، وهى مسرحيات يحتل فيها تحليل العواطف مكانا أرحب من المكان الذى تحتله الاحداث ، لا بل هى مسرحيات تكشف عن ميل ماشادو الشاب الى الحوار . واذا كان كثير من كتاب الرواية فى أيامنا هذه يكشفون ، متأخرين، أن لهم رسالة مسرحية فلا شك ان المسرح هو الذى كشف لماشادو عن ميله الروائى .

وعين فى عام ١٨٦٧ مساعد تحرير بجريدة « دياريو أوفيسيال » فأصبح موظفا ، وظل كذلك الى آخر حياته . ففى عام ١٧٧٣ ألحق بادارة الزراعة والتجارة العامة ، فتقلب فى جميع المناصب الادارية ،

حتى ارتقى الى ارفع المراكز . ولم يشأ يوما أن يعتزل الوظيفة ، لا عن بخل ، بل لانه لو فعل ذلك لشعر من جرائه بنقصان قيمته ، ولـكف الناس عن الاعتراف له بأنه يقدم خدمة « مفيدة » . وكان مثال الموظف الجاد المجتهد المواظب الدقيق فى عمله ، المهذب فى معاملة مرءوسيه ورؤسائه على حد سواء .

وفى اليوم الثانى عشر من شـــهر أكتوبر عام ١٨٦٩ ، تزوج من برتغالية مثقفة ، أكبر منه سنا بقليـــل ، هى كارولينـــا أوجوستا كسافيه دى نوفايس ، أخت شاعر هجاء معروف ، وذلك بعد أن قاوم ارادة أهلها مصطدما بالتفرقة بين الملونين والبيض . وكان من خير الازواج كما كان من خير الموظفين . ورغم انه أصبح يكسب مالا كثيرا ، فقد ظل طوال حياته يعيش عيشته البسيطة المتقشفة ، موزعا نشاطه بين عمله فى الوظيفة وعمله فى التـــأليف الروائى ، مستظلا بظل زوجته المعبودة . كان لا يخرج من بيته الا قليلا ، فيودع مدخراته فى صندوق التوفير ، ويرعى أزهار حديقته ، ولا يستقبل فى بيته الا قلة من أصدقاء مصطفين ، فكانت حياته متحدة بعمله الادبى .

وكان الوقت مع ذلك مضطربا أشـــد الاضطراب . كان هنالك اضطراب أدبى . مثاله ان سلفيو روميرو كان ينتقد الاتجاه الرومانسى والاتجاه الهندى ، ويطالب بأدب « خلاسى » أو « هجين » يتفق ووجه البلاد ، ضد أدب وافد محض ، أو هندى محض ، أو أفريقى محض . ودخلت المدرسة الطبيعية أعنى مدرسة اميل زولا وايسا دى كيروز الى البرازيل . واحتدمت المعركة بين « المدارس » . فظل ماشادو دو أسيس بعيدا عن المعركة . انه لم يهجر الرومانسية مجاراة لتطور الافكار ، بل لان مزاجه كان يوجب عليه ذلك ، وظل غير آخذ بالمدرسة الطبيعية أخذا كاملا . وفى السياسة لم يشترك فى ضروب الصراع التى قامت بين الاحزاب . ورغم انه كان خلاسيا فانه لم يسهم فى الحملة التى قامت ضد نظام الرق ، ولئن احتفل بيوم الغاء العبودية ، فيمكننا أن نتساءل : أتراه اشترك فيه بدافع من نفسه ، أم انه استسلم لعدوى عامة سرت اليه من الجمهور ؟ ولم يحفل كذلك بظهور الحزب الجمهورى ، ولا بنشوء العقـــائد السياسية الجديدة التى ادت الى سقوط الامبراطورية عام ١٨٨٩ . انه يحيط نفسه بالظلال والاسرار . ان هذا الـكاتب الذى جعل رواياته حوارا مستمرا بينه وبين القارىء ، كان يختبىء فى حياة

منطفئة هي حياة موظف ، أو في مكتبه قرب صفحة بيضاء ، او في حديقته الي جانب زوج يساقيها حبا رقيقا .

وقد أخذ عليه ذلك بعنف في كثير من الاحيان . فوصف بأنه أناني ، وقيل عنه انه منفصل عن المجتمع البرازيلي . ومع ذلك لم يكن أحد أكثر وطنية منه . غير انه كان يضع الوطنية في الفن . ان هذا الرجل الذي كان بغير ايمان ولا دين ، هذا الرجل الذي رفض معونة الكاهن لحظة وفاته ، قد جعل الادب رهبانية حقيقية. كان يرى ان خير وسيلة لخدمة بلاده البرازيل هي أن يهب لها آثارا أدبية جديرة بها . واذا كان قد هجر الرومانسية ، فمرد ذلك الى انه رآها أدب مراهقين لا ثمرة حضارة ناضجة ، واذا كان لم يصف المناظر ، ولم تشتمل آثاره على تصوير الطبيعة الاستوائية، تصويرا بصريا على الاقل « ان هذا التصوير موجود في آثاره ، الا انه داخلي ، تلمسه في روح شخصياته ، وفي الالوان الجسمانية لعواطفها » فمرد ذلك الى انه كان يرى ان الطبيعة حادثة عن اتفاق الاعراض الجيولوجية ، وانها « هبة من هبات الله » ، لا من خلق البشر .

ان البرازيل الحقيقية هي البرازيل التي تنشأ من الجهد البناء يبذله أبناؤها . لذلك لم يكن ماشادو يؤمن الا بالبشر . ومن الخطأ ان يقال انه لم يعمل في السياسة ، لكن له سياسته «الخاصة» ، هي انشاء « الاكاديمية البرازيلية للآداب » ، لم يدفعه الى ذلك حب المجد ولا رغبة الخلاسي في أن يساوي البيض أو يفوقهم ، وانما كان يرى في صراع الاحزاب بذور تفكك قومي كما كان يرى في الادب المحلي ، الذي بدأ نتيجة للمدرسة الطبيعية ، خطرا على الوحدة الثقافية للبلاد . لقد كان يقبل أن تتمتع الولايات المختلفة التي كان لكل منها اقتصاد مختلف ، باستقلال سياسي واداري ، ولكنه كان يرى ان حركة الابتعاد عن المركز هذه يجب أن يقابلها مزيد من الاستناد الى ما هو أساس الوحدة البرازيلية : أعني اللغة ، فالاكاديمية مؤسسة لها اذن هدف اجتماعي كبير ، فليس الغرض منها اقتسام أمجاد أو نيل خلود باطل ، انما هدفها أخطر من ذلك كثيرا ، وهو أن تخلق أمام المجالس النيابية ، التي ينقلب فيها التضامن القومي الى فئات من المذاهب المتفرقة أو المصالح الاقتصادية المتعارضة ، كيانا صلبا يستمد فيه ذلك التضامن قوة من حب اللغة ، رمز الحضارة .

ليس ماشادو دو أسيس ضد البرازيل ، بل هو أكثر كتاب البرازيل برازيلية . فكما تفغو الليالى العطرة ، ليالى الريو ، فى الشعر الاسود الذى يكسو رءوس بطلاته ، كذلك يعلو زبد أمواج البحر ويهبط فى عيون نسائه . انك تجد فى رواياته أصدق تصوير للمجتمع الامبراطورى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، مع الصراع بين الحب والمال ، بين ارستقراطية الارض والبرجوازية الناشئة ، بين الشارع والمنزل ، وهو يظهر تمسكه بوطنه فى ابتعاده خاصة عن المدارس المستوردة من أوربا ، وفى وقف حياته كلها على خلق لغة برازيلية . ولكن التمسك بالوطن لا يعنى الانغلاق أو الانعزال . فهو اذ يكتب روايات نفسية يستطيع أن يكون برازيليا الى أبعد حد وأن يفتح للأدب البرازيلى فى الوقت نفسه مجالا عالميا . ان أدبه أدب برازيلى لأن أبطاله يعبرون عن جو البرازيل ؛ ولكنه فى الوقت نفسه أدب عالمى لان التحليل الذى يتضمنه يقدم لمن ينتمون الى حضارات أخرى اصالة طيبة المذاق تأتيهم من بلد آخر . انه يضع أرضه وزمانه فى آثاره ، ولكنه يخرج منهما عطرا يصلح لاناس من أرض أخرى وأزمنة أخرى .

ونستطيع أن نميز فى الآثار الروائية التى كتبها ماشادو دو أسيس ثلاث مراحل :

فأما المرحلة الاولى فيمكن ان نسميها مرحلة تصفية الرومانسية . وهى تمتد بين حوالى عام ١٨٧٠ وعام ١٨٨٠ ، وتضم مجموعتين من الحكايات هما Contos fluminevses و «Historias de Meia Noite» وأربع روايات هى : « البعث » ، « اليد والقفاز » ، « هيلينا » ، « يايا جارسيا » . لم يكن فى وسع ماشادو دو أسيس أن يبدأ بداية أسوأ من هذه البداية ، فهو فى هذه المرحلة يتأثر بأوكتاف فوييه ، موضوعاته رومانسية ، كقصة تلك الفتاة التى تبناها رجل آخر غير أبيها الحقيقى ، وآثرت أن تموت على أن تعد مغامرة ، أو كذلك الحب الشقى الذى يعانيه يورجى واستللا فى رواية « يايا جارسيا » . ان الشخصيات التى صورها فى هذه الكتب لم تكن غنية من الناحية النفسية ، فهى أقرب الى أن تكون كتلة واحدة ، كما أن أسلوب ماشادو لم يصل بعد فيها الى ما وصل اليه بعد ذلك من كمال . فعبارته قصيرة بل قصيرة النفس قليلا ، ومع ذلك ففى أسلوبه شىء من الاسهاب والاطناب ، فألفاظه تتكرر كثيرا ؛ وموسيقاه شائعة . ونستطيع أن نقول ان القصاص فى هذه المرحلة

الاولى يتفوق على الروائى تفوقا كبيرا . كان ماشادو دو أسيس فى هذه المرحلة لا ينطلق انطلاقا سهلا الا فى تلك القصص القصيرة ، سواء أكانت قصص سحر أم قصص حب .

ولئن كانت الموضوعات والشخصيات خيالية تنتمى الى الرومانسية التى كانت لا تزال مسيطرة فى البرازيل ، فان هذه الرومانسية تختلف مع ذلك من كتاب الى آخر باختلاف نوع السخرية . لقد تأثر ماشادو دو أسيس تأثرا كبيرا بالصحافة . وفى ذلك العصر الذى كانت فيه كتابة أخبار الشارع رائجة رواج « الازياء » ، تعود أن يتحاور مع القارىء ، لذلك نراه فى رواياته لايستطيع أن يمتنع عن أن يغمز قراءه غمزة صغيرة بعينه ، كأنه « يتهزأ » مجرى القصة ، وكأنه يعمد الى نقد رومانسيته بنفسه ، وكثيرا ما أرجعت سخرية هذا الكاتب الى عقدة النقص الذى يشعر به الخلاسى ، والى كون الرجل الملون يعيش فى أطراف الحياة منقسما على نفسه . ولسنا ننكر تأثير هذا العامل. وتحدث بعضهم كذلك عن تقليده للكاتب الايرلندى سترن أو الكاتب الفرنسى كسافييه دو ميتر . ولكن المرء لايقرأ الا ما يناسب شعوره الخاص. وعندى انه ليس فى آثار ماشادو دو أسيس سخرية بل سخريات ، أو قل ان سخريته قد اتخذت فى آثاره المتعاقبة صورا مختلفة . فهى فى هذه الروايات أو الاقاصيص الاولى سلسلة من أخبار الشارع قبل كل شىء ، هى ادخال أساليب صحفية فى سياق العقدة نفسها ، أو وضع آلة جهنمية فى داخل الرومانسية الرائجة من أجل نسفها .

ومن خلال هذه السخرية تحررت شخصية ماشادو دو أسيس من تأثيرات البيئة الادبية شيئا فشيئا . ونحن نرى فى الواقع ان شخصياته تظل دائما مترددة ، متحيرة ، منطوية على نفسها ، لم تبلغ بعد درجة كبيرة من التعقد . لقد كتب يقول فيما بعد : « ان الفسيفساء ذات اللون الواحد هى فى الحياة النفسية أمر نادر جدا » . ولئن لم يصل أبطاله بعد الى تلك الفسيفساء من العواطف الكثيرة المتداخلة ، لقد كان فى بعضها شىء من الالتباس العاطفى. وكان لابد مع ذلك من أن يطلع المرض على ماشادو مثلما طلع على بروست ، بتهديده الاسود حتى يبلغ كاتبنا ذروته .

ان منظر ريو منظر مقطع : جبال ناتئة من الاوقيانوس وتمزقاته وحشية . غير ان هناك منظرا آخر يقابل هذا المنظر الخارجى ،

هو منظر داخلي لـكنه وحشي أيضا . ولقد سبق ان عبر ماشادو الشاعر عن ذلك ، فقال :

« ومع ذلك ، اذا أغمضت عيني ، وهبطت
« الى داخل نفسي ، رأيت ، في ضوء شمس
« أخرى ، هوة أخرى ...
« سرا يجذب ويتحـدى وينـــــام ... »

ان هذا السر هو نذر الصرع . وكان المرض ما ينفك يتقدم . لقد كتب ماشادو في الطبعـة الاولى من كتابه « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » ان فرجينيا أصيبت بنوبة صرع ، ثم حذف هذه الـكلمة في الطبعة الثانية . ولـكن المرء لايستطيع أن يحذف المرض بسهولة كما يحذف الـكلمة . ان ماشادو يحس بالجنون يقترب منه خفية . ان رؤى قاتمة تحاصره . وان نوعا من الهلع «الـكوني» ، على حد تعبير جراسا آرانيا ، أصبح مقيما في نفسه منذ ذلك الحين لايفارقها . وعندئذ تبدأ السلسلة الثانية من رواياته ، وهي تلك التي سميت « روايات الغسق » . « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » ، « كونكاس بوربا » (١٨٩٢) « دون كاز مورو » (١٩٠٠) ، « ايزاو ويعقوب » وكذلك سـلاسـل جـديدة من الاقاصيص أشد مرارة من الاولى كثيرا .

ويتراءى للقارىء ان ماشادو دو أسيس يستمر . . ولـكن وسائله قد تغيرت دلالتها الآن . انه لا يزال يقطـع القصة ليتحدث الى القارىء ، ولـكن ذلك أشبه بهرب المذعور . انه يتشبث بقارئه كما يتشبث المرء باطار اجتماعي ، حتى لا يهوى في عزلة تعج بعجائب المخلوقات المخيفة . انه وقد اضطر أن يتجنب الاتصال بالناس حتى لايروا مشـــهد نوباته وتفككه ، يستعيض عن ذلك الاتصـــال بهذا الحوار الخيالي . وهذا بعينه هو السبب في انه لم يشأ أن يعتزل الوظيفة ! ذلك انه كان يجد في قواعد العمل البورقراطي وفي النسبية الاجتماعية للنظام الاداري ، وفي تحديد ساعات المواظبة على المكتب ، حواجز تحول دون ترديه في هوة الجنون . وكذلك لا تزال السخرية غالبة في مؤلفاته . ولـكن السخرية قد تغير اتجاهها . انها الآن تأمل في الجنون . ان مجانين ماشـــــادو يفكرون ، انهم مجانين منطقيون . ولماشادو دو أسيس فلسفة ، وهـذه الفلسفة المركبة فيه كآلة ميكانيكية تخيفـــه : الا يمكـن ان تستحيل الى ورم ، الى طفيلي ، الى دمل آكل ؟ لذلك نرى غاية السخرية هنا أن تحمى المرء

من هذه الفلسفة ، وان تمنعها من أن تدور في رأسه دوران الهذيان ، وأن تكافح التمذهب الفلسفي بأدوية التهكم رغم انه لم يتحرر من نظرته التشاؤمية الى العالم ، نتيجة لمرضه .

ومن الناحيـة الفنيـة انتقل ماشـادو دو أسيس من المدرسـة الرومانسية الى المدرسة الطبيعية . ولـكنه كما قلنا ، لم يكن طبيعيا أكثر مما كان رومانسيا في حقيقة الامر . ان الواقعية ليست عنده حتى الآن الا وسيلة لمكافحة اغراء الجنون الذى كان يتفجر من أعماق نفسه ، ممعنا في وصف البيئة الاجتماعية ، وحياة الصالونات ، واضطرابات الشارع ، ومتشبثا بأذيال الحوار الذى يقوم بين أبطاله . لـكنه لم يظفر بتجنب نداء المرض هذا تجنبا كاملا . فانه ما ينفك يرتد الى نفسه . وهؤلاء أبطاله الذكور يعترفون بذلك . لقد وضع نفسه فيهم ، انه واياهم شيء واحد ، على صورة كاريكاتورية . بل ان كتبه لتصبح معرض مجانين . براز كوباس ، كونكاس بوربا ، روبيان ، سيمون باكاماتني « الاخصائي في الامراض العقلية » . لـكن لهؤلاء المجانين أيضا بعدا خاصا . ان سيكولوجيتهم غنية «بتقلبات القلب» ، وبتفتت الذات احساسات أو عواطف متناقضة . ان محبة قاتمة تسكن فيه . ولئن ظل الاسلوب صافيا موسيقيـا كنبع عذب يغني ، فان هذا الصفاء لا ينفي تداخل الانعكاسات على المـاء المخادع ركوده وهي انعكاسات دم حمراء ، لا بل انعكاسات سوداء لأجنحة ملائكة الليل .

والمرأة في منجى من الجنون . هي في منجى منه لانها أميل من الرجل الى المجتمع ، ولانها حريصـة على الوصـول الى غايتها بالصـالونات والحب ، أو لأنها ــ وهـذا أغلب ــ أدنى من الرجل الى الفطرة ، وأقرب الى الحياة . انها ألصق بالبر أو البحر . انها أقرب الى النبات أو الحيوان . فبهن تتكلم عبقرية النوع في جزائر شعرهن الذى يشبه غابة استوائية ، في بياض نحورهن التي تظهر وتتخفى ، في أذرعهن التي تذكر بالقمر ، في أعينهن المرتدة أمواجها . ولـكن لئن كن لايعرفن الهوات التي يتردى فيها أبطال ماشـادو دو أسيس ، ان فيهن أسرارا أيضا . أنهن جميعـا مثل فلورا التي أحبت التوأم ، بدرو وباولو ، في آن واحد ، فلما لم تستطع أن تحل لغز قلبها ، آثرت أن تنحل في ليلة الصيف ، أن تنطفيء في الظل ، في عطور الازهار ، في تراب الحديقـة . انهن لا يعرفن أنفسهن ، يترددن بين الخطيئة والآداب الاجتماعية ، بين

الابتسامة والمداعبة . انهن فى روايات ماشادو دو أسيس يتبحترن عبر الصفحات شهوانيات ، فيمنعن هذه الصفحات من الوقوع فى جفاف كان على ماشادو أن يحمى نفسه منه .

وفى عام ١٩٠٤ فقد ماشادو زوجته ، فكأنه هو الذى مات. كتب الى « يواكيم نابوكو » يقول : « ذهب أحسن جزء من حياتى . انا الآن وحيد فى العالم . والعزلة لا تثقل على . بل العكس هو الصحيح . لان العزلة هى الوسيلة الوحيدة لكى أظل أعيش معها ، وأسمع صوتها .. سألحق بها . انها تنتظرنى .. » وظن انه لن يكتب شيئا بعد موت زوجته . انه يزداد انحباسا فى منزله الصامت ليعيش مع طيف ، ولا يخرج من البيت الا الى المقبرة . انه يستسلم للموت الذى يتقدم الآن منه . ويرضى أن يجمع بعض الاقاصيص القديمة فى مجلد نشر بعنوان «Reliquias da Cosa Velka» . لكنه يحس شيئا فشيئا بحاجة الى أن يحدث الفقيدة ويتحدث عنها . أن عليه قبل أن يغيب الى الابد ، ما دام الآن نصف نفسه فحسب ، أن يستمر فى التعبير عن حبه لتلك التى تركته . واذا كان الحياء يمنعه من التحدث بصيغة المتكلم ، فقد عبر عن حبه فى رواية ، فكان كتابه « Mémorial de Ayres » ، وهو يختلف اختلافا كبيرا عن سائر المؤلفات التى سبقته . انه وحده المرحلة الاخيرة من ذلك الشموخ الروائى . واذا كانت روايات المرحلة الثانية يمكن أن تسمى « روايات الفسق » ، فان هذا الكتاب الاخير يمكن أن يوصف بأنه كتاب الليل . انه همس غزلى عذب كل العذوبة فى الليل الذى يغشى . ولم يبق لماشادو بعد ذلك الا أن يموت . ولكن الالم لن يتركه حتى النهاية . لقد كافح البؤس وأصوله الخلاسية قبل ذلك الى آخر حدود الكفاح ، ثم كافح نوبات الصرع وتهديدات الجنون، وها هو ذا يصاب الآن بسرطان فى الفم . ثم يموت فى اليوم التاسع والعشرين من) سبتمبر (عام ١٩٠٨ ، ليلحق بالحبيبة تحت أزهار المقبرة .



ينتمى كتاب « كونكاس بوربا » اذن الى سلسلة روايات الفسق.

لقد أودع ماشادو دو أسيس فى هذا الكتاب كثيرا من نفسه ، حتى التفاصيل الصغيرة ، مثل حبه للأزهار . لقد كتب يقول فى احدى أقاصيصه : « فى حديقتى أزهار أرعاها فى حب ، وهى تحبنى وتحيينى كل صباح بأزكى عطورها ، ولا تستحيى أن تقول

لى كلمات لطيفة عن متع الحياة . أعترف بأننى لا أقبل أن أقطفها ، وانما أدعها تموت حيث ولدت .. » ، أو مثل حبه للكلاب :

لقد كان كلفا بكلبته أشد الكلف ، فلما اختفت مرة أعلن عن فقدها فى الصحف الى أن عثر عليها ، حتى اذا ماتت حزن لموتها وعنى بدفنها فى ركن من فناء منزله . ان هذه الامور الصغيرة التى لا تبدو ذات بال ، دلالات هامة ، فهى تدعونا الى البحث فى الرواية عن جزء من اعترافات الفنان ، وان هذا الجزء لكبير .

ففى شخصية روبيان يصور الكاتب نفسه ، فيتلبس باهاب مجنون . ان روبيان هذا يعبر عن الفلسفة التشاؤمية المستمدة من شوبنهاور ، وهي تشاؤمية أراد بعضهم أن يرى فيها ضربا من الفلسفة الكلبية . ليس روبيان سوى معلم مدرسة فى مدينة صغيرة بميناس . ولكن حين ورث كونكاس بوربا لم يرث بيوتا ونقودا وأموالا فحسب ، بل ورث أيضا جنونه وفلسفته لأن كلا من هذين الامرين يتصل بالآخر اتصالا عميقا بل ورث هذه الطبيعة «الانسانية» ان فى العالم جوهرا لا ينقسم ولا يتهدم ، « كالارادة » التى تحدث عنها شوبنهاور ، لا شيء ينال من هذا الجوهر ، وما الموت اذن الا شرط الحياة ، التى تعود تولد فى صورة أخرى . ان الطبيعة « الانسانية » تستخدم أوهام الحب لتبقى ، وتستخدم الحرب لتتبدل . فما هى أخلاقية ولا هى غير أخلاقية ، انها هادئة لا تتأثر ولا تبالى بأحكامنا فى تقدير قيم الاشياء : ان كل نهاية هى وعد ببداية .

والواقع ان هذه الفلسفة هى فلسفة ماشادو دو أسيس بعينها . وقد سبق أن عبر عنها فى أشعاره التى نظمها وهو مراهق :

هذه القوة الخالقة مبثوثة فى كل مكان .
تتلظى فى الزهرة فتفسد ثمرتها .
والثلج حين يهدمها يضاعف قواها .
تمحض الطاهر والنجس حبا واحدا .
تبدأ وتعيد عملا مستمرا .
تخضع ، باسمة ، للقاعدة الالهية :
« تقول هو الموت ، وأنا أقول هى الحياة » .

كما عبر عنها فى أشعاره الى كورين ، وفى أسطورة سيبيل التى تلتهم الجثث لتحيلها أزهارا أو حيوانات أو كائنات حية أخرى ، وفى حكاية آهاسفيروس وبروميثيوس : « الحياة مائة باب كمدينة

طيبة القديمة . فما أن تغلق بابا حتى تتفتح أبواب » . والغابة الواسعة التى تحيط بمدينة ريو دو جانيرو ، ألا تظهرنا هى أيضا على هذا الانبات الدائب الناشيء عن التعفن ، وعلى هذا الاستمرار فى انبجاس الحياة من سوق الاشجار المتفسخة ومن الجذوع التى حطمتها العاصفة ؟ ان ماشادو يعلم أن هذه الفلسفة البائسة تتناقض مع ما بقى من مثالية رومانسية فى البيئة التى يعيش فيها ، لذلك أجرى هذه الفلسفة على أفواه المجانين بسخرية قاسية . ولكن هذا لا ينفى انها تمثل الفكرة التى ظلت فكرته العميقة من أول حياته الى آخرها .

وقد يلاحظ على الاقل انه حين بدلها هذا التبديل باضفاء طابع من السخرية عليها ، قد ميز بين وجوده السليم السوى وبين شخص كونكاس بوربا أو شخص روبيان المصابين بهذيان . لكن هذه الفترة هى الفترة التى كان فيها ماشادو يعيش فى خوف من الجنون ، ويحس ان الجنون يحوم حول عقله كحيوان كاسر ، فوصف نفسه حتى فى هذيان أبطاله .

وحين كان ماشادو صبيا صغيرا ، ألقى بياض بيضة فى قدح من الماء ، كما يفعل جميع الناس ، فى ليلة عيد القديس يوحنا ، ليقرأ مستقبله عليها ، فلما نظر اليها فى الصباح رأى فى السائل الذى يتنبأ بالمستقبل شكلا غامضا يصور باخرة . فكان يقول فى بعض الاحيان : « لم أركب باخرة الى الآن ، لكننى لن أفقد الامل ، ما بقى على سطح البحر بواخر » . ولم يخيب القدر ظنه ، لكن رحلات ماشادو دو أسيس كانت رحلات بالخيال . لقد كان هذا الرجل المتوحد رجلا حالما ، ركب البحور الداخلية مطوفا بين اللجج المزبدة ، وطحالب الاحلام التى تتشبث بجدران المركب وتدبق قعره ، وسمع أغانى جنيات البحر التى تتحدث عن حلاوة الموت البطيء . وما جنون روبيان الا هذه الاغنية المعبرة عن الحنين ، وهذا النداء الاصم الذى يصعد من وحدته ومن الخدر أو الفتور الذى يحمله اليه الفكر الحالم وتحمله اليه نوبات الصرع ... وآية ذلك ان هذيانات الابطال الذين يصورهم ماشادو دو أسيس ملونة بأخيلته هو . ان مجانينه لايشبهون مجانين «ادجار آلان بو» أو « مجانين دوستويفسكى » انهم مجانين متفلسفون متمنطقون ، وهم كذلك أناس يريدون أن يهربوا من أنفسهم ، ويفلتوا من ذواتهم .

لقد كان ماشادو دو أسيس معجبا أشد الاعجاب بقيصر .

ونابوليون وكرومول ، والرجال الاقوياء ، وبنـاة الامبراطوريات ؛ وهـذا روبيان فى رواية « كونكاس بوربا » يتحد بنابوليون. صحيح انه يتحد بنابوليون الثالث ، ولـكن نابوليون الثالث هذا يقهر ملك بروسيا . ان ها هنا أكثر من هذيان بالامجاد . ان روبيان اذ يقص لحيته ويجعل وجهـه كوجه نابوليون الثالث ، يغير شـخصيته ، ويشرع فى رحلة خيالية كبيرة .

وقد قلنا ان روايات الفسق التى كتبها ماشادو دو أسيس ظهرت ابان تغلب المدرسة الرومانسية فى الاوساط الادبية فى ذلك العصر. ويجب أن نذكر مع ذلك ان الرومانسية لم تمت تماما فى مؤلفاته بل ظلت تترقرق فى باطنها ، ولـكن فى هـذه الصـورة الخفية ، صورة الانفجارات المفاجئة التى نرى فيها تدفق الاحـلام والهذيان المنطقى والجنون . لقد لاحظ النقاد ان مؤلفات ماشادو دو أسيس لا تشتمل الا على قليـل من حوادث الانتحار . وهذا صحيح . غير ان مرده الى ان ماشادو دو أسيس كان يريد الاستمتاع بهذا القسم البطىء الذى يتم فى باطن كيانه ، وكان يريد الاستمتاع بهذا الخراب التدريجى ، بهـذا الانتحار الذى يذوقه العقـل جرعات صغيرة ، وعلى ذلك فان ماشادو دو أسيس ظل رومانسيا . ولـكنه كان طبيعيا أيضا من حيث عنـايته بالوصف الدقيق . انه يصف تطور الجنون لدى روبيان وصفا لا يستطيعه الا عالم من علمـاء الامراض العقلية ، كتبلور الهذيان ، وازدواج الشخصية ، والتجول الآلى ، والهلوسة ، ثم السقوط النهائى .

على ان النزعة الطبيعية فى تصويره بطله قد عاقهـا الميـل الى الاعتراف. لذلك كانت عبقريته فى الملاحظة تظهر فى تصويره للشخصيات الثانوية خاصة . وليس معنى هذا ان ماشادو دو أسيس لم يودع هذه الشخصيات الثانوية شيئا من نفسه أيضا .

ان صوفيا مثلا كانت متقدمة فى السن قليلا حين عرفها روبيان ، وكلما ازدادت تقدما فى السن كانت تزداد جمـالا ، كتلك التماثيل اليونانية التى يصقلها الزمن بالشمس والمطر متعـاقبين . فكيف لا تذكرنا صوفيا بزوجة ماشادو دو أسيس التى كانت أكبر سـنا من زوجها . ان كاتبنا فى حاجة دائمة الى شىء من حنـان الام فى الحب ، وربما كان مرد ذلك الى أنه حرم هذا الحنان صبيا . غير أن هذه الامور ليست الا لمسات خفيفة . أما فيما عدا ذلك فقـد كان ماشادو دو أسيس يخرج من ذاته ليحسن تصوير شخصياته ؛

وهو يلاحظ الناس الذين يحيطون به ملاحظة دقيقة أمينة ، ويصفهم وصفا حيا أخاذا . لايظهر ذلك فى تصوير شخصية باليا ، هذا الملك «كاندول» ، الذى يعرض مفاتن امرأته ، على شرط أن يكون مالكها الوحيد ، ولا فى تصوير شخصية صوفيا التى نشأت فى بيئة وضيعة ، وعرفت أنها لا تستطيع أن ترقى فيها الا بالمال وحفلات المجتمع ، واجادة استعمال الحب مع الشرف اجادة نادرة ، وانما يظهر أيضا فى تصوير الشخصيات الثانوية جدا ، مثل فريتاس الطفيلى ، وتونيكا العازبة الابدية .

ولاشك فى أن الكتاب معرض أناس غلاظ أو مجرمين . لقد كان ماشادو دو أسيس أشبه بجراح يرتدى قميصا أبيض وقفازين من المطاط ، يعمل مبضعه فى نفوس أبطاله مظهرا اثرتها وجبنها وطمعها ، ملفعا ذلك كله بموسيقى عباراته ، وبأسلوبه الشفاف الهادىء . وكما كانت نظرته الى العالم نظرة « سادية » ، فكذلك كان فى روبيان شىء من السادية حين مضى يشهد تنفيذ الحكم بالاعدام فى رجل زنجى . وقد يقال ان هذه السادية تشوه صورة الواقع وتفسد صحتها . حتى ذهب بعضهم الى ان كتاب «كونكاس بوربا » لا يضم الا كائنا واحدا محببا الى القلب ، هو ذلك الكلب المسكين المتعلق بمولاه أشد التعلق ، الذى أسند اليه المؤلف حياة نفسية شبيهة بحياة كلب أناتول فرانس فى «الحديقة المزدوجه» ، والذى مات تحت سماء العاصفة فى شارع صغير بائس . وهذا غير صحيح تماما لان فى الرواية شخصية تفيض شهامة واخلاصا وتفانيا هى دونا فرناندا . ويروى السيدس مايا انه عبر فى يوم من الايام لماشادو دو أسيس عن عاطفته نحو تلك المرأة ، وانه قال له : « ليست هذه المرأة خلقا أدبيا بل هى شخصية حية » فما كان من ماشادو ، فيما يروى الراوى ، الا أن نهض مضطربا ومضى الى النافذة ، وأجاب دون أن يلتفت : « نعم ، لقد عرفت هذه السيدة ، وهى من بلدك » . ولكن الشفقة هى التى يسيطر جوها على الرواية بوجه خاص ، كما يترقرق فيها حب كبير للبشر ، رغم ما نرى فيها من ضروب الخبث والصغار والانانية .

واذا صح ان الالم قد يشوه رؤية الواقع ، فانه من الحق أيضا ان المجتمع فى ذلك العصر كانت له أصباغه القاتمة . كان المجتمع الامبراطورى قد انحل انحلالا كاملا ، ففى السياسة كانت حركة العقائد السياسية عاجزة عن اخفاء حقيقتها عن الانظار وهى انها

خصومات على مصالح شخصية ، ونزاعات قديمة بين الفئات لا تزال قائمة . وفى الاوساط الراقية كان السعى الى الامجاد ، والى المال خاصة ، يكيف النفوس ويشوه العواطف ، والصالونات التى يملؤها تلألؤ العقود فى الاعناق ، وهفيف أثواب السهرة ، والتغزل بالكلام المهموس فى ضوء القمر تحت ظلال الحدائق ، كل ذلك كان يؤلف عالم النساء العواقر المتفتحات كالازهار الزاهية فى آنية جميلة تزهو ثم تموت ولا تؤتى ثمرا . ان ماشادو دو أسيس يصور ، من غير تشويه ، الآثار الاولى لنشوء المدنية والصناعة فى مجتمع ريفى الاصل .

والكاتب يضع نفسه فى أثره دائما . هذا صحيح . ولكننا لا نستطيع أن نوحد بينهما . ذلك ان الرواية ثمرة ارادة فنية تحاول أن تبلغ صورة من صور الجمال . فاذا كان « ماشادو دو أسيس » يتيح لنا أن نلمح فى بعض المواضع ذلك الخوف الرهيب الذى يستبد به ازاء تهديدات الجنون ، فانه يظل حريصا على العناية بحرفته ككاتب . لقد اراد بعضهم أن يفسر ميله الى التفاصيل الصغيرة بأنه كان حسير البصر : « أحب نبش الامور الصغيرة المختفية . وحيث لايدس أحد انفه ، أدس انا أنفى ، وفى نفسى من الفضول ما فى نفس من يكشف أمرا مخبأ » . ولكن لهذه الاشياء الصغيرة الدقيقة دلالة فنية : انها تريح القارىء من الخطوط الكبرى الفاجعية ، اللهم الا أن نقول انها تشير الى تفتت الزمن فى غبار ذهبى من اللحظات . وقد أراد بعضهم أيضا أن يعلل قصر جملته بتأتأته ، ولكن الجملة القصيرة كانت عنده سلاحا ضد الرومانسية الخطابية ، ضد العبارة المنتفخة المتفخمة التى يستعملها الطلاب المتخرجون فى القانون أو الشعر . لقد هجر أخيرا أوكتاف فوييه ، واهتدى الى اخوته فى الفن من أمثال ميريمه وستاندال . والتكرار كثير فى آثاره ، لكن هذا التكرار ليس ثمرة لمزاجه الصرعى ، ولا هو لدى هـــــذا العامل المجتهد المخلص تهاون ورخاوة فى الاسلوب . واذا كان وصفه لذلك الجزء الذى يمتد فى مدينة ريو من ساحة فورموزا الى ساكو دى افريس يتكرر فى « كونكاس بوربا » و « روكوليداس » ، و « أقاصيص بلا تاريخ » فمرد ذلك الى انه حى طفولته ومرتع نزهاته الطويلة على شاطىء الماء . انه أشبه بعنقود من ذكريات حبيبة على باقة أزهار اصطناعية . واذا كنا نرى حادثتين من حوادث اصطدام العربات فى « كونكاس بوربا » ،

وحوادث أخرى فى أقاصيص أخرى ، فمرد ذلك الى ان « الحياة لاتتألف الا من أربعة ظروف أو خمسة فى أكثر تقدير، ولأن نزوات الظروف هى التى تبدلها فى نظرنا وتكثرها » . لقد تعلم « ماشادو دو أسيس » من فن المسرح الذى حفل به أول الامر فى كثير من الحماسة ، كيف يرد الحياة الى عدد من مواقف بعينها ، واستفاد من ذلك ، حين أصبحت المدرسة الرائجة هى اظهار فقر الانسان بل وفقر المصادفات ، على خلاف ما يتراءى لخيال الرومانسيين .

نعم لقد كان ماشادو دو أسيس مريضا ، وكان خلاسيا ، وكان من أبناء الشعب . ولكنه كان قبل كل شىء فنانا ، واستطاع فى الرواية التى ستقرءونها أن يصل الى امتلاك ناصية أسلوبه ، حتى أصبح علما من أعلام القدرة الفنية على تصوير المناظر أو البيوت أو الشخصيات ببضع لمسات خفيفة كالكلاسيكيين ، وعلى الايحاء بأخطر الاشياء وأخفى خلجات النفس وهو يذكرها ذكر عابر، ويخفيها فى ركن من جملة ، مع الحاحه على أمور تافهة والقائه القارىء فى طرق جانبية بشىء من السخرية ، وعلى المزج بين الطبيعة والانسان، بدلا من أن يصف الطبيعة فى ذاتها ، فهو يجعل « رقص الامواج » امتدادا لرقص الصالونات ، حتى لكأن الرقصين كليهما حركة مضطربة خضراء واحدة ، وهو يكسو نساءه بضوء القمر وبالسماء المرصعة بالنجوم ، ويشربهن كل ما فى النبات الاستوائى من شهوانية . وكما أصبح علما من أعلام القدرة الفنية فكذلك أصبح علما من الاعلام فى التهكم والسخرية .

لقد كتب الباحثون كثيرا فى السخرية الماشادية ، ومع ذلك لايزال عليهم أن يكتبوا كل شىء عنها. لقد عرفوها تعريفات عامة ، وتحدثوا عن سترن وعن كسافييه دو ميتر ، واستشهدوا بالحقد الذى يشعر به الخلاسى ، وذكروا الازياء الانجليزية التى كانت رائجة فى البلاد . ولكننا ما زلنا فى حاجة الى تحليل فنى لسخرية ماشادو. ان فى عنوان الكتاب وحده شيئا من السخرية «كونكاس بوربا». ان هذا الشخص لايظهر الا فى الصفحات الاولى من الكتاب . وهو يلعب فى قصة « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » دورا أكبر. ان كونكاس بوربا هو هنا كلب . وقد سبق أن عمد ماشادو الى هذه الطريقة فى احدى حكاياته الاولى . فجعل عنوان الحكاية « الآنسة دولار » بحيث يتوهم القارىء انه سيرى امرأة ، فاذا هى حيوان . على ان السخرية هنا ليست مجرد مزاح ، فان كونكاس بوربا حاضر

بغيابه نفسه حتى من أول صفحة فى الـكتاب الى آخر صفحة . لقد ورثه روبيان ، وهو يقضم روبيان كدودة خفيـــة . واذا كان الفرض من السخرية هنا الاشارة الى المصير ، فانها تهدف فى مواضع أخرى الى غير ذلك . انها تظهر ، مثلا ، بانقلابات مفاجئة فى الرواية « رؤية روبيان للعالم قبل الميراث وبعده » ذلك التقطع الزمانى الذى كان يحاضر ماشـــادو دو أسيس ، هرب الزمان الى غير رجعـــة وانقضاؤه بغير عودة . ليست السخرية هنا ترفا يضاف الى الاثر اضافة ، ولا هى نوع من اظهار « الفكاهة » ، ولا هى مجرد تعبير عن مزاج . ان لها وظيفة فنية . انهـــا لا تصفى الرواية من مرارة الدمعة ولـكنها تحيل الدمعة فى آخر الغصن المشـــــــدود قطرة مضيئة من الندى .

روجيه باستيد

١

كان روبيان يحدق الى الخليج الصغير . هى الساعة الثامنة من الصباح . لو رأيته على هذه الحال مطلا من نافذة منزل كبير ببوتافوجو ، غارزا ابهاميه فى حزام ثوبه ، لظننت انه يعجب بالماء الهادىء الممتد أمام بصره . لكننى أؤكد لك انه كان يفكر فى شىء آخر لا صلة له بهذا البتة . لقد كان يقارن بين الماضى والحاضر . ماذا كان منذ سنة ؟ معلما . ماذا أصبح الآن ؟ ثريا من الاثرياء . والقى نظرة على نفسه ، على نعليه « وهما نعلان تونسيان أهداهما اليه صديقه الجديد كرستيانو باليا » ، على البيت ، على الحديقة ، على الخليج ، على الروابى ، على السماء . انه يتأمل هذا كله ، من النعلين حتى السماء ، تأمل مالك .

قال بينه وبين نفسه : « ليس فى وسع المرء أن يدرك طرق العناية الالهية . لو أن أختى بيداى تزوجت كونكاس بوربا ، لما كان لى الآن الا بضعة آمال على الهامش . لكنها لم تتزوجه ، ومات الاثنان كلاهما ، فاذا كل شىء يؤول الى ، ان ما كان يبدو مصيبة من المصائب ... »

٢

ما أعمق الهوة التى تفصل بين الفكر والقلب ! لقد حاول فكر المعلم السابق ، وقد آلمه هذا الخاطر أشد الايلام ، أن ينتقل الى موضوع آخر : هذا قارب يمر ، لكن قلبه ظل يخفق فرحا . ما لقلبه وللقارب وراكبه اللذين تتشبث بهما نظراته ؟ كان القلب يردد : ما دام أجلها قد انتهى ، فمن الخير انها لم تتزوج . كان يمكن أن تلد صبيا أو بنتا ... — ما أجمل هذا القارب ! — الحق أنه لم يكن فى الامكان أبدع مما كان ، ما أروع طواعيته للمجدف ! لاشك انهما فى السماء .

٣

وجاء خادم بالقهوة ، فتناول روبيان الفنجان . وفيما هو يضع السكر ، نظر خلسة الى الصينية المصنوعة من فضة منقوشة . كان قلبه يحب الذهب والفضة حبا خاصا . انه لا يحب البرونز ، لكن صديقه باليا قال له ان البرونز معدن ثمين أيضا . لذلك نرى فى غرفة الاستقبال ذينك التمثالين الصغيرين اللذين يمثلان مفستوفيلس وفاوست . على انه لو أوتى الاختيار ، لآثر الصينية ، هذه التحفة الفضية ، الرائعة بأناقتها ورهافتها . وظل الخادم ينتظر رصينا هادئا . ان الخادم اسبانى . وروبيان لم يقبله من بين يدى كرستيانو بغير مقاومة . ذكر لصديقه انه قد تعود صحبة أهل ميناس ، وانه لايريد فى بيته لغات أجنبية ، لكن صديقه أصر على رأيه ، وأوضح ان من الضرورة بمكان أن يكون له خدم بيض . فأذعن روبيان على مضض . وخادمه الطيب الذى كان يريد أن يكل اليه أمر الخدمة فى غرفة الطعام ، لكونه اثرا من آثار الولاية التى جاء منها ، لم يستطع أن يدعه حتى فى المطبخ حيث كانت السيطرة لفرنسى اسمه جان ، واضطر أن يعهد اليه بأعمال دون ذلك مقاما .

ــ هل كونكاس بوربا مضطرب كثيرا ؟

كذلك سأل روبيان الخادم وهو يرشف ثمالة القهوة ، ويلقى على الصينية نظرة أخيرة .

فأجابه الاسبانى بالاسبانية :

ــ أظن ذلك .

فقال روبيان :

ــ أنا ذاهب لأفكه .

ولم يذهب ، وانما لبث ينظر الى الاثاث فترة من الوقت . فلما وقع بصره على الصور الانجليزية الصغيرة المعلقة بالحائط فوق التمثالين البرونزيين ، أخذ يفكر فى صوفيا الجميلة ، زوجة باليا .

ثم تقدم بضع خطوات الى أمام ، وجلس على مقعد فى وسط الصالون ، ينظر الى بعيد .

ــ هى التى شجعتنى على شراء هاتين اللوحتين الصغيرتين يوم كنا نبحث نحن الثلاثة عن أشياء نشتريها . ما كان اجملها ! ان كتفيها اللذين رأيتهما فى حفلة الرقص التى اقامها الكولونيل هما ما أفضله فيها . ما أروعهما كتفين ! لكأنهما من مرمر . . . ما أنعمهما

ما أنصــع بياضــهما ! والذراعان .. آه .. يا لهما من ذراعين ! ما أحسن تكوينهما !

وتنهد روبيان ، ولف ساقا بساق ، وأخذ يعبث بحزام ثوبه . لم يكن يشعر بأنه سعيد كل السعادة . لـكنه كان يشعر بأنه غير بعيد عن السعادة الـكاملة . تذكر بعض الحركات ، بعض النظرات ، بعض الاوضاع . انها جميعا لايمكن أن يكون لها سبب غير الحب ، بل لايمكن أن يكون مصدرها الا حب كبير . لم يكن روبيان طاعنا فى السن . سيبلغ الاربعين قريبا ، بل ان من ينظر اليه لا يقدر له هذا العمر . وجعله هذا الخاطر يمر بيده على ذقنه . انه يحلق ذقنه فى هذه الفترة من حياته كل يوم . وذلك أمر جديد لا عهد له به من قبل « كان فى الماضى يقتصد ، ولا يشعر بالحاجة الى حلق ذقنه » . تخيلوا ماذا كان ، معلما بسيطا . انه يدع كثتين من الشــعر فى خديه « وقد أرخى لحيته كلها بعد ذلك » ، وهى تبلغ من النعومة درجة تجعل امرار أصابعه فيها يولد له لذة . أى لذة ... ثم تذكر لقاءهما الاول فى محطة فاسوراس ، حين دخلت صوفيا مع زوجها الى عربة القطار التى كان مستقرا فيها منذ سفره من ميناس . وهو انما كشف فى تلك اللحظة عينيها الشهوانيتين اللتين تذكران بدعوة النبى : « من كان منكم ظامئا فليشرب » . صحيح انه لم يكن فى الحالة النفسية التى تقتضيها دعوة كهذه الدعوة . فلقــد جاء مثقل الرأس بالميراث والوصية وقائمة الاشياء . وتلك كلهـا أمور ينبغى لنا الآن أن نشرحها حتى يستطيع القارىء أن يمسك بخيط القصة . فلندع روبيان اذن فى صالون بيته بحى بوتافوجو ، عابثا بحزام ثوبه ، مفكرا فى صوفيا الجميلة . اتبعنى أيها القارىء ، حتى نلتقى بروبيان ساهرا على كونكاس بوربا قبل ذلك ببضعة أشهر .



اذا شرفتمونى بقراءة كتابى « مذكرات براز كوباس تنشر بعــد موته » ، رأيتم كونكاس بوربا هذا يظهر فى ذلك الـكتاب متسولا ورث ثروة طائلة على حين فجأة ، وله من جهة أخرى مذهب فلسفى هو خالقه . ذلك هو الآن فى مدينة بارباسينا . انه ما كاد يصــل الى هذه المدينة حتى وقع فى غرام أرمل ظروفها ومواردها متواضعة . وكانت هذه المراة الى ذلك شديدة التحفظ ، حتى لقد بلغت من

شدة التحفظ ان ما أعلنه لها عاشقها من حب لم يوقظ في نفسها أي صدى . كان اسمها ماريا دابيادادى . وقد بذل أخوها روبيان الذى سبق الحديث عنه ، كل مايطيقه من جهد فى سبيل تزويجهما . لكن بيادادى لم تتزحزح عن موقفها ، ثم ماتت بالتهاب الرئتين .

وقصة الغرام الصغيرة هذه هى التى ربطت بين الرجلين وشدت أحدهما الى الآخر . هل كان روبيان يعرف ان رأس صاحبنا كونكاس بوربا يضم تلك البذرة من الجنون التى اعتقد أحد الاطباء انه اكتشفها فيه ؟ لا شك فى ان روبيان كان يجهل ذلك . كل مافى الامر انه كان يعده شاذا بعض الشذوذ . لكن هذا لا ينفى أن تلك البذرة من الجنون لم تبرح رأس كونكاس بوربا فى يوم من الايام ، لا قبل ذلك المرض الذى أفناه شيئا بعد شىء .. ولقد كان لكونكاس بوربا أقرباء ، لكنهم كانوا فى عام ١٨٦٧ قد ماتوا جميعا . وآخر من مات منهم انما هو ذلك العم الذى ورث عنه كونكاس بوربا ثروته . وظل روبيان الصديق الوحيد للفيلسوف . لقد كان يدير مدرسة للصبيان ، فلم يلبث أن أغلقها من أجل أن يفرغ للعناية بالمريض . كان قبل أن يصبح معلما ، قد أقدم على عدة مشاريع ، لكنه منى بالاخفاق فيها جميعا .

ظل روبيان يزاول مهنة الممرض هذه مدة خمسة اشهر ، أو ستة تقريبا . وكان صادق الاخلاص ، صبورا ، باشا ، نشيطا ، يطيع أوامر الطبيب ، ويجرع المريض أدويته فى مواعيدها ، ويمضى ينزهه دون أن ينسى شيئا ، فلا هو يغفل عن خدمة البيت ، ولا هو يهمل قراءة الجرائد متى وصلت فى صندوق ريو أو صندوق أوروبريتو .

وكان كونكاس بوربا يقول له متنهدا :

ـ أنت طيب ياروبيان .

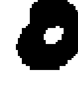
وكان الرأى الذى يعلنه الطبيب هو ان كونكاس بوربا سيشفى شيئا بعد شىء . لكن روبيان سأل الطبيب ذات يوم وهو يشيعه حتى الباب : ما هى حالة صديقه حقا فعلم عندئذ انه سيقضى نحبه لا محالة ، غير ان من الواجب مع ذلك أن نستمر على بث الامل والرجاء فى نفسه ، اذ ليس من الحكمة فى شىء أن نكشف له عن الحقيقة ، فنجعل الموت أشق على روحه وأقسى .

فأجابه روبيان بقوله :

ـ صدقنى اذا قلت لك ان الموت أمر سهل عنده . ألم تقرأ

ابدا ذلك الكتاب الذى ألفه منذ عدة سنين ، وفيه يعالج موضوعا من مواضيع الفلسفة لا أدرى ما هو ؟

ــ لا لم أقرأ الكتاب ، لكن التفلسف شيء ، والموت حقا شيء آخر .



كان لروبيان منافس ينازعه قلب كونكاس بوربا ، هو ذلك الكلب الجميل ، المتوسط القامة ، الاشهب اللون على بقع سود . كان كونكاس بوربا يصطحب الكلب حينما يذهب . وكانا ينامان معا فى غرفة واحدة . وكان الكلب هو الذى يوقظ صاحبه فى الصباح. يتسلق السرير ، ويأخذ الاثنان يتبادلان التحيات . ومن غرائب كونكاس بوربا انه سمي الكلب باسمه هو ، وكان يعلل ذلك بعاملين ، أولهما ذو صلة بالعقيدة ، والثانى شخصى :

ــ ذلك ان « الطبيعة الانسية » فى عقيدتى هى مبدأ الحياة نفسه ، فهى مبثوثة فى كل مكان ، قائمة أيضا فى الكلب ؛ فنستطيع اذن أن نسميه باسم انسان ، سواء أكان هذا الانسان مسيحيا أم كان مسلما .

فقال له روبيان وقد تذكر اسم أحد الخصوم السياسيين فى المدينة :

ــ ولكن اليس من الافضل والحالة هذه أن تطلق عليه اسم برناردو ؟

فأجابه كونكاس بوربا :

ــ هنا نصل الى العامل الشخصى ، اذا مت قبل كلبى العزيز ، وهذا ما أتوقعه ، بقيت بعد الموت فى اسمه . هذا يضحكك : أليس كذلك ؟

فأشار روبيان منكرا :

ــ بل ينبغى لك أن تضحك ياعزيزى ، لان الخلود نصيبى أو مهربى ، ما فى ذلك من ريب ، لسوف أعيش الى الابد بكتابى العظيم . والذين لا يعرفون القراءة ، سوف ينادون الكلب باسم كونكاس بوربا ، و ...

فلما سمع الكلب اسمه هرع الى السرير ، فنظر كونكاس بوربا منفعلا .

ــ صديقى المسكين ، صديقى الطيب ، صديقى الوحيد .

ـ الوحيد ؟

ـ عفوك . انك لصديقى أيضا . أنا أعرف انك صديقى ، وانى لأشكر لك ذلك أجزل الشكر . على المرء أن يغفر للمريض كل شيء . أيكون الهذيان قد بدأ منذ الآن ؟ ناولنى المرآة .

أعطاه روبيان المرآة . فظل المريض بضع لحظات يتأمل وجهه الناحل ونظرته المحمومة التى تطل منذ الآن على عالم الموت ، على العالم الذى يسير المريض اليه بخطا بطيئة لكنها محققة ، ثم قال وهو يبتسم ابتسامة صفراء ساخرة :

ـ مظهرى ينبىء عما أحسه فى داخلى . اننى مائت ياعزيزى روبيان ... ليس يجدى أن أحتج .. انى مائت .. ولكن ما هو الموت حتى تجزع منه هذا الجزع كله ؟

ـ أعرف ، أعرف ان لك فلسفتك ... ولكن فلنتكلم عن الغداء . ماذا نحب أن نأكل اليوم ؟

فنهض كونكاس بوربا على السرير ودلى ساقيه اللتين يدرك المرء نحولهما الشديد من خلال السروال .

فأسرع روبيان يسأله :

ـ ماذا ؟ ماذا تريد ؟

فأجابه المريض مبتسما :

ـ لا شيء ... فلسفتك ... انك تقول هذه الكلمة باحتقار شديد .. هيا كررها .. أحب أن أسمعها مرة أخرى . فلسفتك .

ـ ما هذا بالاحتقار . وكيف يكون لى أن أحتقر فلسفة ؟ كل ما أقوله هو انك تستطيع أن تستخف بالموت ، لان لك حججا ، لان لك مبادىء .

وبحث كونكاس بوربا عن نعليه بقدميه ، فجاءه روبيان بهما . فانتعلهما وأخذ يمشى ليزيح ساقيه . ودغدغ الكلب ، واشعل سيجارة . فأراد روبيان أن يغطى المريض جسمه ، فجاءه برداء وصدرة وثوب ومعطف ليختار منها ما يشاء . لكن كونكاس بوربا دفعها عنه جميعا بحركة من يده . لقد تبدل وجهه الآن تبدلا كاملا ، فكأن عينيه الفائرتين تحللان ما يجرى فى دماغه . وبعد أن ظل فترة من الوقت يتجول فى الغرفة طولا وعرضا ، وقف بضع لحظات أمام روبيان .

٦

ـ من أجل أن تفهم معنى الموت والحياة حق الفهم ، يكفى أن أروى لك كيف ماتت جدتى .

ـ كيف ماتت ؟

ـ اقعد .

أطاع روبيان الامر ، وقد ظهر فى وجهه أعظم مايمكن من الاهتمام ، بينما استمر كونكاس بوربا يسير فى الغرفة طولا وعرضا .

ـ حدث ذلك فى ريو دو جانيرو ، فى يوم من أيام الاعياد ، أمام « الكنيسة الامبراطورية » التى كانت يومئذ « الكنيسة الملكية» . خرجت جدتى من الكنيسة ، واجتازت الفسحة التى أمام الباب ، لكى تمضى الى كرسى يحمله حمالون ، كان ينتظرها فى ميدان « ياسو » . المكان يعج بالناس ، لان الشعب يحلو له أن يرى كبريات السيدات وهن يركبن عرباتهن . وفى اللحظة التى قطعت فيها جدتى الفسحة التى أمام باب الكنيسة لتتجه نحو كرسيها الذى كان بعيدا بعض البعد ، فزع على حين فجأة أحد بغلى عربة من العربات ، واهتاج اهتياجا شديدا ، فقلده البغل الآخر ، وفى غمرة الاضطراب والاصطخاب اللذين أعقبا ذلك ، سقطت جدتى على الارض ، فداسها البغلان والعربة ، فنقلت فورا الى صيدلية فى شارع ديزيتا ، وهرع الى نجدتها صيدلى ، ولكن كان الاوان قد فات ، فان جدتى التى شق رأسها وتحطمت ساقها وكتفها ، لم تكن اذ ذاك الا جرحا فاغرا ، فما انقضت دقائق الا ولفظت أنفاسها الاخيرة.

قال روبيان :

ـ يا لها من مصيبة !

ـ لا ...

ـ كيف لا ؟

ـ اسمع التتمة . اليك كيف وقع الامر : لقد كان صاحب العربة فى الفسحة التى أمام الكنيسة ، وكان جائعا ، بل جائعا جدا ، لان الوقت متأخر ، ولانه أفطر فى ساعة مبكرة ، ولم يأكل فى افطاره الا قليلا . واستطاع من مكانه على الفسحة أن يومىء الى الحوذى أن يتقدم ، فضرب الحوذى البغلين ليمضى الى سيده ، وبينما كانت العربة تسير التقت بحاجز فقلبته ، وكان هذا الحاجز هو جدتى . فالفعل الاول فى هذه السلسلة كلها انما كان فعل

محافظة على البقاء . كانت الطبيعة « الطبيعة الانسية » جائعة . فلو كان هنالك فى مكان جدتى فأرة أو كلب لما ماتت جدتى ، ولكن ذلك ما كان ليبدل الواقعة فى ذاتها ، وهى ان «الطبيعة الانسية» كانت فى حاجة الى أن تأكل . ولو كان هنالك ، فى مكان الفأرة أو الكلب ، شاعر من الشعراء ، مثل بايرون أو جونسالفس دياس ، لاختلفت الحالة بعض الاختلاف ، بما قد يكتب فيهـا من مقالات رنانة كثيرة ، لكن جوهر الامر لا يتغير ، فالارض لم تتوقف حتى الآن عن الدوران لأن عددا من قصائد الشعر لم تظهر بعد ولكن الطبيعة الانسية « وهذا فوق كل شيء » فى حاجة الى أن تأكل .

كان روبيان يصغى محملقا ، صادق الرغبة فى الفهم . لكنه لم يدرك كل الادراك تلك الضرورة القطعية التى يعزو اليها صاحبه موت جدته . اذ لا شك فى أن صاحب العربة ما كان ليموت جوعا لو وصل الى بيته متأخرا ، فى حين ان السيدة المسكينة قد ماتت ، ماتت الى الابد . وحاول روبيان أن يبسط لصاحبه ما يساوره من شكوك ، ثم سأله :

ـ وما هى هذه الطبيعة الانسية ؟

ـ « الطبيعة الانسية » هى المبدأ . لكن لا ... لن أقول شيئا ، فما أنت بقادر على أن تفهم ياعزيزى روبيان . فلنتحدث فى شيء آخر .

ـ بل أتم كلامك .

ولم يكن كونكاس بوربا قد انقطع عن المسير أثناء ذلك ، فتوقف عندئذ بضع لحظات وقال :

ـ هل تريد أن تكون تلميذى ؟

ـ من غير شك .

ـ حسن . ستنفذ اذن الى فلسفتى شيئا فشيئا ، وسيكون اليوم الذى نهضمها فيه كل الهضم أجمل أيام حياتى ، اذ لا شيء أجلب لنشوة السعادة من الحقيقة . صدقنى اذا قلت لك ان « الطبيعة الانسية » غاية كل شيء . والذى اكتشفها ، أعنى أنا ، هو أعظم انسان فى العالم . هه . انظر كيف يحدق الى كونكاس بوربا . ان « الطبيعة الانسية » هى التى تحدق ، لا هو .

ـ ولكن ما هى الطبيعة الانسية ؟

ـ « الطبيعة الانسية » هى المبدأ . ان فى كل شيء من الاشياء جوهرا مختبئا هو واحد فيها جميعا ... جوهرا وحيدا ، شاملا ،

أبديا ، عاما ، لاينقسم ، ولايزول، أو قل كما قال كامونس العظيم
« حقيقة موجودة فى كل شيء » .
« قائمة فيما يرى وما لايرى على السواء » .
فهذا الجوهر أو هذه الحقيقة ، هـذا المبدأ الذى لايزول هو « الطبيعة الانسية » ، وقد سميته بهذا لأنه يلخص الكون ، والكون هو الانسان . هل بدأت تفهم ؟
ـ قليلا . ولكن كيف يكون موت جدتك ؟

ـ الموت لا وجود له . فالتقاء قوتين بل نمو جسمين يمكن أن يؤدى الى زوال أحدهما . أما الموت فلا وجود له فى واقع الامر . . . لا وجود الا للحياة ، لان زوال شيء هو شرط بقاء الآخر ، والزوال لايصيب اذن الجوهر العام المشترك . ومن ثم كانت الحرب تحافظ على الحياة وتحسن اليها . تصور حقلا من حقول البطاطا وقبيلتين جائعتين . ان محصول هذا الحقل يكاد لا يكفى الا لاطعام احدى القبيلتين ؛ فاذا استأثرت احدى القبيلتين بالمحصول كله اكتسبت من القوة ما يكفيها لاجتياز الجبل والوصول الى سفحه الآخر الذى تنبت فيه البطاطا غزيرة . أما اذا اقتسمت القبيلتان محصول الحقل بسلام ، لم يغذهما المحصول تغذية كاملة ، فاذا هما تموتان جوعا . فالسلام فى هذه الحالة يعنى الزوال ، والحرب تعنى البقاء . ان احدى القبيلتين تفنى الاخرى وتستولى على بقاياها . ومن ثم كانت نشوة النصر ، والاناشيد ، والهتافات ، والجوائز القومية ، وسائر ما يعقب الاعمال الحربية . ولو لم تكن الحرب كذلك ، لما حدثت هذه المظاهر ، لسبب عملى وهو ان الانسان لا يخلد ولا يحب الا ما هو ممتع له أو مفيد ، ولسبب منطقى وهو انه ما من أحد يحتفل بشيء معناه عنده الدمار . فللمغلوب الكره أو الشفقة ، وللغالب البطاطا .
ـ ولكن ما رأى من يزول ؟

ـ لا زوال . الظاهرة الفردية تغيب ، أما الجوهر فيبقى . ألم تر ماء يغلى ؟ يجب أن تتذكر ان الفقاعات تظهر وتغيب بغير انقطاع ، لكن الماء نفسه يبقى . وما الافراد الا هذه الفقاعات العارضة .
ـ نعم ، ولكن ما رأى الفقاعة ؟
ـ لا رأى لفقاعة . هل هنالك شيء أدعى الى الحزن ، فى ظاهر الامر ، من تلك الاوبئة الفظيعة التى تجتاح جزءا من الكرة . ان

ما نظنه شرا هو فى واقع الامر خير، لا لأنه يزيل الاجسام الضعيفة العاجزة عن المقاومة فحسب ، بل كذلك لانه يتيح تحصيل معارف كثيرة ، ويتيح فى آخر الامر كشف الدواء المنقذ . ان علم الصحة ثمرة قرون من القذارة . ونحن مدينون بعلم الصحة لملايين من الكائنات كانت تعيش فى النتانة . ما من خسارة البتة . كل شىء ربح . اعود فأقول لك : ان الفقاعات تضطرب ، لكن الماء يبقى . هل ترى هـــذا الكتاب ؟ انه دون كيشوت . هبنى هشمت نسختى . اننى بذلك لا أزيل الكتاب ، فالكتاب يبقى خالدا فى النسخ الاخرى وفى الطبعات اللاحقة ، يبقى خالدا وعجيبا ، خلودا رائعا ، خلود هذا العالم ، المتصف بالالوهية « وبما فوق الالوهية»

٧

وأرهق كونكاس بوربا عياء ، فصمت ، وقعد وهو يلهث . فهرع روبيان يحمل اليه ماء ، ورجاه أن يضطجع ليستريح . لكن المريض أجاب بعد بضع لحظات بأنه فى خير . كل ما هنالك أنه قد فقد عادة القاء الخطب . ثم أشار الى روبيان أن يبتعد قليلا بحيث يستطيع أن يراه من غير جهد ، وطفق بعد ذلك يصف العالم وعجائبه وصفا بارعا .

مزيج من آرائه الخاصة وآراء غيره ، تضاف اليه صور من كل نوع ، صور فيها من شعر الغناء مثل ما فيها من شعر الملاحم ، فما وسع روبيان الا أن تساءل كيف يستطيع مشرف على الموت ان يتحدث مثل هذا الحديث فى مثل هذه الموضوعات .

قال له :

ــ هيا استرح قليلا .

ففكر كونكاس بوربا ، ثم أجاب :

ــ بل سأمضى أتنزه .

ــ لا الآن ، فأنت متعب كثيرا .

ــ لكن تعبى قد زال .

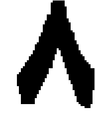
ونهض ، ووضع يديه على كتفى روبيان ، فى أبوة .

ــ أنت صديقى ، أليس كذلك ؟

ــ يا له من سؤال !

ــ بل قل انك صديقى .

ــ كهذا الحيوان بل أكثر .
بذلك أجاب روبيان وقد فاضت نفسه رقة وحنانا .
فشد كونكاس بوربا على يديه ، وقال :
ــ حسن .



أفاق كونكاس بوربا من نومه فى الغداة وقد عقد العزم على أن يسافر الى ريو دو جانيرو... قال انه سوف يعود فى آخر الشهر... لأن له أعمالا يجب أن يقوم بها هناك ... وذهل روبيان . والمرض؟ والطبيب ؟ فأجابه المريض بأن الطبيب دجال ، أما المرض فان تغيير الهواء لن يفاقمه . أليس المرض والصحة ، ثمرتى شجرة واحدة ؟ أليسا حالتين للطبيعة الانسية ؟
وختم المريض كلامه بقوله :
ــ سأسوى هنالك بعض الاعمال الشخصية ... ثم اننى قد رسمت لسفرى خطة تبلغ من الروعة درجة لا تستطيع أن تفهمها . اغفر لى صراحتى ، لكننى أستطيع أن أكون معك أنت صريحا .
وظن روبيان ان مشروع السفر هذا سينطوى مع الزمن كما انطوت قبله مشاريع كثيرة ، لكنه أخطأ الظن . أضف الى ذلك ان صحة المريض كانت تبدو فى تحسن حقا ، فهو الآن لا يظل راقدا على فراشه ، بل يخرج ويكتب . وفى نهاية الاسبوع استدعى الكاتب بالعدل .
ــ الكاتب بالعدل ؟
ــ نعم . أريد أن أسجل وصيتى ، وفى وسعنا أن نذهب اليه معا ..
وذهب الثلاثة ، لان الكلب لايترك مولاه يخرج من دون أن يرافقه.
وسجل كونكاس بوربا الوصية وفقا للأصول المتبعة ، وعاد الى البيت هادىء البال مطمئن النفس . أما روبيان فكان يشعر بقلبه يخفق خفقانا قويا .
ــ لن أدعك تسافر الى العاصمة وحدك طبعا .
ــ لا نفع فى ذلك . ثم ان كونكاس بوربا لن يصحبنى ، ولا يمكن أن أعهد به الى أحد غيرك . سأترك البيت كما هو ، وفى غضون شهر أعود . اننى مسافر غدا ، ولا أحب أن يعلم بسفرى . اعتن به يا روبيان .

ـ اطمئن .
ـ هل تحلف ؟
ـ بأقدس ما أملك . أتظنني طفلا ؟
ـ اسقه لبنه فى نظام ، وناوله وجبات طعامه فى مواعيدها . واغسله كذلك . وحين تمضى به الى النزهة ، حاذر أن يفلت منك ، بل الافضل الا يخرج البتة ... نعم ، الافضل ألا يخرج .
ـ اطمئن .
كان كونكاس بوربا الآخر يبكى صاحبنا كونكاس بوربا . لم يشأ أن يراه ساعة الرحيل . كان يبكى حقا . لك أن تعد دموعه دموع جنون أو دموع حب ... لقـد كانت على كل حال تهطل فتروى أرضه الميناسية (١) القديمة كقطرات أخيرة من عرق روح غامضة تهم أن تغيب الى الابد .

٩

بعد بضع ساعات مرت بخاطر روبيان فكرة رهيبة . قد يظن به انه دفع صاحبه الى هذه الرحلة دفعا ، ليعجل موته وليعجل بذلك استيلاءه على الارث ، ان كان فى الوصية ارث . وأخذ ضميره يؤنبه فى غير هوادة . لماذا لم يصده عن السفر بكل ما أوتى من قوة ؟ وتراءت له جثة كونكاس بوربا صفراء رهيبة ، ترشقه بنظرات العداوة والانتقام . فقرر أن يرفض الارث اذا وافت الرجل منيته أثناء هذه الرحلة .
أما الكلب فكان يقضى وقته شاخرا عاويا محاولا أن يهرب . أصبح لا يطيق أن ينام نوما هادئا ، فهو ينهض فى الليل مرارا ، ويأخذ يطوف فى أرجاء المنزل ، ثم يعود آخر الامر الى ركنه . وكان روبيان يناديه عند الصباح وهو فى سريره فيهرع اليه الكلب فرحا . كان الكلب يظن ان الذى ناداه هو صاحبه ، لكنه ما يلبث أن يدرك خطأه ، ومع ذلك كان يقبل ملاعبات روبيان ، ويرد عليها بمثلها ، كما لو كان روبيان يستطيع أن ينقلها الى صاحبه أو يستطيع أن يرجع صاحبه الى بيته . وأحب الكلب روبيان اذ كان الصلة التى تربطه بحياته الماضية . لقد رفض فى الايام الاولى أن يأكل . ولاحتماله الجوع أكثر من الظمأ رضى أن شرب الحليب الذى حاول

---
(١) نسبة الى ولاية ميناس جيراس (المترجم) .

روبيان أن يجرعه اياه ، فظل اللبن غذاءه الوحيد مدة من الزمان . وكان يلبث بعد ذلك ساعات بكاملها صامتا حزينا مقعيا مثل كرة ، أو متمددا واضعا رأسه بين قائمتيه .

وحين جاء الطبيب صعق من تهور المريض ، وقال ان الواجب كان يقضى بمنعه من السفر ، فالموت محقق لا محالة .

ـ محقق ؟

ـ عاجلا أو آجلا . هل اصطحب الكلب ؟

ـ لا ياسيدى . بقى الكلب معى ، وسألنى صاحبى أن أعنى بأمره ، انك لا تستطيع أن تعلم كيف كان يبكى وهو يسألنى ذلك ، يبكى ولا يفرغ من البكاء .

وأضاف روبيان يقول دفاعا عن المريض :

ـ والحق ان هذا الكلب يستحق تقدير صاحبه . لكأنه انسان لا كلب .

ونزع الطبيب قبعته الكبيرة المصنوعة من فش ، فأصلح شريطها ، ثم ابتسم . انسان ؟ كيف يمكن أن يشبه بانسان ؟ فأصر روبيان على رأيه ثم بدأ يشرحه بقوله : لست أعنى طبعا انه انسان كالاناسى ، غير ان له جوانب عاطفية ، بل وجوانب عقلية . اسمع مثلا . .

هم روبيان أن يحكى له ان ...

لكن الطبيب قاطعه قائلا :

ـ لا ياعزيزى ، ستحكى لى ذلك فيما بعد ، أما الآن فعلى أن أعود مريضا مصابا بالتهاب فى الجلد . اذا وصلت من صديقك رسائل ، ولم تكن رسائل خاصة ، فاننى أود لو أراها ، هل توافق ؟

وختم كلامه وهو يخرج قائلا :

ـ وتحياتى وذكرياتى للكلب .

ان أناسا كثيرين أخذوا يهزأون بروبيان ، وبهذه الوظيفة الغريبة التى يتولاها ، وهو انه يحرس كلبا ، بدلا من أن يحرسه الكلب ، وطفقوا يتندرون عليه ، ويغمزونه بألقاب السخر . الى أين وصل الاستاذ ؟ لقد صار حارس كلب . وكان روبيان يخشى رأى الناس . فبدا له الامر مضحكا حقا . فأخذ يهرب من نظرات الملأ ، ويرمق الحيوان باشمئزاز ، ويضرع الى جميع الاولياء ، حتى كاد يكره الحياة ويمقتها لولا أمله فى ميراث مهما يكن صغيرا ... انه لمن المستحيل الا يترك صاحبه شيئا يكون بمثابة ذكرى فى أقل تقدير .

١٠

بعد أسابيع ، وصلت الى بارباسينا ، من ريودوجانيرو، الرسالة التالية ، مكتوبة بخط كونكاس بوربا :

« لاشك ان صمتي بدا لك غريبا . هناك أسباب شخصية منعتني من الكتابة اليك ، الخ .. سأعود في القريب ، لكنني أريد منذ الآن أن أفضي اليك بأمر سري ، سري جدا .

« من أنا يا روبيان ؟ أنا القديس أوغسطين . أعلم انك ستبتسم ، لانك جاهل يا روبيان . ان الصداقة الحميمة التي بيننا تسمح لي بأن اقول لك كلمة أشد فظاظة من هذه الكلمة ، لكنني أتساهل معك هذه المرة ، آخر مرة ، أيها الجاهل ...

« اصغ الى أذن أيها الجاهل . انني القديس أوغسطين . اكتشفت ذلك أول أمس . اصغ واصمت . كل شيء في حياتينا متماثل ، أنا والقديس أوغسطين . كل منا قضي شطرا من حياته في الملذات والهرطقة — ذلك انني أصف بالهرطقة كل ما عدا عقيدتي في الطبيعة الانسية — وارتكبنا كلانا سرقات ، سرق هو في طفولته بضع تفاحات من قرطاجنة ، وسرقت أنا في ابان مراهقتي ساعة من صديقي براز كوباس . وأمه وأمي كلتاهما كانتا على جانب كبير من التقى والعفة . وكان يعتقد ، مثلي ، ان كل ما في الوجود خير ، وهذا ما يبرهن عليه في الفصل السادس عشر من الباب الرابع من «الاعترافات» ، مع فرق واحد وهو انه كان يرى ان الشر انحراف في الارادة ، وضلال من ضلالات عصر متخلف ، واستسلام للخطأ ، لان الشر لا وجود له أصلا ، أما أنا فأرى ان الرأي الاول من هذه الآراء هو وحده صواب ، فكل شيء خير ، تلك هي الحقيقة .

« تلك هي الحقيقة أيها الجاهل . لا تقصص على أحد ما أفضيت به اليك من سر ، هذا اذا كنت لا تريد أن تفقد أذنيك . اصمت ، واحتفظ بالامر كله لنفسك ، واشكر العناية الالهية على أن لك صديقا هو رجل عظيم مثلي ، وان كنت لا تفهم ذلك . سوف تفهمني آخر الامر . ومتى عدت الى بارباسينا شرحت لك ، بعبارات بسيطة تناسب عقل حمار من الحمير ، ما معنى قولنا : رجل عظيم . وداعا بلغ عزيزي المسكين كونكاس بوربا مودتي . لا تنس أن تقدم اليه اللبن .. ولا تنس غسله كما ألف . وداعا . وداعا . وسلمت للمخلص لك من قرارة قلبه .

« كونكاس بوربا »

كادت تسقط الرسالة من يدى روبيان . وقدر بعد أن فكر بضع لحظات انها قد تكون مزاحا من صديقه ، فأعاد قراءتها . لكن القراءة الثانية لم تزد على أن عززت شعوره الاول ، وهو ان صاحبه مجنون ، ما فى ذلك ريب . مسكين كونكاس بوربا . اذن لم تكن تصرفاته الشاذة وتقلبات مزاجه الكثيرة وحماساته المباغتة التى لا داعي اليها ، وسورات حنانه المفرطة ، لم يكن ذلك كله الا نذرا بالهاوية التى سيتردى فيها عقله . لقد كان يموت اذن ميتتين . ما كان أطيب قلبه وأشد مرحه ! صحيح انه كان فى بعض الاحيان وقحا ، ألا يمكن أن يكون مرد وقاحته الى مرضه ؟ وجفف روبيان عينيه اللتين اخضلتا بالدموع من شدة التأثر . ثم تذكر الارث الذى قد يتركه له صاحبه ، فما زاده ذلك الا حزنا على الصديق الغالى الذى سيفقده .

وأعاد قراءة الرسالة مرة أخرى فى بطء ، محللا كل كلمة من كلماتها ، رجاء أن يدرك المعنى كله ، فعسى أن ترجع فى جملة الامر الى مزاح يمزحه الفيلسوف . ان هذه الطريقة فى شتمه على سبيل العبث ليست جديدة . لكن كل ما عدا ذلك يعزز الشكوك الاولى وا أسفاه ! ووقف روبيان عند السطر الاخير وقد غزاه اضطراب شديد . ألا يمكن أن يقال ان الوصية التى سجلها الرجل باطلة ، وان المواريث التى عينها لا يؤخذ بها ، ما دام الموصى على هذه الحال من الخبل العقلى ؟ وانتاب روبيان دوار مفاجىء .

وبينما كانت الرسالة لا تزال مفضوضة بين يديه ، رأى الطبيب يدخل عليه بغتة ويسأله عن اختيار المريض . لقد أنبأه موظف البريد بوصول رسالة .

— أهذه هى الرسالة ؟

— نعم ، ولكن ...

— لعلها تشتمل على أخبار خاصة لا يجوز الاطلاع عليها ؟

— نعم ، تحمل الى خبرا خاصا ، خاصا جدا ، يتعلق بأمور شخصية . باذنك .

قال روبيان ذلك ووضع الرسالة فى جيبه . حتى اذا رأى الطبيب يذهب ، تنفس الصعداء . لقد أوشكت هذه الوثيقة الخطيرة التى قد تكشف عن حالة كونكاس بوربا العقلية أن يشيع أمرها . وبعد بضع لحظات ندم روبيان على ما فعل . لقد كان ينبغى له أن يطلع الطبيب على الرسالة ، وأخذ ضميره يؤنبه فرأى أن يبعث بالرسالة

الى الطبيب ، فنادى عبدا ، لـكنه ما لبث أن غير رأيه مرة أخرى لما وصل الخادم . قال لنفسه : ليس من الحكمة ولا من التبصر بالعواقب أن أفعل ذلك ، لأن المريض سيعود قريبا ــ الامر أمر أيام معدودة ــ وسيسأله عن الرســالة ، وسيتهمه بأنه لم يحفظ السر وبأنه خانه ... وساوس عارضة لا تدوم طويلا ...

قال للعبد :

ــ لا ، لا أريد شيئا .

وعاد يفكر فى الارث مرة أخرى ، ويحسب مقداره . أيمكن أن يقل عن عشر قونتات ؟ (١) مستحيل . سيشترى اذن قطعة من الارض ، وسيشترى بيتا ، وسيزرع كيت أو كيت ، أو سيشرع فى البحث عن الذهب . ولـكن ماذا لو كان المبلغ أقل من ذلك ؟ خمسة قونتات مثلا.. خمسة ؟ طبعا لن يكون فى هذه الحالة مبلغا كبيرا ، ولـكن يجب توقع ذلك .. وهبه خمسة قونتات ... هل خمسة قونتات مبلغ تافه ؟.. انها على كل حال خير من لا شىء ... خمسة قونتات ... المهم الا تلغى الوصيــة ... لا بأس بخمسة قونتات .

١١

فى مطلع الاسبوع التالى قرأ روبيان ــ وكان يتلقى الجرائد من العاصمة بفضل اشتراكات كونكاس بوربا ــ قرأ فى احداها هــذا الخبر : « توفى أمس السيد يواكيم كونكاس بوربا دوسانتوس ، بعد أن احتمل آلامه بفلسفة تدعو الى الاعجاب . كان المرحوم على جانب كبير من العلم ، وقد حارب فى غير هوادة ذلك التشــاؤم اليائس الشاحب الذى سيفد الينــا ذات يوم لأنه مرض العصر . كانت الـكلمات الاخـيرة التى نطق بهــا هى ان الالم ليس الا وهما وان بانجلوس ليس من الحماقة فى الدرجة التى زعمها فولتير ... وكان حين نطق بهذا الـكلام فى أوج الهذيان . ولقد ترك ثروة طائلة . ووصيته فى بارباسينا » .

١٢

قال روبيان متنهدا :

---

(١) القونت = ١٠ آلاف كروزيرو = مليون رايش (قرش)

ـ لقد تخلص من العذاب .

ثم لم يلبث أن أدرك ، وهو ينعم النظر فى النبأ ، أن النبأ يصور الرجل فى صورة من ينعم بالاحترام والتقدير بين الناس كافة ، بل انه ينسب اليه شرف القيام بنضال فلسفى خطير . وما من اشارة الى الجنون . بالعكس ، ان نهاية المقالة يفهم منها انه لم يهذ الا فى الساعة الاخيرة ، وذلك بتأثير المرض . الحمد لله . وأعاد روبيان قراءة الرسالة ، فبدا له ان افتراض المزاح أرجح فاعترف بأن كونكاس بوربا كان لا يخلو من روح الفكاهة . لاشك انه أراد أن يهزأ به . لقد ذكر القديس أوغسطين وكان يمكن أن يذكر القديس أمبرواز أو القديس هيلير . انه كتب الى روبيان رسالة معماة من أجل أن يحيره ، فاذا عاد أخذ يضحك عليه للحيلة التى دبرها له . رحمة الله عليك أيها الصديق . لقد كان سليم العقل ، كان سليم العقل لـكنه مات . انه ارتاح من الالم الآن .

ولما رأى الـكلب قال متنهدا :

ـ مسكين يا كونكاس بوربا ... لو علمت ان صاحبك قد مات..

ثم قال يخاطب نفسه :

« الآن وقد تحررت من كل التزام ، سأعطيه لهذه الخادم آنجليكا الطيبة » .

١٢

ذاع النبأ فى المدينة كلها ، وأرسل الـكاهن والصيدلى والطبيب يسألون عن صحة الخبر . وجاء موظف البريد الذى قرأ النبأ فى الصحف ، جاء بنفسه يحمل الى روبيان رسالة وصلته بالصندوق. قال لنفسه : قد تكون الرسالة من المتوفى « رغم انه لم يتعرف خطه » .

وبينما كان روبيان يفض الرسالة ، ويركض ببصره الى التوقيع ليقرأ : براز كوباس . قال له موظف البريد :

ـ اذن أغمد صاحبنا سلاحه آخر الامر ؟

وكانت الرسالة بطاقة بسيطة ، هذا نصها :

« لقد توفى صديقى المسكين كونكاس بوربا أمس فى بيتى وكان قد وصل منذ مدة متسخا ممزق الثياب . هـذه نتيجة من نتائج مرضه . وقبل أن يموت رجانى أن أكتب اليك لأبلغك نبأ وفاته ،

ولأنقل اليك أيضا جزيل شكره . أما ما عدا ذلك فسيتم وفقا للأصول القانونية المتبعة » .

أن الشكر قد جعل وجه صاحبنا يمتقع . غير ان الاصول القانونية ردت اليه ألوانه . طوى روبيان الرسالة دون أن يقول شيئا . وأخذ موظف البريد يتكلم متنقلا من موضوع الى موضوع ، ثم انصرف . عندئذ أمر روبيان أحد العبيد أن يمضي الى السيدة آنجليكا ليعطيها الكلب ، وعرفه أن يقول لها انه يهدى اليها هذا الكلب زيادة على ما عندها من كلاب ما دامت تحب الحيوانات هذا الحب كله ، ويوصيها أن تعنى به كل العناية التى ألفها ، وأضاف أن اسم الكلب هو اسم صاحبه المتوفى نفسه كونكاس بوربا .

١٤

كاد روبيان يسقط على قفاه حين فضت الوصية . هل حزرت السبب ، أيها القارىء ؟ لقد جعله المتوفى الوارث الشرعي الوحيد لثروته كلها . لم يكن حظ روبيان من الميراث خمسة قونتات ، ولا عشرة ولا عشرين ، بل كان الثروة كلها ، المال بكامله ، الاملاك جميعها بغير استثناء ، البيوت التى يملكها فى العاصمة ، وبيتا آخر فى بارباسينا ، العبيد ، الفوائد ، أسهم « بنك البرازيل » وغيره من الشركات ، الجواهر ، النقود ، الكتب ، كل شيء آل الى روبيان ، لم يحول منه جزء ، وليس هناك مواريث خاصة ولا هبات ولا اقتسام من أى نوع . ولم يفرض الموصى على وارثه الا شرطا واحدا ، هو أن يحتفظ الى الابد بكلبه العزيز المسكين كونكاس بوربا الذى خلع عليه اسمه دليلا على ما يحمله له من حب . انه يطلب من روبيان أن يعامل الكلب كما لو كان الكلب هو الموصى نفسه ، وأن لا يدخر جهدا فى توفير الرخاء له وفى حمايته من الامراض أو الهرب أو السرقة وفى الحيلولة بينه وبين كل شر يراد به ، وأن يعنى به عنايته بانسان لا بكلب . وألزم روبيان أيضا بأن يدفن الكلب ، حين يوافيه أجله ، فى أرض يحسن اختيارها لهذا الغرض ، وأن يجعل له قبرا مهيبا تغطيه الازهار والنباتات العبقة ، وعليه كذلك أن يخرج عظام الكلب عندما يحين الوقت فيضعها فى صندوق من ثمين الخشب ، ويضع الصندوق فى أكرم مكان من بيته .

١٥

ذلك هو الشرط الذى اشتملت عليه الوصية . وقد رآه روبيان طبيعيا جدا وهو فى غمرة اهتمامه بالارث . كان لايرجو الا نصيبا يسيرا ، فاذا بالوصية تضع بين يديه الميراث كله . انه لايستطيع أن يصدق . ولولا ان الناس صافحوه مهنئين مرات كثيرة ، فى قوة تعدل قوة التهانى ، لما أيقن انه ليس فى حلم . قال له الصيدلى الذى كان يقدم أدوية كونكاس بوربا :

ــ انتفع بحظك السعيد أيها السيد !

ان يكون وارثا فذلك وحده خير ... فكيف وهو الوارث الشرعى الوحيد !.. لكأن هذه الكلمة وحدها تضخم الميراث . لقد ورث كل شيء ، كل شيء على الاطلاق ، لا تنقص منه ملعقة قهوة . ترى كم يبلغ الميراث كله ؟ كذلك تساءل روبيان . البيوت ، الدخل السنوى ، الاسهم ، الملابس ، الاطباق ، اللوحات التى كان كونكاس بوربا يملكها فى ريو ، لانه صاحب ذوق ، ولانه كان رحمه الله ضليعا فى شئون الفن . والكتب ؟ لاشك انه يملك عددا كبيرا من الكتب ، لانه كان يستشهد دائما بكتب كثيرة . ولكن ماذا يبلغ هذا الميراث كله ؟ مائة قونت ؟ ربما مائتين ؟ ليس ذلك بمستحيل ! وليس بمستغرب أن يبلغ ثلاثمائة قونت ! ثلاثمائة قونت ! ثلاثمائة ! ود روبيان لو يرقص فى الشارع . لكنه هدأ نفسه . وسواء أكان المبلغ مائتى قونت أم ثلاثمائة ، فهو على كل حال حلم يهبط عليه من السماء ، حلم لن ينقضى .

وأخيرا انبثقت ذكرى الكلب من اعصار الافكار التى كانت تجتاز راس صاحبنا . لقد رأى روبيان ان الشرط الذى اشتملت عليه الوصية كان طبيعيا جدا ، وان كان نافلا ، ما دام هو والكلب صديقين . أليس من الامور البديهية أن يقطنا بيتا واحدا ابقاء على ذكرى صديقهما المشترك الذى مات وحقق السعادة لهما كليهما ؟ لاشك أن الشرط الذى اشتملت عليه الوصية يضم امورا غريبة ... حكاية الصندوق وأشياء أخرى غيرها مما لا يعرفه جيدا ... لكنه سينفذ كل شيء ولو أطبقت السماء على رأسه ... واستدرك روبيان يقول : لا .. لا .. بل سأنفذ كل شيء بمعونة الله . الا ما أطيبه من كلب ! الا ما أروعه من كلب !

لم ينس روبيان انه حاول غير مرة أن تكون له ثروة ، وان

محاولاته باءت كلها بالاخفاق فى مهدها . كان يظن ان النحس يحالفه مع ان الواقع غير ذلك . اذن صدق المثل القائل : كل شىء ممكن بمعونة الله . حتى هذا الثراء الذى حصله لم يكن مستحيلا .

قال بصوت عال :

ـ أى شىء مستحيل ؟ لا شىء بمستحيل ! الا خداع الله ! ان الله لا يكذب وعده .

كان روبيان يسير على غير هدى ، يصعد شارعا ويهبط آخر ، دون أن يتجه الى بيته ، ودون أن يكون له هدف بعينه . وفجأة قامت فى ذهنه مشكلة خطيرة . أيقيم بمدينة ريو دو جانيرو أم يمكث فى بارباسينا ؟ انه يريد أن يبقى فى بارباسينا ليلمع نجمه بعد أن كان كابيا ، وليضع القذى فى أعين الذين كانوا الى ذلك الحين لا يقدرونه ، وخاصة أولئك الذين سخروا من صداقته لكونكاس بوربا . لكنه لم يلبث أن انبعثت فى خياله صورة ريو دو جانيرو التى سبق أن عرفها بمفاتنها وتدفق الحياة فيها ومسارحها التى لا تعد ولا تحصى ، ناهيك عن نسائها الجميلات اللاتى « يلبسن أزياء فرنسية » ! واختار أخيرا أن يقيم بريو دو جانيرو . ان فى وسعه دائما أن يزور مسقط رأسه متى أراد .

١٦

صاح وهو يدخل الى البيت :

ـ كونكاس بوربا ! كونكاس بوربا ! هيه ! كونكاس بوربا !

لا أثر للكلب ، وعندئذ تذكر انه أهداه الى السيدة آنجليكا . فهرع يذهب الى بيتها الذى يقع فى مكان غير قريب . وفى أثناء الطريق لم تكف الهواجس السود والافكار الغريبة عن مهاجمة رأسه .. ربما هرب الكلب .. ربما ذهب أحد أعدائه الى منزل آنجليكا بعد أن علم بأمر الوصية ، فسرق الكلب ليخفيه أو ليقتله. ماذا يكون مصير الميراث فى هذه الحالة ؟.. ومرت أمام عينيه سحابة سوداء .. ثم أخذ يرى الامور رؤية أوضح .

قال لنفسه : « ليس لى بأمور القانون علم ، ولكن يخيل الى أننى لا شأن لى بهذا كله . فالوصية تفترض ان الكلب على قيد الحياة وانه فى البيت ، فاذا كان قد هرب أو مات ، فاننا لا نستطيع أن نخلقه . ويترتب على ذلك ان القصد الاول .. ولكن أعدائى

يستطيعون أن يصطنعوا العلل وينتحلوا الاسباب اذا رأوا أن الشرط الذى تشتمل عليه الوصية لم ينفذ » .

وقطر جسم صاحبنا فى تلك اللحظة عرقا باردا ، وخطرت أمام عينيه مرة أخرى سحابة مظلمة ، وأخذ قلبه يخفق خفقانا قويا . بدا الشرط الذى اشتملت عليه الوصية يبدو له شاذا غريبا ! وأصبح لا يدرى الى أى ولى من الاولياء يضرع .. ونذر قداسا بل نذر عدة قداديس ، نذر عشرة قداديس . ولكنه أوشك أن يضل طريقه وأسرع فى سيره . ها هو ذا يلمح أحدا . أليست هى السيدة آنجليكا نفسها ؟ نعم ، انها هى بعينها ، واقفة على باب بيتها تبتسم .

ــ ما أغرب وجهك يا صديقى المسكين ! لو رآك أحد وأنت تهز ذراعيك على هذه الصورة لحسبك مجنونا .

١٧

سألها روبيان وهو يتظاهر بالهدوء ، لكن وجهه شاحب :

ــ أين الكلب ياصديقتى الطيبة ؟

فقالت له :

ــ ادخل واجلس ، أى كلب ؟

قال روبيان وقد ازداد وجهه شحوبا :

ــ أى كلب ؟ الكلب الذى أرسلته اليك . أنسيت اننى أرسلت اليك كلبا ليستريح هنا بضعة أيام ، ثم .. كلب له قيمة كبيرة .. انه ليس لى .. وقد بعثت به اليك من أجل أن .. أنسيت ؟

قالت مجمجمة بسرعة :

ــ آه .. لا تحدثنى عن هذا الحيوان ..

السيدة آنجليكا امرأة قصيرة ، لا تكف عن الارتعاش ، واوداجها تنتفخ من الانفعال . رجته مرة أخرى الا يسألها عن الكلب .

ــ ولكن ماذا صنع لك يا سيدة آنجليكا ؟

ــ ماذا صنع لى ؟ وماذا يستطيع أن يصنع لى هذا الحيوان المسكين ؟ انه لا يأكل شيئا ولا يشرب شيئا ، ويظل يبكى كطفل ، ولا ينى يبحث عن مخرج يفر منه .

فتنفس روبيان الصعداء . وظلت السيدة آنجليكا تصف شقاء الكلب ، لكن روبيان أصبح لا يصغى اليها ، فهو يتحرق شوقا الى رؤية الكلب .

ـ انه هناك فى آخر الدار ، فى الحظيرة الـكبيرة ، تركته هنالك وحده حتى لا تضايقه الـكلاب الاخرى . ولـكن هل جئت لأخذه ؟ ليس هذا ما قيل لى . لقد فهمت انه أصبح لى ، انه هدية منك .

ـ لأعطينك ستة كلاب اذا أردت . أما هذا فلا يمكننى أن أهديه اليك . ما أنا بصاحبه ، وانما هو أمانة عندى . لا تخافى .. سوف أعطيك واحدا من صغاره . أحسب ان الخادم نقل إليك رسـالتى مشوهة .

واتجه روبيان الى الحظيرة بخطا كبيرة ، تتبعه آنجليكا التى كانت ترافقه بدلا من أن تقوده . هنالك كان الـكلب متمددا بعيداً عن طعامه لم يمسسه . وكان ثمة كلاب وطيور تتواثب من كل جهة عند مرورها به . وعلى مقربة من الحظيرة يوجد قن للدجاج ، والى جانب القن بضعة خنازير ، وبعد الخنازير بقرة راقدة وسنى ، ودجاجتان تنقران بطنيهما بحثا عن القردان .

قالت السيدة آنجليكا :

ـ أنظر ما أجمل طاووسى !..

لـكن عينى روبيان لا تنظران الا الى كونكاس بوربا الذى كان يتشمم الارض نافد الصبر ، فما أن فتح باب الحظيرة حتى وثب الـكلب على روبيان . الا انه لمشهد هـذيان .. روبيـان يدغدغ الـكلب .. والـكلب يرد على دغدغاته بعواء ونط ، ويلعق يديه .

ـ يا الهى ... لشد ما يحبك !

ـ يحبنى فوق ما يتصور الخيال ياعزيزتى الطيبة آنجليكا . الى اللقاء . أعدك بواحد من صغاره .

١٨

حين عاد روبيان والـكلب الى بيتهما ، شعرا فجأة بحضور المتوفى . أحسا كلاهما بأنهما يسمعان صـوته . وبينما كان الـكلب يتشمم الاركان والزوايا جلس روبيان على المقعد الذى جلس عليه يوم شرح له كونكاس بوربا موت جدته شرحا علميا ، وراح يستعيد بذاكرته الحجج التي أدلى بها الفيلسوف ، لـكنه لم يستطع أن يتذكرها الا نتفا متفرقة وشذرات مضطربة . حاول لاول مرة أن يركز فكره فى تلك الحكاية الرمزية ، حكاية القبيلتين الجائعتين ، ففهم مغزاها . « للغالب البطـاطا » . انه يسمع الآن ، بوضوح ، ذلك الصـوت

الأخن ، صوت الراحل العزيز ، وهو يعرض موقف القبيلتين ، والصراع الذى قام بينهما ، وأسباب هذا الصراع ، وفناء احداهما ، وانتصار الاخرى . ودمدم يقول بصوت خافت :

ــ للغالب البطاطا .

الامر بسيط غاية البساطة ، واضح غاية الوضوح. ورمق سرواله العتيق الاغبر ، وردنجوته المرقع ، فقال فى نفسه انه كان منذ قليل فى عداد المغلوبين ، فى عداد الفقاعات ، لكن ذلك قد مضى وانقضى وهو الآن من الغالبين . لاشك ولا ريب . لقد خلقت البطاطا للقبيلة التى تفنى الاخرى ، حتى تستطيع أن تجتاز الجبل وأن تجنى البطاطا التى على سفحه الآخر . هذه هى حاله ، لسوف ينزل من بارباسينا ، ليجنى بطاطا العاصمة ويتذوقها . ويجب عليه أن يكون قاسيا لايرحم . أليس هو القادر القوى ؟ وانتصب واقفا على حين فجأة ، ورفع ذراعيه فى حماسة ، وصاح بأعلى صوته :

ــ للغالب البطاطا !

ان العبارة لتعجبه قطعا ، وانه ليجدها محكمة بارعة . لقد جمعت بين الايجاز والبلاغة ، والعمق والصدق . وراح يتخيل البطاطا فى جميع الصور المكنة ، ويصنفها على حسب مذاقها وشكلها وقيمتها الغذائية ، حتى شبع من مائدة الحياة منذ الآن . لقد آن له أن يتخلص من الاطعمة الرديئة التى لا تزيد على أن تخادع الجوع ، والتى كانت غذاءه حتى الآن . له بعد اليوم الطعام الغنى ، الطعام القوى ، الطعام الوافر الغزير . لسوف يأكل حتى يموت من فرط الاكل ، فان مات مات فى طنافس الحرير . ووعد نفسه مرة أخرى أن يكون قاسيا لايرحم ، وتذكر العبارة التى تلخص مغزى حكاية القبيلتين ، بل تخيل انه سينقش لنفسه خاتما يكون شعاره : للغالب البطاطا .

وسرعان ما نسى مشروع الخاتم . لكن العبارة نفسها ظلت ماثلة فى ذهنه عدة أيام . للغالب البطاطا . انه لم يفهمها قبل الوصية . لقد وجدها غامضة لا تفسر . حقا ان الضوء يختلف باختلاف اللقطة التى تراه منها ، وأن خير وسيلة لتقدير السوط أن تمسك بقبضته .

١٩

يجب ألا يفوتنا أن نذكر أن روبيان تولى اقامة قداس على روح الفقيد ، وان كان يعلم أو يقدر أن الراحل العزيز لم يكن كاثوليكيا. ان كونكاس بوربا لم يهزأ بالكهنة ، لا ولا انتقد العقيدة الكاثوليكية . لكنه لم يكن يتحدث قط لا عن الكنيسة ولا عن المؤمنين . أضف الى ذلك أن احترامه لمذهب الطبيعة الانسية لايتفق كثيرا مع الديانة الكاثوليكية فى نظر الوارث . لكن هذا لم يمنع روبيان من اقامة القداس ، لانه رأى ان ارادة المتوفى لا شأن لها فى الامر ، ولأن القداس لايزيد على أن يكون تكريما دينيا للراحل يتولاه الاحياء . وكان يرى عدا ذلك انه لم يقم ، وهو الوارث الشرعى الوحيد للراحل ، الصلوات التى لا يضن بها على أى انسان مهما يكن بائسا أو بخيلا ، عرض نفسه لفضيحة فى المدينة كلها .

ولئن امتنع بعض الناس عن المجىء حتى لا يروا النصر الذى فاز به روبيان ، فان عددا كبيرا منهم — ليس من أهونهم شأنا — قد شهد القداس ، ورأى بأم العين الحزن الصادق الذى كان يضنى روبيان ، معلم المدرسة سابقا .

٢٠

منذ قطعت تصفية الميراث مراحل كافية ، أصبح روبيان يهتم بأمر سفره الى مدينة ريو دو جانيرو التى قرر أن يستقر فيها متى انتهى كل شىء . صحيح انه لايزال مرتبطا بالمدينتين كلتيهما ، ولكن من الممكن التنبؤ بأن الامور ستجرى بخطا سريعة .

٢١

فى محطة فاسوراس ركبت صوفيا القطار مع زوجها كرستيانو دو الميدا اى باليا . ان كرستيانو رجل على جانب من السمنة ، فى الثانية والثلاثين من العمر . أما صوفيا فهى بين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين . وقد احتلا المقعدين الخاليين الى جانب روبيان ، فرتبا السلال ورزم التذكارات التى حملاها من مدينة فاسوراس حيث مكثا أسبوعا ، ثم عقدا أزرار معطفيهما واخذا يتبادلان بضع كلمات بصوت خافت .

وبعد سير القطار لاحظ الزوج صاحبنا روبيان الذى كان وجهه الهادىء الرضى مختلفا عن وجوه سائر المسافرين الذين كانت وجوههم لا تنم الا عن الضجر والضيق . فبدأ الحديث قائلا ان الاسفار فى القطار متعبة جدا ، فأيد روبيان رأيه ، وزاد عليه أن القطار متعب وممل حتى لمن تعود السفر على ظهور الحمير. لكننا لا نستطيع أن ننكر أن السفر بالقطار تقدم . فأجاب باليا :

– صحيح . انه تقدم كبير .

– لعلك مزارع ؟

– لا ياسيدى .

– أتقيم فى المدينة ؟

– فاسبوراس ؟ لا ... وانما قضينا فيها ثمانية أيام . نحن نقيم فى ريو دو جانيرو. اننى لا أحس بأى ميل الى الزراعة ، رغم اننى أقدر هذه المهنة حق قدرها .

وانتقل الرجلان من الحديث عن الزراعة الى الحديث عن تربية المواشى ، ثم تطرقا الى مشكلة الرقيق ، ومنها انتقلا الى الكلام فى السياسة . فلم ينس كرستيانو أن يلعن الحكومة التى أدخلت فى خطاب العرش عبارة عن امتلاك العبيد ، وأدهشه أن روبيان لم يشاطره هذا الاستنكار . ذلك ان المعلم السابق كان يعتزم أن يبيع جميع ما أورثه كونكاس بوربا من عبيد ، الا واحدا كان بمثابة خادم . وكان يرى أن ذلك قد يسبب له بعض الخسارة ، لكن باقى الميراث يعوض هذه الخسارة الصغيرة تعويضا كبيرا . ثم ان خطاب العرش ، وكان قد قرأه ، يطالب باحترام الارزاق المكتسبة ، فماذا يعنيه من أمر العبيد الجدد اذا كان لا ينوى أن يشترى عبيدا جددا ؟ ولسوف يحرر الخادم الذى يحتفظ به متى ملك ذلك الميراث . وغير باليا موضوع الحديث وطفق يتكلم فى السياسة ، ومجلس النواب ، وحرب باراغواى ، أى فى أمور عامة لم يكن روبيان يعنى بها الا قليلا . وكان يبدو على صوفيا أنها تصغى الى الحديث أصغاء متخفيا . وكانت عيناها وحدهما تسطعان ، وهى لا تجهل جمالهما ، فكانت تنظر بهما تارة الى زوجها وتارة الى روبيان .

وبعد انقضاء عشرين دقيقة فى هذا الحديث ، سأل باليا صاحبه قائلا :

– أانت باق فى ريو أم انت تنوى العودة الى بارباسينا ؟

– فى نيتى أن أستقر بريو . فقد سئمت الريف ، وأريد أن انتفع

بالحياة ، حتى لقد أسافر الى أوربا ، لكننى لما أقرر شيئا فى هذا الصدد بعد .

فالتمعت عينا باليا حين سمع هذا الكلام ، وقال :

ـ فكرة رائعة . لو كان فى وسعى أن أسافر الى أوربا لفعلت . غير اننى لا أستطيع ذلك الآن . لعلك ذهبت الى أوربا من قبل ؟

ـ لا ، لم أذهب من قبل . لذلك راودتنى هذه الفكرة حين غادرت بارباسينا . يجب على المرء أن يتحرك قليلا فى هذه الحياة . لا أدرى متى أحقق هذا المشروع ! لاشك فى اننى سوف ..؟

ـ عين الصواب . يقال ان فى تلك البلاد أمورا رائعة ، ولا عجب فهم أعرق منا كثيرا !.. لكننا سندركهم فى ذات يوم . ونحن فى بعض الامور نضارعهم ان لم نفقهم .. أنظر الى عاصمتنا مثلا .. لست أدعى انها تنافس باريس أو لندن .. لكنها جميلة جدا ، وسترى .

ـ سبق أن رأيتها .

ـ سبق ؟

ـ نعم . منذ زمان بعيد جدا .

ـ ستراها أجمل مما كانت . لقد تحقق فيها كثير من التقدم فى الآونة الاخيرة . وحين تذهب بعد ذلك الى أوربا ..

ـ هل زرت أوربا ياسيدتى ؟

كذلك قاطع روبيان صاحبه ، متجها بالكلام الى صوفيا .

ـ كلا ياسيدى .

فاعتذر كرستيانو قائلا :

ـ نسيت أن أعرفك بزوجتى .

فانحنى روبيان باحترام ، ثم التفت الى الزوج وقال له مبتسما :

ـ الا تعرفها بى ايضا ؟

فابتسم باليا كذلك ، وأدرك ان كلا منهما لايزال يجهل اسم الآخر ، وأسرع يذكر اسمه .

ـ كرستيانو دى الميدا اى باليا .

ـ بدرو روبيان دى الفارنجا ، لكن جميع الناس يسموننى روبيان .

واعطاهما تبادل الاسمين مزيدا من الراحة . ومع ذلك ظلت صوفيا لا تشارك فى الحديث . لكنها تركت الكلام لنظرتها التى ازدادت الآن فتنة . كان روبيان يتكلم ويضحك ، ويصغى الى باليا

متأثرا بهذه الصداقة بينه وبين رجل لم يره قبل ذلك قط . حتى لقد قال لصاحبه انه من الممكن أن يقوما بهذه الرحلة الى أوربا معا ، فأجابه باليا بقوله :

ـ لكنى لا أستطيع أن أسافر قبل عدة سنين .

ـ لست أقول أن نسافر الآن ، فأنا أيضا لا أستطيع أن أسافر فورا . والرغبة التى قامت فى نفسى حين غادرت بارباسينا لا تعدو أن تكون رغبة بغير تاريخ محدد . لاشك اننى مسافر ، أما متى اسافر فذلك لا يعلمه الا الله .

فانتهز باليا هذه الفرصة وقال :

ـ وأنا أيضا حين أقول اننى مسافر بعد بضع سنين ، فانما أريد أن أقول أيضا : ان شاء الله . وقد لا يتعدى الامر بضعة شهور . ان الله وحده يعرف ما هو خير لعباده .

قال ذلك وهو يصطنع ما يناسب هذا الكلام من وضع الاذعان لمشيئة الله والتسليم بارادته . ولكن ، لا صوفيا التى كانت تنظر الى قدميها ، ولا روبيان الذى لم يصغ الى هذه الكلمات الاخيرة ، لاحظ ذلك . لقد كان روبيان يتحرق شوقا الى أن يقص على رفيق السفر قصة السبب الذى ينقله الآن الى العاصمة . كانت الرغبة فى الافضاء بالسر تحرق شفتيه حرقا ، ولم يكن هنالك الا قليل من التردد يحول بينه وبين البوح بكل شىء ، وكان هذا التردد يضعف قليلا قليلا . علام لا يتكلم فى الامر ؟ ما هو بجريمة على كل حال . ثم انه سيذيع وسيعرفه الناس كافة .

دمدم يقول أخيرا :

ـ هناك قضية ميراث يجب أن أفرغ منها قبل كل شىء .

ـ من والدك المحترم ؟

ـ لا .. من صديق .. صديق عظيم حرص على أن أكون وارثه الشرعى الوحيد .

ـ آه ..

ـ الوحيد. ثق ان امثال هذا الصديق لم يبق منهم فى هذه الايام كثير . كان أحسن الرجال ! يا لدماغه الجبار ! يا لذكائه الخارق ! يا لثقافته الواسعة ! كان فى آخر حياته مريضا جدا ، وهذا هو السبب فيما كان يتصف به سلوكه من عنف ومن غرابة فى بعض الاحيان . هل فهمت ؟ رجل غنى مريض ، لا عائلة له ، فمن الطبيعى أن يكون صعب المراس . لكنه من ذهب على كل حال ،

« من ذهب خالص » . اذا احترم أحدا احترمه الى الابد . كنا صديقين حميمين لكنه لم يقل لى شيئا . وبعد ذلك ، فى ذات يوم ، حين فضت وصيته على اثر موته . اتضح انه أوصى لى بجميع أرزاقه . هذه هى الحقيقة . جعلنى الوارث الوحيد . لاحظ ان الوصية لا تشتمل على أى هبة لأحد غيرى . يجب أن أذكر أيضا انه لم يكن قد بقى من أهله أحد ، والشخص الوحيد الذى كان يمكن أن يصبح قريبه هو أنا ، لو انه تزوج أختى ، لكن أختى ماتت ، رحمها الله ، وبقيت أنا صديقه الوحيد . غير انه عرف كيف يبرهن على صداقته . أليس كذلك ؟

ــ بدون أى شك .

وكانت نظرة باليا ملتمعة ، فاذا هى تصبح الآن حالمة . أما روبيان فكان يحس فى غمرة حماسته انه انتقل الى جنة مسحورة ليس لتغريد العصافير فيها من هدف الا أن تبارك حظه السعيد . لقد كان يسحره حقا أن يتحدث عن الميراث . واعترف بأنه لايزال يجهل مبلغ الميراث ، لكنه يستطيع أن يحسب على وجه التقريب أن . . .

فقاطعه كرستيانو يقول :

ــ خير الا تحسبب البتة . لن يقل المبلغ عن مائة قونت على كل حال ، أليس كذلك ؟

ــ طبعا !

ــ ما عليك والحالة هذه الا أن تنتظر هادىء البال . وهناك شىء آخر . . .

ــ لا أظن ان المبلغ يقل عن ثلاثمائة قونت . .

ــ قلت هناك شىء آخر ، يجب عليك الا تتحدث فى هذا الامر الى أناس لا تعرفهم . اننى أشكر لك الثقة التى تفضلت فأوليتنيها ، لكننى أرى الا تبوح بأمورك مثل هذا البوح لأول من تلقاه من الناس . ان اللطف والتحفظ لا يجتمعان دائما .

٢٢

حين وصلا الى ريو دو جانيرو افترقا أشبه بصديقين . وقد قال باليا لصاحبه انه يضع بيته فى سانتاتيريزا تحت تصرفه . ومضى المعلم القديم ينزل فندق « الاتحاد » وتواعد الرجلان أن يتزاورا .

٢٣

طلع الغد على روبيان وهو أشد ما يكون شوقا الى رؤية الصديق الجديد الذى انعقـــدت أواصر الصداقةبينهما أثناءالسفر ، وقرر أن يزوره فى بيته بسانتاتيريزا بعد الظهر . لـكن باليا هو الذىجاء يزور صاحبه منذ الصباح . فقد أراد أن يقدم اليه تحياته ، وأن يطمئن الى أنه فى خير حال ، وان يسأله ألا يؤثر أن يقيم فى بيته الواقع على الجبل ؟ رفض روبيان أن ينتقل الى منزل صــاحبه ، لـكنه قبل توكيل المحامى الذى دله عليه ، والذى يمت الى باليــا بقربى بعيدة ، ويعد من ألمع المحامين بمدينة ريو رغم انه لايزال فى شرخ الشباب .

ودعا روبيان صاحبه الى تناول طعام الغداء ، وصحبه الى مكتب قريبه ، غير عابىء باحتجاجات الـكلب الذى كان يريد أن يرافقهما وسويت الامور بسرعة .

قال له باليا وهو يستأذنه بالانصراف :

ــ ستأتى الى منزلى بسانتاتيريزا هذا المساء للعشاء . لا ... لا تتردد . اننى منتظرك قطعا .

قال ذلك وانصرف .

٢٤

كان روبيان مرتبكا ، بسبب صوفيا خاصة . انه لايعرف كيف يتصرف مع النساء . وذكر عندئذ ــ والذكرى جاءت فى محلها ــ العهد الذى قطعه على نفسه ، وهو أن يكون قويا لا يضعف . فذهب الى العشاء . ولقـد كان موفقا فى الهامه . أين كان فى وسعه أن يقضى لحظة أمتع من هذه اللحظة ؟ ان صوفيا فى بيتها أجمل منها كثيرا فى القطار . فى القطار ، كان معطفها يغطيها ، فلا يرى منهــا المرء الا عينيها المتوقدتين . أما فى سانتاتيريزا ففى وسع المرء أن يعجب لا بعينيها وحدهما بل بها كلها . كانت ترتدى ثوبا أنيقا من الـكتان يكشف عن يديها الفاتنتين ، بل ويكشف قليلا عن ذراعيها . هى الآن ربة البيت ، تتكلم كثيرا ، وتحيط الضيف بألوان العناية والرعاية . فحين انصرف روبيان كان فى دوار .

٢٥

وتعشى فى بيتهما بعد ذلك كثيرا ، فكان يبدو فى كل مرة خجولا متحفظا . ولئن أضعف التعود شيئا فشيئا حماسة الايام الاولى فان شعلة متقدة لايستطيع اطفاءها كانت لا تزال تختبىء فى قلبه ، ان صح انها تختبىء حقا . صحيح ان هنــاك أمورا أخرى ظلت تشغل بال صاحبنا مدة تصفية الميراث ، وخاصة حين طعن أحدهم فى الوصية بحجة ان كونكاس بوربا لايستطيع أن يوصى لانه مجنون، لـكن صحة الوصية ما لبثت أن أقرت ، وسرعان ما سوى الميراث . واحتفل باليا بالحادث ، فدعا الى عشاء فى بيته حضره عدا الاصدقاء الثلاثة : المحامى وقاضي التحقيق ومأمور الاجراء . وكانت عينا صوفيا فى ذلك المساء أجمل عينين فى العالم .

٢٦

« لـكأنهما تتبدلان فى كل يوم . ما رأيتها قبل الآن كما كانتا هذا المساء » . كذلك قال روبيان لنفسه وهو يهبط الجبل .

ثم جاء يوم الانتقال من الفندق ، وأقام روبيان فى منزله بحى بوتافوجو ، وهو واحد من البيوت التى ورثها . وكان لابد من تأثيث البيت ، فقدم باليا لصاحبه فى هذه المناسـبة، **مرة أخرى** ، خدمات كبرى ، اذ أرشده بذوقه ونصائحه ، وصحبه من مخزن الى مخزن ، ورافقه الى محلات البيع بالمزاد . وكانت صـوفيا تصحبهما أحيانا ، ذلك ان هناك اشــياء لا تحسن اختيــارها الا امرأة ، على حد قولها . فكان روبيان يسـعد بصحبتها سـعادة عظيمة ، ويلجأ الى جميع أنواع الحيل ليطيــل مدة وجودها الى جانبه ، فهو يطرح أسئلة لا محل لها ، ويخترع حاجات وهمية من أجل أن يطول الوقت الذى يستغرقه الشراء . وكانت صـوفيا تقبل ذلك راضية مسرورة ، ولا تنى تريه الاشياء ، وتتكلم ، وتشرح

٢٧

استعرض روبيان بخياله كل هذا ، بعد أن احتسى قهوته جالسا فى المكان الذى تركاه فيه منذ قليل ، مسرحا بصره الى بعيد ، الى بعيد جدا . وظل يعبث بحزام ثوبه . وتذكر أخيرا ان عليه أن

يترم ليزى كونكاس بوربا ويفك رباطه . فهذا واجب عليه أن يقوم به كل يوم . فنهض ومضى الى آخر الحديقة .

٢٨

قال لنفسه وهو يسير : « ولكن ما هذه الرغبة التي تطاردني؟ أنها متزوجة ، وهي مع زوجها على خير وفاق ، وزوجها صديقي، وهو يثق فى أكثر من ثقته بأى انسان آخر ... ففيم هذه الغوايات ؟ » .

وتوقف عن المسير ، فتوقفت الغوايات أيضا ... ياله من قديس كالقديس انطون ! قديس « علمانى » ! لكنه يختلف عن ذلك المتكف فى ان وساوس الشيطان كانت تستطيع بشىء من الالحاح ان تعجبه فى آخر الامر . ومن ثم هذه التناقضات الدائمة :

« ما أجملها ! يظهر انها تحبنى حبا شديدا . ان لم يكن هذا حبا فما هو الحب ؟ انها تشد على يدى بكثير من اللذة وكثير من الحرارة ... لا أستطيع أن أتركها ... ولو طلبت الى ذلك ... الامر أقوى منى » .

سمع كونكاس بوربا وقع خطواته ، فأخذ ينبح ، فأسرع روبيان يخلصه ، وأحس فى الوقت ذاته انه يخلص نفسه بضع لحظات من الهم الذى حاصره . صاح به وهو يفتح له الباب :

ــ كونكاس بوربا .

فأسرع الكلب فى الخروج . ياله من فرح ! يالها من حماسة ! ما هذه الوثبات يثبها حول صاحبه ؟ وأخذ الكلب يلعق يد مولاه من شدة سروره ، لكن مولاه لم يزد ان لطمه ، فتراجع الكلب حزينا ، واضعا ذيله بين قائمتيه . غير ان صاحبه لم يلبث أن صفق بأصابعه على حين فجأة ، فعاد الكلب يتواثب من جديد ، فرحا ذلك الفرح نفسه .

ــ اهدأ ، اهدأ ...

وتبع كونكاس بوربا صاحبه روبيان الذى خرج من الحديقة ، ودار حول البيت ، تبعه سائرا تارة ، متواثبا تارة أخرى . انه يستمتع بحريته استمتاعا كاملا ، لكنه لا يغفل عن مولاه لحظة واحدة . فهو يشخر ، وهو يتوقف من حين الى حين ليحك اذنه أو ليلتقط قملة على بطنه ، ثم يستدرك الزمن والمسافة بقفزة

واحدة ، فيلتصق بنعلي صاحبه من جديد . كان يلوح له ان روبيان لايفكر الا فيــه ، ولا يخرج الا ليتيح له أن يتريض وأن يعوض اللحظات الطويلة التى قضاها مربوطا . فاذا وقف روبيان عن المسير رفع رأسه ، قائلا لنفسه : لاشك انه يفكر فى أمرى ، فهو بسبيل وضع خطة لنزهة نقوم بها معا ، أو لمشروع آخر ممتع كالنزهة . ولم يكن يخطر بباله أن يلطمه صاحبه بيده أو أن يلـكزه بقدمه . انه مجبول من ثقة ، وسرعان ما ينسى اللطمات ... انه لا يحتفظ الا بذكرى المداعبات ولو جاءت من مولاه وهو فى حالة ذهول . انه يريد أن يكون محبوبا . وحسبه أن يظن انه كذلك ...

والحياة التى يعيشها لم تكن سعيدة كل السعادة ، ولا شقية كل الشقاوة . هنالك أولا ذلك العبد الذى يغسله كل يوم بالماء البارد. انه لايستطيع أن يألف أبدا هذا الاختراع الشيطانى . ولئن كان هذا الخادم الاسبانى لا يطيقه فان الطبــاخ جان يحبــه كثيرا . وروبيان كثيرا ما كان يغيب عن البيت ، الا انه كان لايسىء معاملته بل يدع له أن يدخل البيت ويسمح له أن يحضر الغداء والعشاء ، وأن يرافقه الى قاعة الاستقبــال أو الى المـكتب . وكان فى بعض الاحيان يلاعبه وينطله ، ولـكن متى جاء زائر ذو شأن اقتيد الى حظيرته ، فاذا أبى أن يخرج وقاوم لم تجده المقاومة شيئا ، لأن الخادم الاسبانى يخرجه عنوة . أن الخادم يعمدالى كثير من الليونة واللطف أول الامر ، حتى اذا أدار روبيان ظهره ، شده من أذنه أو من قدمه ورماه الى الخارج وأغلق جميع الابواب حتى يمنعه من العودة :

ــ كلب من جهنم .

فكان الـكلب يحزن أشد الحزن لهذا الفراق المفاجىء ، وينكسر قلبه ، ويمضى يقبع فى ركن من الاركان ثم يظل على حاله هذه صامتا مدة طويلة .. كان يدور على نفسه ثم يدور الى أن يهتدى الى وضع مريح فيسكن ويغمض عينيه لـكنه لا ينام وانما هو يستجمع أفكاره وذكرياته ويحاول أن يربط بينها . ان قامة مولاه القديم تبدو له فى بعض الاحيان كأنها فى ضباب ، بعيدة بعيدة ، لـكنها ما تلبث أن تمحى شيئا بعد شىء ، ثم تختلط بقامة صاحبه الجديد ، فاذا الرجلان واحد . ثم تراوده أفكار أخرى ...

أفكار كثيرة ، مسرفة فى الـكثرة . هون عليك أيها القارىء ! ما هذه الافكار أخيرا الا افكار كلب ، الا غبار أفكار ! ولعلك تقول انها

أقل من غبار . انظر مع ذلك الى هذه العين التى تتفتح من حين الى حين ساهية لتتأمل اللانهاية . ألا ترى فيها انعكاسا لشيء ما . شيء لعله يلتمع فى آفاق طبيعة الكلب . شيء ليس ذنبه ولا أذنبه ولكنه مع ذلك جزء منه ؟ بأى اسم يمكن أن أسمى هذا الشيء ؟ الا ما أقفر لغة الانسان !

وكان الكلب ينام فى آخر الامر ، وكانت لحظات حياته كلها تعود فى حلم الى رأسه : خليط صاخب من ذكريات الحياة الماضية وصور الحياة الحاضرة . فاذا أفاق من نومه نسى كل شيء ، لكنه كان يحتفظ منه بشعور ما لا أجرؤ أن أصفه بأنه الكآبة ، حتى لا أحنقك كثيرا أيها القارىء العزيز . ان فى وسع المرء أن يصف منظرا من مناظر الطبيعة بقوله انه منظر كئيب لكنه لا يستطيع ان يصف بذلك الوصف كلبا . ان كآبة منظر من مناظر الطبيعة قائمة فى أنفسنا . أما اسناد مثل هذا الشعور الى كلب فهو يفترض ان الكآبة تنبع من مصدر غير ذاتنا . ومهما يكن من أمر فان التعبير الذى كان يظهر فى وجه الكلب لا يدل على الفرح . ولكن كان يكفى أيسر أمر من الامور : أن يصفر له الطباخ أو أن يومىء اليه مولاه ايماءة تنم عن الصداقة ، حتى يسترد كل حماسته فاذا عيناه تتوهجان واذا بوزه يرتفع من اللذة ، واذا أقدامه تثب وثبات غريبة ليست فى الحسبان .

٢٩

ظل روبيان بقية الصباح مشرق المزاج مغتبط النفس . واليوم يوم أحد . وهذان صديقان يجيئان لتناول طعام الغداء على مائدته . شاب فى الرابعة والعشرين من سنه قد بدأ منذ قليل يبدد أموال أمه ، ورجل فى نحو الخامسة والاربعين لم يبق عنده شيء يبدده .

الاول اسمه كارلوس ماريا ، والثانى أسمه فريتاس . والرجلان كلاهما يعجبان روبيان . لكن اعجابه بأحدهما يختلف عن اعجابه بالآخر . ليست السن وحدها هى التى كانت تقرب بينه وبين فريتاس أكثر مما كانت تقرب بينه وبين كارلوس ماريا . ان طبع فريتاس أيضا كان يحببه اليه . كان فريتاس يجيد الثناء على كل شيء ، ويتقن فن ازجاء المديح اللطيف لكل طبق من أطباق الطعام ولكل نوع من أنواع الخمور ! وكان لا ينصرف من بيت صاحبه الا وقد حشا جيوبه بأنواع السيجار دليلا على تقديره لها واعجابه بها .

وقد عرفه روبيان فى مطعم بشارع البلدية ذهب يتعشى فيه ذات يوم . قصوا عليه هنالك قصة هذا الرجل ، وحدثوه عن حظه الحسن والسيىء ، ولكن من غير دخول فى التفاصيل ، فقطب روبيان وجهه : ان فريتاس « حطام » ، وان معاشرته لن تحمل اليه أى متعة شخصية ولن تجلب له الاعتبار والتقدير . لكن فريتاس لم يلبث أن أخذ على عاتقه تبديد هذا الشعور الاول من نفس روبيان : انه رجل لامع الذكاء ، ظريف النكتة ، حاضر البديهة ، يجيد رواية النوادر ، وقص الفكاهات ، يحسب المرء حين يرى مرحه انه ينعم بايراد لا يقل عن خمسين قونتا . وحين تحدث روبيان عن الازهار الجميلة التى يزدان بها بيته سأله أن يسمح له بزيارته ليراها لانه يعشق الازهار . فما هى الا أيام حتى جاء الى بيت روبيان فعلا ، قائلا انه يريد رؤية تلك الوردات الجميلة وانه لن يمكث الا بضع دقائق ، ويرجو خاصة ألا يزعج روبيان ان كان مشغولا . وأرضى غرور روبيان كثيرا ان صاحبه ظل يتذكر الحديث الذى دار بينهما ، فنزل الى الحديقة حيث وقف فريتاس منتظرا ، وأخذ يريه الوردات بنفسه ، فوصفها فريتاس بأنها رائعة ، حتى لقد بلغت حماسته فى انعام النظر اليها أنه كان لابد من انتزاعه انتزاعا من كل شجرة من أشجار الورد لينتقل الى شجرة أخرى . كان يعرف اسم كل شجرة من هذه الاشجار ، بل لقد ذكر أنواعا كثيرة منها كان روبيان يجهلها ويجهل وجودها ، وكان يصف هذه الانواع فيقول انها كيت وكيت وان حجمها كذا وكذا « مشيرا الى الحجم بتدوير الابهام والسبابة » ، وكان يذكر أسماء الاشخاص الذين يملكون منها شجرات ممتازة ، غير ان وردات روبيان تعد من أجود الانواع ، فهذه مثلا هى من أندر الورود ، وكذلك تلك الاخرى . وكان البستانى يصغى اليه دهشا . حتى اذا انتهت الزيارة قال روبيان :

— تعال نشرب قليلا . ماذا تحب أن تشرب ؟

لم يرغب فريتاس فى شىء بعينه ، لكنه مدح موقع البيت ، وانعم النظر فى تحف البرونز واللوحات والاثاث ، ثم نظر الى البحر وقال :

— حقا انك لتعيش ياسيدى عيشة رجل راق .

فتبسم روبيان راضيا . ان لكلمة الرجل الراقى وقعا جميلا فى أذنه ، حتى لو قيلت فى معرض التشبيه ! ووصل الخادم الاسبانى حاملا صينية الفضة وعليها ألوان منتقاة من الاقداح وانواع

الشراب . انها للحظة ممتعة عند روبيان . قدم بنفسه الشراب لصاحبه ثم أوصاه بأن يذوق نوعا من أنواعه قيل له انه أفخرها جميعا . فابتسم فريتاس ابتسامة من لا يصدق وقال :
ــ لعل فى هذا شيئا من المبالغة .
وجرع جرعة وأخذ يتلمظ ببطء ليذوقها ، ثم جرع جرعة ثانية فثالثة ، فاعترف وقد ظهر فى وجهه معنى النشوة بأن الشراب رائع حقا . ترى أين عثر عليه روبيان ؟ فأجاب روبيان بأن أحد أصدقائه ، وهو صاحب متجر كبير للخمور ، أهدى اليه زجاجة منه ، فبلغ من اعجابه به انه لم يلبث أن طلب منه ثلاث دستات .

وما هى الا فترات قصيرة حتى توثقت علاقات الصداقة بين الرجلين . وأصبحت زيارات فريتاس لصاحبه على الغداء أو العشاء تزداد شيئا بعد شيء ، حتى لقد ازدادت أكثر مما كان يقدر لها أن تزداد ... هل من السهل على امرىء أن يقاوم رجلا يحرص هذا الحرص كله على رؤية وجوه صديقة ، ويسعد بذلك هذه السعادة كلها ؟

٣٠

سأله روبيان ذات يوم :
ــ قل لى ياسيد فريتاس ... هبنى رغبت يوما من الايام فى السفر الى أوربا ، فهل تصحبنى ؟
ــ لا ..
ــ لماذا ؟
ــ لأن صداقتى لا تكون بغير استقلال ، وقد لا نتفق على خطة الرحلة .
ــ آسف . انني أقدر ميلك الى المرح واللهو .
ــ أنت مخطىء ياسيدى ، ان وراء قناعى الضاحك لوجها حزينا . ان ما أوثره هو الخرائب والاطلال . فاذا سافرت الى أوربا بدأت بزيارة خرائب اثينا ثم ذهبت الى المسرح لأشاهد تمثيلية « متسول الخرائب » ، وهى مأساة فظيعة ، ثم مضيت الى مجالس القضاء لأشهد المحاكمات التى تفصل فى الافلاسات ، والتى ترى فيها رجالات دمرت ثرواتهم ...
كان روبيان يضحك . انه يحب هذه الصراحة ويحب هذه الحرارة البليغة .

٣١

هل يرضى حبك للاطلاع ، أيها القارىء العزيز ، أن تعرف الآن نقيض فريتاس ؟ أنظر اذن الى الضيف الآخر الذى يتناول غداءه مع الرجلين : كارلوس ماريا . اذا كان الاول يملك مزايا « الصراحة والحرارة البليغة » التى يقدرها روبيان قدرا عظيما ، فانه لمن الواضح ان الثانى هو نقيض ذلك تماما . لن يدهشك اذن أن نراه يدخل الصالون بخطا بطيئة ، وفى وجهه فتور وكبرياء ، حتى انه ليأبى النظر الى فريتاس حين يقدم اليه ليتعرف به . أن فريتاس الذى لعنه فى سره لتأخره « فقد شارفت الساعة على الثانية عشرة » لم يلبث أن غمره بسيل من أحط أنواع عبارات التملق .

وتستطيع أن تدرك أيضا ، أيها القارىء ، ان صاحبنا روبيان كان ، رغم ايثاره فريتاس ، يضمر لكارلوس ماريا احتراما أعظم . لقد انتظره حتى الآن ، وهو مستعد لان ينتظره حتى الغد ! لكن كارلوس ماريا كان لا يحترم واحدا من الرجلين ، لا روبيان ولا فريتاس !

ولننظر اليه من كثب : رجل قوى البنية ، صافى النظرة هادئها ، يدل ظاهره كله على الثقة بالنفس . يحس المرء حين ينظر اليه انه مسيطر على نفسه ، وانه أكثر سيطرة من ذلك على غيره . انه ينظر الى كل شىء من عل ، وله ضحكة هى الى السخر أقرب منها الى المرح . ها هو ذا يجلس الى المائدة ، فيتناول شوكة وسكينة ، ويفض فوطته . انك تشعر ان كل حركة من حركاته شارة شرف ينعم بها على صاحب البيت ، بل شارات شرف ، لانه يتواضع فيتفضل بتناول الطعام على مائدته ، ولا يعامله كما يعامل فلاح من غلاظ الفلاحين .

على ان الغداء انقضى فى مرح رغم هذه الفروق بين الضيفين . كان فريتاس يلتهم الطعام لقما مضاعفة ، ولا يسمح لنفسه الا بلحظات قصيرة من الهدنة . وسره أن يدرك فى قرارة نفسه انه لو بدأ الطعام فى الموعد المضروب له « وهو الساعة الحادية عشرة » لما تلذذ به هذا التلذذ كله . لاشك أن مشرفا على الغرق ما كان له أن يبتلع الطعام بسرعة أكبر من هذه السرعة ! وبعد عشر دقائق استطاع أن يشرع فى الكلام : انه الآن ابتسام كله ! وأخذ ،

وهو يفيض حركات واشارات ، يسرد في كثير من التدفق عددا كبيرا من القصص الخفيفة والنوادر المضحكة . فكان كارلوس ماريا يستقبلها كلها تقريبا بجد عابس من قبيل الاستخفاف ، لذلك أصبح المسكين روبيان لا يجرؤ أن يضحك لها رغم انه يراها فكهة . وفي آخر الغداء بدأ كارلوس ماريا يتخلص من جموده قليلا ، وأصبح يتكلم ، حتى لقد قص على صاحبه بضع مغامرات غرامية كان قد سمع بها . وعندئذ سأله فريتاس على سبيل التملق ألا يستطيع أن يروى لهما بعض مغامراته الخاصة ، فانفجر كارلوس ماريا ضاحكا وقال :

ـ ياله من دور تريدان لي أن أمثله !

فتكلم فريتاس قائلا انه لا يطلب اليه الا أن يسرد وقائع . ولا خير في هذا قطعا ، وما من أحد يستطيع أن يفترض على كل حال .

فقاطعه كارلوس ماريا موجها هذا السؤال الى صاحب البيت :

ـ أأنت راض عن اقامتك ببوتافوجو ؟

فعض فريتاس على شفتيه غيظا من هذه المقاطعة ، ولعن الرجل في سره مرة أخرى ، وغاص في مقعده مغلق الوجه ، وأخذ ينظر الى صورة معلقة بالجدار . أجاب روبيان بأنه راض كل الرضا عن اقامته ببوتافوجو ، وان الشاطىء رائع حقا . فقال كارلوس ماريا :

ـ لاشك في أن المنظر جميل ، لكنني لم أستطع في حياتي أن أطيق الروائح التي تفوح هنا في بعض الاحيان .

وأضاف ملتفتا الى فريتاس :

ـ ما رأيك ؟

فاستقام فريتاس وأخذ يشرح رأيه ، فقال انهما كليهما على حق ، لكنه ألح خاصة على ان الشاطىء ساحر حقا رغم كل شيء . ولم يدع لشيء من غيظه ولا انزعاجه أن يظهر اثناء كلامه ، حتى انه تلطف فلفت نظر كارلوس ماريا الى نثارة من الفاكهة كانت قد تشبثت بشاربه .

ودقت الساعة الواحدة بعد الظهر حين شارف الغداء على الانتهاء . كان روبيان صامتا ، يتذكر أطباق الطعام واحدا بعد واحد ، ويستعرض جميع مراحل هذه الوجبة ، ويرمق الكئوس الفارغة والفتات المتبعثر راضيا مسرورا ، ويرقب ما على المائدة من فوضى تؤذن بقرب احتساء القهوة . ومن حين الى آخر كان يلقي نظرة على الخادم الذي يرتدي ملابسه الرسمية . حتى لقد لاحظ كارلوس

ماريا مفتبطا أشد الاغتباط بعد أولى الانفاس التى نشقها من احدى لفائف السيجار التى قدمها اليه . وفى هـذه اللحظة دخل الخادم يحمل سلة صغيرة مغطاة بمنديل رقيق ، وصلت الآن مع رسالة .

٣٢

سأل روبيان :

ــ من مرسل هذا كله ؟

ــ السيدة صوفيا .

كان روبيان لايعرف خطها بعد ، فهذه أول مرة تكتب فيها اليه . ما عسى أن يكون الخبر ؟ أن أصابعه ترتجف ، وفى وجهه يظهر الاضطراب الذى يهزه . وفيما هو يفض الرسالة ، رفع فريتاس المنديل الذى يغطى السلة ، دون تحرج ؛ فاذا السلة مملوءة بثمار الفراولة . وقرأ روبيان الرسالة منفعلا أشد الانفعال . وهذه هى بضعة الاسطر التى تضمنتها :

« أبعث اليك بهذه السلة الصغيرة من الفاكهة للغداء ، آملة أن تصلك فى موعدها . يجب أن تأتى الينا هذا المساء حتما لتنــاول طعام العشاء . فذلك أمر أصدره كرستيانو .

صديقتك المخلصة

« صوفيا »

سأل روبيان وهو يطوى الرسالة :

ــ ما هى هذه الفاكهة ؟

ــ فراولة .

ــ وصلت بعد فوات الاوان . فراولة ؟

كذلك ردد الـكلمة دون أن يعرف ماذا يقول .

قال له فريتاس ضاحكا ، بعد خروج الخادم :

ــ لا داعى الى الاحمرار ياصديقى العزيز . تلك أمور تقع كثيرا للعشاق ...

فقال روبيان وقد ازداد وجهه احمرارا :

ــ للعشاق ؟ ولـكن فى وسعك أن تقرأ الرسالة ، فترى بنفسك ان . . .

وكاد يمد الرسالة ، لـكنه عدل عن ذلك ، ووضعها فى جيبه . كان منفعلا أشد الانفعال ، يتقاسمه الاضطراب والفرح معا .

قال له كارلوس ماريا :

— ليس فى امكانك أن تنكر ان هذه الالتفاتة الرقيقة انما جاءت من شخص يحبك . ثم انه لا اعتراض على هـذا ، فالحب قانون عام . واذا كانت امرأة متزوجة ، فليس يسعنا الا أن نحمد لك هذا التكتم ...

فقاطعه المضيف يقول :

— ناشدتك الله ، أرجوك ...

فتابع كارلوس ماريا كلامه يقول :

— أهى اذن أرمل؟ سيان.. فى هذه الحالة أيضا يحمد التكتم . أكبر خطيئة ، بعد الخطيئة نفسها ، افشاؤها . ولو كنت مشرعا لاقترحت أن يحرق جميع أولئك الذين يقترفون جريمة افشـاء السر فى هذه الامور ، ولقضيت بأن يجروا الى العذاب باحتفـال كالاحتفال الذى كان وقفا على متهمى محاكم التفتيش ، مع فرق واحد هو أن يلبسوا معطفا مغطى بريش ببغاء بدلا من قميص الكبريت

وضحك فريتاس حتى كاد يختنق من الضحك ، وكان ينقر على المائدة من قبيل التصفيق ، فتمتم روبيان يقول وقد امتقع لونه فجأة :

— ما هى بالمتزوجة ولا هى بالارمل ...

فأجابه كارلوس ماريا :

— هى اذن فتاة ؟ فمتى يكون الزواج ؟ ما ينبغى لك أن تتردد ، فقد آن الاوان .

ثم أضاف وهو يتناول بأصابعه بعض الثمار :

— فراولة الخطبة ! ان لها شذى كشذى أزهار البرتقال .

أصبح روبيان لايعرف ماذا يقول . وانتهى آخر الامر الى التراجع ، فقال أن الثمار قد بعثت بها اليه زوجة أحـد أصـدقائه . فغمز كارلوس ماريا بعينه . أما فريتاس فقال ان كل شىء قد اتضح الآن . ففى البداية كان السر الذى يحيط بالسلة ، وطريقة ترتيب السلة ، وحتى مظهر الثمار التى بدا إنها ثمار « زانية » — قال ذلك ضاحكا — ذلك كله كان يطبـع الامر بطابع الخطيئة ومجافاة الاخلاق ، أما الآن فقد سويت المسألة .

واحتسى الصحب القهوة رائقة صافية ، ثم انتقلوا الى الصالون . ظل روبيان يبدو قلق البال رغم احتياطه . وبعد لحظة من تفكير ، قدر ان ظنون صاحبيه الاولى ترفع قدره وترضي غروره : أن تخون امرأة زوجها من أجله . حتى لقد انتهى الى الاعتقاد انه أسرف فى

الدفاع عن نفسه بتلك الحرارة المفرطة . لقد كان فى وسعه ان يعترف بأن الامر أمر خاص حقا ، ما دام لم يذكر أى اسم . على انه من الممكن أن تكون حرارة انكاره قد تركت هى نفسها عند محدثيه شيئا من الشك ، ومن الريبة !.. ان هذا يعزيه ، وهاهو ذا يبتسم ...

نظر كارلوس ماريا الى ساعته . انها الثانية . يجب عليه أن ينصرف . شكره روبيان ألف مرة ومرة على تفضله بقبول الدعوة ، ورجاه الا يتأخر فى تكرار الزيارة . أليس من الممتع أن يقضوا يوم الاحد من حين الى حين فى مثل هذه الاحاديث الودية ؟

صاح فريتاس وهو يقترب :

ـ فكرة عظيمة !

وكان قد دس نصف دستة من لفائف السيجار فى جيبه ، فهمس فى اذن روبيان حين خرج :

ـ اخذت التذكار المعتاد . ستة أيام من المتعة ، واحدة فى كل يوم

فقال له روبيان :

ـ خذ مزيدا .

فأجابه :

ـ لا ... لكنى سأجىء لآخذ لفائف اخرى .

شيعهما روبيان حتى الباب الحديدى. وحين سمع كونكاس بوربا أصواتهم هرع من آخر الحديقة ليحييهم فى حماسة ، ليحيى مولاه خاصة . وقد اهتم الكلب بكارلوس ماريا ، حتى لقد أراد أن يلعق يده ، لكن صاحبنا سحبها مشمئزا ، فلكز روبيان الكلب بقدمه ، فهرب الكلب معولا . وافترق الاصحاب .

قال كارلوس ماريا لصاحبه فريتاس :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

فقدر فريتاس أن كارلوس ماريا ربما كان ذاهبا الى زيارة فى نواحى سان كليمانت ، ولما كان يحب اصطحابه أجابه بقوله :

ـ أنا ذاهب الى آخر الشاطىء .

فقال الآخر :

ـ أما أنا فالى الجهة الاخرى .

٣٣

بعد أن رآهما روبيان ينصرفان ، عاد الى الصالون وأخذ يقرأ

بطاقة صوفيا مرة ثانية . ان كل كلمة من كلمات هذه الرسالة غير المنتظرة سر من الاسرار . لكن التوقيع هو اعتراف حقا . لقد ذيلت الرسالة بتوقيعها : « صوفيا » ، « صوفيا » فقط . لم تضف الى اسمها الشخصي أي اسم . أما قولها : « صديقتك المخلصة » فهو مجاز ولا شك . وأما الكلمات الاولى : « أبعث اليك بهذه السلة الصغيرة من الفاكهة الغداء » ... فهي تدل على براءة نفسها الطيبة الكريمة ؟ لقد رأى روبيان هذا كله ، وأحسه بغريزته . وفجأة وجد نفسه يقبل الورقة ، بل لقد أخطأت التعبير . . وجد نفسه يقبل الاسم ، الاسم الذي سميت به عند تعميدها ، الاسم الذي نادتها به أمها مرارا ، ثم انتقل الى زوجها رمزا الى عقد الزواج ، ثم طار الآن من جميع هؤلاء الذين ملكوه الى حين ليجيء اليه ، اليه هو ، هو روبيان ، في ذيل صفحة من الورق . . . صوفيا . صوفيا . صوفيا .

٣٤

ــ لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟

كذلك سألته صوفيا عندما ظهر على باب الحديقة في سانتاتيريزا .

ــ لم ينته الغداء الا في الساعة الثانية ، وبعد الغداء قمت بترتيب بعض الاوراق . ثم انني لم أتأخر كثيرا « أضاف ذلك وهو ينظر الى ساعته » والساعة لا تكاد تبلغ الرابعة والنصف .

قالت صوفيا وهي تظهر العتب :

ــ الاصدقاء يصلون متأخرين دائما .

فشعر روبيان بأنه مذنب ، لكن وقته لم يتسع حتى للاعتذار . فأمامه ، قرب المنزل ، أربع سيدات جالسات على مقاعد من حديد ، ينظرن اليه نظرة غريبة وهن صامتات . انهن مدعوات صوفيا ينتظرن بفارغ الصبر وصول الثرى الشهير روبيان . فقدمته صوفيا اليهن . ان ثلاثا منهن متزوجات . أما الرابعة فهي فتاة أو قل هي عانس ، عمرها تسعة وثلاثون عاما ، ولها عينان سوداوان أتعبهما الانتظار . انها ابنة ضابط برتبة ماجور يقال له سيكويرا ، ولم يلبث أن ظهر في الحديقة .

قال الماجور لروبيان منذ قدم اليه :

ــ ان صديقي باليا قد حدثني عنك سابقا . وفي وسعي أن أؤكد انه نعم الصديق لك . لقد قص على قصة المصادفة التي وثقت

عرى الصداقة بينكما . خير الصداقات في بعض الاحيان صداقة قامت مصادفة . اليك هذا المثال : في عام ١٨٣٠ ، قبل عهد الوصاية بقليل ، تعرفت بصديقي الذى أصبح أعز أصدقائى حينذاك ، بمصادفة تشبه هذه المصادفة كل الشبه . تم ذلك في صيدلية برناردس الذى كان يلقب ب «حنا ذى الربلتين الضخمتين» ... يخيل الى انه كان في شبابه بين عام ١٨٠١ و ١٨١٢ يضع لساقيه ربلتين اصطناعيتين . لقد بقى له اللقب على كل حال . الصيدلية في شارع سان جوزه ، عند زاوية شارع الميزيريكورد... حنا دو الربلتين الضخمتين ... وأنت تعلم ان الربلة الاصطناعية تجمل حقا منظر الساق ... اسمه الحقيقى برناردس ، حنا آلفس برناردس ... وصيدليته في شارع سان جوزه ... وهو مكان كنا نلتقى فيه لنتحدث ونتناقش حتى ساعات متأخرة من الليل . كنا نذهب مرتدين المعاطف ، حاملين العصى ، حتى لقد كان بعضنا يحمل فوانيس . أما أنا فلا ... كنت أرتدى معطفا فحسب ... كنا نذهب الى هنالك مرتدين المعاطف . وبرناردس — أقصد آلفس برناردس ، فذلك هو اسمه — أصله من ماريكا ، لكنه نشأ هنا في ريو ... حنا ذو الربلتين الضخمتين ، ذلك هو لقبه . يقال انه كان في شبابه يضع ربلتين اصطناعيتين . اذ كان من فتيان المدينة الانيقين . لقد ظللت أتذكره زمنا طويلا ... حنا ذو الربلتين الضخمتين ... كنا نذهب الى هنالك مرتدين المعاطف ...

غرق روبيان تحت هذا السيل من الكلام . لكنه وقد وقع في الفخ ، لايرى مخرجا يفر منه . ان الماجور يحاصره من كل جهة . ليس هناك أى باب للخروج . واستمر سيل الكلام ينهمر الى غير نهاية . لو استطاع روبيان أن يلقى نظرة صوب السيدات لسره على الاقل أن يلاحظ انه كان موضع استطلاعهن جميعا ، وانه يلفت نظر تونيكا ابنة الماجور بوجه خاص . لكنه لم يستطع حتى ذلك ؛ والماجور لا يلوح عليه انه سيقطع هذا السيل المنهمر ، ماذا أقول : بل هذا البحر المصطخب . وجاء أخيرا باليا يحمل اليه قارب نجاة ... كانت صوفيا قد ذهبت تقول لزوجها ان روبيان وصل ؛ فنزل باليا الى الحديقة بسرعة ليحيى صديقه ويقول له : «تأخرت كثيرا » . كان الماجور قد شرع عندئذ في سرد قصة لقب الصيدلى من أولها ، فترك فريسته ، ومضى يلتحق بحلقة السيدات . وخرج بعد قليل .

لاشك فى ان هؤلاء السيدات المتزوجات جميلات . وحتى العانس منهن لم تكن دميمة ، حين كانت فى الخامسة والعشرين من سنها ، لكن صوفيا قد أطفأت جمالهن جميعا .

والحق ان هذه المرأة ليست بالمرأة التى لا تضارع ، كما كان يتراءى لصاحبنا ، ولكنها بارعة الجمال فعلا . انها واحدة من تلك النساء اللاتى يصقلهن الزمن ببطء يوما بعد يوم ، كنحات دقيق ، فاذا هى تحف جميلة حقا . ان صوفيا توشك أن تتم الثامنة والعشرين من عمرها ، وهى الآن أجمل مما كانت فى السابعة والعشرين . وفى وسعنا ان نفرض انها ستبلغ الثلاثين قبل أن يفرغ النحات من لمساته الاخيرة ، هذا اذا لم يشأ أن يستمر فى عمله سنتين أو ثلاث سنوات أيضا .

ان عينيها مثلا قد تبدلتا الآن عما كانتا عليه أثناء تلك السفرة التى كان يبدو خلالها انهما تتابعان الحديث بين روبيان وباليا . لقد أصبحتا أحلك سوادا ، وهما لا تتابعان الآن شيئا ، حتى انه ليخيل للناظر اليهما انهما هما اللتان تتحدثان ، ويا لحديثهما ما أبلغه ! وفمها أصبح يبدو أنضر نضارة واطرى طراوة ، وكتفاها وذراعاها ويداها قد ازدادت رشاقة ، ويزيد درشاقتها ما تقوم به من حركات مدروسة واشارات مقصودة . وحتى تكاثف حاجبيها ــ وهو ما كانت تضيق به صوفيا وتكرهه ، وما وجده روبيان نفسه لا ينسجم وسائر وجهها ــ كان يسهم الآن فى اسباغ هذا الطابع الخاص على وجهها .

كانت صوفيا فى ذلك المساء ترتدى أبهى حلة . لقد شدت صدرها وخصرها بقميص صغير من الصوف بندقي اللون . وقميص بسيط ، لكنه أنيق . وفى أذنيها قرطان من اللؤلؤ الطبيعى ، كان روبيان قد أهداهما اليها فى عيد الفصح .

ان هذه المرأة الشابة هى ابنة موظف عجوز من موظفى الدولة ؛ تزوجت فى العشرين من عمرها كرستيانو دى الميدا أى باليا الذى كان يعمل وسيطا تجاريا وكان فى الخامسة والعشرين من عمره . ان باليا يحسن كسب رزقه ، فهو امرؤ نشيط بارع ، ذو احساس قوى بشئون الاعمال ، حتى لقد استطاع فى عام ١٨٦٤ ، رغم قلة خبرته ، أن يشم ــ ليس هنالك كلمة أخرى نستعملها فى هذا

المقام — نعم ، أن يشم الافلاس المصرفى الذى كان يتهيــأ ، فقال لنفسه : سيحدث شيء فى يوم قريب أو بعيد ؛ فالوضع معلق بخيط واهن ، وعند أول صرخة تنذر بالخطر ، سينهار كل شيء .

لـكن عيبه هو انه كان ينفق أكثر مما يكسب . انه يحب الترف حبا شديدا . فايراداته ، ما حصله منهـا وما سيحصله ، كانت تتبخر حفلات وأثوابا أو حليا لزوجته ، ومقتنيــات كثيرة الانواع يشتريها راضيا لتزيين بيته ، وخاصة اذا كانت على آخر زى او كانت مبتكرات حديثة . وكان فى مقابل ذلك مقترا على نفسه بعض التقتير ، الا فيما يتصل بالطعام . وكان يرتاد المسرح كثيرا رغم انه لا يحبه حبا خاصا ، فهو لا يمل حفلات الرقص مثلما يمل المسرح . والحق انه كان لا يكثر من الخروج استمتاعا بالخروج ، وانما يخرج ليطلع الناس على جمال عينى زوجته ، على جمال عينيها وجمــال صدرها . لقد كان فى الواقع محبا للظهور حبا غريبا ، كان يلبس زوجته أثوابا عارية النحور حتى يستطيع جميع الناس أن يحسدوه على حظه . فهو من هذه الناحية شبيه بالملك كاندول (١) ، ولكنه اكثر احتشاما من بعض النواحى ، وأكثر صخبا من نواح أخرى .

ويجب هنا أن ننصف المرأة الشابة . انها لم تستكن لنزوة زوجها فى أول الامر الا على مضض . لـكنها بلغت من اثارة الاعجاب بها انها أصبحت فى النهاية تحب عرض مفاتنها لتسعد برؤيتها أنظار الناظرين «وما أسرع ما تصبح العادة طبيعة ثانية» يجب أن ننصفها فلا نصورها خيرا مما هى ولا شرا . لاشك ان حب الظهور عندها كان يمكن أن يكتفى باظهـــــار عينيها الضاحكتين ، المثيرتين ، الجذابتين ، الجذابتين وكفى ، فكأنهما اللافتة المعلقة على باب فندق حجراته كلها مشغولة .. فالناس تتمهل أمام جمال اللافتة ، تتمهل وتتأمل ثم تمضى . كان حسبها هذا ، وما من شيء يوجب عليهـا أن تعرض المزيد من مفاتنها . ومع ذلك استسلمت لارادة زوجها . غير ان باب الفندق — اذا صح ان نطلق هذا الاسم على قلبها — قد ظل مغلقا ، بل ظل محكم الاغلاق .

٣٦

قال روبان لنفسه : « ما أجملهـا يارب ! اننى لأحس بأن من

(١) الملك كاندول ، ملك « ليديا » كان يحب ان يعرض زوجته على نديمه سافرة ، فاحبت هذا النديم واتفقت معه على قتل زوجها . (المترجم)

الممكن أن أرتكب فضيحة ! »
هبط الليل ، وصاحبنا مسند ظهره الى احدى النوافذ ينظر الى صوفيا ، وصوفيا تنظر اليه .
كان هنالك سيدة تغني . ان أزواج السيدات الثلاث قد قطعوا لعبهم بالورق وجاءوا الى الصالون بضع لحظات ينصتون الى غناء المغنية التى هى زوجة أحدهم . وكان باليا يرافق غناء المغنيـة بالعزف على البيانو ، لذلك لم يستطع أن يرى النظرات المتبـادلة بين زوجته وصاحبه الثرى . لست أدرى هل كان هنالك أشخاص آخرون أيضا . لـكن ما أعلمه على كل حال هو ان هناك شخصـا لاحظ سلوكهما ملاحظة كاملة : وهذا الشخص هو تونيكا بنت الماجور.

وظل روبيان يردد لنفسه قوله : « ما أجملها يارب ! انى لأحس بأن من الممكن أن أرتكب فضيحة ! » . ظل يردد لنفسه قوله هذا ، وهو لايزال مسندا ظهره الى النافذة ، محدقا الى المرأة الشـابة التى ما انقطعت هى أيضا عن التحديق اليه .

٣٧

لايستغرب المرء أن تلاحظ تونيكا نظراتهما المتبادلة ، ذلك انها لم يكن لها من هم منذ وصول روبيان الا أن تلفت نظره اليها . ومن أجل ذلك كانت عينـاها البائستان ـ عيناها اللتان عمرهما تسع وثلاثون سنة ، اللتان لم تستطيعا حتى الآن أن تجدا رفيقتين ، اللتان كانتا تدلفان من التعب الى اليـأس ـ قد استردتا بعض الالتماع . ويجب أن نذكر ان التجربة الطويلة قد علمت تونيكا كيف تستعمل عينيها وكيف تسبغ عليهما حين الحاجة كل ما يشتهى من العيون الناعسة . فكان من السهل عليها أن تهيئهما لمهاجمة صاحبنا الثرى .
ورغم ان قلبها قد أصيب بخيبات كثيرة ، فقد أخذ يخفق مرة أخرى . شيء ما قال لها ان السماء أرسلت اليها هـذا الثرى الريفى حلا لمشكلة زواجها . والحق انه غنى اكثر مما كانت تتمنى من غنى . انها لم تكن تطلب الغنى . انها لم تكن تطلب الا زوجا . وقد قامت بجميع حملاتها الزواجية دون أن تقيم وزنا للاعتبارات المالية . وقد قلت مطامعها كثيرا منذ بعض الوقت . حتى ان آخر حملاتها كانت مطاردة لطالب صغير فقير !
ولـكن من يدرى ؟ لعل السماء قد كتبت لها أن يكون زوجها

رجلا غنيا ، كانت تونيكا تؤمن بسـيدتها العذراء ، عذراء الحبل دون دنس . وأخذت تطوق القلعة بحنكة وشجاعة .

قالت فى نفسها : « الاخريات متزوجات جميعا » .

ولم تلبث أن لاحظت ان نظرات روبيان وصـوفيا لا تفترق . ولاحظت مع ذلك ان نظرات صوفيا أقل من نظرات روبيان وأقصر ، وبدا لها أن مرد ذلك بطبيعة الحال الى ما يقتضيه الظرف من احتياطات . ربما كانا عشيقين .. وأحزنتها هـذه الفكرة . لـكن الامل انتصر . اذ بين لها ان الرجل بعد أن يقوم بتجربة عاطفية أو عدة تجارب عاطفية ينتهى دائما الى الزواج . فالمشكلة اذن انما هى الوصول الى الاستيلاء عليه فاذا أراد أن يتزوج وأن يبنى أسره تولى هذا الميل قتل كل ميل آخر فى نفسه ، هذا اذا صح ان فى نفسه ميلا آخر .

وها هى ذى تضاعف جهودها حاشـدة كل مفـاتنها من تحريك المروحة أمام وجهها فى خفة ورشاقة ، الى ارعاش الشفتين ، الى الغمز بالعينين ، الى المشى جيئة وذهابا اظهارا لأناقة الجسم وجمال القد . انها لم تدخر من ذلك كله شيئا . وهذه هى الخطة القديمة التى كانت تستعملها دائما . ولئن لم تنجح حتى الآن فلا ضير ! أليس هذا هو المبدأ الذى يقوم عليه « اليانصيب » ؟ ان يوم الربح يعوض كل الخسارات الماضية ويزيد ...

ولـكن حين أخذت السيدة تغنى لاحظت تونيكا كيف ان روبيان وصوفيا يشرب كل منهما الآخر بنظراته شربا ، فاختفت شكوكها وأيقنت ان الامر ليس أمر لفتات عارضة طارئة . وانما هو تأمل حقيقى يذهل البصر عن سائر ما فى الوجود . وعندئذ ترجع فى أذنيها ذلك الصوت الحزين ، صوت نعيق الغراب الذى ينعى كل أمل : انتهى الى الابد (١) .

وظلت مع ذلك تناضل فظفرت بجلوس روبيان الى جانبها بضع دقائق وحاولت أن تتمتم له ببضع عبارات جميلة تذكرت انها قرأتها فى احدى الروايات ، أو أوحى اليهـا بها ما فى الظرف من حزن وكآبة ، فكان روبيان يصغى ويجيب ، لـكنه لا ينقطع عن مراقبـة صوفيا ، ويقلق حين تترك الصالون ويضطرب حين تعود اليه ، حتى لقد جاوز ذهوله الحدود فى احدى المرات : كانت تونيكا تعترف

(١) بالانجليزية فى الاصل ، والعبارة من قصيدة لادجار آلان بو عنوانهـا (الغراب) . (المترجم) .

له بأنها تتمنى أن تعرف ولاية ميناس ومدينة بارباسينا خاصة ، فكيف المناخ هنالك ؟ فلم يزد على أن ردد ترديدا آليا :

ــ المناخ !

لقد كان ينظر الى صوفيا التى كانت واقفة أمامه مديرة اليه ظهرها ، تتحدث الى سيدتين جالستين .. انه يتأمل جمال قوامها وحركة جسمها المنتصب انتصاب باقة من الازهار منبجسة من آنية . ان رأسها أشبه بزهرة مانجوليا لا نظير لها ، قد غرست قائمة فى وسط الباقة . ذلك ما كان روبيان يتأمله حين سألته تونيكا عن مناخ بارباسينا ، فلم يزد على أن ردد كلمتها ترديدا لا يشتمل حتى على لهجة الاستفهام .

٣٨

عزم روبيان أمره . لم يبد له فى يوم من الايام أن قلب صوفيا يدعو قلبه بمثل هذه اللجاجة الى السير معه فى طريق من التخفى لايرجع منه المرء عامة الا وقد هرم وانطفأت حرارته . بعض الناس لايرجعون أبدا . وآخرون يتوقفون فى منتصف الطريق . وكثيرون لايتجاوزون حتى عتبة الباب !

٣٩

كان القمر رائعا . وهناك ، على الهضبة ، بين الارض والسماء ، تشعر النفس ، مهما تكن قليلة الجرأة ، أنها قادرة على أن تواجه جيشا عدوا فتفنيه ، فكيف والجيش حليف ؟ كانت صوفيا قد أعطت روبيان ذراعها ليمضيا الى الحديقة ويريا ضوء القمر . وقد دعت تونيكا الى مرافقتهما فأجابت الفتاة المسكينة بأن قدمها موجعة ، وانها ستلحق بهما بعد قليل . ولكنها لم تفعل .

ظل الاثنان صامتين بعض الوقت . ومن النوافذ المفتوحة كان الاشخاص الآخرون يرون متحدثين ، وفيهم الرجال الذين انقطعوا عن اللعب بالورق . الحديقة صغيرة ، لكن سلم درجات الصوت الانسانى يتيح لهما أن يتبادلا كلمات جميلة دون أن يسمع حديثهما أحد .

وتذكر روبيان ، على حين فجاة ، تشبيها قديما جدا ، مستمدا من قصيدة من قصائد عام ١٨٥٠ ، هذا اذا لم يكن شائعا فى ان

نثر من أي زمان : عيناك نجوم الارض، والنجوم عيون السماء. كذلك قال لها بصوت خافت مرتعش .

دهشت صوفيا أشد الدهشة . واذا بجسمها الذى كانت الى ذلك الحين تسنده كله الى ذراع روبيان ، يتصلب فجأة ... لقد اعتادت أن ترى صاحبنا قبل ذلك خجولا ... النجوم ؟ العيون ؟ وأرادت الا يمزح هذا المزاح ، لكنها لم تعرف كيف تدبر جوابها بحيث لا تدحض قناعة تشـــارك فيها ، ولا تشجعه مع ذلك على الاسترسال . ومن ثم خيم صمت طويل .

تابع روبيان يقول :

ــ مع فرق واحد ، هو ان النجوم أقل جمالا من عينيك . ولكن ما هى النجوم فى حقيقة الامر ؟ لئن جعلها الله عالية هذا العلو كله فربما كان ذلك لأنها تفقد كثيرامن بريقها اذا هى رئيت من قرب . أما عيناك فلا . انهما على قربهما منى هــذا القرب كله ، تظــلان واسعتين ، متلألئتين ، بل تظلان أشد تلألؤا من السماء .

ان روبيان يبدو لها الآن بفصاحته وجرأته مختلفا كل الاختلاف عن عهدها به . ولم يتوقف روبيان عن الـكلام ، بل تابع حديثـه حول هذا الموضوع نفسه . انه ليس غنيا بالافكار . والموقف رغم ما طرأ على صاحبنا من تبدل ، خليق بأن ينضب معين أفكاره بدلا من أن يوحي اليه بأفكار جديدة . وكانت صوفيـا لا تدرى ماذا تفعل . لقد جاءت الى الحديقة فى صحبة حمــل وديع هادىء ، فاذا هى الآن مع ذئب شره يتضور جوعا .

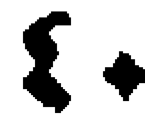
كان لابد من أن ترد بشيء ما ، أن تضـطره الى السكوت ، أن تقول له انه يسير فى طريق لا تحب أن تسـير فيه ، ولـكن على ألا تغضبه وألا تطرده ... وبحثت صوفيا عن مخرج ، لـكنها لم تجد مخرجا ، لانها كانت تصطدم دائما بهـذا السؤال الذى لم تعثر له على حل. أتتظاهر بأنها فهمت ، أم تتجاهل ذلك ؟ وتذكرت عندئذ اللفتات اللطيفة والـكلمات الرقيقة التى بذلتها لروبيـان ، وتذكرت العناية الخاصة التى أحاطته بها . انه لمن المستحيل اذن أن تتظاهر بأنها تجهل معنى هذه العبارات الغزلية التى يقولها . ولـكن كيف تعترف بأنها فهمتها ثم لا تطرده فورا ؟ تلك هى المشكلة

كأن النجوم فى أعلى السماء كانت تضحك من هذا الموقف المعقد.

أما ان القمر رآهمـا ، فلا ضـير .. ان القمر يجهل فن الهزء والسخر . والشعراء الذين يجدونه حزينـا كاسف البال يدركون

انه كان ذات يوم عشيق احدى النجوم الشاردة ، وان عشيقته قد هجرته بعد بضعة قرون . ومن يدرى ؟ لعلهما لايزالان عشيقين ، ولعل الخسوف « واغفروا لى جهلى بعلم الفلك » الا يكون الا موعد غرام ، ولعل الاسطورة التى تروى ان ديانا هبطت الى الارض لتلقى اندميون ان تكون اذن صادقة . ولكن لماذا هبطت الى الارض ؟ أى ضير فى أن يلتقى العشيقان فى السماء نفسها ، كما تلتقى الجداجد هنا على الارض بين أوراق الشجر ؟ ان الليل يتولى ستر كل شىء بغلالته السمحة .

ثم ان القمر وحيد ، والوحدة تحمل صاحبها على الجد . ولا كذلك جمهرة النجوم انها أشبه بعصبة من الفتيات الجميلات الفرحات المهذارات ، يضحكن ويتحدثن بصوت واحد معا عن جميع الاشياء وجميع الناس . لست أنكر انهن عفيفات . ولكن ذلك يكون عندئذ أسوأ وانكى ، فهن يضحكن اذن دون أن يفهمن !.. النجوم العفيفات .. ذلك هو الاسم الذى يطلقه عليهن عطيل الرهيب وتريسترام شاندى المرح ، كلاهما . ان المرء لايستطيع أن يتخيل رجلين يبلغ التعارض بينهما فى القلب وفى العقل على السواء ، ما يبلغه التعارض بين هذين الرجلين. ومع ذلك نراهما يتفقان فى هذا الامر، وهو انهما كليهما يصفان النجوم بالعفة . وهذه النجوم العفيفات تسمع الآن كل شىء ، تسمع كل ما تجاسر فم روبيان المتهور على أن يلقيه فى أذن صوفيا المبهوتة . ان أقل ما أصبح من الممكن أن يوصف به صديقنا الخجول « يأيتها النجوم العفيفات ! » هو انه متحلل . الا نستطيع ان نقول انه «ابليس» نفسه ، حاول أن يخدع المرأة الشابة بجناحيه الملائكيين اللذين وهبهما له الله ، ثم اذا به يخفيهما فجأة فى جيبه ، ويتعرى ليظهر فى قرنيه الخبيثين فوق قمة رأسه ؟ انه يضحك ، تلك الضحكة المواربة التى يصطنعها الخبثاء ، يعرض عليها فى آخر الامر لا أن يشترى روحها فحسب ، بل أن يشترى جسدها أيضا .. يا أيتها النجوم العفيفات !



تمتمت صوفيا تقول :

ـــ فلنعد .

وقد أرادت أن تسحب ذراعها ، لكن روبيان أمسك بها .

لا .. لماذا نعود ؟ نحن هنا مرتاحان ، مرتاحان جدا .. أين يمكن أن يتوافر لنا من الراحة ما يتوافر هنا ؟ أم تراني أضايقك ؟
فأجابت صوفيا بأنه لا يضايقها ، بالعكس .. ولكن عليها أن تعود الى الصالون لتعنى بضيوفها .. انهم هناك منذ مدة طويلة .

ـ منذ أقل من عشر دقائق . ما عشر دقائق ؟

ـ ولكن قد يلاحظون غيابنا .

ارتعش روبيان حين سمع كلمة «غيابنا» ... غيابنا «نحن» ... ورأى في ذلك بداية تواطؤ . ربما لاحظوا «غيابنا» حقا . انها على حق . يجب أن يفترقا . لكنه يريد أن يسألها شيئا واحدا ، بل شيئين . الاول هو ألا تنسى هذه الدقائق العشر الرائعة مدى الحياة ، والثاني هو أن تنظر كل يوم ، متى هبط المساء ، الى «صليب الجنوب» ، لانه سيفعل ذلك هو أيضا ، فتتصل روحاهما عندئذ اتصالا حميما في مكان وسط بين الله والبشر .

كان هذا الرجاء شعريا ، لكنه كان ضاريا كذلك . فلقد كان روبيان ، وهو يشد على يد المرأة الشابة ليمنعها من الذهاب ، يرشقها بنظرة ملتهمة ، فلا حركته ولا نظرته تشتمل على أى أثر من شعر . وأوشكت صوفيا أن توجه الى روبيان كلمة حادة ، لكنها تذكرت ان روبيان صديق وفي للأسرة فصمتت . وأرادت أن تضحك ، لكنها لم تستطع ذلك ، فحرنت في أول الامر ، ثم اذعنت ، ثم توسلت وتضرعت . تضرعت اليه باسم أمه التى لاشك انها في السماء ... لكن روبيان لم يعبأ بالسماء ، ولا بأمه ، ولا بشيء . وكان يمكن أن يقرأ المرء في وجهه قوله : ما السماء ؟ ما أمي ؟

دمدمت المرأة الشابة تقول بصوت خافت :

ـ آى ... حطمت أصابعي .

وعندئذ أخذ روبيان يثوب الى صوابه ، فخفف الضغط على أصابعها لكنه لم يتركها . قال لها :

ـ طيب ... اذهبي ، ولكن يجب أولا ...

ومال ليقبل يدها فاذا هو يسمع صوتا قريبا يرده الى الاحساس بالواقع ردا كاملا .

٤١

ـ هيه ! تتأملان جمال ضوء القمر ؟ انه رائع ، أليس كذلك !

هذه ليلة خلقت للعشاق ... حقا انه رائع .. لم أر ليلة كهذه الليلة منذ زمن بعيد .. انظرا ما أجمل الانوار تحت .. انها رائعة الهية ... مثل أعلى للعشاق ... العشاق يحبون دائما ضوء القمر ... فى زمانى ، بمدينة ايكاراهى ...

انه الماجور الرهيب سيكويرا . لم يعرف روبيان ماذا يقول. حتى اذا انقضت لحظات الدهشة الاولى استعادت صوفيا روعها ، فقالت ان الليلة جميلة حقا ، وأضافت ان روبيان يصر على القول ان ليالى ريو لايمكن أن تضاهى ليالى بارباسينا ، وقد قص على فى هذه المناسبة نادرة عن كاهن يقال له ماندس ... اسمه ماندس . أليس كذلك ؟

فدمدم روبيان يقول :

ــ ماندس ، نعم ، الكاهن ماندس .

لم يكن فى وسع الماجور أن يخفى دهشته . فانه قد رآهما بأم عينيه وقد تماسكت يداهما ومال روبيان عليها برأسه قليلا ، ورأى انتفاضتهما حين وصل الى الحديقة ، فكيف يزعمان انهما كانا يتحدثان عن كاهن اسمه ماندس ؟ ونظر الى صوفيا فلم ير الا وجها ضاحكا هادئا لا سبيل للاضطرابات اليه ... لا أثر لخوف أو انزعاج . انها تتحدث فى انطلاق حر مسترسل !.. جعل الماجور يقول لنفسه : لعلنى قد أسأت الرؤية . لكن روبيان أفسد كل شىء . انه منزعج صامت ، لم يزد على أن أخرج ساعته فقربها من اذنه كأنها متعطلة ، ثم مسحها بمنديله مسحا خفيفا دون أن ينظر الى صوفيا ولا الى الماجور .

ــ استمرا فى الحديث... أما أنا فعلى أن أذهب لارى صديقاتى. لا أستطيع أن أدعهن وحدهن . هل انتهى الرجال من لعبهم المنحوس ؟

فقال الضابط وهو ينظر الى صوفيا نظرة غريبة :

ــ نعم لقد انتهوا . حتى انهم سألوا عن السيد أين هو . ومن أجل ذلك جئت الى هنا عسى أن أجده فى الحديقة . أأنتما هنا منذ مدة طويلة ؟

قالت صوفيا :

ــ بل منذ لحظة ..

ثم تركتهما واتجهت نحو البيت بعد ان ربتت على كتف الماجور فى مودة . وحرصت على أن تتحاشى الدخول من باب الصالون ،

فدخلت من باب غرفة الطعام ، فاذا لحقت بضيوفها ، ظنوا انها كانت أثناء هذه الغيبة تأمر الخدم بتهيئة الشاى .

واسترد روبيان صوابه ، لكنه ما زال لا يجد ما يقول . وكان لزاما عليه مع ذلك أن يقول شيئا ما . نادرة الكاهن ماندس فكرة طيبة . لكن الصعوبة هى انه ليس هناك كاهن ولا نادرة . وأحس انه عاجز عن أن يلفق أى شىء . فاكتفى بأن دمدم قائلا :

ـ ها .. نعم .. الاب ماندس .. حقا لقد كان رجلا فكها ، هذا الكاهن ماندس .

قال الماجور وهو يبتسم :

ـ أنا أعرف هذا الكاهن . الكاهن ماندس ! أعرفه تمام المعرفة . رحمه الله . هل مكث فى ولاية ميناس بعض الوقت ؟

دمدم الآخر مبهوتا :

ـ أظن ذلك .

ـ أصله من ساكواريا . كانت تنقصه هذه العين « قال الماجور ذلك وهو يسدد اصبعه الى عينه اليسرى » . اذا كان هذا هو ، فاننى أعرفه تمام المعرفة . أم لعل الذى ذكرتماه شخص آخر ؟

ـ جائز جدا .

ـ رحمه الله . كان رجلا لامأخذ عليه ، لكنه كان يحب رؤية النساء الجميلات ، كما يحب المرء أن يتأمل لوحة جميلة لرسام كبير . وأى رسام كبير يمكن أن يقارن بالصانع الاعظم ؟ انظر مثلا الى السيدة صوفيا . كان لا يصادفها فى الشارع مرة الا ويقول لى بعد ذلك : التقيت اليوم بزوجة باليا الجميلة .. رحمة الله عليه . انه من ساكواريا .. ولاشك فى انه كان على جانب كبير من حسن الذوق .. ان امرأة صديقنا باليا رائعة حقا ، رائعة الوجه ، رائعة الجسم ، بل اننى لاراها أقرب الى حسن التكوين منها الى الجمال بالمعنى الاصلى .. ما رأيك ؟..

أجاب روبيان :

ـ نعم ، ربما كنت على حق .

فأضاف الماجور وهو يشعل لفافة سيجار :

ـ زد على ذلك انها لطيفة وربة بيت ممتازة .

ان نور الثقاب قد بسط على وجه الماجور تعبيرا وحشيا ، أو تعبيرا عدائيا فى أقل تقدير . وشعر روبيان بقشعريرة تسرى فى ظهره . ترى هل سمع الماجور شيئا ؟ هل رأى شيئا ؟ أم انه

حزر ؟ هل روبيان امام شخص متكتم ، أو هو امام شخص خبيث متآمر ؟ ان وجه الرجل موصد لايمكن النفاذ اليه . ومهما يكن من امر فخير لروبيان أن يتوقع ما هو شر . ولو رأيت بطلنا على ذلك الوضع الحزين ، لحسبته واحدا من أولئك الملاحين الحذرين الذين ظلوا سنوات طويلة يبحرون على محاذاة الشواطىء فاذا هم يجدون أنفسهم ذات يوم وسط الامواج فى عرض البحر . ومن حسن الحظ ان الخوف يوحى الى صاحبه ببعض الافكار فى كثير من الاحيان . فها هو ذا روبيان يخطر بباله فجأة أن يتملق صاحبه ، فقال فى غير تردد انه يجده شخصا محببا الى القلب كثيرا ، وانه يضع منزله الواقع على شاطىء بوتافوجو ، رقم كذا ، تحت تصرفه ، وانه يشرفه كثيراً أن تنعقد بينهما الصلات ، فليس له فى ريو دو جانيرو الا عدد قليل من الاصدقاء : باليا الذى غمره بلطفه ، والسيدة صوفيا الكريمة المهذبة ، وثلاثة أشخاص آخرين او أربعة . انه يعيش وحيدا ، وربما عاد الى ميناس .

ـ فورا ؟

ـ لا .. لن أعود فورا ، ولكن ربما عدت قريبا . انك لتعرف أن من عاش حياته كلها فى مكان ما يصعب عليه كثيرا أن يألف الحياة فى مكان آخر .

ـ هذا يختلف باختلاف الافراد والظروف

ـ صحيح ... يختلف ... لكنه هو القاعدة العامة .

ـ قد يكون هو القاعدة العامة ، لكنك ستكون انت الاستثناء من القاعدة . ان ريو مدينة شيطانية . فالمرء هنا يقع فى الحب بسرعة كسرعة اصابته بالزكام . ولن تمضى لحظات حتى يجىء دورك . أراهن انك ستصبح رجلا متزوجا قبل أن تنقضى ستة أشهر

قال روبيان لنفسه : « اذن لم ير شيئا » .

وأردف يقول فرحا أشد الفرح :

ـ ربما ... ولكن فى وسع المرء أيضا أن يتزوج بميناس ... لايعوزنا هناك كهنة .

فأجاب الماجور ضاحكا :

ـ ولكن يعوزكم هناك الكاهن ماندس .

فابتسم روبيان وقد لاح فى وجهه الانزعاج ، وتساءل هل تضمر كلمات الماجور شيئا من الغمز أم هى لا تضمر شيئا من ذلك . ومن حسن الحظ ان الماجور أستلم زمام الحديث وأخذ يتكلم فى أمور

لا أول لها ولا آخر . تكلم عن الجو ، عن المدينة ، عن الوزارة ، عن الحرب ، عن المارشال لوبيز ، عن غير ذلك أيضا ... لقد تغير الموقف تغيرا كبيرا . لا شيء كان يمكن أن يسر روبيان كما سره هذا السيل من الكلام الذى كان أشد غزارة من سيل الكلام الذى تدفق من الضابط عند وصوله . وكلما ازداد الضابط ايغالا فى حديثه الذى لاينتهى ، ازدادت الغبطة العذبة التى تنتشر فى قلب روبيان . وكان يحاول من حين الى حين أن يقول بضع كلمات اذا استطاع ، لكنه كان لا ينقطع عن هز رأسه خاصة ، علامة الاستحسان والتأييد . واعتقد مرة أخرى ان الماجور لم ير شيئا.

ــ بابا ... بابا ... أأنت هنا ؟

كذلك نادى صوت عند باب البيت ..

انها تونيكا . لقد جاءت تبحث عنه لينصرفا . صحيح ان الشاى سيقدم بعد قليل ، لكنها أصبحت لا تطيق البقاء ، لان صداعا قد ألم بها . هذا ما قالته لابيها بصوت خافت . ثم مدت يديها الى روبيان . فطلب منها أن تبقى بضع دقائق أيضا ، لان والدها المحترم ...

فقاطعه الماجور يقول :

ــ لا تضيع وقتك سدى ، فهى الامرة الناهية !

وألح روبيان على الماجور مرة أخرى أن يزوره فى بيته ، بل رجاه أن يحدد للزيارة موعدا فى هذا الاسبوع نفسه منذ الآن ، لكن الماجور أجابه بأنه لايستطيع أن يلزم نفسه بموعد محدد فورا ، وبأنه سيجيء اليه متى استطاع أن يجيء . ان أوقاته مليئة ، فهناك عمله بالثكنة ، وهو عمل يستغرق وحده وقتا طويلا ، ثم هناك ...

ــ أتنصرف يا بابا ؟

ــ حالا . هل رأيت ؟ لا أستطيع حتى الكلام لحظة . هل استأذنت ؟ ترى أين قبعتى ؟

٤٢

أثناء هبوطهما الرابية ، تحملت تونيكا تتمة حديث أبيها . انه حديث لا ينضب معينه ، يتغير موضوعه لا اسلوبه . لكن تونيكا سمعت هذا السيل من الكلام دون أن توليه أقل انتباه . انها

غارقة فى تخيل كل ما حدث ذلك المساء ، وفى تصور نظرات صوفيا وروبيان .

ووصلا الى بيتهما بشارع « سينا » . مضى الاب الى فراشه . أما البنت فلم تستلق على سريرها رأسا ، وانما جلست على كرسى صغير قرب منضدة كانت تحتفظ فوقها بصورة العذراء . لا تظنوا ان عواطف كريمة هادئة تهز نفسها . انها وان لم تعرف من الحب شيئا ، تفهم بعض الفهم ما هى الخيانة الزوجية . وبدت لها صوفيا فى صورة كريهة منفرة ، تراءت لها فى ملامح شيطان نصفه امرأة ونصفه أفعى . وشعرت نحوها فجأة بكره شديد ، وقررت أن تنتقم منها شر انتقام ، بابلاغ زوجها كل شىء . قالت لنفسها : «سأذكر له كل شىء ، شفاها أو كتابة ... لا بل شفاها ... سأقول له كل شىء ، يوم أنفرد به » .

وأطلقت العنان لخيالها ، فتصورت باليا وهو يبهت للنبأ ، ثم تصورت غضبه ، وتصورت ما سيوجهه الى امرأته من تقريع وشتم : شقية ، حقيرة ، قذرة . ما أجمل وقع هذه الكلمات فى قلبها المستعر . وراحت ترددها فتجد فيها شفاء لغليلها هى . انه ليسرها أن تذل صوفيا بالخيال ، وأن تتصور أن زوجها سيمرغها فى الوحل ، ما دامت لا تستطيع أن تفعل بها ذلك هى نفسها !.. قذرة ، حقيرة ، شقية ...

واستمر هذا الحنق الداخلى مدة طويلة ، استمر نحو عشرين دقيقة ... ثم هدأ قلب تونيكا ، وثاب اليها رشدها شيئا بعد شىء . والحق انها كانت فقيرة الخيال ، لذلك لم تلبث أن عادت الى الواقع القريب . نظرت حولها ، فلم تر الا غرفتها ، غرفة العانس ... كل شىء مرتب فى فن ، فى فن بارع خلع مظهر الحرير على قماش من الكريتون ، وخلع شكل الستائر على قطع بالية من النسيج ، واستطاع أن يزين أبسط الاشياء فيحيل منظرها القاسى الى منظر جميل ، واستطاع أن يبدل حزن الجدران العارية فرحاء وأن يخفى فقر الاثاث القليل . لكأنها قد أعدت كل شىء لاستقبال عريس حبيب .

لكن الريح اثناء عصفها الحانق لم تجلب لها فى يوم من الايام الخطيب الذى طال انتظاره ، لا ولا قال لها الصبح الابلج فى يوم من الايام أين عساها تعثر عليه . فلا شىء الا أن تنتظر ، وأن تنتظر

ولما هدأ غضب تونيكا وسكن خيالها ، تأملت غرفتها المنعزلة مرة

أخرى . وأخذت تفكر فى صديقات طفولتها ، فى صديقات المدرسة. لقد تزوجن جميعا ، جميعا ، وآخر واحدة منهن تزوجت ، وهى فى الثلاثين من عمرها ، ضابطا من ضباط البحرية . لقد أنعش هذا الزواج آمال تونيكا بعض الوقت . ولم تكن تونيكا مترددة . لقد خفق قلبها أول مرة لضابط صغير وهى فى الخامسة عشرة من عمرها !.. ما أبعد ذلك العهد الآن! هىاليوم فى التاسعة والثلاثين. والاربعون قريبة كل القرب . أربعون عاما ولا تزال عانسا. وشعرت تونيكا بقشعريرة تسرى فى جسمها . وظلت تنظر حولها ، فعاد الى ذاكرتها كل شيء . وأخيرا نهضت نهوضا مفاجئا ، وسارت بضع خطوات ، ثم تهالكت على سريرها باكية .

٤٣

لا تحسبن أيها القارىء العزيز ان الم تونيكا كان أعمق منغضبها. ان هذين الشعورين اللذين هزاها واحدا بعد واحد لا تختلف قوتهما وانما تختلف نتائجهما . أما الغضب فقد ظل عقيما ، وأما المذلة فقد ولدت تلك النوبة المشروعة من البكاء . ليس معنى ذلك ان تونيكا لم تتمن أن تخنق صوفيا وأن تركلها برجليها وأن تمزق قلبها تمزيقا وهى تلقى فى وجهها تلك الشتائم المقذعة التى أسندتها الى زوجها ... لكن ذلك كله لم يتعد مرحلة الخيال . صدقنى اذا قلت لك ان هناك طغاة لا يخطر ببالك انهم طغاة .. وانما تعوزهم الفرصة . من ذا الذى يستطيع أن يزعم ان كاليجولا لم يعد الى الحياة بضع لحظات فى نفس هذه الفتاة ؟

٤٤

واحد يبكى وآخر يضحك . تلك هى سنة العالم ياسيدىالعزيز، وذلك هو ما يسمونه بالكمال الكلى العام . فان لم يكن ثمة الا دموع كان العالم رتيبا مملا ، وان لم يكن ثمة الا قهقهات كان العالم متعبا . اما التوزيع المناسب للأحزان والافراح ، للبكاء والضحك ، فذلك هو ما يهب العالم تنوعه المنشود ويرد الى الحياة توازنها .

ان روبيان هو الفرح . انظر اليه وهو يهبط الهضبة وقد غمرت قلبه النشوة وأخذ يشهد النجوم على سعادته بموسيقى لا تستطيع أى لغة أن تصفها . فلما وصل الى تحت بدت له الشوارع الخالبة

مليئة بجمهور نشيط متحرك ، وتحول الصمت فى اذنه الى ضجة صاخبة ، وعلى كل نافذة خيل اليه انه يرى قامة امرأة تميل انيه وتحنو عليه ، امرأة لها وجه أخاذ ، وحاجبان كثيفان. انهن جميعا صوفيا ، صوفيا الوحيدة ، صوفيا الفريدة ، صوفيا التى ليس كمثلها امرأة ! وكان روبيان يتصور فى بعض الاحيان انه قد أسرف فى الجرأة ، وانه لم يلتزم ما ينبغى التزامه من تحفظ . انه يتخيل المشهد الذى جرى فى الحديقة ، ويتصور ما أظهرته المرأة الشابة من مقاومة وتبرم ، فتنتابه عندئذ قشعريرة ، ويرهقه أن يتخيل انهما قد يغلقان باب بيتهما فى وجهه بعد الآن ، وقد يقطعان كل صـلة به .. كل ذلك لانه تعجل الامور .. نعم ، كان ينبغى له أن يصبر .. ان الفرصة لم تكن مناسبة البتة .. كان البيت مليئا بالناس والاضواء .. أى شيطان وسوس له أن يتحدث فجأة فى الحب ، دون احتياط ودون تحفظ ؟ نعم ، لقد كانت على حق ، وانه ليستأهل ما صنعته اذ تركته هناك ومضت .

فكان يخاطب نفسه عندئذ بصوت عال :

ـ لقد تصرفت تصرف مجنون !..

انه لا يفكر الآن فى العشاء الذى كان شهيا ولا فى الخمور التى كانت سخية ، لا ولا فى الـكهرباء التى تتموج فى الهواء حين يكون المرء فى صحبة نساء جميلات . بل يرى انه كان مجنونا ، مجنونا يستحق أن يوثق .

ثم غير روبيان موقفه ، فاذا هو مدافع بعد أن كان متهما. أليست صوفيا نفسها هى التى جرته الى هذا السلوك : نظراتها الـكثيرة الطويلة ، وضعها كله ، ملاحظاتها ، اشـارها اياه باجلاسـه الى المائدة قربها ، ثم عنايتها به ، وهيئتها الناعسة أثناء حديثها اللطيف معه ، هـذا كله كيف لا يعد تشجيعا ونداء ؟ وها هو ذا يلتمس لصاحبته الاعذار . فيعلل التناقض الظاهر بين لفتات تلك المرأة ووضعها فى الحديقة : أليست هذه أول مرة تسمع فيها مثل هذا الـكلام من شخص غير زوجها ؟ ألم يكن من حقها أن ترتعش واللقاء يتم على مقربة من مثل هذا العدد الـكبير من الناس ؟ ثم انه قد أسرف فى سرعة الـكشف عن نفسه ، وتعجل الامور تعجلا كبيرا . حقا انه لم يبرهن على شىء من الاعتدال . كان ينبغى له أن يتقدم خطوة خطوة ، والا يضغط يدها الى الحد الذى يوجعها . وخلص روبيان الى هذه النتيجة : لقد كان خشنا . وعاد مرة أخرى يخشى

ان يغلقا فى وجهه باب بيتهما . ثم ارتد ثانية الى الامل ، ففكر فى وضع المرأة الشابة ، وفى تلك القصة التى اخترعتها هى نفسها ، أعنى قصة الكاهن ماندس ، فرأى انها دليل على التواطؤ ، وفكر كذلك فيما يحمله له زوجها من احترام .. لكنه حين وصل الى هذه النقطة من تفكيره ارتعش . ان هذه الفكرة تجعله يشعر بألم الضمير . نعم ، ان باليا يثق به . زد على ذلك ان باليا مدين له بمبلغ من المال ، عدا ثلاث حوالات قبل أن يوقعها له .

قال لنفسه : « لا أستطيع وما ينبغى لى أن أمضى الى أبعد مما مضيت » . ثم استدرك يقول انه لا يد له فى الامر والحق يقال ، فهى التى تستثيره منذ مدة طويلة . فلتحاول بعد الآن ما شاء لها هواها أن تحاول . لابد اذن من مقاومتها . لقد أقرضته هذا المال دون أن يطلب منى ذلك تقريبا . كنت أعرف انه فى حاجة الى المال صحيح ان الحوالات هو الذى طلب منى أن أوقعها ، لكنه لم يطلب شيئا غير ذلك . ثم اننى أعرف انه رجل نبيل شريف . اعرف انه يعمل كثيرا . ان شيطان المرأة هو الذى جاء يقف بيننا بعينيه الواسعتين وجسمه الجميل . ما أجمله من جسم يارب ! لقد كانت رائعة حقا فى هذا اليوم . حين كانت ذراعها تلمس ذراعى ونحن على المائدة ، رغم كمي ..

كان روبيان قلقا مترددا ، انه لايريد أن يخون صديقه ، لكن ضميره كان ينقسم عندئذ الى معسكرين متعاديين ، يهاجم أولهما الثانى ، ويرد الثانى على الاول معللا ، وكلاهما حائر ..

وبعد أن سار هكذا على غير هدى ، وجد نفسه فجأة فى ساحة الكونستيتوسيون . فخطر له أن يذهب الى المسرح ، لكن أوان المسرح كان قد فات . فاتجه عندئذ نحو ميدان سان فرنسيسكو ليركب عربة ويعود الى بوتافوجو . كان هنالك ثلاث عربات ما لبثت أن اتجهت نحوه تعرض عليه خدماتها . ان سائقى العربات يكيلون المديح لخيولهم . انظر الى هذا الحصان الجميل ، انظر الى هذا الجواد الكريم .

٤٥

أيقظت ضجة الاصوات والعربات متسولا كان نائما على درجات الكنيسة . جلس المسكين ليرى ما حدث ، ثم لم يلبث أن استلقى من جديد . لكنه أفاق من نومه ، وها هو ذا راقد على ظهره

يحدق الى السماء . ان السماء تحدق اليه أيضا ، هادئة كهدوئه سواء بسواء . لكن السماء ليس لها من الشحاذ غضون وجهه ، وليس لهانعلاه الباليتان المثقوبتان، وليس لها أسماله الخلقة . انها سماء رائعة ذات نجوم ، هادئة أولمبية ، كالسماء التى أشرفت من عليائها على زفاف يعقوب أو انتحار لوكرس . ألسماء والشحاذ ينظر كل منهما الى الآخر ، كطفلين يحاول كل منهما أن يضحك الآخر ، ولكن بوقار رفيع ، فلاتكبر ولاصغار، كأن الشحاذ يخاطب السماء بقوله :

« لست بساحقتى على كل حال »

وكأن السماء تجيبه بقولها :

« لا ولا أنت بعارج الى »

٤٦

لم يكن روبيان فيلسوفا البتة . والمقارنة التى عقدها فى هذه المناسبة بين همومه وهموم الفقير البائس لم تحمل اليه الا طرفا من الغيرة . قال لنفسه : « ان هذا الوغد لا يفكر فى شيء . انه سينام بعد لحظة ، أما أنا .. » .

ــ هيا اركب يا مولاى . حصانى من جياد الخيل . سنصل بعد خمس عشرة دقيقة .

وقال الحوذيان الآخران كلاما من هذا القبيل ، ورددا الالفاظ نفسها تقريبا .

ــ تعال يا مولاى وسترى ..

ــ انظر الى هذا الحصان الضامر !

ــ تفضل . لن تستغرق المسافة الا ثلاث عشرة دقيقة . بعد ثلاث عشرة دقيقة تكون فى منزلك .

وبعد تردد طويل ركب روبيان أقرب عربة اليه ، وأمر الحوذى أن يمضى به الى بوتاغوجو . وتذكر عندئذ حادثة من حوادث شبابه كان قد نسيها من زمان طويل . ترى هل ذكرى هذه الحادثة هى التى حملت اليه على غير شعور منه حلا للاضطراب الذى كان يهز نفسه ؟ مهما يكن من أمر فان روبيان لم يكن يرغب فى شيء الا ان يجد خلاصا من هذه الافكار التى كانت تحاصره منذ نهاية تلك السهرة .

وقع ذلك منذ زمان بعيد جدا . كان روبيان يومئذ فى ريعان شبابه ، وكان فقيرا شديد الفقر . ففى ذات يوم ، فى الساعة

الثانية من الصباح ، خرج من البيت الذى يقيم فيه بشارع كالو « وهو اليوم شارع ٧ ايلول ـ سبتمبر » ، ووصل الى ميدان سان فرنسيسكو دى باولا . ومن هناك أخذ يهبط شارع أوفيدور. كانت تدور فى رأسه يومئذ بعض الهموم . انه يسكن عند صديق دعاه الى السكنى معه ثلاثة أيام ، وذلك منذ أربعة أسابيع. والناس تقول ان الضيف يحتمل ثلاثة أيام ، أما بعد ذلك فيصبح ثقيلا . . . والامر الذى لاشك فيه هو ان روبيان الذى كان غرا بسيطا كميناسى ، وكان مع ذلك كثير الشك والحذر كباولستى (١) ، كان فى ذلك اليوم مهموم البال جدا لانه قرر أن يترك بيت صديقه بأقصى سرعة ممكنة . ومنذ خرج من البيت واجتاز ميدان سان فرنسيسكو وهبط شارع أوفيدور ، كان قد بلغ من فرط الفرق فى أفكاره درجة لا يستطيع معها أن يسمع شيئا ولا أن يرى شيئا .

وفجأة ، عند زاوية شارع الاوريف ، أوقفه تجمع عدد من الناس يحيطون بموكب غريب ، ففى وسط الموكب وقف رجل يرتدى ملابس السلطة القضائية ، يتلو حكما بصوت عال وحوله كاهن وجنود وأفراد بله يشاهدون ويسمعون . غير ان هناك زنجيين هما اللذان يلفتان الانتباه . أولهما نحيل متوسط القامة موثق اليدين ، مطرق الى الارض ، أشهب اللون ، فى عنقه حبل مربوط ، والثانى ممسك بالحبل ، رافع رأسه ينظر الى الامام ، ولونه شديد السواد لامع . انه يواجه فضول الناس غير هياب . حتى اذا انتهى القاضى من تلاوة الحكم أخذ الموكب الآتى من السجن الى ميدان مورا ، يسير فى شارع الاوريف .

ومن الطبيعى أن يتأثر روبيان بهذا المشهد تأثرا كبيرا ، وقد لبث مترددا بضع ثوان ، كتردده فى هذا المساء حين كان عليه أن يختار عربة . ان صراعا داخليا يمزقه . فجزء من نفسه يهيب به أن يقفل راجعا وأن يمضى الى شأنه ، وجزء آخر يوحى اليه أن يسير مع الموكب ليشهد شنق الزنجى . انه لأمر نادر أن يرى المرء شنقا . « هيا بعد عشرين دقيقة ينتهى كل شىء » ـ « بل دعك من هذا ، وامض الى شئونك» . وأغمض صاحبنا عينيه واستسلم للمقادير. لكن المقادير لم تجعله يهبط شارع أوفيدور حتى يصل الى كيتاندا ، وانما قادته الى شارع الاوريف خلف الموكب . قال لنفسه : لن أشهد تنفيذ الاعدام . انه لايريد أن يرى الا سلوك

(١) نسبة الى مدينة سان باولو

المحكوم عليه ، ووجه الجلاد ، وباقي الاحتفال .. أما الشنق نفسه فلا يريد أن يراه . وكان الموكب الصغير يتوقف من حين الى حين ليعيد ضابط القضاء تلاوة الحكم بينما يهرع الناس الى أبواب بيوتهم أو يقفون خلف النوافذ . ثم يستأنف الموكب سيره ويستمر في تقدمه على هذا النحو من الفخامة . والتعليقات على الجريمة تنهمر غزيرة . هي جريمة قتل وقعت في ماتابوركوس . والقاتل يوصف بأنه رجل سفاح كاسر . وهذا ما بث في روبيان القوة اللازمة للنظر اليه دونما شفقة . لكن وجه المحكوم عليه بالاعدام ليس الآن وجه مجرم . لقد حل الذعر محل القسوة . وأخيرا وجد صاحبنا نفسه في الميدان الذي سيتم فيه تنفيذ الحكم بالاعدام ، دون أن يشعر بذلك . كان في الميدان أناس كثيرون ينتظرون، انضم اليهم أولئك الذين كانوا يسيرون وراء الموكب ، فامتلأ الميدان بحشد كثيف .

قال روبيان لنفسه : « والآن فلأمض الى شأني » .

لكنه استدرك فقال ان المحكوم عليه بالاعدام لم يصعد على المنصة بعد ، ولن ينفذ فيه الحكم فورا ، وثمة اذن متسع من الوقت . وهبه بقي ففي وسعه أن يغمض عينيه ، كما فعل رجل يقال له أنبيوس أمام مشهد الحيوانات المفترسة . يجب أن نلاحظ هنا أن روبيان لم يسمع في حياته أحدا يتحدث عن ذلك الرجل الذي عاش في الاعصر الخالية . فلم يكن يجهل اذن ان الرجل أغمض عينيه فحسب ، بل كان يجهل أيضا انه لم يلبث أن فتحهما حبا بالاطلاع

ولكن ها هو المحكوم عليه يصعد المنصة . ان رعشة تسري في الحشد كله وبدأ الجلاد عمله . فاستدارت قدم روبيان اليمنى يمنة كأنما هو يريد أن يذهب ، غير ان القدم اليسرى التي كانت تستلهم عاطفة مناقضة ظلت حيث هي ، وقام في نفس روبيان صراع دام بضع لحظات ، كالصراع الذي قام في نفسه منذ قليل : « انظر الى هذا الحصان — انظر الى هذا الحصان الجواد — لا تكن قاسي القلب — لا تكن ضعيف الجنان » . على هذه الحال من التردد ظل روبيان بضع ثوان الى أن أزفت اللحظة الحاسمة . فشخصت الاعين كلها ومنها عيناه الى نقطة واحدة . لم يفهم روبيان ذلك الاحساس العجيب الذي أخذ بأحشائه وأوثقه في مكانه حتى لكأن يدا من حديد قد سمرته . ولم تدم اللحظة الحاسمة الا هنيهة خاطفة . اضطربت ساقا الرجل فجأة في تشنج،

ثم تصلب جسمه كله ، بينما وثب الجلاد الى كتفيه فى مهارة . وسرت فى الحشد همهمة . وصرخ روبيان . ثم لم ير شيئا .

٤٧

لعلك لاحظت يا صاحب السعادة كيف ان حصانى سريع

فتح روبيان عينيه وكان قد أغمضهما نصف اغماضة ، فرأى الحوذى يقرع سوطه قرعا خفيفا ليحث الحصان على العدو. انزعج روبيان فى داخل نفسه من الرجل لأنه انتزعه من ذكرياته التى كان غارقا فيها . صحيح انها ليست بالذكريات الممتعة ، ولكن هذه الذكريات البعيدة كل البعد تمتاز الآن بأعظم مزية وهى انها تمنعه من التفكير فى الحاضر ، فكأنها اكسير عجيب . وها هو ذا الحوذى يوقظه فيفيق منتفضا . ان العربة تصعد شارع لابا .. حقا لقد كان الحصان يلتهم المسافة التهاما ...

وتابع الحوذى كلامه قائلا :

ـ أن هذا الحصان يضمر لى حبا عظيما . أعرف ان ذلك أمر يصعب تصديقه . لكننى أستطيع أن أقص عليك قصصا خارقة فى هذا الصدد . هنالك أناس يقولون اننى ألفق حكايات لكن ما أقوله ياسيدى هو الحقيقة الخالصة . يعرف الناس جميعا ان الحصان والكلب خير صديقين للانسان . وربما كان الكلب يمتاز بهذا على الحصان ...

فما أن سمع روبيان كلمة « الكلب » حتى تذكر كونكاس بوربا فجأة . لا شك ان الحيوان ينتظره بفارغ الصبر . ان روبيان لم ينس الشرط الذى اشتملت عليه الوصية ، وقد حلف لينفذه تنفيذا دقيقا . ويجب أن نذكر من جهة أخرى انه لايخاف أن يهرب الكلب فحسب ، بل يخاف كذلك أن يفقد أمواله . وكان هذا الخوف لا يزايله رغم كل ما كان يقوله له المحامى. كان المحامى يقول له : ان الوصية لا تشتمل على أى بند ينص على ان المال يئول الى شخص آخر اذا هرب الكلب ، معنى ذلك ان الميراث لايمكن أن يفلت منك ، ففيم الخوف من هربه ، ولعل الافضل أن يهرب ، فتنقص همومك .. هذا كل ما فى الامر . كان روبيان يتظاهر بقبول هذه الشروح ، لكن الشك يظل قائما فى قرارة نفسه . ان ما يعرفه من أمثلة كثيرة عن دعاوى طال أمدها ، وما يعرفه من اختلاف الآراء القضائية فى أمر واحد بعينه ، وما قد

يشنه حاسد أو حاقد من هجوم عليه ، وخوفه من أن يصبح ذات يوم فقيرا لا يملك شروى نقير، كل ذلك كان لايزال ينقر فى رأسه. وهذا هو السبب فى انه فرض على الكلب ذلك الحبس القاسى ؛ وهذا هو السبب أيضا فى أنه شعر بعذاب الضمير حين تذكر انه قضى فترة ما بعد الظهر وفترة السهرة دون أن يفطن الى كونكاس بوربا مرة واحدة .

قال لنفسه : « اننى عقوق » .

ثم لم يلبث أن استدرك فقال انه أشد عقوقا من ذلك أيضا ، لأنه لم يتذكر كونكاس بوربا الآخر الذى أورثه كل شىء . وفجأة خطر بباله أن كونكاس بوربا الكلب وكونكاس بوربا الرجل قد لا يكونان الا مخلوقا واحدا بعينه ، فلعل روح كونكاس بوربا الراحل قد تقمصت جسد كونكاس بوربا الكلب ، لا لتتطهر من خطاياها فحسب ، بل لتراقب المولى الجديد للكلب . ان زنجية من سان جوان دلرى هى التى أدخلت فى روعه أفكار التناسخ هذه حين كان صبيا . قالت له انها الارواح المثقلة بالخطايا تحل فى أجسام الحيوانات ، حتى لقد حلفت له انها تعرف كاتبا بالعدل قد تحول الى قنفر أمريكى ..

ــ أرجو من سعادتك ألا تنسى أن تقول لى أين يقع البيت .

كذلك قال له الحوذى فجأة . فأجابه روبيان :

ــ قف هنا .

٤٨

نبح الكلب من داخل المنزل ، ولكن ما ان دخل روبيان حتى هرع اليه فرحا أعظم الفرح ، فغمره روبيان بملاطفاته رغم انه كان منزعجا أشد الانزعاج . تصور ان الراحل قد يكون ثاويا فيه ، فسرت فى جسمه قشعريرة قوية . وصعد الاثنان درجات المصطبة ، ثم لبثا عليها بضع لحظات فى ضوء مصباح أمر روبيان أن يظل مشتعلا . ان صاحبنا روبيان أقرب الى التصديق الساذج منه الى الايمان . ما من عقيدة كانت تدفعه الى أن يهاجم أى شىء أو ان يدافع عن أى شىء . حتى ليمكن تشبيه ذهنه بقطعة رخوة من الشمع لم ينقش عليها شىء حتى الآن . وقد وهبت له حياة ريودو جانيرو هذه الميزة الخاصة . أن يستطيع الظهور بمظهر الجاحد فى عالم يضم أناسا لا يصدقون !

وبانتظار أن يفتح له الباب ، أخذ ينظر الى الكلب . وأخذ الكلب ينظر اليه نظرة يحق للمرء معها أن يتصور ان كونكاس بوربا الاصلى قائم فيه . انها تلك النظرة الممتلئة بالتأمل التي كان يصطنعها الفيلسوف حين يتحدث فى كبريات المشكلات الانسانية ... واقشعر بدن روبيان مرة أخرى . لكن خوفه ، على شدته ، لم يكن من القوة بحيث يشل يديه ، وها هو ذا يمر بهما على رأس الكلب ، ويدغدغ أذنيه ورقبته .

— مسكين كونكاس بوربا . أنت تحب مولاك ، أليس كذلك ؟ انك تعرف ان روبيان صديق وفى لكونكاس بوربا ...

والكلب يحرك رأسه تحريكا بطيئا ، من اليسار الى اليمين ومن اليمين الى اليسار ، ليتيح لصاحبه أن يحسن مداعبة أذنيه الطويلتين المتهدلتين ، ثم يرفع ذقنه ليحك له صاحبه رقبته . وصاحبه يطيع ... وعينا الكلب ، اللتان كانتا من اللذة مغمضتين نصف اغماضة ، قد ظهر فيهما ذلك المعنى الذى كان يظهر فى عينى الفيلسوف حين كان يشرح لروبيان ، من على سريره ، أمورا لايفهمها روبيان الا قليلا أو لايفهمها البتة !.. وأغمض روبيان عينيه. وفتح له الباب أخيرا . فودع الكلب لكنه كان بتودده وتحببه اليه اثناء الوداع كمن يطلب اليه أن يدخل . وتولى الخادم الاسبانى ارجاع الكلب الى تحت .

أمر روبيان الخادم بقوله :

— لا تضربه !

ولم يضربه الخادم ، لكن ارجاعه الى تحت كان وحده أمرا مؤلما ، فظل الكلب الطيب يئن فى الحديقة مدة طويلة . دخل روبيان ، فخلع ثيابه ، ورقد على سريره . آه .. حقا لقد عاش يوما حافلا بالانفعالات المتنوعة المتناقضة : من أحلامه عند الصباح وغدائه مع صديقيه ، الى فكرة التقمص التى راودته ، بالاضافة الى ذكرى المشنوق والى اعترافه بالحب ، وهو اعتراف لم يقبل فى الظاهر قبولا حسنا ، لكنه لم يصد كذلك صدا عنيفا ، كما أنه لم يعد سرا خافيا ... وهذا أنكى ما فى الامر !

كل شىء يختلط الآن فى رأس روبيان ، فكره ينقذف من جهة الى جهة ككرة من المطاط بين يدى صبى ، ولكن الاحساس بالحب أقوى احساس . ان روبيان مدهوش من نفسه ، بل هو نادم على موقفه . غير ان الندامة لا وجود لها الا فى ضميره ، أما خياله

فلا شيء يستطيع أن ينتزع منه صورة صوفيا ... دقت الساعة الاولى من الصباح ، ثم دقت الثانية والثالثة ... لا تزال صوفيا تلوح من بعيد .. ولا يزال الكلب ينبح تحت .. والنوم لا سبيل اليه .. الساعة قد دقت الثالثة ، ولكن منذ متى ؟ ها هي ذي تشير الآن الى الثالثة والنصف . وأخيرا ، بعد تلك الخواطر كلها ، غلبه النوم فى لحظة . كانت الساعة عندئذ تقارب الرابعة من الصباح .

٤٩

أيتها القارئة العزيزة ، لاتحسبي انذلك اليوم الحافل قد انتهى. اننا لا نعرف ما الذى جرى بين صوفيا وزوجها بعد انصراف ضيوفها ، وربما كان ذلك أشيق من مشهد تنفيذ الحكم بالشنق .

عليك اذن بالصبر ، ولنعد الى سانتا تيريزا مرة أخرى . ان الصالون لايزال مضاء ، لكنه مضاء بمصباح واحد ، أما المصابيح الاخرى فقد أطفئت ، وكان هذا المصباح الوحيد على وشك أن يطفأ هو أيضا ، حين طلب باليا الى الخادم أن يتريث قليلا . كانت صوفيا تهم أن تترك الحجرة ، لكن زوجها أوقفها فارتعشت . قال لها :

ـ كانت حفلتنا موفقة جدا .

ـ نعم ، موفقة جدا .

ـ سيكويرا مزعج ، لكن مرحه يجعله محتملا على كل حال . كانت ابنته أنيقة هذا المساء . هل لاحظت كيف كان راموس يلتهم كل ما يوضع فى طبقه ؟ لسوف ترين فى ذات يوم انه أكل زوجته..

قالت صوفيا مبتسمة :

ـ زوجته ؟

فأجابها زوجها :

ـ أوافقك على انها سمينة قليلا . لكن زوجته الاولى كانت أسمن منها ، ولا شك انها لم تمت ميتة طبيعية ، وانما ابتلعها هو

كانت صوفيا مسندة ظهرها الى الاريكة تضحك لأمازيح زوجها . وتنادرا ببعض ما جرى فى الحفلة أيضا . وفجأة قالت صوفيا لزوجها وهى تدغدغ شعره :

ـ لكنك لا تعرف الى الآن اطرف حادثة وقعت فى السهرة .

ـ ما هى ؟

ـ حزر ..

صمت باليا بضع لحظات وهو ينظر الى امرأته محاولا أن يعرف ما تلك الحادثة التى هى أطرف ما حدث فى السهرة . لـكنه لم يستطع أن يحزر . افترض عدة فروض فكانت امرأته تهز رأسها نفيا . فقال لها أخيرا :

ـ ما هى اذن ؟

ـ لا أدرى .. حزر ..

ـ لم أستطع أن أحزر .. قولى ما حدث !

ـ على شرط .. لا أريد صراخا ولا زعلا .

فأظلم وجه باليا . صراخ ؟ زعل ؟ ما عسى أن يكون الامر اذن ؟ أصبح لايضحك ، وانما تطوف على شفتيه ابتسـامة مصطنعة ، شاحبة ، مذعنة . تفرس فى وجه امرأته ، وسألها :

ـ ماذا حدث ؟

ـ هل تعدنى بما طلبته منك ؟

ـ أعدك .. ما هو الامر ؟

ـ اذن فاعلم اننى فى هذا المساء سمعت شيئا أقل ما يوصف به هو انه تصريح غرامى .

شحب وجه باليا شـحوبا شديدا . انه لم يعدها بألا يشحب وجهه . نحن نعلم انه كان يبلغ من حبه لزوجته ذلك المبلغ الغريب وهو أن يعرض جمالها الى أبعد حد . لـكن النبأ الذى تذكره الآن لا يمكن أن يثيره . ولاحظت صوفيا اصفراره المفـاجىء ، ضرها انها أثارته هذه الاثارة الشديدة . ومن أجل أن تستمتع بهذه اللذة مدة أطول مالت بصدرها وحلت طارة شعرها التى كانت تضايقها قليلا ، ووضعت دبابيس شعرها فى منديلها ، وتنفست تنفسا طويلا ثم هزت رأسها وامسكت بيد باليا الذى ظل طوال ذلك الوقت واقفا

ـ هى الحقيقة ياعزيزى ، لقد تغزل أحدهم الليلة بزوجتك .

فقال باليا وقد نفد صبره :

ـ ولـكن من هو ذلك الوغد الذى تجرأ ؟

ـ لا ... اذا غضبت هذا الغضب كله فلن أقول شيئا .. من هو ؟ اتريد أن تعرف من هو ؟ اذن حافظ على هدوئك .. هو روبيان .

ـ روبيان ؟

ـ نعم ، وما كنت لأتصور صـدور مثل هـذا عنه . انه يبدو

خجولا شديد الخجل ، متحفظا شديد التحفظ . صدق من قال : ليس الراهب بمسوحه . ما من أحد من الرجال الكثيرين الذين يزوروننا خاطبني يوما بمثل ما خاطبني به هذا الرجل . صحيح أنهم ينظرون الى لانني غير دميمة .. لماذا تسير هكذا جيئة وذهابا ؟ قف .. لا أريد أن أرفع صوتي . نعم . هكذا أحسن . لنعد الى الموضوع . انه لم يكاشفني بالحب مكاشفة صريحة .

ــ ها .. اذن لم يفعل ؟

كذلك قاطعها زوجها على الفور . فأجابته بقولها :

ــ لكن النتيجة واحدة .

وقصت عليه ما جرى فى الحديقة ، منذ لحظة خروجها اليها مع روبيان حتى لحظة وصول الماجور . وختمت القصة بقولها :

ــ هذا كل ما حدث . وهو كاف الآن لتدرك انه اذا لم ينطق بكلمة الحب فما ذلك الا لأن هذه الكلمة لم تراود شفتيه . لكنى أؤكد لك أن يديه كانتا تتكلمان كلاما واضحا حين كانتا تشدان على أصابعى .. هذا كل شىء . غير ان علينا الآن أن نغلق الباب فى وجهه ، سواء أفعلنا ذلك دفعة واحدة أم شيئا بعد شىء . أما انا فأفضل أن نغلق الباب فى وجهه فورا . على ان الامر لك ، تفعل ما تشاء . ما رأيك ؟

ظل باليا بضع لحظات ينظر الى زوجته نظرة بلهاء ، وهو يعض على شفته السفلى . ثم جلس على الاريكة دون أن يقول شيئا . انه يفكر فى الامر . وها هو ذا يجد ان من الطبيعى أن تأسر فتنة زوجته رجلا من الرجال ، فلماذا لا يكون هذا الرجل روبيان ؟ لكنه كان يثق بروبيان ثقة عظيمة حتى لقد كتب بنفسه نص البطاقة التى أرسلتها اليه صوفيا مع سلة الفاكهة ، ولم تزد صوفيا على أن نسختها ووقعتها وأرسلتها . ما كان ليخطر ببال باليا يوما أن روبيان يمكن أن يصرح بحبه لأى امرأة من النساء ، فكيف بصوفيا؟ ولكن هل الامر أمر حب حقا ؟ الا يمكن أن يكون أمر مزاح يبيحه له ما بينه وبين الاسرة من مودة حميمة ؟ صحيح ان روبيان كان ينظر اليها كثيرا ، وان صوفيا كانت تبادله النظرات فى بعض الاحيان .. لكن هذا ليس الا تلطفا من امرأة جميلة . ثم ما دامت العينان ملك يمينه هو ، أفلا يستطيع أن يتكرم على غيره ببعض نظراتهما أحيانا ؟ ما ينبغى لامرىء أن يكون غيورا على عصب بصرى على كل حال . بذلك حدث باليا نفسه . ونهضت صوفيا ومضت الى البيانو

تضع عليه المنديل الذى لفت به دبابيس شـعرها ، ونظرت الى وجهها فى المرآة لترى كيف صار شـعرها بعد أن حلت طارته . فلما عادت الى الاريكة تناول زوجها يدها وقال لها وهو يضحك :

ـ يخيل الى انك تصدعين راسك أكثر مما يستحق الامر . ان تشبيه عينى امرأة بالنجوم ، أو تشبيه النجوم بعينيهـا ، شيء يستطيع المرء أن يفعله على مرأى ومسمع من جميع الناس ، حتى ليستطيع أن يهتف به فى حشد من الملأ شـعرا أو نثرا . وذات العينين الجميلتين المسرفتين فى الجمال هى المسئولة عن الامر كله . ثم اننى رغم كل ما قصصته على ، ما زلت أعده ريفيا غرا .

ـ الشيطان اذن ريفى غر ، لاننى قد رأيت فيه الشيطان نفسه . ثم ما قولك فيما طلبه الى من أن أتأمل صليب الجنوب فى ساعة معينة من الليل لتلتقى روحانا ؟

فأجاب باليا قائلا :

ـ فى هذا شيء من الحب طبعا . ولـكن الا ترين ان مثل هذا العمل الساذج لايمكن أن يصدر الا عن نفس بسيطة بعض البساطة . هذه هى اللغة التى تستعملها البنات فى الخامسة عشرة من العمر . وهى اللغة التى يستعملها البله فى جميـع الازمان ... ويستعملها كذلك الشعراء . وما هو بالبنت ولا هو بالشاعر .

ـ صحيح ... ولـكن ما قولك فى انه شد على يدى ليمنعنى من مغادرة الحديقة ؟

انتفض باليا حين سماع هـذا السؤال . ان الشيء الذى كان لايزال يؤلمه أشد الايلام هو أن أيديهما قد تلامست وأن صاحبه لجأ الى القوة ليحول بين زوجته وبين الانصراف .. حقا انه لو استطاع لذهب الى روبيان يمسك بتلابيبـه . غير ان أفـكارا أخرى مرت بخاطره فمحت هذه الرغبة من نفسه ، فاذا بصوفيا التى خشيت أن تكون قد أهاجته ، تراه يرفع كتفيه احتقارا ، ولا يزيد على أن يقول ان ذلك كان منه فظاظة فى حقيقة الامر . وأضاف يقول :

ـ ولـكن ، يا صوفيا ، كيف خطر ببالك أن تدعيه الى الحديقة لرؤية ضوء القمر ؟

ـ لقد طلبت الى تونيكا أن تأتى معنا .

ـ ولـكن حين رفضت تونيكا مرافقتكما كان ينبغى لك أن تجدى وسيلة للعدول عن الذهاب والاعذار فى هـذه الحالة سهلة . أنت قيضت له الفرصة .

نظرت صوفيا اليه وقد قطبت حاجبيها الكثيفين ، وهمت أن تجيبه لكنها صمتت . واستمر باليا يفيض فى هذا النوع نفسه من الكلام قائلا ان الغلطة غلطتها هى ، وأنه كان عليها ألا تتيح له الفرصة ...

قالت امرأته :

ـ ولكن ألست انت الذى قلت لى ان علينا أن نعامله فى كثير من المراعاة ؟ وما كان لى طبعا أن اذهب معه الى الحديقة لو كنت أقدر ما سيحدث فيها ، ولكن أين لى أن أتوقع من رجل هادىء هذا الهدوء كله ، من رجل « لا أدرى كيف أصفه » ، أن يخرج فجأة من قوقعته ليغازلنى هذه المغازلة ؟

فقال لها زوجها وهو يبتسم ابتسامة متكلفة :

ـ اذن عليك بعد الآن أن تسيئى الظن فى القمر والحديقة .

ـ ولكن ، يا كرستيانو ، كيف أكلمه حين يأتى الى هنا مرة ثانية ؟ لا ... اننى أشعر بأننى لن أستطيع ذلك قطعا . اسمع... الافضل ألا تراه بعد اليوم أبدا .

فوضع باليا ساقا على ساق ، وأخذ ينقر على حذائه . وظلا كلاهما صامتين فترة من الوقت . ان باليا يفكر فى هذا الاقتراح الذى جاءت به امرأته ، لا لأنه يريد أن ينفذه ، بل لأنه لايعرف بماذا يجيب زوجته التى تظهر هذا الاستياء كله ، وتتصرف تصرفا يدل على شدة حرصها على كرامتها . ما ينبغى له أن يشجب هذا الاقتراح ، ولا أن ينفذه ، فماذا عساه يصنع ؟ ونهض ووضع يديه فى جيبه ، وأخذ يمشى . وبعد بضع خطوات وقف أمامها وقال :

ـ أغلب الظن اننا نصدع رأسنا بأمر قد لايكون الا ثمرة افراط فى الشراب . ألم تلاحظى أنه كان لايعاف شرب كأس تقدم اليه ؟ رأس خفيف وشىء من الانفعال ... فاذا هو يقول ما قال .. لست أعنى انك لم تعجبيه كما أعجبته نساء كثيرات .. تذكرى انه كان منذ بضعة أيام فى حفلة راقصة بقصر « كاتبتى » ، وانه عاد من الحفلة مفتونا بالسيدات اللاتى لقيهن هناك ، وخاصة بسيدة يقال لها مدام مانديس ، وهى أرملة ، فيما أظن .

فقاطعته صوفيا قائلة :

ـ ولماذا لم يطلب الى تلك المرأة الجميلة أن تتأمل « صليب الجنوب » ؟

ــ انه لم يتعش هناك ، ومن جهة أخرى لم يكن ثمة حديقة ولا قمر . والذى أريد أن أقوله على كل حال هو ان صديقنا لم يظهر على حقيقته فى هذا المساء . لعله يعض الآن أصابع الندم على ما بدر منه . لعل نفسه تفيض بالخجل والشعور بالعار . لعله يتساءل هل فى وسعه أن يعتذر . أم الافضل الا يثير الموضوع البتة . حتى أن من الممكن جداً أن يتغيب فترة من الوقت ...

ــ أحسن ..

ــ الا اذا دعوناه .

ــ ولماذا ندعوه ؟

قال باليا وهو يجلس الى جانبها :

ــ صوفيا ، لا أحرص الآن على الدخول فى التفاصيل . كل ما استطيع أن أقوله هو اننى لن أسمح لمخلوق على وجه الارض أن يقصر فى احترامك .

قال ذلك ثم صمت بعض الوقت ، وصوفيا شاخصة ببصرها اليه تنتظر أن يكمل كلامه .

ــ لن أسمح بذلك لمخلوق على وجه الارض ، وويل لمن يجرؤ أن يلمسك ، وويل لك أيضا اذا رضيت بذلك . انك لتعلمين حق العلم اننى لا اعرف فى هذا الامر هوادة ، ولا شىء يحمل الى الثقة والهدوء الا يقينى من عاطفتك أو قولى من حبك . ففيم أزعج نفسى بهذا الموقف الذى وقفه روبيان ؟ وتذكرى أن روبيان صديقنا ، وان له على حق الاعتراف بالجميل .

ــ بضع هدايا ، وبضع حلى ، وشرفات بالمسرح ، هذا لايكفى لأن اتأمل معه « صليب الجنوب » .

قال باليا متنهدا :

ــ ليت هذا كل شىء !

ــ ماذا هناك أيضا ؟

ــ لا فائدة من الدخول فى التفاصيـل . هناك شىء آخر ...

سأحدثك عنه فيما بعد . ويجب أن تكونى واثقة ، على كل حال ، انه ما من شىء كان يمكن أن يحملنى على التراجع لو رأيت فيما قصصته على أمرا ذا بال . اننى لا أرى فيما قصصته على أمرا ذا بال . وما روبيان فى الحقيقة الا غبى مسكين !..

ــ لا ...

نهضت صوفيا . اصبحت هى أيضا لا تريد الدخول فى التفاصيل .

وتناول زوجها يدها ، لكنها ظلت لا تنبس بكلمة . ان باليا ينظر اليها مبتسما وقد أسند رأسه على ظهر الاريكة ، لايعرف ماذا يقول . وقال بعد بضع ثوان ان الوقت متأخر وانه سيأمر باطفاء جميع الانوار ، ثم أضاف بعد صمت قصير :

ــ طيب ! سأكتب اليه غدا الا يدوس عتبة هذا البيت بعد الآن.

ونظر الى امرأته ينتظر منها أن تنهاه عن ذلك ، لكن صوفيا حكت حاجبيها ولم تجب بشيء . وكرر باليا اقتراحه ، ولعله كرره هذه المرة صادقا ، فقالت له صوفيا فى تذمر :

ــ اسمع يا كرستيانو ، من ذا الذى يطلب اليك أن تكتب اليه رسائل ؟ اننى آسفة منذ الآن على اننى حدثتك فى الامر . لكننى نقلت اليك ما عددته امتهانا لكرامتى ، ثم اقترحت عليك أن نقطع صلاتنا بالرجل شيئا بعد شيء أو دفعة واحدة !

ــ ولكن كيف نستطيع أن نقطع صلاتنا به دفعة واحدة ؟

ــ نغلق باب بيتنا فى وجهه . على اننى لا أذهب الى هذا الحد . وفى وسعك أن تفعل ذلك شيئا فشيئا ان أردت ...

كان هذا تنازلا من صوفيا ، وقد قبل باليا هذا التنازل راضيا. لكن وجهه لم يلبث أن اكفهر مرة أخرى ، وترك يد امرأته فجأة بحركة يائسة ، ثم لم يلبث أن امسك بجسمها وقال لها بصوت اقوى:

ــ لكننى ياحبيبتى مدين له بمال كثير .

فوضعت صوفيا يدها على فمه ، ونظرت الى الممر مذعورة ، ثم قالت :

ــ طيب . دعنا من هذا الامر . وسأرى كيف يتصرف بعد الآن . وسأحاول أن أكون أكثر ابتعادا عنه .. ولكن عليك أنت فى هذه الحالة أن تظل كما كنت ، حتى لا يظهر انك على علم بما حدث . سأرى ما الذى أستطيع أن أفعله .

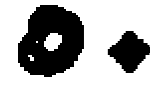
ــ أنت تفهمين يا صوفيا ، هنالك صعوبات تعترض أعمالى ، هنالك عقبات لم تكن فى الحسبان ... استحقاق دفع هنا ، واستحقاق دفع هناك . وما لا أدرى أيضا !.. ومن أجل ذلك... ولكن يجب أن نحتفظ بالابتسامة ياعزيزتى ... كل ما حدث ليس بذى بال ... أنت تعرفين مدى ثقتى بك ..

ــ تأخر الوقت ، هيا بنا الى النوم .

ــ نعم ، هيا بنا الى النوم .

كذلك ردد باليا وهو يقبل صوفيا على خدها . فدمدمت صوفيا تقول :

ــ بى صداع شديد . لعل السبب هو الرطوبة ، الا ان يكون تلك القصة الطويلة ... بى صداع شديد حقا .



كان باليا قد استحم وحلق ذقنه وارتدى نصف ثيابه وأخذ يقرأ الجرائد بانتظار الافطار ، حين دخلت زوجته فى صباح الغد الى مكتبه . كانت شاحبة بعض الشحوب . سألها زوجها :

ــ ألم يخف الصداع ؟

فخرجت من بين شفتيها غمغمة غير مفهومة ، لا هى نعم ولا هى لا . فأكد لها باليا ان صداعها سيزول فى النهار . ان مرده الى تعب الحفلة وتأخر العشاء ... ثم استأذنها فى انهاء قراءة مقالة تتصل بشئون الاعمال . ان المقالة تدور حول خلاف بين تاجرين فى أمر حوالات . فقد نشر أحدهما بالامس مقالة فى هذا الموضوع، وها هو ذا الثانى يرد عليه اليوم . قال باليا وهو ينهى قراءة المقالة : رد كامل جدا . وشرح لزوجته مسألة الحوالات تفصيلا، وأوضح مجرى العملية ، وجلا موقف الخصمين ، وتحدث عن الشائعات التى تدور فى هذا الصدد ، مستعملا فى ذلك كله تعابير تجارية محضة . وكانت صوفيا تصغى اليه وهى تتنهد ، لكن التشوه الذى تفرضه المهنة على صاحبها لا يعبأ بتنهدات النساء ، ولا يحفل بكياسة الرجال . ومن حسن الحظ ان طعام الافطار كان قد أعد أثناء ذلك .

لم تطعم المرأة الشابة الاطبقا من المرق . وفى الساعة الثانية بعد الظهر ، بينما كانت هى وحيدة ، مضت تجلس فى الحديقة أمام باب البيت . وأخذت تستعيد أحداث قصة البارحة . انها فى حالة نفسية ملتبسة لايمكن تحديدها . نصفها عنب ونصفها تين . فهى نادمة على أن حدثت زوجها فى الامر ، لكن ذكرى التعليلات التى حاول زوجها أن يقنعها بها تغضبها مع ذلك . وفيما هى غارقة فى تأملاتها سمعت كلمات الماجور ترن فى أذنيها واضحة متميزة :« هيه ... تتأملان جمال ضوء القمر ؟ » . لم يكن ذلك الا حفيف أوراق الشجر ، لكن أذنيها وجدت فيه أصداء الكلمات التى قالها

الماجور فى الليلة البارحة. انتفضت صوفيا. لقد كان سيكويرا قليل التحفظ والكتمان . انه يحب أن يحشر أنفه فى شئون غيره ، هذا صحيح ، ولكن أتراه يمضى الى حد اذاعة الامر ونشره ؟ وتصورت صوفيا ان الناس أخذوا منذ الآن يشتبهون فيها ويشهرون بها . وراحت تضع الخطط تلو الخطط . لن ترى بعد اليوم أحدا .. بل ستسافر ... فى وسعها أن تسافر الى نوفا فريبورجو مثلا ، أو الى مكان أبعد من ذلك أيضا ... لقد أسرف زوجها حين طلب اليها أن تستقبل روبيان كأن شيئا لم يحدث ، وخاصة للسبب الذى ذكره . انها لا تريد أن تعصى طلبه ولا أن تلبيه ، لذلك أصبحت لا تفكر الا فى السفر متعللة بأى حجة . قالت متنهدة :

ـ هذا كله ذنبى انا .

نعم ، كان ينبغى لها الا تحيط روبيان بتلك العناية كلها ، ولا أن تكون لطيفة معه ذلك اللطف كله ، ولا أن تسمح بنشوء تلك الصداقة الحميمة بينها وبينه .. عدا تلك النظرات التى تبادلاها فى اللية البارحة . فلولا انها فعلت ذلك لما حدث شىء . هكذا راحت تفكر الى غير نهاية . ان كل شىء يحنق صوفيا الآن . الازهار ، والاثاث ، وجدجد يغنى ، وأناس يتحدثون فى الشارع ، وقرقعة آنية البيت ، وسائقو العربات ذاهبين آيبين ، وحتى ذلك الزنجى انهرم الذى يصعد الرابية أمام بيتها . ان مشيته المستأنية تلطم أعصابها لطما .

٥١

ومر أمام البيت شاب طويل ، فحياها تحية طويلة وهو يبتسم ، فردت صوفيا تحيته رغم انها دهشت أشد الدهشة . قالت لنفسها « من عساه يكون ؟ »

وراحت تتساءل . أين ترانى عرفته ، ذلك ان وجهه ليس غريبا عنى ، ولا قامته ولا عيناه الواسعتان الهادئتان . أين ترانى رأيته؟ واستعرضت بذاكرتها عدة حفلات شهدتها ، لكنا لم تصل الى نتيجة . وتذكرت آخر الامر حفلة رقص أقامها فى الشهر الماضى أحد المحامين احتفالا بعيد ميلاده . نعم لقد التقت به هنالك . حتى لقد رقصا احدى الرقصات معا ، وذلك ما يمكن أن يعد التفاتة منه ، لأنه لم يكن يرقص أبدا . وتذكرت انها سمعته يتحدث بعبارات عذبة جدا عن جمال المرأة قائلا أنه العينان والكتفان .

« نحن نعلم ان صوفيا لا تستطيع أن تحسد فى هـذا أحدا » ولم يتطرق يومئذ الى أى موضوع آخر .. لم يتحدث الا عن العينين والكتفين .. كان فى الكلام على هذا معينا لا ينضب .. حتى لقد قص بضع نوادر وقعت له ... صحيح ان بعض هذه النوادر لم يكن شائقا ، لكن الرجل كان مبدعا فى الحديث كل الابداع . وكان الموضوع الذى يدير عليه كلامه يناسب صوفيا ، نعم انها تتذكر الآن كل شيء . ما ان تركها الرجل ليلتئذ حتى جاء باليـا يجلس الى جانبها ويقول لها اسم هذا الرجل الذى راقصها ، اسمه الذى لم تدركه ادراكا واضحا حين قدم اليها قبل ذلك : كارلوس ماريا . « هو ذلك الشخص نفسه الذى عرفناه على مائدة الغداء التى أولمها روبيان » . قال لها زوجها وقد تملق غروره ان الرجل اهتم بزوجته خلال تلك المدة الطويلة كلها ا

ــ انه أبرز شخصيات السهرة .

فصححت صوفيا كلام زوجها بقولها :

ــ من الرجال .

ــ اما شخصيات النساء فأنت أبرزها .

ذلك ما أسرع باليا يقوله وهو ينظر الى جسم امرأته ، ثم يدير طرفه فى القاعة وقد ظهر فى وجهه ذلك التعبير الذى تعرفه صوفيا حق المعرفة ، والذى كان لا يسيئها قط ، أعنى التعبير عن انه هو السيد والمالك .

حين انتهت صوفيا من تذكر ذلك كله كان كارلوس ماريا قد ابتعد . على أن تذكر هذه الامور كان هدنة قصيرة فى معركة القلق التى كانت قد استولت عليها . كانت تشعر بألم فى ظهرها ، وقد هدأ الألم بضع لحظات ، الا انه لم يلبث أن عاودها أشد مما كان. واسترخت صوفيا فى قاع المقعد ، وأغمضت عينيها . وحاولت أن تجد سبيلا الى النوم لكنها لم تستطع . ان همومها عنيدة كالوجع الذى تحسه ، بل انها أقسى منه . وكان اصطفاق الاجنحة يقطع الصمت من حين الى حين . انها حمامات بيت مجاور تعود الى أعشاشها . لقد فتحت صوفيا عينيها فى أول الامر مرة أو مرتين عند مرورها ، ثم اعتادت هذه الضجة ، فظلت مغمضة عينيها لترى هل تستطيع حقا أن تنام ، وبعد فترة من الوقت سمعت وقع أقدام، فرفعت رأسها ظانة انه كارلوس ماريا فى طريق عودته . لكنها رأت ساعى البريد يحمل اليها رسالة من الريف . فتناولت منه الرسالة،

وفيما كان الرجل يخرج من الحديقة تعثرت قدمه بمقعد فسقط الى الارض على طوله ، وتبعثرت الرسائل فى جميع الجهات . فلم تملك صوفيا أن تحبس نفسها عن الانفجار ضاحكة .

٥٢

اغفروا لها هذا الضحك . أنا أعرف أن قلقها والليلة التى قضتها مسهدة وخوفها من أقاويل الناس ، أعرف ان ذلك كله يتعارض تعارضا قويا مع هذا الضحك الذى ليس فى محله . ولكن لعلك ، أيتها القارئة العزيزة ، لم ترى فى حياتك ساعى بريد يهوى الى الارض على طوله . ان آلهة هوميروس — وهى آلهة لا بشر — كانت تتناقش ذات يوم فى الاولمب مناقشة جدية بل حامية . وفيما هى تتناقش أخذت جونون المزهوة المتعجرفة تغار من أحاديث تيتيس وجوبيتر فى الثناء على آشيل ، فقاطعت فجأة ابن ساتورن ، فأخذ جوبيتر يرعد ويعصف ، وأخذت زوجته من جهتها ترتعد غضبا . وكان الآخرون لايزيدون على أن يتنهدوا أو ينتحبوا . ولكن حين تناول فولكان الاناء المملوء بالشراب وأخذ يسقى الحاضرين وهو يعرج ، انطلقت فى الاولمب على حين فجأة نوبة جنونية من ضحك لا ينطفىء . لماذا ؟ انك ياسيدتى العزيزة لم ترى ساعيا ينقلب على ظهره فى يوم من الايام .

وفى بعض الاحيان لا حاجة الى سقوطه ، وفى أحيان أخرى لا حاجة الى وجوده ، بل يكفى تخيله أو تذكره . ما من عذاب مهما يكن عنيفا يمكن أن يمنع ابتسامة عابرة أن تطوف بالشفتين حين تستيقظ فى الخيال على حين فجأة ذكرى حادثة مضحكة مهما تكن تافهة . فلندع اذن صوفيا تضحك ونقرأ الكتاب الذى وصل اليها من الريف .

٥٣

بعد خمسة عشر يوما بينما كان روبيان فى بيته دخل عليه زوج صوفيا فجأة . لقد جاء يسأل صاحبه ما الذى حدث له ، وأين أختفى حتى أصبح لا يرى قط ؟ أكان مريضا ، أم هو لا يحفل بأصدقائه الذين لم يؤتوا من اليسار مثل الذى أوتيه ؟ تمتم روبيان ببضع كلمات ولم يتم جملته . فلاحظ باليا ان فى الصالة رجلا ينظر الى اللوحات ، فقال خافضا صوته :

ــ سامحني ، لم الاحظ ان عندك زوارا .

ــ أسامحك ؟ هو صديق مثلك . يادكتور (١) ، أقدم لك صديقي كرستيانو دى الميدا اي باليا . أظن انني قد حدثتك عنه قبل الآن. صديقي الدكتور كاماشو ، جوان دوسوزا كاماشو .

حنى كاماشو رأسه محييا ، وقال بضع كلمات ، ثم أراد أن ينصرف . لكن روبيان أصر عليه أن يبقى . أليسا كلاهما صديقيه ؟ ثم ان ضوء القمر لن يلبث أن يضيء خليج بوتافوجو الرائع ضوء القمر ــ الا يزال يذكر ضوء القمر ؟ وهذه العبارة « أظن انني حدثتك عنه قبل الآن » ، كل ذلك أثر فى الزائر الجديد تأثيرا جعله يصمت بضع دقائق . ويجب أن نضيف الى هذا أن صاحب البيت كان لا يعرف ماذا يقول هو أيضا . وقعد الثلاثة ، روبيان على الاريكة ، وباليا وكاماشو على كرسيين متقابلين . وكان كاماشو محتفظا بعصاه ، فوضعها على ركبتيه ، ثم أخذ ينقر بها أنفه وهو ينظر الى السقف. وكانت تسمع من الخارج قرقعة عربات وخيول، تمازجها أصوات بعض الناس . الساعة هى السابعة والنصف من المساء ، بل هى تشارف الثامنة . وطال الصمت . لكن روبيان وباليا لم يلاحظا ذلك ، وها هو ذا كاماشو يمضى الى النافذة وقد مل هذا الوضع ، ثم يهتف وهو يلتفت اليهما قائلا :

ــ هو ذا القمر قد ظهر .

فقام روبيان بحركة ، وقام باليا بحركة أخرى. ولكن لا تحسبوا انهما قاما بحركتيهما لغرض واحد . أما روبيان فقد أراد أن يتجه الى النافذة ، وأما باليا فقد أوشك أن يثب الى عنق صاحب البيت ، لا يدفعه الى ذلك خوفه من أن يرى نبأ المغامرة ينتشر بين الناس ويذيع حوله الشائعات بقدر ما تدفعه اليه ذكرى عنف روبيان فى قبضه على يدى امرأته ليشدها اليه . ولكن أحدا من الرجلين لم يتم الحركة التى قام بها ... وسرعان ماوضع روبيان ساقا على ساق ، ومال نحو كرستيانو يسأله :

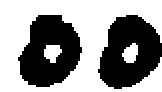
ــ هل تعلم انني سأتركـكم ؟

٥٤

كان باليا يتوقع كل شيء الا هذا . وزال غضبه لتحل محله دهشة

(١) يطلق هذا اللقب فى البرازيل على المحامين ورجال السياسة وعلى جميع الاشخاص الذين لهم مقام هام (المترجم)

اضيف اليها شيء من الاسف ، وذلك ما لم تكن تتوقعه أنت أيضا أيها القارىء العزيز ، أليس كذلك ؟ يتركهم ؟ طبعا . سيغادر ريو دو جانيرو ! هذا هو العقاب الذى فرضه على نفسه للسيئة التى ارتكبها فى سانتاتيريزا . لقد ندم على ما فعل فورا ، وهو يشعر الآن بالخجل ، حتى أصبح لا يجرؤ أن يظهر أمام امرأة صديقه . تلك هى الفكرة الاولى التى خطرت ببال باليا . ثم انبثقت فى ذهنه فروض أخرى ، منها أن غرام روبيان لا يزال أقوى مما كان ، وان سفره ليس سوى وسيلة للابتعاد عن موطن هواه . وخطر ببال كذلك ان وراء هذا السفر مشروع زواج . فأحدث له هذا التصور شيئا من خيبة الامل . وامتزج هذا الاحساس الجديد بما شعر به من أسف الفراق القريب ، وبما شعر به من الفضب الذى أخذ يهدر فى قرارة نفسه منذ لحظة . يا لها من فسيفساء عجيبة من العواطف ! كذلك سنقول أيها القارىء . نعم انها فسيفساء عجيبة من العواطف ، ولكن ثق ان الفسيفساء ذات اللون الواحد نادرة جدا فى الحياة النفسية . وانما المهم بعد كل شيء ، ما دام التناظر مفقودا ، الا تتنافر الالوان تنافرا شديدا . وذلك حال صاحبنا . فقد تحسب من النظرة الاولى التى تلقيها على مشاعره ان عواطف متنوعة أشد التنوع قد ارتسمت على صفحة نفسه — اقول ذلك للحفاظ على التشبيه بالفسيفساء — لكننا اذا انعمنا النظر فيها عن كثب أدركنا ما فى كيانه من انسجام عام ووحدة نفسية ، رغم ماهنالك من تعارض فى الالوان .



ولكن لماذا كان روبيان بسبيل أن يتركهم ؟ ما هو الباعث على هذا القرار المباغت ؟

فى اليوم الذى اعقب حادث سانتا تيريزا ، استيقظ روبيان من نومه مكتئب المزاج خائر النفس ، حتى انه لم يحسن تناول طعام الافطار . ما من شيء كان فى ذلك الصباح يشوقه . انه يدس قدميه فى حذائه شارد اللب فلا هو يتفضل بالقاء نظرة على التحف النادرة أو الثمينة التى يمتلىء بها بيته ، ولا هو يطيق أن يحتمل وثبات الكلب الحارة أكثر من دقيقتين ، فما كاد يدخله الى الصالون حتى طرده . لكن كونكاس بوربا استطاع أن يفلت من رقابة الخدم وأن يتسلل الى الحجرة مرة أخرى ، فما كان من روبيان الا أن لطمه

على أذنيه لطمة جعلته يقف عن الوثب دفعة واحدة ، ويستلقى على الارض محدقا الى مولاه .

كان روبيان حانقا وخجلا فى آن واحد مما أقدم عليه بالامس . تذكرون اننا رأينا من قبل ، فى الفصل العاشر ، ان صاحبنا سرعان ما يشعر بعذاب الضمير ، رغم ان عذابه هذا سريع الزوال فى أكثر الاحيان . وهنا يجب أن نشير الى ما كان يجعل عذاب الضمير هذا مقيما بعض الشيء . فى الحالة التى تحدثنا عنها من قبل كان الامر أمر رسالة كتبها كونكاس بوربا الراحل ، وهى رسالة تدل دلالة واضحة على اضطراب صاحبها . لقد حرص روبيان على ألا يطلع الطبيب عليها رغم الفائدة التى يمكن أن يجنيها منها العلم وأن تجنيها منها العدالة . فلو قد اطلع الطبيب على تلك الرسالة لذهب عذاب ضميره ، ولكن كان يمكن أن يذهب الميراث أيضا ، الميراث الصغير الذى كان يتوقع أن يرثه من صاحبه المريض . والآن يعانى ضميره عذابا من محاولة دفع امرأة الى خيانة زوجها . صحيح ان روبيان كان فى قرارة نفسه يحب صوفيا منذ زمن . وصحيح أيضا ان قوة سحرية دفعته الى الفعل دفعا ، ولكنه ما كان ليجرؤ على أن يكاشفها بحبه تلك المكاشفة التى أساءت استقبالها لولا موقفها ولولا هياجه العارض فى تلك اللحظة ، وقد زالت أبخرة الليل ، فأصبح الرجل لايشعر بالخجل فحسب ، بل يشعر أيضا بعذاب الضمير . لئن تعددت الخطايا ان الاخلاق لواحدة .

ولكن دعونا الآن من العواطف والافكار التى عصفت بروبيان على هذه الصورة خلال عدة أيام . لقد توقع روبيان فى يوم الاحد التالى شيئا ما ، توقع مثلا أن يتلقى بطاقة كالبطاقة التى تلقاها فى يوم الاحد الماضي ، سواء أوصلت مع البطاقة فاكهة من ثمار الفراولة أم لا . فلما جاء يوم الاثنين كان قد اتخذ قراره : سيسافر الى ميناس ليقضي هناك شهرين . انه يحس بالحاجة الى الاستجمام فى جو بارباسينا . عزم على ذلك دون أن يحسب للدكتور كاماشو حسابا .

كرر باليا سؤاله :

ــ ستتركنا ؟

ــ أظن ذلك . سأسافر الى ميناس .

فابتعد كاماشو عن النافذة وعاد الى الجلوس على الكرسى الذى كان قاعدا عليه ، وقال وهو يبتسم :

ـ كيف تسافر الى ميناس ؟ دعك الآن من ميناس . لسوف تسافر اليها حين الحاجة . وما أظن ان ذلك سيتأخر كثيرا على كل حال .

لم تكن دهشة باليا لكلمات كاماشو أقل من دهشته لكلمات روبيان . من أين أتى هذا الرجل الذى يبدو أن له سيطرة كبيرة على صديقه ؟ وألقى عليه نظرة سريعة . انه متوسط القامة ، مستطيل الوجه ، قوى الكتفين قليل شعر اللحية ، ذو أذنين بارزتين . ذلك كل ما أدركه باليا فى هذه اللحظة القصيرة . ولاحظ مع ذلك أيضا انه يرتدى قميصا ناعما مترفا ، وانه ينتعل حذاء أنيقا . لكنه لم يستطع أن يلاحظ عينيه ولا ابتسامته ولا أسلوبه فى الحديث والحركة ، ولم يتح له أن يلاحظ بداية صلعه ، ولايديه المعروقتين الشعراوين .

٥٦

كاماشو رجل من رجال السياسة . تلقى دراساته الحقوقية بكلية رسيف ، وعاد يقيم فى منطقته ممارسا مهنة المحاماة . لكن هذه المهنة لم تكن عنده الا ذريعة . انه منذ كان طالبا فى الجامعة قد انشأ جريدة سياسية ان لم تكن ذات اتجاه واضح معين فقد كانت تعج بأفكار مستمدة من هنا ومن هناك ، معروضة بأسلوب يمكن أن يوصف بأنه جاف ومنتفخ معا . وفى وسعنا أن نستمد من هذه الجريدة التى أصدرها فى صباه بعض أفكاره الاساسية :

« النظام فى الحرية ، والحرية فى النظام ، ما من سلطة تسىء استعمال القانون الا وتخون نفسها ، حياة المبادىء ضرورة أخلاقية للأمم الفتية والامم القديمة على السواء ، أعطنى سياسة حكيمة أعطك اقتصادا سليما .« بارون لويس » ، يجب أن نغطس فى « اردن » الدستور من جديد ، أيها الحكام ، افسحوا المجال للرجال البواسل يكونوا لكم خير سند ، الخ الخ » .

لكنه أدرك وهو فى البلد الذى ولد فيه ، ان أمثال هذه الحكم ليس لها رواج ، وكذلك الاسلوب الذى كتبت به . وسرعان ما فطن حين انشأ جريدة ثانية الى أن السياسة المحلية ليست بالامر المجرد الى هذا الحد . لذلك عدل عدولا كاملا عن تحليقاته الجميلة تلك ، وارتضى أن يركز جهوده فى تسمية النواب المحليين ، والاهتمام بالاعمال التى تعود بالمنفعة على المنطقة ، والمشكلات الصغيرة الخاصة

بالقرية ، دون أن يغفل عن مكافحة الجريدة المعادية ، وعن ملء مقالاته بالاسماء الاعلام وغير الاعلام من كل جنس ونوع . وكان يعنى عناية دقيقة بالنعوت التى يطلقها على الاشخاص . فاذا هاجم الحكومة ألصق بها هذه النعوت حتما : مشئومة ، متفسخة ، ملطخة بالعار ، فاجرة ، حتى اذا تبدلت الوزارة بتبدل الرئاسة ، اندفع فى مناصرتها اندفاعا لا يضارعه فيه أحد ، فتبدلت النعوت فصارت : فعالة ، رشيدة ، عادلة ، أمينة على المبادىء ، شعلة من حسن الادارة والتدبير ، الخ الخ ، ودام هذا النوع من العمل ثلاث سنين ، استبد هوى السياسة خلالها بالمحامى الشاب .

وقد أصبح عضوا فى مجلس المنطقة ، ثم عضوا فى مجلس النواب ، فحاكما لمنطقة من الدرجة الثانية . فأتيح له أن يرى جرائد المعارضة تعرقه بسيل من النعوت التى كان يستعملها هو من قبل : «مشئوم ، متفسخ ، ملطخ بالعار ، فاجر ...» . لقد عرف كاماشو فترات صعود وفترات هبوط ، لكنه لم ينقطع يوما عن الخطابة والكتابة والنضال العنيد ، سواء فى مجلس النواب وفى غير مجلس النواب . لقد انتهى الى الاستقرار فى العاصمة عضوا بمجلس النواب تحت شعار المصالحة الوطنية فى عهد حكومة مركيز بارانا ، واستطاع ان يحصل على بعض التعيينات التى سعى اليها وتوسط فيها . ولكن لئن كان المركيز يسأله النصيحة فى كثير من الاحيان ، حتى ليفضى اليه ببعض مشاريعه ، فما من أحد كان يوقن بما يقوله كاماشو ، لان كاماشو ، كان لا يتردد فى الكذب اذا لزم الامر من أجل أن يسبغ على شخصه علو الشأن وخطورة المنزلة .

لكن الامر الثابت على كل حال هو ان كاماشو يريد أن يصبح وزيرا ، وأنه لا يدخر وسعا للوصول الى تحقيق هذا الهدف ، حتى لقد كان ينتقل من جماعة الى أخرى تبعا للظروف سعيا وراء هذا الفرض . كان يلقى فى المجلس النيابى خطبا طويلة عن الحكم ، محشوة بالارقام والمواد القانونية وخلاصات التقارير والاستشهادات بنصوص لكتاب فرنسيين « مترجمة ترجمة رديئة » . ولكن المسافة بين الكأس والشفتين كبيرة ، لذلك ظل الشراب الذى كان يمكن أن يطفىء ظمأه بعيدا عن متناول يده ، رغم كل ما فعل ، فى حين أن أشخاصا آخرين استطاعوا الوصول الى هذا الهدف دون أن يبذلوا فى سبيله ما بذله هو من حماسة ونشاط .

أن فى السياسة « عوانس » . وكاماشو يدخل الآن فى عداد تلك

الطبقة الحزينة الكئيبة ، طبقة أولئك الذين يتبدد أملهم في الزواج مع الزمن ، لكنه لايجرؤ أن ينسحب من الميدان طائعا مختارا . وما من أحد مع ذلك يعهد اليه بأى وزارة حين تشكيل الحكومة ، حتى ولو كان يضمر له أحسن النيات . وأحس كاماشو بأن نجمه الى أفول . ومن أجل أن يتظاهر بأن له نفوذا لم يكن له منه شيء في حقيقة الامر ، أصبح يكتفى بالظهور بمظهر الصديق لاصحاب السلطة ، والتحدث على رءوس الاشهاد عن زياراته للوزراء وكبار رجال الدولة .

ولم يكن من الناحية المادية بغير موارد . ان أسرته صغيرة : زوجة ، وابنة تشارف الثانية عشرة من عمرها ، وابن بالمعمودية في التاسعة . والكسب الذى يجنيه من مهنة المحاماة يسد حاجات الاسرة فى يسر وبحبوحة . لكن السياسة فى دمه . فهو لا يعنى بغيرها . ولا يقرأ الا ما يتصل بها ، أما الادب والعلوم الطبيعية والتاريخ والفلسفة والفنون فقد ظلت بعيدة عنه كل البعد . وحتى في القانون كانت معارفه محدودة . انه لم يحتفظ من الدراسة التى تلقاها فى الجامعة الا ببعض طلاء قانونى ، تضاف اليه معرفة بالتشريع اللاحق وخبرة أتاحت له مهنة المحاماة أن يحصلها . لكن ذلك كله كان يكفيه ليرافع فى المحاكم ويكسب رزقه .

٥٧

لقد التقى بروبيان منذ بضعة أيام أثناء سهرة ذهب يقضيها في منزل مستشار بالبلاط . كان الناس يتحدثون عن احتمال عودة المحافظين الى الحكم ، وعن احتمال حل المجلس . وقد شهد روبيان منذ قليل الجلسة التى طلبت أثناءها حكومة ايتابوراهى الاقتراع على الميزانية ، فكان فى تلك السهرة يتحدث فى حماسة عن مشاعره ، وعن الاروقة التى كانت تعج بالناس ، وعن الخطاب الذى ألقاه بونيفاسيو ، وعن الاقتراح فالتصويت .. كان واضحا ان هذه الحماسة لايمكن أن تصدر الا عن طبيعة ساذجة بعض الشيء ، بل كانت فوضى اشاراته ، وحتى حرارة كلماته ، تسبغ على حديثه بلاغة الصدق . وكان كاماشو يصغى اليه فى انتباه . ثم تذرع بحجة من الحجج ليمضى به الى أحد الاركان ، وليسر اليه بتعليقات خطيرة عن الموقف الراهن ، فكان روبيان يرد عليه بهزات من رأسه

ولا يكاد يقول الا بضع كلمات قصـيرة يؤيد بها كلامه ، قال له كاماشو أخيرا :

ـ لن يبقى المحافظون فى الحكم مدة طويلة .

ـ تعتقد ؟

ـ هذا مؤكد . هم لايريدون الحرب (١) ، لذلك لابد أن يسقطوا حتما . انظر كم كنت نافذ البصيرة حين وضعت برنامج الجريدة !

ـ أى جريدة ؟

ـ سنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وفى الغد تناولا طعام الغداء معا فى « فنـدق البورصة » . ان كاماشو هو الذى دعا روبيان . وحدثه عن الجريدة التى أنشاها منذ بضعة أشهر ، والتى يتخلص برنامجها فى نقطـة واحدة هى الاستمرار فى الحرب مهما يكن الثمن .

لقد كانت الانقسامات فى صفوف حزب الاحرار فى أوج حدتها ؛ فبدا له ان خير وسـيلة لخدمة حزبه هى أن يجعل له شـعارا حياديا قوميا .

قال مختتما كلامه :

ـ والآن يفيدنا هـذا كثيرا ، لان الحكومة تجنح الى السلم . سأنشر منذ الغد مقالا عنيفا فى هذا الموضوع .

كان روبيان آذانا مصغية ، وكان نظره لا يفارق صاحبه لحظة ، حتى اذا مال كاماشو برأسه الى صحنه انتهز هو هـذه الفرصة ليبتلع بضع لقم على عجل . لقد أسكره أن ينفذ هذا النفاذ الى أسرار السياسة . والحقيقة ان فكرة انخراطه فى المعركة بنفسـه ليجنى من ذلك فائدة ما ، كأن يصبح عضوا فى المجلس مثلا، كانت تملأ خيال صاحبنا منذ ذلك الحين بأحلام ذهبية . ولم يقل له كاماشو شيئا غير ذلك . وفى الغد ذهب يزوره ببيته ، لـكنه لم يجده . وقد جاء اليوم منذ لحظة ، قبيل وصول باليا على غير ميعاد .

٥٨

ألح روبيان يقول :

ـ نعم ، ولـكن يجب أن أذهب الى ميناس .

فسأله كاماشو :

(١) هى الحرب مع باراجواى (المترجم)

ــ ولمــاذا ؟

وطرح عليه باليا هذا السؤال نفسه . لماذا يذهب الى ميناس ؟ اللهم الا الا يطول غيـــــابه أكثر من بضعة أيام ... أم تراه مل العاصمة وسئمها ؟

ــ آه ... لا ... بالعكس .

بالعكس ، انه فى العاصمة سعيد كل السعادة ، لـكنه يحن دائما الى البلد الذى رأى فيه النور ، مهما يكن هذا البلد بشعا ، ومهما يكن موحشا . وهــذا الشعور يكون أقوى حين لايترك المرء بلده الا فى سن الرجولة . انه يريد أن يرى بارباسينا مرة أخرى . ما من شىء يضارع بارباسينا حتما . وافلت روبيــان من سيطرة صاحبيه افلاتا تاما خلال بضع دقائق . ان حبه لمسقط رأسه يجرى فى عروقه ، فلا الطموح ولاحب الظهور ولا اللذات العابرة ، لاشىء من ذلك كله يصمد أمام حنينه الى بلده . ولئن انطوى قلبــه على شىء من النفاق فى بعض الاحيان ، واستجاب لنداء المصلحة كثيرا ، فليس هذا القلب الآن الا قلب انسان طيب سئم اللذات بل سئم ثروته نفسها .

ونظر كاماشو وباليا أحدهما الى الآخر . كانت هذه النظرة أشبه ببطاقة تعارف تبادلها ضميراهما . كانت كافية ليحكم كل منهما على الآخر وليتفاهم معه ... انها خير من اى شرح . نعم يجب أن يحال بين روبيان والسفر . لأن ميناس قد تستأثر به الى الابد . ووافقا على أن يسافر الى ميناس ، ولـكن شريطة أن يؤخر هــذا السفر ... أن يؤخره بضــعة أشهر ... وربما ذهب معه باليــا حينئذ . ان باليا لا يعرف ميناس ، وهذه فرصة طيبة لزيارتها .

سأله روبيان :

ــ أنت ؟

ــ نعم ، أنا . انني ارغب فى السفر الى ميناس والى سان باولو منذ مدة طويلة . وما زلنا نرجىء السفر منذ سنة بكاملها من حين الى حين... ان صوفيا تحب هذا النوع من الاسفار حبا شديدا . الا تذكر... يوم التقينا فى القطار؟ كنا عائدين يومئذ من فارسوآس . لـكن مشروع السفر الى ميناس لم يفارق خيـــــالنا أبدا . نعم سنسافر نحن الثلاثة معا .

فتعلل روبيان بقرب موعد الانتخابات . لـكن كاماشو تدخل فأكد له انه ليس من اللازم أن يسافر الى ميناس لهذا الغرض ، وأن

الاولى أن تسحق الافعى من راسها أى بالعاصمة . وفى وقت روبيان متسع بعد ذلك للسفر الى حيث يحب ، وللحصول على جزائه أيضا. تحرك بطلنا على أريكته . جزاؤه ؟ لاشك ان هذا الجزاء مقعد فى مجلس النواب . أمل رائع . ان مثل هذا المطمع لم يدر فى خلده يوما حين لم يكن الا تعيسا . لكن جنون العظمة يستبد به الآن ، ويثير رغبته فى المجد والظهور الى أقصى حدود الاثارة الملهبة . وألح مرة أخيرة على ضرورة ذهابه الى ميناس لقضاء بضعة أيام ، ولكن الحقيقة توجب أن أذكر انه أصبح لايتمنى أن يوافق صاحباه على سفره .

كان ضوء القمر رائعا . ان لمنظر الخليج من النافذة جمالا بالغا يستحيل على من يقطن ريو أن يقع على مثله فى أى موطن من الارض . وكما رأى روبيان فى الحلم خيال صوفيا يخطر لحظة من بعيد على سفح الرابية ، ثم يغيب شيئا فشيئا ، فكذلك كان صخب الجلسة الاخيرة فى مجلس النواب لايزال يدوى فى أذنيه .

ومضى كاماشو الى النافذة ، ثم لم يلبث أن عاد فورا ، فسأل روبيان :

ــ كم تمكث فى ميناس ؟

ــ لا أدرى بعد . لكن مكوثى هنالك لن يطول .

ــ على كل حال سنتحدث فى هذا الامر غدا .

واستأذن كاماشو بالانصراف . وبقى باليا بضع لحظات كى يقول لصاحبه ان من الغريب أن يعود الى ميناس قبل أن يصفى ما بينهما من حساب . فقاطعه روبيان قائلا :

ــ أى حساب ؟ ومن ذا الذى يطالب بحساب ؟

فأجابه كرستيانو باليا :

ــ واضح انك لست من رجال الاعمال .

ــ لست من رجال الاعمال . هذا صحيح . لكن المرء يدفع ديونه حين يقدر على دفعها . فكذلك جرت الامور بيننا دائما . ولكن من يدرى ؟ كن صريحا . أأنت فى حاجة الى شيء من المال؟

ــ لا ... أشكرك أجزل الشكر . هناك صفقة أحب أن أعرضها عليك . لكننى أتركها ليوم يكون لنا فيه متسع من الوقت أكبر. وانما جئت اليوم لاراك ، حتى لا أضطر الى أن أنشر فى الصحف اعلانا أقول فيه « مفقود صديق اسمه روبيان . العلامة الفارقة : له كلب » .

فاستملح روبيان المزحة . وحين خرج باليا شيعه الى ناصية شارع ماركيزدو ابرانتس . حتى اذا ودعه وعده أن يزوره فى سانتا تيريزا قبل سفره الى ميناس .

٥٩

مسكينة ولاية ميناس . حين كان روبيان عائدا الى بيته وحده كان لا يفكر الا فى وسيلة تسمح له بألا يذهب الى ميناس . ان أقوال صديقيه تترجع فى أذنيه كأنها كتبت بأحرف من نار. « هنا يجب أن تقتل الافعى . هنا يجب أن يسحق رأسها » . « صوفيا تحب هذا النوع من الاسفار حبا شديدا » . حقا ان ولاية ميناس مسكينة .

وفى الغد تلقى روبيان جريدة لم يكن قد رآها من قبل ، هى جريدة « الخفير » . ان الافتتاحية تهاجم الوزارة هجوما عنيفا ، لكنها تنتهى بنداء موجه الى جميع الاحزاب والى الامة بأسرها . « يجب أن نغطس فى « أردن » الدستور مرة أخرى » . وقد وجد روبيان المقالة رائعة ، وحاول أن يعرف أين تطبع هذه الجريدة حتى يشترك فيها . انها فى شارع آجودا . وذهب الى هناك فور خروجه من منزله ، حتى اذا عرف ان رئيس تحريرها ليس الا الدكتور كاماشو هرع يمضى الى مكتبه .

لكنه كان لايزال فى شارع آجودا حين سمع صرخة موجعة تنطلق فجأة :

— ديوليندو ، ديوليندو .

كذلك كانت تعول امرأة أمام مخزن من مخازن الاسرة .

التفت روبيان فأدرك على الفور ما وقع . ان طفلا فى الثالثة أو الرابعة من عمره قد عبر الشارع أمام عربة كانت فى تلك اللحظة تهبط المنحدر ، فصار تحت أرجل الخيل تقريبا رغم ما بذله الحوذى من جهود لوقف العربة . فما كان من روبيان الا أن رمى بنفسه الى العربة فانتزع الطفل من الخطر . وحين تناولته أمه من يدى روبيان لم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة . كانت شاحبة أشد الشحوب ولا تزال ترتجف . وأخذ بعض الاشخاص يشتمون الحوذى ، لكن رجلا أصلع كان فى جوف العربة أمر الحوذى أن يتابع طريقه ، فأطاعه . لذلك فان أبا الطفل ، الذى كان فى المخزن ،

لم يجد العربة حين خرج هو أيضا . كانت العربة قد انصرفت ، وأخذت تنعطف عند زاوية شارع سان جوزه .

قالت الام :

ــ كاد يموت . لا أدرى ماذا كان يمكن أن يحدث لابنى المسكين لولا هذا الرجل ؟

قام فى الحى ما يشبه ثورة . الجيران يدخلون ليعرفوا ماحدث ، والاطفال والسود يتأملون هذه الجلبة الشديدة فى الشارع مشدوهين . لـكن الطفل الصغير لم يكن قد أصيب الا بخدش فى كتفه اليسرى من أثر السقوط .

قال روبيان :

ــ لا شيء . على كل حال لا تتركوه يخرج الى الشارع هكذا بعد الآن . فانه لايزال صغيرا ...

أجاب الاب بقوله :

ــ شكرا ياسيدى . ولـكن اين قبعتك ؟

فلاحظ روبيـان انه قد أضاع قبعته . غير أن صبيـا يرتدى اسـمالا بالية كان قد التقطهـا ، وهو الآن يقف على باب المخزن ينتظر أن يستطيع ردها الى أصحابها . فأعطاه روبيان بضعة نقود مكافأة له ، وذلك أمر لم يخطر ببال الصبى حين مضى يلتقط القبعة لأنه لم يفعل ما فعل الا ليكون له نصيب من المجد فى الحادثة . ومع ذلك قبل المكافأة مسرورا ، ولعل ذلك كان أول علم له بثمن الاعمال الخيرة .

قال الاب :

ــ ولـكن انتظر ... انت مجروح ؟

كان على يد روبيان قليل من الدم . لقد جرحت راحـة يده ، لـكن الجرح يسير لم يشعر به الا فى تلك اللحظـة . فهرعت أم الطفل تبحث عن ماء ومنشفة رغم احتجاجات روبيان الذى قال ان الامر بسيط لايستحق هذا العناء كله . وسرعان ما عادت المرأة تحمل المـاء ، وفيما هى تغسل له يده ، مضى زوجها الى الصيدلية المجاورة يشترى شيئا من المرهم . حتى اذا عولجت اليد بالمرهم ربطها روبيان بمنديل . ونظفت المرأة قبعته بالفرشـاة . وحين ذهب ، أغرقته المرأة وزوجها بوابل من عبارات الشكر لانه انقـذ حياة ابنهما . أما النـاس الآخرون الذين كانوا على البـاب وفى الشارع فقد أحاطوا به كأنهم اكليل غار .

٦٠

دخل روبيان مكتب كاماشو ، فسأله هذا :
ـ ما لديك ؟

فقص عليه روبيان الحادثة التى وقعت فى شارع آجودا . فاذا بالمحامى يغرقه بسيل من الاسئلة عن الطفل وأبويه ورقم المسكن ، الخ. لكن روبيان قطع الاستجواب قطعا حاسما . فسأله صاحبه:
ـ ألا تعرف اسم الطفل على الاقل ؟

ـ سمعتهم ينادونه ديولندو . ولكن دعنا من هذه السفاسف. لقد جئت لاشترك فى جريدتك . وصلنى منها اليوم عدد ، وأحب ان أسهم فى ...

فأجابه كاماشو بأنه لاداعى الى الاشتراك... فالجريدة من ناحية الاشتراكات تسير سيرا حسنا . وانما تعوزها الادوات الطباعية . ويجب التوسع فيما تنشره أيضا . يجب أن نكثر من المواد ، وأن نزيد من عنايتنا بالانباء ، وكذلك بالمتنوعات وأخبار البورصة والمرفأ ويجب اصدار صفحة تضم رواية مترجمة عن لغة أجنبية ، الخ. وعلى كل حال ، فلا الاعلانات ولا الدعاية تعوز الجريدة ، ولعل روبيان أدرك ذلك .

ـ طبعا ..

ـ لقد تم جمع رأس المال كله تقريبا . يجب أن يكون هناك عشرة اشخاص ، يوجد منهم الآن ثمانية . أنا وسبعة آخرون . لم يبق الا أن نجد شخصين أيضا ، فمتى انضم الينا شخصان آخران اجتمع لنا رأس المال كاملا .

تساءل روبيان بينه وبين نفسه : « ترى ما هو المبلغ المطلوب ؟ »

ان كاماشو صامت الآن ، يقرع حافة مكتبه بموسى ، ويلقى على روبيان من حين الى حين نظرة مختلسة . وروبيان يطوف ببصره على الحجرة ، ان أثاثها قليل . بضعة ملفات على منضدة صغيرة الى جانب المحامى ، ورف مليء بالكتب : مؤلفات لوبون ، وبيريرا اى سوزا ، ودالوز ، ومجموعة قوانين ، وأخيرا صورة معلقة بالحائط تجاه المكتب .

قال كاماشو وهو يشير الى الصورة بأصبعه :
ـ هل عرفت صاحب الصورة ؟
ـ لا ...

ـ بل أنت تعرفه . أنعم النظر .
ـ لم أعرفه .. حقا لا أعرفه . أهو تونس ماشادو ؟
فقال النائب السابق وقد ظهر فى وجهه الحزن :
ـ لا ... مستحيل أن تجد صورة جيدة لنونس ماشادو . صحيح ان هناك صورة مطبوعة له ، لكننى لا أجدها جيدة . ان هذه الصورة هى صورة المركيز .
ـ مركيز بارباسينا ؟
ـ مركيز بارانا . المركيز العظيم . صديقى الحميم ، لقد حاول أن يجمع الاحزاب ، لذلك انضممت اليه . لكنه مات قبل الاوان ، ومات معه العمل الذى شرع فيه . على انه لو حاول اليوم أن يتبع تلك السياسة نفسها لوجدنى أعارضه . نعم ، لقد انتهى عهد المصالحة ، واليوم حرب لا هوادة فيها . يجب علينا أن نقضى عليهم قضاء مبرما . اقرأ جريدة « الخفير » . انها رفيقة النضال . سترسل الى بيتك .
ـ لا ...
ـ لماذا ؟
خفض روبيان عينيه حين رأى تكشيرة كاماشو المتسائلة . ثم قال :
ـ لقد عزمت أمرى . أريد أن أعاون أصدقائى . أأتلقى الجريدة مجانا ؟ !..
ـ قلت لك ان كل شىء يسير سيرا حسنا من ناحية الاشتراكات .
ـ صحيح ... لكنك قلت لى أيضا انكم فى حاجة الى شخصين آخرين لاكمال رأس المال .
ـ الى شخصين . نحن الآن ثمانية .
ـ وما مقدار رأس المال ؟
ـ رأس المال خمسون قونتا ، على كل شخص خمسة .
ـ عدنى مسهما بخمسة قونتات .

فشكره كاماشو باسم المبادىء ، وقال انه كان ينوى أن يدعوه الى الانضمام اليهم ، فذلك حق اكتسبه روبيان بايمانه واخلاصه وحبه للقضايا العامة . أما وانه انضم اليهم من تلقاء ذاته ، فلم يبق لكاماشو الا أن يعتذر اليه عن انه لم يدعه الى الانضمام قبل الآن . وأطلعه المحامى بعد ذلك على قائمة المكتتبين وعلى رأسهم هو نفسه . الم يقدم الجريدة والادوات والاشتراكات وعمله على نحو بطولى حقا ؟ وأراد أن يستدرك ، ولكنه كرر يقول بغير تواضع

كاذب : عمل بطولى حقا . لو قال غير ذلك لـكذب . لقد كان منذ طفولته يسحق الافاعى ، وغدت هذه العادة ملازمة له . انه يريد أن يقاتل ، ولسوف يموت وهو فى القتال ، ولسوف يكفن بالعلم الوطنى .

٦١

وانصرف روبيان . وفيما هو يجتاز الممر التقى بسيدة فارعة الطول ترتدى ملابس سوداء ، وتسمع لمشيتها هفهفة حرير وقرقعة زجاج . فلما هم روبيان بهبوط السلم سمع صوت كاماشو يصيح بصوت أعلى من صوته المـألوف :

ـ أوه ... سيدتى البارونة !

فتوقف على الدرجة الاولى . وأخذت البـارونة تتكلم بصـوت بللورى . ان الموضوع موضوع دعوى . بارونة . ولكن لابد لروبيان أن يتابع هبوطه شاء أم أبى . وها هو ذا ينزل السلم ببطء حتى لا يظهر عليه انه وقف ينصت للحديث . ان عطرا غريبا لطيفا يتموج فى الهواء ... هو العطر الذى خلفته البارونة وراءها . شىء يطبش له اللب . انها بارونة . واجتاز البـاب الخارجى أخيرا ، فرأى مركبة واقفة . كان الوصيف منتصـبا بقامته على الرصيف ، والحوذى قاعدا فى مكانه ينظر الى الناس وهم يمرون . ان الرجلين كليهما يرتديان الملابس الرسمية . أى غرابة فى هذا كله ؟ لا غرابة مطلقا . انها سيدة تحمل لقبا ، سيدة غنية معطرة ، لعلها لا ترفع دعوى الا قتلا للوقت . الشىء الغريب فى حالة روبيـان الخاصة هو احساسه ، دون أن يدرى لماذا ، بأنه لايزال ذلك المعلم الصغير المسكين ببلده بارباسينا .

٦٢

وفى الشارع التقى بصوفيا تصحبها سيدة متقدمة فى السن وامرأة شابة . لـكنه لم يكد يلقى نظرة على المرأتين المجهولتين ، فعيناه لاتريان الا صوفيا ، وتخاطبا دقيقة أو دقيقتين فى شىء من الحرج ، ثم تابع كل منهما طريقه . وقد وقف روبيان بعد قليل ينظر وراءه ، لـكن النساء الثلاث كن يتابعن سيرهن دون أن يلتفتن .

قال روبيان لنفسه بعد الغداء : « أأذهب اليوم الى هناك ؟ » .

وفكر طويلا ، لكنه لم يستطع أن ينتهى الى اتخاذ قرار . فهو تارة يقول نعم ، وتارة يقول لا . لقد وجد سلوكها غريبا ، لكنه تذكر أيضا انها تبسمت له .. صحيح ان تبسمها كان قليلا ، لكنها تبسمت على كل حال . قال لنفسه : اذا جاءت أول عربة من اليمين ذهبت ، واذا جاءت من الشمال لم أذهب . وقعد على المقعد فى وسط الصالون ليحسن مراقبة الشارع . وما هى الا لحظات حتى ظهر « طنبر » آت من الشمال . حسم الامر . لن يذهب اذن الى سانتا تيريزا . لكن اللاشعور رد عليه : صحيح ان عليه أن يتقيد بالشرط الذى حدده بنفسه ، ولكن « الطنبر » ليس عربة ، وانما درج الناس على أن يسموا بهذا الاسم أنواعا أخرى من المركبات . وفى هذه اللحظة وصلت من اليمين عربات كثيرة كانت عائدة من جنازة . وذهب روبيان الى سانتا تيريزا .

٦٣

مدت صوفيا يدها اليه فى لطف دون أى أثر من آثار الحقد . والسيدتان اللتان كانتا تسيران معها منذ قليل فى الشارع هما الآن فى البيت بملابس المنزل . وتم التعارف . أما الشابة فهى ابنة خالتها ، واما المتقدمة فى السن فهى خالتها .. باعثة تلك الرسالة التى سببت سقوط ساعى البريد فى الحديقة . ان اسمها دونا ماريا أوجوستا . وهى تملك أرضا صغيرة فى الريف وعددا من العبيد ، وعليها بضعة ديون . فذلك كل ما تركه لها زوجها عدا الحسرات . والفتاة تدعى ماريا بنديكتا ، وهو اسم قالت انه لا يعجبها كثيرا لانه من أسماء العجائز ، لكن الام ردت عليها بقولها ان العجائز كن صبايا فى زمانهن ، وان ما يحكى عن التناسب بين الاسماء وأصحابها لا وجود له الا فى خيال الشعراء وكتاب الروايات . ان اسم ماريا بنديكتا هو اسم جدتها بنت لويز فاسكونسلوس نائب الملك ، بنته المعمودية ، فماذا تريد خيرا من هذا ؟

قصصن ذلك كله على روبيان ، دون أن يبدو على ماريا بنديكتا انها ترتاب فيه . ومن أجل أن تسوى صوفيا الامور ، أو لسبب آخر أسرعت تضيف أن أقبح الاسماء يصبح جميلا ، وعلى هذا يكون اسم ماريا بنديكتا ساحرا فاتنا .

وختمت كلامها بأن التفتت الى روبيان تسأله :

ـ أليس هذا رأيك ؟
فقالت ماريا بنديكتا وهى تضحك :
ـ كفى مزاحا يا ابنة خالتى .

ولكن من حقنا أن نعتقد أن الخالة وروبيان لم يفهم أحد منهما تلك الحدة ، فالخالة قد أخذ يغلبها النعاس ، وروبيان كان يلاعب كلبا صغيرا أسود العينين أهدى صغيرا الى صوفيا . انه حيوان نحيل ، كثير الحركة ، علق فى رقبته جرس . ولكن لم يسع روبيان ازاء الحاح صوفيا الا أن يجيب بالموافقة ، رغم انه لم يعرف الامر الذى يدور عليه السؤال . وزعلت ماريا بنديكتا . والحق أنها لم تكن على حظ عظيم من الجمال ، ولا ينبغى أن نسألها ابتسامة مغرية ولا نظرة فاتنة . لكنها تمتاز بالانطلاق فى غير تكلف . وليس فيها شيء مما فى بنات الريف من خراقة ، ثم ان بها رشاقة فطرية تعوضها مما قد يعوز ملابسها من الانسجام .

لقد ولدت بالريف وهى تحب الريف . والارض التى يمتلكها أهلها بالريف قريبة جدا . انها فى ايجواسو . فكانت تأتى الى ريو من حين الى حين لقضاء بضعة أيام ، لكنها ما أن تمكث بها ثمان وأربعين ساعة حتى ينفد صبرها وحتى تشتد رغبتها فى العودة الى منزلها بالريف . ولم تكن على جانب كبير من الثقافة . فقد علموها القراءة والكتابة ، وشيئا من دروس الدين والخياطة ، ولا شيء غير ذلك . وفى الآونة الاخيرة « كانت وقتئذ فى التاسعة عشرة من عمرها » الحت صوفيا أشد الالحاح على ضرورة تعلمها العزف على البيانو ، فوافقت الخالة على ذلك ، فجاءت ماريا الى ابنة خالتها فقضت عندها ... ثمانية عشر يوما . لقد استحال عليها أن تمكث مدة أطول من هذه المدة . كانت فى بعدها عن أمها تحس بحزن شديد وكآبة ممضة ... فما لبثت أن عادت الى الريف تاركة استاذها مشدوها مبهوتا . ذلك أنه قد وجد منذ الدروس الاولى ان تلميذته تملك موهبة قوية لتعلم الموسيقى .
ـ آ ... لاشك أبدا فى انها موهوبة جدا .

وقد ضحكت ماريا بنديكتا كثيرا حين نقلت اليها صوفيا رأى أستاذها فيها ، وأصبحت منذ ذلك الحين لا تنظر اليه نظرة جد، حتى لقد أخذت تضحك فى بعض الاحيان ضحكا قويا أثناء الدرس. فكانت صوفيا تقطب حاجبيها من قبيل التأنيب ، كان الرجل المسكين يسأل عما حدث ، ثم يأخذ يعلل هذا الضحك من تلقاء

نفسه قائلا لعلها ذكرى من ذكريات الصبا راودت خاطر الفتاة .
ثم يستأنف الدرس . لكن ماريا بنديكتا لم تتعلم آخر الامر لا العزف على البيانو ، ولا الكلام باللغة الفرنسية ، وهو النقص الثانى الذى كانت صوفيا ترى انه لا يغتفر . أما دونا ماريا أوجوستا فانها لم تفهم شيئا من انزعاج ابنة أختها لهذا الامر . فلم تعلم الفرنسية ؟ وأجابتها ابنة أختها بقولها ان تعلم الفرنسية أمر لابد منه لاجادة الحديث ، وللقيام برحلات ، ولقراءة رواية ... فكانت الخالة تجيبها بقولها :

ــ لقد كنت سعيدة دائما دون أن أتعلم الفرنسية . وما أهل الريف الذين يتكلمون لغتهم القروية بأكثر شقاء من سكان المدن .

حتى لقد أضافت فى ذات يوم قولها :

ــ ولن يعوزها المحبون بسبب جهلها الفرنسية . وفى وسعها أن تتزوج .. لقد قلت لها ان فى وسعها أن تتزوج متى أرادت ، وانى قد تزوجت أنا أيضا . ان فى وسعها أن تدعنى وحيدة فى الريف أموت كما تموت بهيمة هرمة .

ــ ماما .

ــ ما الذى يحزنك ؟ سترين حين تخطبين . لسوف تسافرين مع الخطيب وتهجرينني . اليك ماريا جوزه ، أليس هذا ما فعلته ؟ انها تعيش فوق ، فى ولاية سييارا (١)

قالت صوفيا :

ــ لكن زوجها قاضى صلح .

ــ قاضى صلح ، أو قاضى حرب ... سيان عندى ... المهم ان العجوز مزروعة فى مكانها ... تزوجى ياماريا بنديكتا ، تزوجى ، اسرعى . حين أموت فساكون الى جوار ربى . لن يكون معى أولادى ، وانما تكون معى السيدة العذراء ، أمنا جميعا . تزوجى ، هيا تزوجى .

كان هذا النقيق كله يهدف الى غاية واضحة محددة ، هى أن تصرف ماريا بنديكتا عن الزواج باثارة شفقتها . واذا لم تصرفها عن الزواج صرفا تاما فلا أقل من أن تؤجله ما استطاعت تأجيله . لا أظن ان دونا ماريا أوجوستا قد اعترفت بهذه الخطيئة يوما لكاهنها ، ولعلها لم تكن تدرك انها ترتكب خطيئة ، فما ذلك عندها الا ثمرة أنانية مردها الى الشيخوخة والمرض . لقد ظلت دونا

(١) ولاية بالشمال الشرقى من البرازيل (المترجم)

ماريا أوجوستا تحاط بالحب والعبادة طوال حياتها . كانت أمها تعشقها عشقا ، وبقى زوجها الى آخر يوم يحبها كما أحبها اول يوم . فلما مات هذان الشخصان نقلت الى ابنتيها ما كانت تشعر به من ظمأ الى الحب . وقد أفلتت منها احدى بنتيها حين تزوجت ، فزواج الثانية يهددها اذن بوحدة رهيبة . وهى لذلك تفعل كل ما تستطيع أن تفعله لتحول دون وقوع هذه الكارثة .

٦٤

كانت زيارة روبيان قصيرة . فما ان دقت الساعة التاسعة حتى نهض يستأذن بالانصراف ، وكان يتوقع أن تستمهله صوفيا وأن تطلب اليه ألا يذهب قبل مجيء كرستيانو الذى ينتظر وصوله من لحظة لأخرى . كان يتوقع على الاقل أن تقول له بحركة مفاجئة : أتنصرف منذ الآن ؟ ولكن صوفيا ضنت حتى بهذا .. واكتفت بأن مدت اليه يدها فى شيء من ذهول . على انها كانت طبيعية جدا معه طوال مدة الزيارة ، فليس يبدو عليها أنها تحمل له أي حقد ... لكن عينيها لم تكونا ناعستين كما كانتا من قبل . فكأنه لم يحدث بينهما شيء مما حدث ، بل كأن ذكرى فاكهة الفراولة وضوء القمر قد زالت. كان روبيان يشعر بضيق وحرج ، فلا يدرى ماذا يقول ، ولم تكن صوفيا كذلك . فقد كانت تعرف ماذا تريد أن تقول حق المعرفة ، وكانت اذا لزم الامر تنظر اليه وجها لوجه هادئة كل الهدوء .

تمتم يقول وهو يحمل بيده قبعته وعصاه :

ــ تحيتى لكرستيانو .

ــ شكرا . لقد ذهب يزور أحد الاصدقاء . ولكن يخيل الى اننى أسمع وقع خطاه . لاشك فى انه هو .

ولم يكن ذلك كرستيانو بل كارلوس ماريا . وأدهش روبيان ، أن يرى كارلوس ماريا هنا ، لكنه لم يلبث أن قدر أن وجود السيدتين الاخريين هو السبب فى مجيئه.. ربما كان أحد أقربائهما.

قال روبيان لكارلوس ماريا الذى قعد الى جانب دونا ماريا أوجوستا :

ــ كنت خارجا لحظة وصلت أنت !

فقال كارلوس ماريا وهو ينظر الى صورة صوفيا :

ـ آه ...

وشيعت صوفيا روبيان حتى الباب ، وقالت له أن زوجها سيؤسفه حتما انه لم يكن بالبيت ، لكن الزيارة التى ذهب ليقوم بها هى من الزيارات التى لايمكن ارجاؤها.. زيارة تتصل بأعمال.. وسيذهب اليه كرستيانو معتذرا .

فأجاب روبيان :

ـ وفيم الاعتذار ؟

وأراد أن يضيف شيئا آخر ، لكن قبضة يد صوفيا وانحناءاتها فى احترام مودعة اياه ، اشارتا اليه أن ينصرف ، فانحنى هو أيضا. وفيما كان يجتاز الحديقة سمع صوت كارلوس ماريا يقول فى الصالون :

ـ اننى أحتج على زوجك ياسيدتى . انه رجل فاسد الذوق جدا .

فتوقف روبيان .

قالت صوفيا :

ـ لماذا ؟

فتابع كارلوس ماريا كلامه يقول :

ـ بسبب صورتك هذه التى وضعتها فى الصالون . فأنت فى الواقع أجمل منك فى هذه اللوحة ، أجمل كثيرا... قارن ياسيداتى.

٦٥

حين عاد روبيان الى بيته وتذكر كلمات كارلوس ماريا قال لنفسه : « يا لهذه البساطة التى قال بها ذلك كله !.. ينقد الصورة من أجل أن يمدح صاحبة الصورة . والصورة مع ذلك تشبه صاحبتها شبها كبيرا .. »

٦٦

فى صباح الغد ، بينما كان روبيان فى سريره ، ارتجف فجأة . ذلك ان جريدة « الخفير » كانت أول جريدة فتحها ، فقرأ فيها المقالة الافتتاحية ، ومقالة لأحد المراسلين ، وبعض الاخبار ، ثم وقع بصره فجأة على اسمه .

ـ ما هذا ؟

نعم انه اسمه ، مطبوعا بلون أحمر قان ممتدا على الصفحة بكاملها . والمناسبة هى الحادثة التى وقعت أمس فى شارع آجودا .
وبعد الدهشة الاولى شعر روبيان باستياء شديد . يا لها من فكرة بشعة أن ينشر المرء على هذه الصورة جانبا من حياة الناس الخاصة . لاسيما اذا عرفه من حديث جرى بين صديقين . وأبى أن يمضى فى القراءة ، فهو يعرف ما تشتمل عليه المقالة ، لذلك رمى الجريدة ليتناول غيرها . لكنه كان ــ وا أسفاه ــ قد فقد هدوءه كله ، وأصبح لايستطيع أن يركز انتباهه فيما يقرأ ، فهو ينط بعض الاسطر أو لا يدرك معناها أو هو يصل الى آخر العمود فيتساءل : كيف وصل الى آخره !

حتى اذا نهض عن سريره جلس على مقعد كبير الى جانب السرير وعاد يتناول جريدة « الخفير » . وانصب نظره على النبأ . انه يحتل أكثر من عمود . « أكثر من عمود لأمر تافه هذه التفاهة كلها ! » . كذلك قال لنفسه . ومن أجل أن يعرف كيف استطاع كاماشو أن يدبج كل هذا الكلام حول الموضوع أخذ يقرأ المقالة قراءة سريعة ، وهو غاضب من هذه النعوت التى نعته بها الكاتب ومن هذا الوصف الدرامى للحادث .
قال بصوت عال :
ــ أستحق ذلك ! لسوف يعلمنى هذا أن أصون لسانى !

واستحم وارتدى ثيابه ومشط شعره ، لكنه لم يستطع أن ينسى أقوال الجريدة . أصبح يحس بأن كاتب المقالة قد راعاه حقا بنشر نبأ هذا الحادث الذى يعده هو تافها غير ذى بال ، وراعاه خاصة بما أسبغ على الحادث من خطورة حتى لكأنه أمر سياسى مثقل بالنتائج الخطيرة . وحين جلس روبيان الى المائدة لتناول طعام الافطار عاد فتناول الجريدة ، فقرأ الانباء الاخرى ، وقرأ قائمة التعيينات الحكومية ، وقرأ قصة جريمة وقعت فى جارانيونس ، وقرأ التنبؤات الجوية ، الى أن وقع بصره مرة أخرى على المقالة المستنكرة بما يشبه القصد ، فأخذ يقرؤها الآن فى تمهل . حتى اذا أنهى قراءتها ، اعترف بأنه لايستطيع على كل حال أن يشك فى صدق كاتبها واخلاصه . أما مبالغات الاسلوب فلعلها ترجع الى ان قصة الحادث قد أثرت فى نفس كاماشو تأثيرا بلغ من القوة أنه أفقده القصد والاعتدال . ذلك أمر لاشك فيه .. وتذكر روبيان دخوله الى مكتب النائب السابق ، وتذكر كيف قص عليه الحادث ، ثم

عادت به الذاكرة أيضا الى الوراء ، فلاح له الحادث نفسه مرة أخرى . انه الآن وقد جلس جلسة مريحة فى حجرة عمله يعيش المشهد من جديد : الطفل ، العربة ، الخيل ، عويل الام ، الوثبة التى وثبها بدافع قوة لا تقاوم ... انه لايزال يجهل كيف حدث ما حدث ... لكأن حجابا قد أسدل على عينيه عندئذ فجأة ... انه ارتمى على الطفل والخيل وقد صمت أذناه وعميت عيناه لايبالى الخطر الذى تعرض له هو نفسه... وكان يمكن جدا أن يبقى هنالك وقد قلبته الخيل وهشمته العجلات ميتا أو جريحا ... وهبه جرح فقط .... أليست هذه هى الحقيقة ؟ ليس فى وسع المرء الا أن يعترف بأن اللحظة كانت حرجة ... والدليل على ذلك ان الام والجيران جميعا ...

وخرج روبيان من تأملاته فقرأ المقالة مرة أخرى . أما انها قد كتبت كتابة جيدة ، فهذا ما لاشك فيه . وأعاد قراءة بضع فقرات وهو يشعر بكثير من الرضا . لكان هذا الشيطان قد شهد الحادث بنفسه ... ياله من وصف حى ! ما أرشق هذا الاسلوب ! صحيح انه بالغ فى وصف بعض الوقائع — وهذا يرجع بلا ريب الى سوء الذاكرة — لكن هذه المبالغة نفسها لا تمجها الاسماع . وشعر روبيان بشىء من الزهو وهو يرى اسمه يتكرر مرارا كثيرة : « صديقنا ، صديقنا الفذ ، صديقنا الشجاع .. » .

وعند الغداء ضحك روبيان من نفسه . انه يرى الآن ان استياءه فى الصباح لم يكن له ما يسوغه . اى غرابة فى أن يطلع كاماشو قراءه على حادث وقع فعلا ، حادث شائق ، مؤثر ، حادث لايقع مثله كثيرا ؟ وحين خرج ، استقبله الناس بالتهنئة عدة مرات ، حتى ان فريتاس سماه سان فنسان دوبول . فكان يبتسم ويشكر ويتواضع قائلا : أمر لا يستحق الذكر . صاح أحدهم :

— لا يستحق الذكر ؟ اننا فى حاجة الى كثير من هذه الامور التى لا تستحق الذكر ! لقد انقذت حياة طفل !

وأخذ روبيان يقتنع ببطولته شيئا فشيئا ، وظل يصغى ويبتسم . وقص الحادثة أيضا على عدد من المستطلعين أرادوا أن يسمعوا نبأها من فم صاحبها نفسه . ورد بعض المستمعين بسرد قصص كانوا هم أبطالها . فهذا أنقذ حياة رجل ، وذاك أنقذ صبية كانت تستحم فى غدير باسيو فأوشكت أن تغرق ... ثم رويت حكايات انتحار أمكن تفاديه بتدخل المنقذ الذى يروى القصة ، اذ انتزع المسدس من بين

يدى البائس الشقى ، وحمله على أن يحلف انه ... وهكذا . كشعاع الشمس الذى يسقط على البيض فيفقس ، جاء هذا المجد الجديد الحار ، مجد روبيان ، ففجر على حين فجأة كل تلك الطائفة الكبيرة من المآثر التى كانت الى ذلك الحين مجهولة . وظهر لصاحبنا حساد أيضا ، ومن هؤلاء الحساد من لم يسبق له به معرفة ، لكنهم غاروا منه لا لشىء الا لانهم سمعوا المديح يكال له . وذهب روبيان الى كاماشو يشكر له مقالته ، ولم ينس أن يعتب عليه بعض العتب ، لانه أفشى ما أفضى به اليه . لكن هذا العتب كان ضعيفا حتى لكأنه تمتمة بأطراف الشفاه . ومضى بعد ذلك يشترى عددا من نسخ « الخفير » ، ليرسلها الى أصدقائه بارباسينا . وما من جريدة أخرى أشارت الى النبأ ، لكن روبيان عمل بنصيحة فريتاس ، فأعاد نشر الخبر فى ركن «بريد القراء» من « جريدة التجارة » .

٦٧

قبلت ماريا بنديكتا أخيرا أن تتعلم الفرنسية والبيانو . لقد ظلت ابنة خالتها تلح عليها فى ذلك كل لحظة خلال أربعة أيام ، حتى لقد بلغت من البراعة فى اللجاجة ان دونا ماريا أوجوستا قررت أن تعجل العودة الى الريف مخافة أن تنتهى ابنتها الى الانصياع . والحق ان ماريا قاومت كثيرا ، فكانت تقول ان هذه أمور زائدة ، وان فتاة الريف لا تحتاج أبدا الى فنون المدن هذه . ولكن كارلوس ماريا كان فى ذات مساء هناك ، فطلب الى ماريا بنديكتا أن تعزف شيئا ، فاحمر وجه ماريا احمرارا شديدا ، لكن صوفيا انقذت الموقف بكذبة فقالت :

ــ لا تسألها هذا . انها لم تعزف مرة واحدة منذ وصولها وهى تقول انها لا تعزف فى هذه الايام الا لأهل الريف .

فقال الشاب ملحا :

ــ هبينا من أهل الريف .

ومن حسن الحظ انه لم يلبث أن انتقل الى موضوع آخر ، فجعل يتحدث عن الحفلة الراقصة التى أقامتها بارونة بيوهى « وهى تلك البارونة التى صادفها روبيان فى مكتب كاماشو » ، فقال انها حفلة رائعة ... آه ... رائعة حقا ... نعم ، وأضاف ان البارونة تقدره تقديرا كبيرا .

وفى الغداة صرحت ماريا بنديكتا لابنة خالتها انها مستعدة لتعلم البيانو والفرنسية والـكمان ، وحتى الروسية اذا أرادت . ولكن بقى أن تقتنع الام . فلما علمت الام بعزم ابنتها رفعت ذراعيها نحو السماء وصاحت : ماذا ؟ تتعلم الفرنسيــة ؟ تتعلم البيـانو ؟ مستحيل .. والا . فلن تكون ماريا بنديكتا ابنتى ... وفى وسعها عندئذ أن تعزف على البيانو وأن تغنى ، وأن تتكلم بلغــة الرطنطو وباللغة الحثية أو بلغة الشيطان . لعل الشيطان يأخذهم جميعا فى ذات يوم . لـكن باليا استطاع أن يسمعها صوت العقل وأن يردها الى الصواب . قال لها ان هذه الدراسات ، مهما تكن نافلة فى نظرها ، فهى الحد الادنى من الثقافة الواجبة لفتاة عصرية .

فقاطعته دونا ماريا أوجوستا تقول :

ــ ولـكننى ربيت ابنتى فى الريف وللريف .

ــ للريف ؟ من ذا الذى يعرف لأى شىء يربى المرء أولاده ؟ لقد كان والدى يهيئنى لأن أكون كاهنا ، ومن أجل هذا تعلمت بعض مبادىء اللاتينية . انك لن تعيشى أبد الدهر ، ثم ان حالتك المالية أقرب الى الارتباك ، ومن الممكن جدا أن تصبح ماريا بنديكتا وتمسى فاذا هى لا تملك شيئا البتة !.. البتة ؟.. لا .. فاننا ما دمنا أحياء سنقاسمها كل ما نملك .. ولـكن أليس من الخير أن يكون المرء بعيد النظر وأن يتبصر فى العواقب ؟ انها تستطيع فى المستقبل اذا فقدتنا جميعا ، أن تعيش فى بحبوحة من مجرد تعليم الفرنسية والبيانو . فيكفى أن يكون فى قوسها هــذان الوتران حتى تضمن لنفسها مركزا أفضل . وهى جميــلة ، كما كنت أنت جميــلة فى زمانك ، وهى تنعم أيضا بمزايا خلقية عظيمة . فمن الممكن أن تجد زوجا ذا يسار . أنت لا تعلمين ان فى ذهنى منذ الآن شخصا أريده لها ، شخصا رصينا جادا .

ــ ها . اذن ستتعلم الفرنسية والبيانو وفن الحب ؟

ــ فن الحب ؟ ماذا تقصدين بهذا الـكلام ؟ أنا لم أزد على أن أشرت الى رأى شخصى ، الى مشروع تراءى لى انه قــد يحقق سعادتها وسعادة أمها ... كان فى ذهنى .. ولـكن حسبى هذا .. ياخالتى أوجوستا .

وقد ظهر فى وجه باليا من الزعل ما حمـل الخالة على ابدال لهجتها المرة بلهجة جافة ، دون أن ترضخ . غير ان الليـل حمل اليها النصح . أن علمها بحالتها المـالية ، وأملها فى أن يكون لها

صهر ثرى قد فعلا فى اقناعها ما لم تفعله أى حجة من الحجج . ذلك ان الشباب المتازين فى الريف انما يصاهرون الاسر الكبيرة التى تملك أطيانا وتنعم بثراء وطيد . وانتهت بعد يومين الى اتفاق وهو أن تمكث ماريا بنديكتا عند ابنة خالتها ، وأن تذهبا كلتاهما الى الريف من حين الى حين ، وأن تأتى الخالة الى المدينة فى بعض الاحيان لرؤيتهما . حتى لقد قال باليا انه سيحاول متى سنحت الظروف المواتية ، أن يصفى أعمال السيدة العجوز بالريف ، وأن يجيء بها الى العاصمة لتستقر فيها استقرارا نهائيا . لكن دونا ماريا هزت رأسها حين سمعت هذا الكلام .

لا تحسبوا ان الامور كلها قد جرت على هذا النحو السهل الذى وصفته . فالحق انه كان هنالك ارتباك وعذاب وأسف وتمرد من جانب ماريا بنديكتا . وبعد عودة الام الى أرضها فى الريف بثمانية عشر يوما أرادت ماريا بنديكتا أن تزورها ، فصحبتها صوفيا اليها ومكثتا هنالك أسبوعا . وبعد شهرين جاءت الأم الى ريو تقضى فيها بضعة أيام . واستطاعت صوفيا بكثير من الحنكة والدراية أن تعود ابنة خالتها على متع المدينة شيئا فشيئا . المسارح والزيارات والنزهات والحفلات والاثواب الانيقة والقبعات الجميلة والجواهر وما الى ذلك . لئن كانت ماريا بنديكتا قوية الشخصية فهى لا تعدم أن تكون امرأة . لذلك أحبت هذه الطرائف كلها . غير انها لم تتخل عن اقتناعها الراسخ بأنها تستطيع ، متى شاءت ، أن تحطم جميع هذه الروابط الواهنة وأن تعود الى الريف . وكانت فى بعض الاحيان ترى الريف فى منامها أو تراه فى أحلام اليقظة . وفى ابان الحفلات الراقصة الاولى ، لم يكن هيجان السهرة هو الذى يملأ قلبها حين تعود الى البيت . وانما كان يملؤه الحنين الى ايجواسو. وكان هذا الحنين يزداد فى بعض ساعات النهار حين يرين على الشارع وفى البيت هدوء كامل . ذلك ان خيالها يطير عندئذ الى شرفة المنزل القديم التى الفت أن تشرب فيها القهوة الى جانب أمها . وكانت عندئذ تتذكر العبيد والاثاث القديم والخفين الجميلين اللذين أهداهما اليها عرابها ــ وهو مالك من أثرياء المالكين فى سان جوان دلرى ــ واللذين لايزالان هناك ، لأن صوفيا لم تسمح لها بأن تحملهما معها الى ريو .

وكان أستاذ البيانو وأستاذ الفرنسية يجيدان مهنتهما . واستطاعت صوفيا أن تفهمهما سرا ان ابنة خالتها متألمة من أنها

تدرس وهي في هذه السن ، وسألتهما أن يلتزما الصمت الكامل في شأن هذه الدروس • فوعداها بذلك • واكتفى أستاذ البيانو بأن قص على بعض زملائه قصة هذا الرجاء الذى تقدمت به اليه صوفيا ، فضحكوا من ذلك ضحكا كثيرا ، وراح كل منهم يقص بعض النوادر عن زبائنه . ومهما يكن من أمر ، فان ماريا بنديكتا قد بلغت من سهولة التعلم ومن العناد في الاكباب على الدراسة ان ابنة خالتها نفسها كانت ترى من حين الى حين ان من اللازم أن تقطع عليها عملها لتقول لها :

ـ ارتاحي قليلا يا ابنتي !

فتجيبها الفتاة ضاحكة :

ـ بل يجب أن أتدارك الوقت الذى فات !

ومن أجل أن تحملها صوفيا على الراحة كانت تنظم لها عندئذ نزهات مرتجلة ، فتارة تزوران حيا من أحياء المدينة ، وتارة تزوران حيا آخر . وكانت ماريا بنديكتا لا تضيع وقتها سدى أثناء ذلك ، فهي في بعض الشوارع تقرأ الاعلانات الفرنسية وتسأل ابنة خالتها عن معاني الكلمات التي تجهل معانيها . لكن ابنة خالتها كانت في بعض الاحيان لا تفوقها علما بمعاني هذه الكلمات ، لأن مفرداتها مقصورة على شئون الازياء ، وأحاديث الصالونات لا تتعداها .

على ان ماريا بنديكتا كانت تتقدم بخطا سريعة لا في الفرنسية والبيانو فحسب ، بل في التلاؤم مع الوسط الجديد تلاؤما سهلا لم يكن في الحسبان • حتى لقد أصبحت تنافس صوفيا رغم ما لصوفيا من روح خاصة تسبغ على جميع قسماتها وعلى جميع حركاتها فتنة تنفرد بها . حتى لقد أخذ الناس ينظرون الى ماريا بنديكتا ويلاحظونها الى جانب ابنة خالتها رغم ما بينهما من اختلاف ، بل ان صوفيا التي كانت تمدح الفتاة في كل مكان ، أصبحت الآن تلتزم الصمت حين تمتدح الفتاة أمامها ، ولكن دون أن تنقص من قيمتها طبعا . وكانت ماريا بنديكتا تجيد الحديث ، لكنها اذا صمتت طال صمتها ، فتلك « لحظات وجومها » على حد تعبيرها . وكانت ترقص رقصة التقابل بغير حماسة ، وذلك أمر مستحسن في هذا النوع من السلوى ، وكانت تهوى النظر الى الناس وهم يدورون في زوبعة الفالس أو البولكا . وقد ظنت صوفيا أن الخجل هو الذى يمنعها من رقص الفالس أو البولكا ، فأرادت أن تعلمها

هاتين الرقصتين فى البيت بحيث لايراهما الا كرستيانو عازفا لهما على البيانو ، لـكن ماريا بنديكتا كانت ترفض ذلك دائما .

قالت لها صوفيا ذات مرة :

ـ هذا آخر آثار توحشك القروى !

لـكن ماريا بنديكتا ابتسمت ابتسامة بلغت من الغرابة ان صوفيا لم تلح . كانت هذه الابتسامة لا تدل على غضب ولا على أسف ولا على احتقار . احتقار ؟ وفيم الاحتقار ؟ ومع ذلك فلا شك ان تلك الابتسامة كانت تبدو هابطة من عل، ولاشك أيضا فى ان صوفيا كانت ترقص الفالس والبولـكا بحماسة ، وانها لا تضارعها امرأة فى حسن الاستناد الى كتف فارسها . وكارلوس ماريا الذى لايكاد يرقص أبدا ، كان لايرقص الفالس الا مع صوفيا ، وكان يقول انه يقبل أن يراقصها دورة أو دورتين فحسب . لـكن ماريا لاحظت فى ذات مساء انهما رقصا طوال ربع ساعة .

٦٨

لقد عدت ماريا بنديكتا الدقائق الخمس عشرة على ساعة روبيان الذى كان جالسا الى جانبها . سألته عن الساعة مرتين : مرة عند بدء الرقص ومرة عند نهايته . وقد مالت الفتاة على الساعة لترى بنفسها عقرب الدقائق .

سألها روبيان :

ـ أأنت نعسة ؟

فنظرت اليه ماريا بنديكتا خلسة ، فأدركت من هدوء وجهه أن سؤاله لا يشتمل على أى سخر . فأجابته بقولها :

ـ لا ... ولو أرادت ابنـة خالتى أن تعود الى البيت مبـكرة لساءنى ذلك .

ـ آه ... لا ... لن تعود مبـكرة وهى لا تستطيـع الآن أن تتعلل بصعود سانتا تيريزا ، فبيتها قريب من هنا كل القرب .

والواقع انهما كلتيهما تقيمان الآن فى شارع فلامنجو ، والحفلة الراقصة مقامة فى شارع آركوس .

يجب أن أذكر لكم ان ثمانية أشـهر قد انقضت الآن على بداية الفصل السابق ، وان أمورا كثيرة قد وقعت أثناء هذه المدة . ان روبيان هو الآن شريك زوج صوفيا فى محل للاستيراد يقع فى شارع

الفندق ، ويحمل اسم « باليا وشركاه » . ذلك هو المشروع الذى أراد كرستيانو أن يعرضه على صاحبه فى ذلك المساء الذى التقى فيه بالدكتور كاماشو ببيت بوتافوجو . وقد تردد روبيان مدة طويلة قبل أن يشارك فى المشروع رغم ان كرستيانو قد صوره له عملا مضمون النتائج . لقد طلب اليه أن يدفع مبلغا كبيرا من المال. وهو امرؤ لايفهم شيئا من شئون التجارة ، ولا يحب أن يعنى بها البتة . أضف الى ذلك ان نفقاته الشخصية كانت وحدها ضخمة ، وان ما يملكه من مال كان فى حاجة الى نظام صارم فى التوفير وقرر ألا يصرف الا فى الوجوه التى ينبغى لرب أسرة أن يصرف ماله فيها ، ثم ان المشروع الذى عرض عليه كان يبدو له غامضا أشد الغموض ، لأنه لم يستطع أن يفهم تلك الحسابات المعقدة التى قدمها باليا ، ولا ما أوضحه من تقديرات الارباح وقوائم الاسعار وجداول الرسوم الجمركية . ومن حسن الحظ ان الشروح الشفهية كانت تغنى قليلا عن الاضابير الغامضة . وكان باليا يذكر لصاحبه أمورا هائلة كثيرة ، وينصحه بانتهاز الفرصة لتشغيل ماله من أجل مضاعفته .. أما اذا كان لا يثق بصاحبه فذلك أمر آخر. ولن يكون على باليا عندئذ الا أن يشترك فى ذلك المشروع مع جون روبرت الذى كان فى الماضى شريكا فى محل ولنكشون الذى تأسس عام ١٨٤٤ ثم عاد رئيسه الآن الى انجلترا اذ أصبح عضوا فى مجلس النواب .

لم يقبل روبيان المشروع فورا ، وانما طلب امهاله خمسة أيام . لقد كان يحس انه حين يخلو الى نفسه يكون أكثر حرية . لكن الحرية لم تزده فى هذه المرة الا ارتباكا وحيرة . حسب المال الذى أنفقه الى الآن ، وقدر ما سبق أن ضيعه من الثروة الذى أورثه اياها الفيلسوف . وكان كونكاس بوربا راقدا فى تلك اللحظة فى غرفة صاحبنا ، فاذا هو يرفع رأسه مصادفة ويأخذ يحدق الى مولاه . فارتعش روبيان . انه لم يستطع فى يوم من الايام أن يمحو من ذهنه محوا تاما ان روح كونكاس بوربا الآخر يمكن أن تسكن فى جسم الكلب . حتى لقد رأى فى عينى الكلب هذه المرة معنى اللوم . ثم ضحك روبيان . هذه سخافة . هل يمكن أن يكون الكلب رجلا ؟ ومع ذلك خفض يده على غير شعور ، وأخذ يدلك أذنى الكلب كمن يريد أن يستميله اليه .

وبعد استعراض الاسباب التى تدعو الى الرفض جاء دور الاسباب

التى تدعو الى القبول . ألا يمكن أن يكون ذلك المشروع مربحا ؟ ألا يمكن أن يضاعف ثروته حقا ؟ يضاف الى ذلك ان هذا مركز وجيه ، حتى لقد يعود عليه بفوائد كبيرة عند الانتخاب اذا أراد يوما أن يرشح نفسه لمجلس النواب كما فعل الرئيس السابق لمحل ولكنسون. وهناك سبب آخر أقوى . انه يخشي اغضاب باليا اذا هو رفض الاشتراك فى المشروع ، ويخشى أن يظهر بمظهر من لايريد أن يعهد اليه بالمال مع ان باليا قد رد اليه منذ بضعة أيام جزءا من دينه عليه ، ووعده برد الباقى بعد شهرين .

لم يكن أى سبب من هذه الاسباب ذريعة يختفى وراءها سبب آخر ، وانما هى عرضت لذهنه من تلقاء نفسها . ولم تنبثق صورة صوفيا فى خياله الا آخر الامر ، رغم انها ظلت طوال تلك المدة ثاوية فى اللاشعور . انها أحد الاسباب القصوى لما قرره ، لا بل هى السبب الوحيد الذى لا يعترف به . وهز روبيان رأسه كمن يريد أن يطرد الصورة من رأسه ، ونهض . وصوفيا لا تعوزها الحيلة ، فها هى ذى تعود الى لا شعور بطلنا فتعتصم به ، ولما كانت تحترم حق كل انسان فى الحرية تركت له أن يقرر طائعا مختارا انه سيشترك فى المشروع الذى عرضه عليه كرستيانو شريطة أن تتوفر له بعض الضمانات . وهكذا تأسست الشركة التجارية ، وهكذا أسبغ روبيان على زياراته الدائمة مظهرا مشروعا .

قالت ماريا بنديكتا بعد بضع ثوان من الصمت :

ـ ألا ترى ياسيد روبيان ان ابنة خالتى جميلة جدا ؟

ـ أوافقك كل الموافقة ، دون أن يقدح هذا فيما لك انت من مزايا .

ـ جميلة وحسنة القوام .

ووافق روبيان كذلك راضيا . وراحا يتابعان بنظراتهما الراقصين اللذين يتموجان الآن فى الصالون على أنغام الفالس . ان صوفيا فاتنة . كانت ترتدى ثوبا أزرق قاتما ، عارى النحر كثيرا « للسبب الذى سبق أن بسطناه فى الفصل ٣٥ » . ان ذراعيها السافرتين البضتين اللتين يتلامع عليهما بريق الذهب تؤلفان مع كتفيها وصدرها مجموعة متسقة رائعة ، وان جسمها ينسجم مع أضواء الصالون انسجاما طبيعيا جميلا . وكان يزين رأسها تاج من اللؤلؤ الاصطناعى ، لكنه يبلغ من جودة التقليد انه يتسق كل الاتساق

مع اللؤلؤتين الطبيعيتين اللتين تزينان أذنيها واللتين كان قد أهداهما اليها روبيان .

ولم يكن كارلوس ماريا الى جانبها بالرجل الدميم فهو كما سبق ان ذكرنا رجل حسن القوام ، ولا تزال له تلك النظرة الهادئة التي عرفناها فيه على مائدة روبيـــان ، وليس يتصف بما يتصف به شاب غيره من سلوك متكلف ومن حركات تتصنع الاحترام ، بل كل ما فيه يوحى بنوع من الجلال الهادىء اللطيف الـكريم . ومع ذلك ، لئن كان واضحا من النظرة الاولى انه اذ يراقص صاحبته انما يتفضل عليها ، لقد كان واضحا انه كان مزهوا بمراقصة أجمل سيدة فى هذه السهرة . وهذان الشعوران لا يتناقضان ، بل يلتقيان فى ذلك الاحساس العميق الذى يتميز به كارلوس ماريا ألا وهو رضاه عن نفسه واعجابه بها . وعلى ذلك كان وجود صـوفيا فى نظره عبادة ترفعها اليه احدى المؤمنات . لقـد كان كارلوس ماريا لايدهش لشىء . فلو استيقظ ذات صباح فرأى نفسه امبراطورا ، لما استغرب الا تأخر الوزراء عن المثول بين يديه لتهنئته .

قالت صوفيا :

سأرتاح قليلا .

فسألها مراقصها :

ــ أتعبت أم ... مللت ؟

فقالت :

ــ بل تعبت فقط ...

واستاء كارلوس ماريا من سؤاله الذى يشتمل على الظن الآخر، فأسرع يبعد هذا الظن قائلا :

ــ طبعا ، ولماذا تملين ؟ لـكننى اظن انك تستطيعين أن تبذلى لي هذه التضحية ، وهى أن تستمرى فى الرقص قليلا . خمس دقائق ؟

ــ خمس دقائق

ــ ولا دقيقة زيادة ؟ أما أنا ففى وسعى أن أستمر الى الابد .

خفضت صوفيا رأسها . فاضاف كارلوس يقول :

ــ معك أنت طبعا .

وظلت صوفيا تحدق الى الارض ، دون أن تجيب ، ودون أن توافق ، وحتى دون أن تشكر. ربما لم يكن ذلك منه الا ملاطفة ، وفى العادة ان ترد المرأة على الملاطفة بشكر ... وهى لم تسمعه

يتكلم على هذا النحو لاول مرة ، حتى لقد سبق أن صرح لها ذات يوم ، منذ مدة طويلة ، بأنها تستحق أن تكون فى الصف الاول بين جميع نساء الارض . وأعقب ذلك صمت دام ستة أشهر : أربعة قضتها فى بتروبوليس وشهرين آخرين لم يظهر خلالهما قط . انه لم يستأنف زياراته لها الا منذ مدة قصيرة ، فعاد يقول لها تلك المدائح نفسها ، سواء على انفراد أم على مشهد من الناس. واستمرا يرقصان ، لكنهما يلتزمان الآن صمتا كاملا . واخيرا قطع هو الصمت قائلا : ان البحر فى الليلة الفائتة كان يلطم الشاطىء فى حنق أمام بيت صوفيا . فسألته :

ــ هل مررت هناك ؟

ــ كنت هناك . كنت ذاهبا الى جهة « الكاتيتى » ، وكان الوقت متأخرا ، فخطر لى أن انزل حتى شاطىء فلامنجو . وكانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة . أما أنت فأراهن اننى لم أخطر لك على بال . وكنت فى أثناء ذلك أكاد اسمع تردد أنفاسك .

حاولت صوفيا أن تبتسم لكن كارلوس ماريا أردف يقول :

ــ كان البحر يلطم الشاطىء لطما قويا ... هذا صحيح ... لكن قلبى كان لا يقل عن البحر قوة خفقان ... مع فارق واحد هو ان البحر غبى تتلاطم أمواجه دون أن يعرف لماذا ، أما قلبى فيعلم حق العلم انه يخفق لك أنت .

غمغمت صوفيا :

ــ أوه ...

أكان ذلك دهشة ؟ أكان استياء ؟ أكان ذعرا ؟ تلك أسئلة تعرض دفعة واحدة . وأحسب ان المرأة الشابة نفسها . ما كان لها أن تستطيع الاجابة عنها فى وضوح ، من فرط ذهولها حين سمعت تصريح الشاب . ومن المحقق على كل حال انها لم تكذب كلامه . ولا أستطيع أن أزيد على هذا الا ان غمغمتها كانت من الضعف والاختناق بحيث لم يكد يسمعها . أما هو فقد ظل أمام الناس ساكنا كأن عليه قناعا ، فلم يعبر عن أى انفعال ، لا قبل التصريح ولا أثناءه ولا بعده ، حتى لقد احتفظ على أطراف شفتيه بتلك الابتسامة الساخرة المعهودة فيه حين يهزأ بأحد الناس ، كأنما هو قد أطلق نكتة لاذعة . ومع ذلك كانت عيون كثير من النساء تتجسس على وجه صوفيا وحركاتها وأوضاعها ونظرتها المنكسة الى الارض

في عناد . وقال لها :
ـ وجهك يدل على الاضطراب ، فأخفيه بالمروحة .

فاذا بصوفيا تأخذ بتحريك المروحة على غير شعور ، ورفعت عندئذ رأسها ، فأدركت انها محط أنظار الناس جميعا ، فامتقع لونها . الدقائق تجرى سريعة كالثوانى . لقد انقضت الدقائق الخمس التى حدداها... انقضت منذ مدة طويلة... وأتت الدقيقة الثالثة عشرة ... ووراءها تقفز دقيقة أخرى ، فأخرى ... قالت صوفيا لفارسها انها تريد أن تجلس ، فقال لها :
ـ أوصلك ثم أنسحب .
فأجابته بسرعة :
ـ بل تبقى ...
ثم أضافت مستدركة :
ـ الحفلة ناجحة جدا .
ـ نعم ... وأريد أن أحتفظ منها بأجمل ذكرى. كل ما سأسمعه من كلام سيكون أشبه بنقيق الضفادع بعد تفريد طائر جميل ، طائر كالطيور التى عندك فى البيت . أين تريدين أن أتركك ؟
ـ الى جانب ابنة خالتى .

٦٩

أخلى لها روبيان مكانه ، ومشى يرافق كارلوس ماريا . اجتاز كارلوس الصالون ومضى الى الحجرة الصغيرة التى تقع عند المدخل وتقوم مقام غرفة لخلع المعاطف . كان فى هذه الحجرة عشرة رجال يتحدثون ، وكان روبيان ، حتى قبل الوصول الى هذه الحجرة ، قد أمسك بذراع كارلوس ماريا فى غير كلفة ليسأله أمرا ما . والحق انه كان لا يحفل بهذا الامر كثيرا ، وانما كان يريد أن يؤخر الشاب قليلا رجاء أن يحاول النفاذ الى ما يكن من نيات . لقد بدأ يعتقد ان الظن الذى يعذبه منذ زمن طويل قد يكون جائزا بل صادقا ، خاصة بعد هذه المحادثة الطويلة ، وبعد موقفها هى منه .

كان كارلوس ماريا لايعرف شيئا عن الهوى القوى الذى يعصف بقلب « الميناسى » روبيان ، هذا الهوى المكتوم المكبوت الذى كان صاحبنا لايرتجى منه الا ما قد تجود به عليه المصادفة ، مكتفيا باليسير اليسير ، وهو ان يرى حبيبته لا أكثر ، مسهد

الليالى رغم ذلك ، دافعا من ماله كل ما يطلبه منه الزوج لأعماله التجارية ... ويجب أن نذكر انه لم يكن يغـار من الـزوج فعلاقه الزوجين الخالصة لم تثر فى نفسه كرها لسـيد صـوفيا ومولاها الشرعى فى يوم من الايام ، ومرت الشـهور تلو الشـهور لا تغير عواطف روبيان ، ولا تطفىء آماله . اما أن يظهر له منافس غير الزوج فذلك ما أذهله ، فاذا هو يشعر بالغيرة لاول مرة .

قال كارلوس ماريا وهو يلتفت :

ــ ماذا ؟

ودخل فى الوقت نفسه الى تلك الحجرة التى كان الرجال العشرة يناقشون فيها أمور السياسـة ــ كدت أنسى أن أقول ان الحفلة الراقصة قد أقيمت فى منزل كاماشو لمناسبة عيد ميلاد زوجته . فلما وصل صاحبنا كان الحديث عاما ، وكانوا يتكلمون جميعا فى آن واحد لأن الموضوع واحد . زوبعة من الافـكار من كل جنس ونوع ... وأخيرا استطاع أحدهم ــ وهو من أصحاب الرأى ــ أن يسيطر على الحلبة ، فسـاد الصمت بضع لحظات ، وأخـذ الآخرون ينصتون وهم يدخنون . قال صاحب الرأى :

ــ فى وسعهم أن يفعلوا ما شاءوا ، لـكن القصاص الادبى لا مفر منه . وستدفع الاحزاب ديونها مع الفوائد كاملة غير منقوصة الى آخر جيل . ان المبادىء لا تموت ، وان الاحزاب التى تنسى هذه الحقيقة تنتهى الى الوحل والمذلة .

وكان هناك رجل آخر شبه أصلع ، لايؤمن بالقصاص الادبى ، أخذ يشرح رأيه .. لـكن رجلا ثالثا لم يلبث أن أشـار الى طرد بعض الجباة العامين ، فاذا العقول التى ضلت قليلا فى متـاهات العقيدة تسترجع نشاطها بسرعة : ان هؤلاء الجباة لايؤخذ عليهم شىء غير آرائهم ، وان صرفهم لا يسوغه أن يكون الذين حلوا محلهم أكفاء ... فهؤلاء أحدهم متهم باختلاس... وآخر هو صهر رجل اسمه ماركز قد أطلق رصاص مسدسه على رئيس مقاطعة سان جوزه دوس كامبوس ... وما قولـكم فى العقداء الجدد ؟ الصيد الحقيقى للمشانق .

سأل روبيان صاحبه كارلوس ماريا حين رآه يأخذ معطفه :

ــ أأنت ذاهب ؟

ــ نعم . لقـد نعست . هلا ساعدتنى فى ادخال هـذا الـكم ؟ لقد نعست .

ــ لكنك تبكر فى الذهاب . ابق . ان صديقنا كاماشو لايحب ان يرى الفرسان ينصرفون . من ذا الذى يراقص الفتيات بعدك ؟

فأجاب كارلوس ماريا ، وهو يبتسم ، بأنه لا يميل الى الرقص كثيرا ، وانه راقص صوفيا لانها تحسن الفالس حقا ، فلولا ذلك لما رقص . وقد نعس الآن فهو يؤثر سريره على جوقة الموسيقيين . قال ذلك ومد اليه يده فى تعاظم ، فصافحه روبيان وهو لايزال غارقا فى شكوكه .

انه لا يعرف كيف يفكر . لماذا يدعها فى منتصف الحفلة بدلا من أن ينتظرها ليشيعها حتى عربتها ، كما فعل فى المرات السابقة ؟ اعل روبيان مخطىء اذن فى ظنونه ... وأخذ يفكر ، فتذكر ليلة سانتا تيريزا ... يوم تجرأ فصارح المرأة الشابة بعواطفه ، وتناول يدها الجميلة ، يدها الناعمة الرقيقة ... لقد قطع عليهما الماجور يومئذ خلوتهما . لكن لماذا لم يستأنف مصارحته ؟ انها لم يبد عنيها الغضب .. وزوجها لم يلاحظ شيئا ... وعاد روبيان يتصور ان كارلوس ماريا ربما كان غريمه ، وملأ عليه هذا التصور شعاب ذهنه . صحيح انه انصرف لنعاسه ، ولكن ما تعليل وضعها ازاءه ؟ وأخذ روبيان يذهب الى باب الصالون حينا ليرى صوفيا ، ثم يمضى يعتصم بركن من الاركان أو يقترب من مائدة اللعب حينا آخر . انه قلق ، مضطرب .

٧٠

حين عادت صوفيا الى بيتها ، وأخذت تفض شعرها ، تحدثت عن السهرة حديثها عن سهرة مملة . كانت تتثاءب ، وقالت انها تشعر بألم فى قدمها . ولم يؤيد باليا رأيها ، بل قال ربما كانت هى المتعبة ، راذا كانت تشعر بألم فى قدمها فمرد ذلك الى انها قد أفرطت فى الرقص . فأجابته بأنها لو لم ترقص لماتت ضجرا . واستمرت تنزع دبابيس شعرها ، وتضعها فى آنية من البللور واحدا بعد واحد . وكان شعرها يتدلى على كتفيها اللذين لا يظللهما الا قميص ناعم من نسيج الكتان . وكان باليا وراءها ، فاذا هو يقول على حين فجأة : ان كارلوس ماريا يجيد رقص الفالس كثيرا . فارتعشت صوفيا ثم نظرت اليه فى المرآة ، فلاحظت ان وجهه لايدل الا على هدوء ، فأجابته مؤيدة رأيه قائلة انه يرقص الفالس رقصا لابأس به حقا ...

ـ بل رقصا ممتازا ياسيدتي .

ـ ها ، نعم ... تمدح الآخرين لعلمك بأن أحدا لا يقدر أن يحل محلك . أعرفك حق المعرفة أيها المغرور .

فمد باليا ذراعه وأمسك بذقنها واضطرها الى النظر اليه : مغرور ؟ لماذا ؟ لماذا أكون مغرورا ؟

ـ آي ... لاتوجعني .

كذلك قالت صوفيا متأوهة .

فقبل باليا كتفها ، فابتسمت بغير ضيق وغير صداع ، على خلاف ما حدث في تلك الليلة التي انقضت في سانتا تيريزا حين قصت على زوجها تمادي روبيان . لاشك ان هواء البحر أدعى الى سلامة الصحة من هواء الجبال .

وفي صباح الغد أيقظها تغريد عصافير المنزل في وقت مبكر كأنه يحمل اليها رسالة . وتكاسلت على سريرها ، وأغمضت عينيها ، لترى رؤية أوضح . ولكن ماذا ترى ؟ لاشك ان هواء شاطيء البحر افضل ... وبعد نصف ساعة كانت صوفيا تتكيء على النافذة ، تتأمل الامواج التي تغني على الشاطيء ، والامواج التي ترتفع بعيدا ثم تتكسر على مدخل المرفأ . والتهب خيال المرأة الشابة فتساءلت أليس هذا نوعا من الفالس ترقصه الامواج ؟ وطارت هكذا على أجنحة خيالها . ثم وجدت نفسها آخر الامر تنظر الى الشارع في مواجهة البحر كأنما هي تبحث عن أثر الرجل الذي كان هنالك أول أمس في غيهب الليل ... أحسب انها استطاعت أن تهتدي أخيرا الى آثار مروره ، وان كنت لا أحلف على ذلك . ومن المحقق على كل حال انها قارنت عندئذ بين ما ترى وبين الاقوال التي سمعتها من الشاب .

« كانت الليلة ساطعة الضوء فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة . أما أنت فأراهن أنني لم أخطر لك على بال . وكنت في أثناء ذلك أكاد أسمع تردد أنفاسك . كان البحر يلطم الشاطيء لطما قويا ... هذا صحيح ... لكن قلبي كان لا يقل عن البحر قوة خفقان ... مع فارق واحد هو أن البحر غبي تتلاطم أمواجه من دون أن يعرف لماذا ، أما قلبي فيعلم حق العلم انه يخفق لك أنت » .

ارتعشت صوفيا وحاولت أن تنسى هذه الكلمات ، لكن الكلمات كانت تأبى الا أن تتردد : « كانت الليلة ساطعة الضوء »

٧١

وبين جملتين شعرت بأن شخصا يضع يده على كتفها . انه زوجها قد عاد من افطاره وهو الآن ذاهب الى مركز المدينة . وها هو ذا يودعها فى حرارة ، ويوصيها خيرا بماريا بنديكتا التى استيقظت ممتلئة بالافكار السود .

صاحت صوفيا قائلة :

ـ استيقظت ؟

فأجابها كرستيانو :

ـ وجدتها فى قاعة الطعام حين نزلت ، وقد استبدت بها تلك الرغبة فى العودة الى الريف منذ صحت من نومها . لقد رأت حلما ... لا أدرى ماذا ....

ـ وجوم جديد ...

قالت صوفيا ذلك ، وبيد رشيقة خفيفة أصلحت ربطة عنق زوجها ، ورفعت جيد سترته ، وودع كل منهما الآخر . ونزل باليا وخرج ، وظلت صوفيا واقفة . على النافذة . وقبل أن يختفى عند ناصية الشارع التفت الى وراء ، فلوح كل منهما للآخر بيده على عادتهما .

٧٢

« كانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة ... أما انت فأراهن ... »

وحين استطاعت أن تنتزع نفسها من أحلامها آخر الامر ، كانت الساعة ، تحت ، تدق التاسعة . فحلفت صوفيا ، وقد غضبت من نفسها وعذبها ضميرها ، حلفت بأقدس ما عندها ، انها لن تفكر فى الحادث بعد اليوم أبدا . قالت لنفسها انه حادث تافه لايستحق أن تفكر فيه ، وان غلطتها الوحيدة هى انها سمحت للشاب أن يتمادى فى وقاحته الى آخر حدودها . لكن عذرها فى هذا انها لعلها تفادت بذلك وقوع فضيحة رهيبة ، لأن الشاب كان بمكن الا يتورع عن مرافقتها الى مقعدها وعن الاستمرار فى مصارحتها على مرأى ومسمع من جميع الناس . وكان ذلك التصريح ما ينفك يتردد فى ذاكرتها بتلك الكلمات نفسها وذلك الصوت

نفسه : « كانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة ... »

٧٣

بينما كانت صوفيا تردد لنفسها التصريح الذى سمعته البارحة ، كان كارلوس ماريا يفتح عينيه ويتمطى ، وقبل أن ينهض من فراشه ليستحم ويرتدى ملابسه ويمضى فى نزهة على الحصان ، أخذ يتذكر أحداث الامس . تلك عادة من عاداته . انه لا يعدم أبدا ان يقع على حادثة أو كلمة أو أمر يسير أن يتملق غروره . هذه وقفة يقفها فكره للراحة ... هى مرحلة من الطريق يضع فيها قدمه على الارض ليسترد أنفاسه وليشرب على مهل بضع جرعات من الماء البارد . فاذا لم يجد أى حادثة ترضيه كل الارضاء ، او اذا لم تعد الى ذاكرته الا الوقائع التى لا ترضى ، لم يسؤه ذلك ، فحسبه أن يتذكر كلمة قالها هو نفسه ، وحسبه أن يشعر بأنه عاش ، وأن يستمتع بهذا الشعور ، حتى لا يعد الامس يوما ضائعا .

وظهرت صوفيا فى ذكرى أحداث البارحة ، بل ظهرت من موكب هذه الاحداث فى مكان بارز .. وتذوق كارلوس ماريا مرة أخرى الحديث الذى دار بينه وبين المرأة الشابة . لكنه حين وصل من استعراضه الى تصريحه بالحب ، امتزج رضاه بشىء من الانزعاج . ترى ألم يسرف فى الامر ؟ ألم يورطه هذا فى عهد أو حرج أو التزام ؟ وهب حسنات التصريح تفوق سيئاته ، فان كارلوس ماريا ظل يتردد بين ما للأمر وما عليه ، فلم يعرف ما هو الشعور الذى ينبغى أن يستسلم له . وحين تذكر انه قص على صوفيا نزهته الليلية على شاطىء فلامنجو ، لم يستطع أن يمتنع عن الضحك ، لأن القصة كلها محض تلفيق . لقد خطر بباله أن يخترع القصة أثناء الحديث ، فهو لم يذهب الى فلامنجو فى الليل ، ولا راوده فى لحظة من اللحظات أن يفعل ذلك . وانقطع أخيرا عن الضحك ، وسرعان ما ندم على هذا الافراط فى المرح . ان اللجوء الى تلك الكذبة ينقص قدره فى نظر نفسه . وخطر بباله أن يذكر الحقيقة لصوفيا فى أول اجتماع يلقاها فيه ، لكنه لم يلبث أن أدرك أن تصحيح الموشح شر من الموشح نفسه ، وان هناك موشحات كاذبة لا يعوزها الجمال الشعرى .

واسترد تفاؤله. ورأى بخياله قاعة الرقص، والنساء ، والرجال، والمراوح تحركها أيد نافد صبرها ، والشوارب المشعثة من الحنق. وشعر بعطر الحسد والاعجاب ينتشر حوله . والحسد حسد غيره طبعا .. اما هو فمبرأ من هذا العيب . والحسد والاعجاب اللذان يتخلجان فى قلوب الآخرين هما ما يحدث فى قرارة نفسه أكبر فرح . ان ملكة الحفلة قد ترامت عليه .. بهذا كان كارلوس ماريا يعبر عن التفوق الذى كان يريد أن يخلعه على صوفيا .. مع شعوره بأن فيها عيبا هاما هو نشأتها وتربيتها ، ذلك انه يرى ان ما تصطنعه هذه المرأة الشابة من آداب السلوك ليس من فطرتها وانما هو مكتسب فى وقت متأخر ، قبيل زواجها ان لم يكن بعده ، وما تزال آدابها حتى اليوم لا تفوق كثيرا آداب بيئتها .

٧٤

وانبثقت فى خياله صور نساء أخريات يؤثرنه على غيره من الرجال لجمال حديثه ومفاتن جسمه . ترى هل هو طامع فيهن جميعا ؟ يستحيل أن نعرف ذلك . لعله طمع فى بعضهن ، ولكن مما لاشك فيه ان صحبة كل واحدة منهن كانت تهيىء له لذة متجددة دائما. ان أخلاق بعضهن فوق كل شبهة ، ومع ذلك يسرهن أن يجتذبنه اليهن ، فيستمتعن بصحبة الفتى الجميل ، دون أن تتعرض فضيلتهن لأى خطر ، مثلهن كمثل المشاهد الذى يتلذذ بغرام عطيل ، لكنه يخرج من المسرح دون أن يكون عليه أن يلوم نفسه على قتل ديدمونة

فكأن جميع النساء يحطن بسرير كارلوس ماريا كأكليل من الازهار . لسن جميعا فى ريعان الصبا ، لكن امتياز المظهر يعوض عن نضارة الشباب . وهذا كارلوس ماريا يستقبلهن كمثل اله من آلهة القدماء يستقبل عابداته الجميلات مع قرابينهن جامدا فى المرمر المقدود منه ! ان كارلوس ماريا يميز أصواتهن فى وسط الدمدمة الشاملة ، لا يميزها كلها فى الحق دفعة واحدة بل يميز ثلاثة منها أو أربعة فى آن واحد .

وكان صوت صوفيا آخر صوت . أنصت اليه كارلوس ماريا وهو لايزال يشعر ببقية من حب ، لكنه لا يحس تلك الحماسة التى ألهبت نفسه أول الامر ، لأن ذكرى النساء الاخريات — وهن يمتزن جميعا بمزايا كبيرة — تقلل الآن من شأن المرأة الجديدة التى تم اقتناصها . على انه لايستطيع أن ينكر انها كانت جذابة جدا ،

وانها كانت ترقص الفالس معه رقصا رائعا . أتراه يقع في هواها آخر الامر ؟ ها هو ذا يتذكر في هذه اللحظة قصة النزهة التي زعم انه قام بها على الشاطىء ، فينهض من فراشه مستاء معتكر المزاج . ماذا دهاني حتى لفقت هذه القصة ؟ وعاد يشعر بالرغبة في ذكر الحقيقة . انه يشعر الآن بذلك شعورا أقرب الى الجد . ويقول في نفسه « الكذب خليق بالخدم واضرابهم .. »

وبعد نصف ساعة كان كارلوس ماريا يمتطي صهوة حصانه ويخرج من بيته الواقع في شارع « الانفاليد » . واذ كان يسير في اتجاه « الكاتيتي » تذكر أن بيت صوفيا يطل على شاطىء فلامنجو ، فلا عجب ان مال بالزمام قليلا ، فهبط أحد الشوارع العمودية على البحر ، ليمر أمام بيت المرأة الجميلة التي تحسن رقص الفالس . لعلها الآن واقفة على النافذة ، ولعله سيراها تحمر قبل أن تحييه . ذلك كله طاف بخاطر الشاب في بضع ثوان .. حتى لقد عطف الزمام .. لكن قلبه ـ لا الحصان ـ جمح عندئذ متمردا : أليس يسرع في الجرى وراءها بعض السرعة ؟ ومال بالزمام الى الجهة الاخرى واستمر في نزهته .

٧٥

ان كارلوس ماريا يجيد ركوب الخيل . والناس الذين يمرون بذلك المكان أو يكونون على أبواب بيوتهم لا يملون من الاعجاب بقامة الفتى ، وسهولة حركته ، وجمال وضعه . تبدو عليه وهو فوق جواده هيئة الامراء ، وهو يستقبل هذا الاعجاب على غموضه في سماحة « وهذا التساؤل هو الشيء الوحيد الذي يمن به على العامة » فمتى كان الامر أمر اجلال له رأيته يعد جميع الناس بشرا على حد سواء .

٧٦

ـ استيقظت ؟ استيقظت ؟

هكذا قالت صوفيا حين وجدت ابنة خالتها تقرأ الصحف .

فانتفضت ماريا بنديكتا ، لكنها لم تلبث أن استردت هدوءها . لقد نامت نوما مضطربا واستيقظت في ساعة مبكرة . قالت : انني لم أخلق لمثل هذه السهرات التي تنتهي في وقت متأخر . فأجابتها الاخرى على الفور بأن عليها أن تتعود ذلك ، فالحياة في ريو دو

جانيرو ليست كالحياة فى الريف حيث ينام النـاس مع الدجاج ويستيقظون على صياح الديكة . ثم سـألتها عن رأيها فى الحفـلة الراقصة ، فرفعت ماريا بنديكتا كتفيها فى غير مبـالاة ، وتمتمت تقول انها حفلة ناجحة جدا . لكن صوتها كان من الانخفاض بحيث ان الـكلمات القليلة التى أرادت أن تنطق بها لم تكد تسمع . وفى أثناء ذلك قالت لها صوفيا أنها قد رقصت كثيرا الا الفالس والبولكا، فلماذا لم ترقص الفالس والبولـكا أيضا ؟ فرشقت الفتـاة ابنـة خالتها بنظرة حانقة وقالت :

ــ لا أحب ذلك ؟

ــ كيف لا تحبين ذلك ؟ هو الخجل .

ــ الخجل ؟

ــ أعنى انك لم تتعودى .

ــ بل أنا لا أحب أن يشدنى رجل الى صدره ، وأن يجعلنى بين ذراعيه ، وأن يمضى يطوف بى على هـذا النحو أمام جميـع الناس . اننى أجد ذلك مؤذيا .

فما أن سمعت صوفيا هذا الـكلام حتى اكفهر وجهها فلم تجب بشىء ، واسرعت تغير موضوع الحديث . أخذت تتكلم عن الريف، وسألتها هل صحيح انها راغبـة فى العودة الى بيتهـا كما قال كريستيانو . فأجابتها ماريا بنديكتا فى قوة بينما هى تقلب الجرائد على غير هدى :

ــ نعم . اننى لا أطيق أن أعيش بعيدة عن أمى .

ــ ولـكن لمـاذا ؟ ألست سعيدة معنا ؟

فلم تجب ماريا بنديكتا بشىء ، بل كزت شفتيها وأخذت تجيل نظرها فى احدى الصحف ، كأنها تبحث عن شىء ما . كان واضحا انها مضطربة قلقة . وأصرت صوفيا على أن تعرف أسباب هـذا التبدل المفاجىء ، وأمسكت يديها ، فوجدتها باردتين .

قالت لها أخيرا :

ــ يجب أن تتزوجى . وعندى لك خطيب .

الخطيب هو روبيان . لقـد كان باليا يريد أن يصل الى هـذه النتيجة . انه يريد أن يزوج قريبته لشريكه . فبذلك يظل كل شىء فى داخل الاسرة . هذا ما كان يقوله باليا لامرأته . وقررت زوجته أن تتولى الامر بنفسها ، وقد سنحت الآن فرصة الوفاء بوعدها . ان فى قبضة يدها خطيبا لماريا بنديكتا .

سألتها ماريا :
ــ من هو ؟
ــ واحد .
هل تصدقون ان صوفيا لم تجرؤ أن تنطق باسم روبيان ؟.. لقد قالت لزوجها مرة انها حدثت ماريا بنديكتا فى الامر مع ان شيئا من ذلك لم يحدث . وها هى ذى الآن تريد أن تقدم اقتراحها فعلا ، فيأبى الاسم أن يخرج من فمها . انه لغريب حقا من هذه المراة ، التى لا تشعر نحو روبيان بأى حب ، أن ترفض تقديمه لابنة خالتها . لكن الطبيعة قادرة على كل شىء ياسيدى العزيز . ان الطبيعة التى خلقت غيرة عطيل ، وخلقت غيرة فارس جريو ، استطاعت كذلك أن تخلق هذه الغيرة الاخرى ، غيرة امرأة تأبى أن تتخلى عن رجل لا تريد أن يكون لها .
كررت ماريا بنديكتا سؤالها :
ــ ولكن من هو ؟
فأجابتها صوفيا :
ــ سأقول لك فيما بعد ، دعينى الآن أرتب الامور .
وانتقلت الى موضوع آخر .
فتغيرت هيئة ماريا بنديكتا . ان ابتسامة تعبر عن الفرح والامل تضىء الآن وجهها . وان عينيها تفيضان بمعانى الشكر، حتى لكأنهما تريدان أن تقولا شيئا ما ، شيئا غامضا لايستطيع أحد أن يسمعه بل أن يفهمه . لقد رقصت ابنة خالتها فى الليلة البارحة كثيرا مع كارلوس ماريا ، فلعل الرقص لم يكن الا حجة . ان ماريا بنديكتا مقتنعة الآن بأنها هى الدافع الوحيد الى هذه الخلوة الطويلة بين كارلوس ماريا وبين ابنة خالتها ... لقد تحدثا طويلا بين الرقصات ، ولا شك ان الحديث كان يدور عليها هى ، لأن ابنة خالتها تنوى أن تزوجها منه ، لكنها طلبت اليها أن تدع لها تدبير الامور . ربما كان كارلوس ماريا يراها دميمة أو ثقيلة الظل . ولكن ما دامت ابنة خالتها ستدبر الامور !.. ذلك كل ما كان يقرأ فى عينى الفتاة الملتمعتين .

٧٧

ذلك عن الفتاة ، اما روبيان فانه لم يتخل عن شكوكه بمثل هذه السهولة . وقد قرر أن يتحدث الى كارلوس ماريا ، حتى لقد

ذهب الى شارع « الانفاليد » فى اليوم التالى ثلاث مرات . لـكنه لم يجده ، ففير رأيه ، ولزم بيته بضعة أيام لا يخرج ، الى أن انتزعه من عزلته الماجور سيكورا ، اذ جاء يبلغه أنه يقيم الآن فى شارع « ٢ كانون الاول ــ ديسمبر » . وقد أعجب الماجور اعجابا شديدا بالبيت المترف الذى يسكنه صاحبنا ، وبما يضمه من زخرف وتحف ومذهبات وستائر وما الى ذلك . واتخذ من ذلك مناسبة للافاضة فى حديث طويل عن أثاث قديم لايزال يحفظ ذكراه ... ثم توقف عن الـكلام فجأة ليقول لروبيان أنه يجده حزينا مكتئبا المزاج ، وأن هذا طبيعى لأن ثمة شيئا يعوزه :

ــ صحيح انك سعيد ، لـكن هذا البيت يعوزه امرأة يجب أن تتزوج.. تزوج ثم قل لى بعد ذلك هل أنا على حق !

فتذكر روبيان السهرة التى قضاها فى سانتا تيريزا ، السهرة التى دار فيها ذلك الحديث بينه وبين صوفيا ، فأحس برعشة تسرى فى ظهره . لـكن أقوال الماجور لا تشتمل على شيء من السخر ، ولا تخفى وراءها أى مصلحة . ان ابنته لا تزال على حالها التى تركناها عليها فى الفصل الثامن عشر ، مع فارق واحد هو أنها بلغت الاربعين من سنها . انها الآن فى الاربعين وعانس . لقد بكت فى يوم عيد ميلادها منذ الصباح . لم يزين شعرها بوردة ولا شريط . وما من احتفال . لا شيء الا حديث طويل من أبيها على مائدة الافطار عن طفولتها ، وبضع نوادر عن أمها وجدتها ، وعن القناع الذى لبسته فى حفلة متنكرة ، وعن حفلة تعميد عام ١٨٤٨ ؛ وعن الدودة الوحيدة التى عاشت فى أحشاء كولونيل يقال له كاودوميرو ، لا شيء الا ركام من الذكريات يمكن أن يقتل الوقت . لـكن تونيكا لم تصغ الى حديثه الا قليلا لأنها كانت غارقة فى أفكارها ، وكانت تذوق منذ الآن تلك المرارة الرهيبة ، مرارة العزلة الروحية التى ستعيش فيها، آسفة أشد الاسف فى الوقت نفسه على ما بذلت من جهود فى سبيل العثور على زوج . أربعون عاما . لقد آن أوان التوقف .

لـكن الماجور لم يكن فى رأسه شيء من هذا كله ، وكان صادقا كل الصدق : كان يجد أن بيت روبيان ليس فيه روح . وكرر يقول وهو يستأذن بالانصراف :

ــ تزوج ثم قل لى بعد ذلك هل أنا على حق !

٧٨

وما أن خرج الماجور حتى ارتفع صوت بهذا السؤال :
ـ ولم لا ؟

فنظر روبيان حوله مذعورا فلم يجد الا الكلب ساكنا ينظر اليه . لقد كان من السخف بمكان أن يظن السؤال صادرا عن كونكاس بوربا ـ أو قل عن كونكاس بوربا الآخر المتقمص جسم الكلب ـ لذلك ابتسم صاحبنا فى احتقار ، لكنه فى الوقت نفسه كرر الحركة التى وصفناها فى الفصل التاسع والستين ، فمد يده وأخذ يحك أذنى الكلب وعنقه فى حنان ، لاعتقاده ان من شأن هذا أن يرضى الراحل اذا صح رغم كل شيء انه متقمص جسم الكلب

هكذا ازدوج بطلنا ، ولكن أمام نفسه من غير جمهور يراه !

٧٩

غير ان الصوت كرر يقول : « ولم لا ؟ » واستمر روبيان يفكر .

نعم ، لماذا لا يتزوج ؟ لعل ذلك أن يخلصه من هذا الهوى الذى يفترسه شيئا فشيئا بلا أمل ولا عزاء . ثم ان الزواج باب يطل على المجهول . نعم ، يجب أن يتزوج ، أن يتزوج بسرعة ، أن يعرف كيف يتزوج .

كان قريبا من مدخل الحديقة حين أخذت هذه الفكرة تشغله . ثم عاد الى داخل البيت ، بعد أن صعد درجات المصطبة وفتح الباب ، وهو لا يعى شيئا البتة . وفى اللحظة التى أغلق فيها الباب ردته الى الواقع وثبة كونكاس بوربا الذى كان يرافقه . أين الماجور ؟ وأراد أن ينزل مرة أخرى ليجده ، لكنه لم يلبث أن تذكر انه قد شيعه حتى الشارع منذ لحظة . لقد فعلت ساقاه كل شيء . قادتاه وحدهما ، فما اصطدم بشيء ولا ضل السبيل من أجل أن تبيحا لرأسه أن ينصرف الى تأمله انصرافا أكمل . مرحى للساقين الطيبتين ! الساقين العزيزتين ! ما عسى يفعل الفكر لولاهما ؟

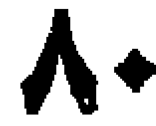
يا للساقين العظيمتين ! لقد ظلتا تقودانه حتى أوصلتاه الى الاريكة ، وتمددتا معه فى رفق ، بينما استمر فكره يتعمق فى فكرة الزواج هذه . الزواج وسيلة للهرب من صوفيا . وربما كان أكثر من ذلك أيضا ...

نعم ، ربما كان أيضا وسيلة لأن تسترد حياته وحدتها التى فقدتها بتغير البيئة والثروة . غير ان هذا الرأى لم يأت من فكره حقا ، ولا من ساقيه ، وانما أثاره شيء آخر لم يستطع أن يميزه تمييزا حسنا ولا تمييزا سيئا ، شأنه فى ذلك شأن العنكبوت . ماذا يعرف العنكبوت عن موزارت ؟ لا شيء . والعنكبوت مع ذلك يصغى الى نشيد من أناشيد الموسيقى الكبير مسرورا . والقط الذى لم يقرأ يوما الفيلسوف « كنت » ، ربما كان حيوانا متفلسفا. الحق ان الزواج قد يكون هو الخيط الذى يتيح له أن يسترد ما افتقده من شعور بالوحدة . ان روبيان يشعر الآن بكل ما تشتمل عليه حياته من تفكك. حتى أن أصدقاءه الذين يحبهم كثيرا ويتملقونه كثيرا يسبغون على حياته طابع الرحلة .. رحلة يتغير فيها اللسان دائما بتغير البلد ، فهو التركية تارة ، وهى الاسبانية أخرى ، وهكذا دواليك ... وان صوفيا لتسهم فى خلق هذه الحال. انها متغيرة أشد التغير ، متبدلة أشد التبدل . فالايام تمضى تلو الايام وصاحبنا لا يسعد على وجه ، ولا تخيب آماله على وجه .

كان روبيان لا يعمل شيئا . ومن أجل ازجاء الوقت وملء ساعات الفراغ الطويلة كان يحضر جلسات محكمة التمييز أو مجلس النواب ، ويشهد الاستعراضات العسكرية ، ويقوم بنزهات طويلة ، حتى اذا جاء المساء قام بزيارات لا فائدة منها أو ذهب الى المسرح دون ان يجنى من ذلك أية متعة . وكان بيته بما يسوده من ترف باهر وبما يتموج فى هوائه من أحلام . لايزال ادعى مكان الى راحة باله وهدوء فكره .

وقد أخذ منذ قليل يملأ جزءا كبيرا من وقته بالقراءة . فكان يقرأ روايات ، لكنه لا يقرأ الا الروايات التاريخية التى كتبها الكسندر دوما أو الروايات المعاصرة التى ألفها فوييه ، على انه كان يقرأ روايات فوييه فى صعوبة لأنه لايعرف الفرنسية معرفة كافية . أما روايات الكسندر دوما فمن حسن الحظ ان هنالك ترجمات لها . وكان مع ذلك يجازف فيقرأ كتبا أخرى ، اذا كانت الاحداث التى تقص هذه الكتب تجرى هى أيضا فى جو مجتمع ارستقراطى ملكى فكانت مشاهد بلاط فرنسا التى يتخيلها الكسندر دوما المدهش ويصف مواكب نبلائها المسايفين المغامرين ، وكذلك محافل الكونتيسات والادواق الذين يصورهم فوييه أشبه بنباتات مرهفة تعيش فى بيوت من زجاج ، وكذلك تلك الاحاديث المتعالية أو

الفكهة ، البارعة على كل حال ، التى يديرونها جميعا ، كان ذلك كله يفقده الاحساس بالزمن . وكان فى جميع الاحيان تقريبا يدع الكتاب يسقط من يده آخر الامر، ويظل شارد الفكر غائم العينين . فلعل مركيزا من الزمان القديم يقص عليه عندئذ طرفا من الماضى .



حلم بالحفلة قبل أن يحلم بالخطيبة . ولم يمتلىء رأسه فى ذلك اليوم وفى الايام التى أعقبته الا بالبذخ والابهة والعربات ــ هــذا اذا أمكن أن يوجــد عربات من تلك العربات القديمة الفخمة التى رأى صورها فى نقوش الـكتب العتيقــة !.. يا لهــا من عربات عظيمة رائعة ! وأقوى لذة كان يشعر بها هى أن يذهب فى أيام الاعياد ينتظر الامبراطون على باب القصر ليرى وصول الحاشية الامبراطورية ومركبة صاحب الجلالة خاصة . يا لها من مركبة ! ما هذه الابعاد! ما هذه النوابض ! ما هذه الالوان اللطيفة العريقة ! ان الخيول التى تجر المركبة ثمانية أو عشرة ، والحوذى الذى يقودها وقور وقار البابا ... وتأتى بعدها عربات أخرى ، أقل عظمة منها طبعا ، لكنها تبلغ من الفخامة مع ذلك مايكفى لاثارته اعجابا بها واعظاما لها.

لقد كان فى وسعه أن يستعمل لزواجه واحدة من تلك المركبات، أو مركبة أصغر منها ، لولا ان المجتمع قد تساوى كله فى استعمال العربة الحديثة المبتذلة . لا بأس . سيركب العربة الحديثة . وها هو ذا يراها مزدانة الجوف بأبهى حلة . كيف تكون هذه الحلة ؟ انه لا يعرف الآن ذلك معرفة تامة ، لـكنها ستكون من نسيج غير شائع ، من شأنه أن يسبغ عليها طابع الندرة . وستجرها جياد فذة . وسيرتدى الحوذى ملابس مرصعة بالذهب ... ملابس لم ير النــاس مثلها من قبــل . وسيكون المدعوون جميعا من علية القوم ، سيكون بينهم قادة كبار ودبلوماسيون وأعضاء من مجلس الشيوخ ، ووزير أو وزيران ، وكثير من رجال الاعمال. وسيكون بينهم سيدات ، سيدات من الطبقة الراقية . وأخذ روبيان يذكر أسماءهن . ها هو ذا يراهن مقبلات ، وقد وقف فى أعلى ســلم القصر يرمق بطرفه نهاية السجادة الـكبيرة الصاعدة اليه . وها هن أولاء يجتزن الدهليز ثم يصــعدن الدرجات بأحــذيتهن الصــغيرة المصنوعة من الدمقس .. ان عددهن فى أول الامر قليــل ... ثم يزداد العدد ويزداد . العربات تصل تلو العربات ... ثم يصــل

الكونت والكونتيسة أونتيل ... ان الكونت رجل وسيم الوجه ، والكونتيسة سيدة على جانب عظيم من الرقى . ويقول له الكونت عند وصوله : « ها نحن أولاء قد جئنا أيها الصديق العزيز » : وتقول الكونتيسة : « حفلتك رائعة حقا ياسيد روبيان » .

وفجأة يصل سفير البابا ... ها ... نعم ... لقد نسى روبيان ان سفير البابا هو الذى سيزوجهما . ها هو ذا يجىء . هذان هما جورباه البنفسجيان ... وعيناه الواسعتان النابوليتان . انه يتحدث حديثا حارا مع وزير روسيا . ان أجمل أعناق المدينة تتألق الآن تحت أضواء الثريات المصنوعة من الكرستال والذهب ، فبعضها قائم ، وبعضها مائل على المراوح تنفتح وتنطوي بغير انقطاع . وهناك النجوم المتلألئة على أكتاف رجال الجيش ، وهناك الاكاليل الجميلة تزين رءوس النساء . وتعزف الجوقة الموسيقية رقصة فالس . فتمضي أذرع الرجال المستديرة فى أناقة ورشاقة ، تبحث عن الاذرع العارية التى تلبس قفازات تصل الى المرفق . ويأخذ الرجال والنساء يدورون فى القاعة أزواجا أزواجا : خمسة أزواج ، عشرة ، اثنى عشر ، عشرين ... ويكون العشاء رائعا أيضا . كرستال من بوهيميا ، وأطباق من هنجاريا ، وخزف من سيفر ، وخدم أنيقون يرتدون جميعا ملابس عليها شارة هى الحرف الاول من اسم روبيان .

٨١

هذه الاحلام كلها كانت تذهب وتجىء فى رأس روبيان . ترى أى ساحر بروسبيرو (١) خفى أحال الجزيرة المبتذلة جنة عجيبة « هيا يا آرييل ، جىء برفاقك الى هنا لأطلع هذين الزوجين على بعض معجزاتى » . ان الكلمات هى كلمات الملهاة ، لكن الجزيرة لم تكن هى نفسها ، لا الجزيرة نفسها ولا الجنة . لم تكن الجزيرة الا رأس صاحبنا ، ولم تكن الجنة آلهة ولا شعرا ، بل بشرا ونثرا . لكنها حافلة مع ذلك بآيات الجلال . يجب الا ننسى ان بروسبيرو الذى جاء ذكره عند شكسبير هو دوق ميلان ، ولعل هذا سبب وجوده فى جزيرة صاحبنا .

والواقع أن الخطيبات اللاتى كن يظهرن الى جانب روبيان فى مواكب هذه الاحلام التى تدور على عرسه كن جميعا فتيات ذوات

(١) احد ابطال شكسبير فى ملهاة « العاصفة » (المترجم)

القاب ، وكانت أسماؤهن جميعا من أكثر أسماء الطبقة الارستقراطية في بلادنا رنينا ورواجا . واليكم تعليل ذلك : لقد عثر روبيان منذ بضعة أسابيع على مفكرة من وضع ليمرت ، فلما قلب صفحاتها وقع على فصل الالقاب . ولئن كان روبيان يعرف عددا من هذه الالقاب ، لقد كان بعيدا عن معرفتها كلها . واشترى المفكرة ، وأخذ يقرؤها ثم يعيد قراءتها من أول سطر الى آخر سطر ، من المراكيز الى البارونات ، ثم يعود القهقرى فيردد الاسماء التى يجدها جميلة . ويحفظ كثيرا منها عن ظهر قلب ، ويتناول فى بعض الاحيان قلما وورقة ، فيختار لقبا حديثا أو قديما ، ثم يكتبه عدة مرات متتالية كأنه صاحبه وكأنه يوقع به على ورقة :

مركيز بارباسينا
مركيز بارباسينا
مركيز بارباسينا
مركيز بارباسينا
مركيز بارباسينا مركيز بارباسينا

ويظل يفعل ذلك الى آخر الصفحة ، مغيرا خطه مرة بعد مرة ، فهو تارة بأحرف كبيرة وتارة بأحرف صغيرة ، وهو تارة مائل الى شمال ، وتارة قائم تماما : كان يكتب على جميع الاشكال الممكنة . حتى اذا انتهى ، تناول الورقة وراح يقارن بين التواقيع ، ثم ترك الورقة وغرق فى أحلام عميقة . هـذا هو السبب فى أن خطيبـاته اللاتى يصورهن له الخيال كن من طبقة الاشراف . لـكن أسـوأ ما فى الامر أن قسماتهن جميعا كانت هى قسمات صوفيا . قد يشبهن فى أول الامر جارة له أو فتاة رآها أمس فى الشارع . وقد يكن فى أول الامر نحيفات أو بدينات . لـكنهن ما يلبثن أن يتغيرن ، فاذا هن يسمن أو ينحلن ، واذا وجوههن تصير الى ذلك الوجه المشرق ، وجه صوفيا الجميلة ، وقد اتقدت عيناها أو هدأتا . ألا يمكن اذن أن يفلت منها فى يوم من الايام ولو تزوج ؟ وخطرت بباله ذات مرة فكرة موت باليا . كان ذلك فى يوم من الايام عند خروجه من بيتهما ، بعد أن قالت له أمورا كثيرة رائعة لـكنها غامضة . لقد غرق روبيان عندئذ فى سعادة كبيرة ، لـكنه لم يلبث أن منع نفسه من ذلك متطيرا . وبعد بضعة أيام عاد يفكر فى مشروع زواجه تفكيرا نهائيا ، لأن صوفيا غيرت موقفها منه مرة أخرى . الا أن باليا نفسه هو الذى كان ينتزعه من أحلام الزواج مرة بعد مرة .

ـ أأنت مشغول هذا المساء ؟
ـ لا ...
ـ اذن اليك هذه البطاقة للأوبرا ، شرفة رقم ٨ ، الصف الاول على الشمال . وكان يصل قبل الاوان لينتظرهما وليقدم لصوفيا ذراعه . فاذا كانت رائقة المزاج كانت السهرة رائعة ، أما اذا لم تكن كذلك كانت السهرة عذابا كعذاب الشهداء على حد تعبيره الذى قاله يوما للكلب :
ـ كانت سهرة الامس عذابا كعذاب الشهداء ياصديقى المسكين.
فنبح الكلب يجيبه :
ـ تزوج وستقول لى بعد ذلك هل كنت على حق .

فأجابه وهو يمسك بقائمتيه من أمام ويضعهما على ركبتيه :

ـ نعم ياصديقى المسكين . أنت على حق . أنت فى حاجة الى صديقة طيبة توليك من العناية ما لا أستطيع أو ما لا أعرف . اما زلت يا كونكاس بوربا تذكر صاحبنا كونكاس بوربا ؟ ما كان أطيبه وأعظمه من صديق . لقد كنت أحبه كل الحب أنا أيضا ، وكانت صداقتنا قوية . لو كان حيا لشهد زواجى ، ولشرب الانخاب ـ أو لشرب نخب العروسين على الاقل ـ ولصنعت له من أجل ذلك قدحا من ذهب وماس .. ما أعظمك يا كونكاس بوربا !..
كان عقل روبيان يشارف الهاوية .

٨٢

وذات يوم خرج من بيته أبكر مما اعتاد ، وكان لايعرف أين يقضى أول النهار ، فعزم على الذهاب الى المخزن الذى يملكه هو وباليا . لقد انقضى أسبوع لم يذهب خلاله الى فلامنجو ، لأن صوفيا كانت تعانى نوبة من نوبات فتورها فى معاملته . فلما وصل الى المخزن رأى كرستيانو يرتدى ثياب الحداد . ذلك ان خالة امرأته ، دونا ماريا أوجوستا ، قد توفيت فى بيتها بالريف . وقد وصل نبأ وفاتها أمس الاول فى ساعة متأخرة من النهار :
ـ أهى أم تلك الفتاة ؟
ـ هى نفسها .
وتكلم باليا عن المتوفاة فى حنان طافح ، ثم قص على صاحبه ما تعانيه ماريا بنديكتا من حزن شديد قائلا : ان منظرها مؤلم حقا .

وسأله لماذا لا يأتي في هذا المساء نفسه الى فلامنجو ليساعدهما في التسرية عنها ؟ فوعده روبيان بالمجيء .

ـ تعال .. انك بمجيئك تقدم لنا معونة . والفتاة المسكينة تستحق هذه المعونة . انها فتاة ممتازة حقا ، أنت تعرف ذلك . انها على جانب عظيم من التربية الحسنة ، بل من التربية الصارمة أما من ناحية المزايا الاجتماعية ، فلئن لم تغرس فيها منذ الطفولة، فقد تداركت ما فاتها من وقت في سرعة مذهلة بمعونة صوفيا . ويالها من ربة بيت ! حقا أيها الصديق العزيز .. لا أظن ان من الممكن أن نجد في سنها فتاة أكمل منها . ستبقى الآن معنا . ان لها أختا متزوجة من قاضي صلح في سيبارا ، ولها كذلك عراب في سان جوان داري كانت المرحومة لا تني تشيد بفضائله . ولست أظن انه سيطلب التحاق ماريا بنديكتا به ، وهبه فعل ، فلن أدعها تسافر . هي الآن لنا . لن ننفصل عنها لمجرد ان عرابها يريد أن ينزلها في وصيته . وختم باليا كلامه ، وهو ينفض بأصبعه بعض الغبار عن ياقة روبيان ، ختم قائلا : ستبقى هنا .

شكره روبيان . واذ كانا في المكتب ، أي في آخر المخزن ، نظر روبيان من خلال قضبان الحاجز ، فرأى رزما من البضاعة تدخل المخزن ، فسأل ما هذه الرزم ؟ فأجابه باليا بأنها قماش من قطن انجليزي . فردد في غير مبالاة :

ـ قماش من قطن انجليزي ؟

قال له باليا :

ـ بالمناسبة ، هل علمت ان محل موارس وكونيا قد أخذ يسدد جميع ديونه كاملة ؟

وكان روبيان لا يعرف من الامر شيئا ، ولا يعرف ان هناك محلا يملكه هذان الشريكان ، ولا يعرف هل لهما أو ليس لهما ديون عليه . فلم يزد على أن أصغى الى النبأ مظهرا سروره به ، ثم تهيأ للانصراف . لكن شريكه استمهله بضع لحظات . ان وجه شريكه يعبر الآن عن فرح شديد ، حتى لكأنه لم يفقد أحدا من أسرته وعاد يتكلم عن ماريا بنديكتا فقال انه ينوي أن يزوجها وانها ليست من أولئك الفتيات اللاتي يستجبن لأول شاب أنيق ، أو اللاتي يركبن رءوسهن . انها على جانب عظيم من حصافة الرأي ، وتستحق زوجا ممتازا ، تستحق شخصا جادا كثير الجد ..

ـ صحيح .

فدمدم شريكه فجأة يقول :
ــ اسمع . لا تعجب لما سأقوله لك . اعتقد انك أنت الرجل الذى سيتزوجها .

فأجاب روبيان مبهوتا :
ــ أنا ؟ لا .. لا ..
وأضاف يقول فورا للتخفيف من وطأة الصراحة فى رفضه :
ــ أنا واثق انها فتاة كاملة من جميع النواحى . ولكننى .. الآن .. لا أنوى أن أتزوج ...

ــ لا يقول أحد أن تتزوج غدا أو بعد غد . والزواج أمر لايرتجل ارتجالا . ما أريد أن أقوله هو اننى أحس انك ستتزوجها . وأنت تعرف ما هى تلك الاحساسات التى تتنبأ بالمستقبل . ألم تحدثك صوفيا أبدا عن احساسي بهذا الامر ؟

ــ أبدا .
ــ غريب . يخيل الى انها ذكرت لى انها حدثتك فى الامر مرة أو مرتين .
ــ جائز . أنا كثير الذهول .. ولكن فى أى أمر حدثتنى ؟ فى مشروع زواجى من هذه الفتاة ؟

ــ بل فى أمر هذا الاحساس الذى يخالجنى . ولكن حسبنا الآن هذا . ولندع للزمن أن يفعل فعله .
ــ الى اللقاء .
ــ الى اللقاء . تعال هذا المساء فى وقت مبكر .

٨٣

« اذن لقد كانت صوفيا تريد أن تزوجنى » كذلك أخذ روبيان يفكر عند خروجه من المخزن . تلك طبعا أسرع وسيلة للتخلص منى . تريد أن تزوجنى ، أن تجعلنى قريبا من أقربائها . وقطع روبيان جزءا كبيرا من الشارع قبل أن يصل الى الافتراض الآخر الثانى : لعلها لم تنس ، وانما كذبت على زوجها عامدة حتى تحول دون تحقق هذا المشروع . فاذا صح هذا ، فالموقف مختلف كل الاختلاف . وبدا له هذا التعليل منطقيا . واستمر يسير فى طريقه وقد استرد هدوءه .

لـكن الزمان يبدو طويلا جدا حين لايدرى المرء ماذا يعمل، وان استطاع أن يبلغ من الهدوء مبلغا كبيرا . أن تحرق روبيـان الى حلول المساء من أجل أن يذهب الى فلامنجو كان يشعره بأن الساعات ليس لها نهاية . ان الوقت مبكر ، انه أبكر من أن يعمل صـاحبنا أى شيء ، أبكر من أن يذهب الى شـارع أوفيدور أو يعود الى بوتافوجو . وكان الدكتور كاماشو فى فاسوراس يدافع عن أحـد المتهمين أمام محكمة الجنـايات . وليس هنـاك أى تسليـة عامة منتظرة ، فلا احتفال فى مكان ولا وعظ فى كنيسة . لا شيء ، لا شيء على وجه الاطلاق . وأخذ روبيان يضرب فى الشوارع على غير هدى من فرط سأمه وملله ، يقرأ اللافتات تارة ويتوقف تارة أخرى ليراقب أتفه حادث يقع لعربة من العربات . كيف لم يشعر بمثل هذا السأم يوما فى ميناس ؟ وظل اللغز بلا جواب .. ان المرء يجد فى ريو دى جانيرو من التسليـات ما لا يجد مثله فى ميناس ، وكثيرا ما تسلى روبيان فى هـذه المدينة فعلا ، غير انه يعانى مع ذلك هنا هذه الساعات من الضجر الثقيل .

من حســن الحظ ان لهؤلاء الذين لا يدرون ماذا يعملون ربا يسعفهم . فها هو ذا روبيان يتذكر أن فريتـاس « انكم تعرفون فريتـاس ، ذلك الرجل الفرح دائما » مريض بمرض خطـير . فاستوقف روبيان عربة وذهب يعوده فى بيته الواقع على شـاطىء فورموزا . وظل يتحدث مع المريض قرابة ساعتين . لكن المريض قام أخيرا . فاستأذن روبيان أمه بالانصراف حتى اذا وصـل الى الباب قال لها قبل أن يمضى :

ـ لابد انك فى حاجة الى بعض المال .

واذ عضت السيدة العجوز على شفتيها وغضت طرفها ، أردف يقول :

ـ ليس هذا عارا . لئن كان العسر محزنا ليس هو بالعار قط . وأحب أن تقبلى منى هـذا المبلغ الذى سأتركه لك من أجل أن تواجهى به بعض النفقات ، وستردونه الى فى ذات يوم حين تقدرون أن تردوه .

وكان قد فتح محفظته وأخرج منها ست ورقات نقدية كل واحدة منها بعشرين الف رايش ، فطواها ووضعها فى يد السيدة العجوز ،

ثم فتح الباب وخرج. فبلغت العجوز من الدهشة درجة لم يخطر ببالها معها أن تشكر له صنيعه . فلما سمعت صوت العربة وهي تتحرك هرعت الى النافذة . لكن الرجل الذى أحسن اليها كان قد غاب .

٨٥

تم ذلك كله عفوا ، حتى ان روبيان لم يتسع وقته للتفكير فيه الا بعد أن استأنفت العربة سيرها . ويظهر انه رفع عندئذ ستارة النافذة الصغيرة لينظر الى خلف . لكن العجوز كانت وقتئذ ترجع الى داخل البيت ، فلم يلمح الا ذراعها . وشعر روبيان بكل السعادة التى يشعر بها أمرؤ حين يدرك انه صحيح الجسم معافى. وأسند ظهره الى مقعده ، وزفر زفرة عميقة من شعوره بالراحة ؛ ونظر الى الشاطىء ثم مال الى أمام لانه لم يستطع أن يرى الشاطىء تماما حين مجيئه .

قال له الحوذى وهو سعيد كل السعادة بهذا الزبون الطيب الذى وفق اليه :

ـ أيعجب هذا سيادتك ؟

ـ كثيرا .

ـ أما جئت الى هنا من قبل ؟

ـ أحسب اننى جئت ، ولكن منذ زمان بعيد ، فى أول رحلة قمت بها الى ريو دو جانيرو . ذلك اننى من ميناس ... هل لك أن تقف قليلا ؟

فأوقف الحوذى حصانه ، فنزل روبيان ، وأمر الحوذى أن يسير بالعربة على سرعة خطاه .

ان هذه البقع الكبيرة من الخضرة التى تنبجس من الماء على مقربة من روبيان تشكل منظرا رائعا حقا . وما أقربها من الشارع ! لقد أراد روبيان أن يتأملها عن كثب ، حتى أصبح لايبالى الشمس. نسى المريض وأم المريض وقال لنفسه : لو كان البحر كله على هذه الشاكلة قد نثرت فيه الاراضى والنباتات نثرا ، لكان ذلك يستحق الابحار . وغير بعيد من هذا المنظر ، على مسافة خطوات ، كان يرى شاطىء لازاروس وشاطىء سان كرستوفان .

تمتم روبيان يقول :

ـ برايا فرموزا (١) أسم على مسمى .

غير ان الشاطىء يتغير الآن وجهه . فابتداء من ساكودو الفيريس يجد المرء بيوتا مبنية على جهة البحر . ومن حين الى حين تحل محل الابنية قوارب قد ارتفعت أشرعتهـا فى الهواء وغطست فى الوحل أو التراب . ولمح روبيان على مقربة من هذه القوارب أطفالا حفاة الاقدام يرتدون قمصانا ، قد أخذوا يلعبون حول رجل منبطح على بطنه رافع احدى ساقيه فى الهواء . والاطفال يضحكون جميعا ، غير ان واحدا منهم يضحك أكثر من سائرهم ، لانه كان يعجز عن رد ساق الرجل الى الارض . انه طفل صغير فى الثالثة من عمره ، يتشبث بالساق مستعينا ، وينزلها شيئا فشيئا حتى لتكاد تلامس الارض ، لـكن الرجـل لا يلبث عندئذ أن يتحرك فاذا هو يرفع الساق والطفل كليهما .

تلبث روبيان بمكانه بضع لحظات يراقبهم فلما لاحظ الصبى أن هناك من يراقبه ضاعف جهوده ، لـكنه فقد عندئذ انطلاقه على طبيعته . وتوقف الصبية الآخرون عن اللعب ، وهم أكبر منـه سنا ، وأخذوا يتفرسون فى روبيان . لـكن روبيان لايميز شيئا . انه يرى كل شىء فيما يشبه الضباب . وظل يسير مدة طويلة ، فقطع ساكو دو الفيريس ، وقطع جامبوا ، وتوقف قليلا أمام المقبرة الانجليزية ذات القبور القديمة المغروسة فى الرابية ، ووصل أخيرا الى حى ساوودى. وهناك رأى شوارع ضيقة ، وأخرى منحدرة ، وبيوتا متجمعة على سفوح التلال أو على قممها ، وأزقة صغيرة . ومنازل قديمة جدا ـ يرجع عهد بعضها الى العصر الملـكى ـ منازل متآكلة ، مبقعة ، مترنحة ، قد جعلها تقادم الزمن سوداء لـكنها تعج بالحياة ... فأثار هذا كله فى نفسه الشعور بالحنين... الحنين الى الاسمال البالية ، والحياة الـكادحة الصعبة ... الهادئة مع ذلك كل الهدوء . غير ان هذا الشعور لم يدم الا قليلا . ولم يلبث السحر الذى فى نفسه أن فعل فعله : انه لجميل جدا أن يتخلص المرء من الفقر .

٨٦

وصل روبيان الى آخر شارع ساوودى . انه يهيم الآن على وجهه حائر العينين ، لايلوى على شىء . ومرت قربه امرأة لم تكن جميلة

(١) يعنى هذا الاسم «الشاطىء الجميل» (المترجم)

ولا أنيقة ، يدل ظاهرها على انها فقيرة ، لكن جميع قسماتها تشع منها النضارة . لعلها فى الخامسة والعشرين من عمرها ، وهى تمسك طفلا من يده . تعثر الطفل بين ساقى روبيان فقالت المرأة الشابة وهى تشده :

ــ ما هذه الحركات أيها الغبى ؟

ومال روبيان الى الصبى يساعده ، فقالت وهى تبتسم :

ــ شكرا جزيلا .

ثم حيته . فرفع روبيان قبعته وابتسم لها كذلك . ومرة أخرى استولت على نفسه الرغبة فى أن تكون له أسرة . « تزوج ، ثم قل لى هل أنا على حق ! » . ووقف ونظر الى خلف ، فرأى المرأة الشابة تبتعد بخطا سريعة ، بينما الطفل تضطرب ساقاه الصغيرتان الى جانبها ليلحق بها . وتمهل صاحبنا فى سيره وأخذ يفكر فى النساء اللاتى يمكن أن يعزفن معه انشودة الزواج بأيد أربع على موسيقى كلاسيكية جادة اذا كان هنالك شىء من ذلك . وفكر حتى فى ابنة الماجور التى لا تعرف الا بضع رقصات من رقص المازوركا . لكنه سمع على حين فجأة ترجع صوت القيثارة ، قيثارة الخطيئة تنقر عليها أصابع صوفيا ، وبدا له صوت هذه القيثارة رائعا ، فتبدد بذلك كل صفاء مشروعه الاول . . . لكنه أصر بعض الاصرار ، وحاول أن يرتد الى الموسيقى الاخرى ، فطفق يفكر من جديد فى المرأة الشابة التى لقيها فى شارع ساوودى ، وفى حركاتها الحلوة الرشيقة ، وفى الصبى الصغير الذى كانت تمسك بيده .

٨٧

وحين رأى العربة تذكر مريض برايا فورموزا . فتنهد وقال :

ــ مسكين يافريتاس !

وسرعان ما تذكر المال الذى تركه لأم المريض ، فرأى انه أحسن صنعا . وحين خطر بباله انه ربما كان قد أعطى العجوز ورقة أو ورقتين زيادة على ما كان ينبغى له أن يعطيها ، أسف على انه تصور هذا التصور ، ومن أجل أن يتخلص من هذه الفكرة التى راودت ذهنه تخلصا كاملا ، صاح بصوت عال :

ــ يالها من عجوز مسكينة ، يالها من عجوز مسكينة !

واذ راودته هذه الفكرة مرة أخرى ، هرع نحو العربة ، فصعد اليها ، وجلس ، ثم أخذ يكلم الحوذى هربا من أفكاره :
ـ نزهة طويلة . حقا انه لمكان جميل هنا ، وانه لمكان عجيب ايضا ، بشواطئه وشوارعه التى تختلف كل الاختلاف عن الاحياء الاخرى . اننى أحب هذا كثيرا ، ويجب أن أتردد الى هذا المكان كثيرا

فابتسم الحوذى ابتسامة بلغت من الفرابة ان روبيان ظل منها متحيرا أشد الحيرة . انه لايعرف ماذا كان فى كلامه من أمر يثير الضحك . أتراه استعمل كلمة يمكن أن يساء فهمها فى ريو دو جانيرو ؟ لكنه كرر لنفسه الجملة بكاملها فلم يكتشف فيها شيئا من ذلك . ان جميع الكلمات التى تضمها الجملة هى من الكلمات الرائج استعمالها . ومع ذلك ظل الحوذى يبتسم ، وظل وجهه على تلك الحال نفسها يعبر عن مزيج من الاحترام والمكر معا ، وأوشك روبيان أن يسأله عن السبب الذى يحمله على هذا ، لكنه أمسك فى الوقت المناسب ، اذ تولى الآخر استئناف الحديث ، قال :

ـ سيادتك تحب اذن هذا الحى كثيرا . اسمح لي ألا أصدق هذا الكلام . وعليك الا تزعل ، فلست أريد أن أؤذى شعورك ، وما أنا بالرجل الذى يغضب زبونا رضيا مثلك . لكننى لا أصدق حقا ان الحى هو الذى يعجبك .
فسأله روبيان مجازفا :
ـ ولماذا ؟
فهز الحوذى رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، وظل يقول انه لا يصدق شيئا من هذا الكلام ، لا لأن الحى غير جدير بالاعجاب بل لأنه من الواضح ان روبيان يعرف هذا الحى من قبل حق المعرفة . فعاد صاحبنا يكرر ما قاله له فى المرة الاولى ، ذاكرا أنه لم يعد الى هذا الحى بعد رحلته الاولى الى ريو دو جانيرو منذ زمان طويل ، وانه لم يحتفظ بأى ذكرى عنه . ولكن الحوذى ظل يضحك ، فكلما ازداد زبونه جزما وقطعا فى كلامه ، ازداد هو اصرارا ، حتى أصبح يعبر عن قوله « لا » بحركات من يده ورأسه وشفتيه ... وختم قائلا :
ـ أنا أعرف هذا الامر . ليست عيناى فى جيبى . لعل سيادتك تظن اننى لم الاحظ كيف نظرت الى المراة الشابة التى مرت منذ

هنيهة ؟ ان هذا وحده يدل على ان لك حسا مرهفا وانك تحب...

تملق هذا الكلام غرور روبيان ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، لكنه لم يلبث أن استدرك سائلا :

ــ أى امرأة شابة ؟

فأجابه الرجل :

ــ ألم أقل لك ؟ سيادتك متحفظ جدا ، وحسنا تصنع على كل حال . لكننى امرؤ متكتم . ليتك تعرف كم مرة عملت هذه العربة فى أمثال هذه الروحات والغدوات .. ومنذ مدة قصيرة أقلت شابا وسيما أنيق الهندام .. شابا من طراز عال .. وكان الامر أمر نساء طبعا .. ذلك يلاحظ من أول وهلة .

فقاطعه روبيان قائلا :

ــ ولكننى ...

أصبح روبيان لايستطيع أن يحافظ على هدوئه . ان الظن الذى يعبر عنه الحوذى لا يسوءه .. والحوذى يتصور أن صاحبنا لايزال يريد أن يخفي مغامرة ..

أردف يقول :

ــ اسمع . اننى أعرف ما أقول حق المعرفة . مثلك كمثل ذلك الشاب الذى يسكن فى شارع الانفاليد .. تماما .. وفى وسع سيادتك أن تكون مطمئنا كل الاطمئنان الى اننى لن أقول شيئا ، ولن أفشو سرا . وتلك أمور لا شأن لى بها على كل حال . لكنك لا تستطيع أن تحملنى على الاعتقاد بأن رجلا من الرجال يمشى من برايا فورموزا الى هنا على الاقدام للذة المشى ، مع أن هناك عربة تحت تصرفه ! لقد ذهبت سيادتك الى الموعد المضروب ، ولكن الشخص الذى أردت لقاءه لم يجىء ...

ــ أى شخص ؟ لقد ذهبت أعود مريضا هو صديق لى يوشك أن يموت .

كرر الرجل يقول :

ــ تماما كذلك الشاب الذى يقطن شارع الانفاليد . لقد ذهب هو الى خياطة زوجته ، كما لو كان متزوجا !

سأله روبيان وقد لاحظ اسم الشارع فى هذه اللحظة :

ــ شارع الانفاليد .

فأجاب الحوذى :

ــ لا أستطيع أن أزيد شيئا على ما قلت . لقد كان آتيا من

شـارع الانفاليد .. شـاب له شاربان ، وعينان واسعتان ، بل واسعتان جدا . لو كنت امرأة لعشقته أنا أيضا ... أما هي فلا أدري من أين كانت آتية ، ولو عرفت ذلك ما قلته .. كل ما أعلم انها كانت جميلة جدا !

واذ رأى ان زبونه يصغي الى كلامه محملقا تابع يقول :

ـ آه ... سـيادتك لا تستطيع أن تتصور ... لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ... جميلة الجسم ، قد حجبت نصف وجههـا بوشاح . فتاة جميلة حقا . الفقراء يستطيعون أن يقدروا الجمال كما يقدره غيرهم . دمدم روبيان يقول :

ـ ولـكن ماذا حدث ؟

ـ ماذا حدث ؟ وصل كسيادتك على عربتي هذه ، ثم نزل ودخل بيتا نوافذه محكمة الاغلاق ، قائلا انه ذاهب الى خياطة زوجته . واذ لم أكن قد سألته شيئا ، واذ كان طوال الطريق صامتا غارقا في أفكاره ، أدركت ما بنفسه . وربما كانت هذه هي الحقيقة من جهة أخرى ، ذلك ان هناك خياطة تقطن شارع الهارموني حقا ...

ـ الهارموني ؟

ـ لا ... طيب . تكاد سـيادتك تنتزع مني سري . فلنبـدل الموضوع ولن أقول بعد الآن شيئا .

وكان روبيان ينظر الى الرجل مذهولا ، وصمت هذا دقيقتين أو ثلاث دقائق ، ثم لم يلبث أن أردف يقول :

ـ ثم انه ليس هناك أمور كثيرة أضيفها على ما ذكرت . لقد دخل الرجل ومكثت أنا أنتظره . وبعد نصف ساعة لمحت هناك بعيدا طيف امرأة . فقدرت على الفور الى أين هي ذاهبـة . وسرعان ما صدق ظني . فقد اقتربت ثم اقتربت وهي تنظر خلسـة الى جميـع الجهات ، فلما مرت أمام البيت لم أقل لها شيئا ، ولم تكن هي الاخرى في حاجة الى أن تقرع الجرس وانما حدث مايحدث في الحكايات الخرافية : انفتح الباب من تلقاء نفسـه ، فانسلت الى داخل البيت . أتظن اني أجهل هذه الامور ؟ وكيف تريد سيادتك لمثلي أن يربح قرشا من هنا وقرشا من هناك زيادة بغير هذا ؟ ان ما يدره العداد لا يكاد يطعم صاحبه . فلا بد من اللجوء الى مثل هذه الوسائل الصغيرة .

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغـــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

الفيلسوف أم الكلب؟

كونكاس بوربا

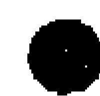
الجزء الثانى

بقلم

ماشادو دو أسيس

ترجمة

الدكتور سامى الدروبى



دار الهلال

٨٩

حدث روبيان نفسه وهو فى بيته بملابسه السود قائلا : لا .. لا .. يستحيل أن تكون هى .

انه منذ عودته لم ينقطع عن التفكير فى القصة التى حكاها له الحوذى . وقد حاول أن يطرد هـذه القصة من ذهنه ، بترتيب أوراقه ، أو بالقراءة ، أو بصفق أصـابعه بغيـة أن يرى تواثب كونكاس بوربا ، لـكن الصـورة ظلت تطـارده . قال له عقله أن هناك كثيرا من أطياف النساء الرشـيقات ، ولا برهان على أن طيف المرأة الذى لاح للحوذى فى شارع الهارمونى هو طيف المرأة الشـابة . لـكن الطمأنينة التى حملها هذا التفكير الى قلبه لم تدم طويلا . فسرعان ما خفض رأسه وعاد يطلق خياله غامضـا وراء شخص ـ ليس الا صوفيا نفسـها ـ يسير ثم يدخل على حين غرة فى بيت لم يلبث أن أغلق بابه فورا ... وفجأة بلغت الصورة من شدة الوضوح فى ذهنه انها جعلته يحدق الى الحـائط ، كأن باب البيت الذى يقع فى شارع الهارمونى ماثل الآن أمامه . وجرت بقية التصورات بعد ذلك فى رأسـه كما يلى : ها هو ذا يقرع الباب ، ثم يدخل ، ثم يثب الى عنق الخياطة ، ويجبرها على أن تقول الحقيقة اذا هى أرادت ألا تموت . فاذا بالمرأة المسكينة تعترف له بكل شىء ازاء هذا التهديد ، ثم تقوده الىحيث يرى السيدة . فاذا هى غير صـوفيا . وشعر روبيان بخجل من نفسه حين ثاب الى رشده :

« لا ... لا ... يستحيل أن تكون هى .. »

وارتدى صـــدرته ، ومضى يعقد أزرارها أمام نافذة تطل على الفسحة الخلفية . كان عمود من النمل يمر فى هـذه اللحظة على قاعدة النافذة . وما أكثر ما رأى هـذا المشهد من قبل . لـكنه تناول فى هذا اليوم منشفة ضرب بها النمل ضربتين دون أن يدرى لـماذا ، فقتل منه عددا كبيرا . لعـل واحدة من النمل لاحت له « لا طويلة ولا قصيرة ، جميلة الجسم » . وما هى الا لحظة حتى ندم على مابدر منه . ما شأن النمل وما هى علاقته بشكوكه ؟ ومن

حسن الحظ ان زيزا أخذ يغنى فى هذه اللحظة ، فجاء غناؤه موافقا الى درجة جعلت صاحبنا يتوقف عن عقد أزرار صدرته... زززز ف . ف . ف ز ز ز ز ... ف . ف . ف

أيتها الطبيعة ، ما كان أعظم حكمتك ، وما كان أروع كرمك حين وضعت زيزا حيا الى جانب عشرين نملة ميتة ! تلك هى بلا ريب الفكرة التى ستدور فى ذهن القارىء ، ولكنها لم تدر فى ذهن روبيان ، فمن لم يقدر فى يوم من الايام على تقريب الوقائع بعضها من بعض لاستخلاص النتائج منها ، فلن يبدأ ذلك الآن بينما هو يكمل عقد أزرار صدرته ، فكيف به وهو لا يسمع شيئا ولا ينتبه لشىء غير الزيز .. مسكين أيها النمل الميت ! عد الآن الى هوميرك الفولى (الفرنسى) ، وناقشه الحساب . ان الزيز هو الذى يضحك الآن مصححا الحكاية :

أكنت تسيرين ؟ انى سعيد بذاك فموتى اذن الآن !(١)

٩٠

ودق جرس الغداء فى أثناء ذلك ، فاصطنع روبيان هيئة هادئة كل الهدوء حتى لا يلاحظ مؤاكلوه شيئا « ان له فى كل يوم ضيوفا أربعة أو خمسة » . ووجد ضيوفه فى الصالون يتحدثون وهم ينتظرونه . فلما دخل عليهم ، هبوا واقفين ومضوا اليه يصافحونه بحرارة . وعندئذ استولت على روبيان رغبة قوية عارمة فى أن يعطيهم يده ليقبلوها . لكنه أمسك للوقت المناسب ، مدهوشا هو نفسه من هذه الفكرة التى خطرت بباله .

٩١

وفى المساء هرع الى فلامنجو . لم يستطع أن يتحدث الى ماريا بنديكتا التى كانت فى غرفتها فوق ، مع صديقتين لها هما فتاتان من الجيران . وقد جاءت صوفيا تستقبله عند الباب ، فقادته الى غرفة صغيرة كانت فيها خياطتان تعدان ملابس الحداد . وكان كريستيانو قد وصل منذ هنيهة ، ولكنه لم ينزل بعد .

قالت له صوفيا :

---

(١) بالفرنسية فى الاصل ، والاشارة هنا الى حكاية صرار الليل والنملة للشاعر الفرنسى لافونتين الذى جعل النملة تشمت بالصرار .

ـ اجلس هنا ..

وجلست معه . لقد كانت رائعة فى ذلك المساء ! ان كلماتها التى تتخللها ابتسامة ودية عفة ، كانت رصينة ورقيقة معا . حدثته عن خالتها وابنة خالتها ، وعن الجو والخدم والحفلات ، وعن نقصان الماء ، وعن طائفة كبيرة من الامور كانت تكتسى فى فمها قيمة عظيمة سواء أكانت فى حد ذاتها تافهة أم لا . وكان روبيان يصغى اليها مسحورا . ومن أجل أن تشغل نفسها كانت تخيط فى الوقت نفسه بعض الستائر ، وكلما حانت لحظة من صمت التهم روبيان بعينيه يديها الرشيقتين اللتين تبدوان كأنهما تلعبان بالابرة لعبا .

سألته صوفيا :

ـ هل تعلم أننى بسبيل تشكيل لجنة من السيدات ؟

ـ أجهل ذلك . وما غاية هذه اللجنة ؟

ـ ألم تسمع نبأ ذلك الوباء الذى اجتاح مدينة بولاية آلاجواس؟

أجابته بذلك ثم ذكرت انها قد بلغت من الحزن لهذا الامر انها قررت على الفور ان تنظم جمعية من السيدات لجمع التبرعات . وقد جاء موت خالتها فقطع المساعى الاولى التى بذلتها فى هذا السبيل ، لكنها ستستأنف العمل فور الانتهاء من القداس التذكارى الذى سيتم فى نهاية الاسبوع الاول من الحداد . وسألته رأيه فى الامر . فقال :

ـ يخيل الى ان الفكرة جيدة جدا . أليس فى اللجنة رجال ؟

ـ بل سيدات فقط ..

ثم ختمت كلامها بقولها ضاحكة :

ـ الرجال يقدمون مالا ..

وسرعان ما قرر روبيان بينه وبين نفسه أن يكتتب بمبلغ كبير حتى يحض أولئك الذين يكتتبون بعده على أن يكونوا كراما أسخياء . ان كل ما قصته صوفيا كان هو الحقيقة بعينها . ولكن من المؤكد أيضا ان انشاء اللجنة سيذيع صيتها وسيساعدها على الارتفاع درجة فى سلم المجتمع . ومن أجل ذلك كانت السيدات اللاتى اختارتهن أعضاء فى اللجنة لا ينتمين الى الحلقة المألوفة من صلات صوفيا . حتى انه لم يكن بينهن الا واحدة اعتادت أن تحييها . وبوساطة أرملة لمع نجمها فى المجتمع فيما بين عامى ١٨٤٠و١٨٥٠، فاحتفظت برهافة ذلك العهد والحنين اليه ، ظفرت صوفيا باشراك جميع أولئك السيدات فى عملها الخيرى وأصبحت منذ ذلك الحين

لا تستطيع أن تفكر فى أمر غير هذا الامر. فاذا بدت فى بعض الاحيان نائمة على كرسيها الهزاز عند المساء ، لم تكن فى حقيقة الامر نائمة ، وانما هى قد أغمضت عينيها لتزداد قدرة على تخيل نفسها بين رفيقاتها فى اللجنة وهن جميعا من عيون السيدات . فمن السهل على القارىء والحالة هذه أن يفهم السبب الذى من أجله كان هذا الموضوع مركز الحديث بين صوفيا وروبيان . ومع ذلك كانت صوفيا تهتم بصديقها من حين الى حين . فتسأله عن معنى هذه الغيبات الطويلة ؟ كيف تنقضى ثمانية أيام ، وعشرة أيام ، وخمسة عشر يوما ، وأكثر من ذلك فى بعض الاحيان ، دون أن يزورها ؟ وقد أجابها روبيان بأن عليها ألا تتصور وراء غيابه سببا خاصا ، ولكنه حين قال ذلك ظهر عليه من شدة الانفعال ما جعل احدى الخياطتين تلكز الاخرى بقدمها . ومنذ تلك اللحظة أصبحت هاتان المرأتان — حتى حين يسود الصمت لحظة ويتخلل تلك اللحظة رنين الابر وصرير المقصات وحفيف قطع القماش الذى يمزق — لا تحولان بصرهما عن صاحبنا الذى لا يكف من جهته عن التحديق الى ربة البيت فى عناد واصرار .

وفى أثناء ذلك جاء من يقول ان هناك شخصا جاء معزيا ، وهو رجل يعمل مديرا لأحد المصارف . وقد أبلغ باليا بنبأ قدومه ، فنزل يستقبله . واستأذنت صوفيا صاحبها بالغياب عنه بضع لحظات ، ومضت الى ماريا بنديكتا .

٩٢

حين بقى روبيان مع المرأتين أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولكن دون أن يحدث كبير ضجة ، حتى لايزعج أحدا . ان بعض عبارات باليا كانت تصل الى الصالون : « على كل حال ، فى وسعكم أن تثقوا ... » ، « ليست ادارة المصارف لعبة من لعب الاطفال ... » ، وكان مدير البنك لا يقول كبير شىء ، وانما كان يتكلم بلهجة جافة وصوت خافت ..

وها هى ذى احدى الخياطتين تطوى الثوب الذى بين يديها ، وترتب قطع القماش والمقصات وبكرات الخيطان فى تعجل شديد ، انها تأخرت وانها ذاهبة .

— انتظرى دقيقة يا دوندون .. أنا أيضا ذاهبة ..

ــ لا ... لا ... لا أستطيع . كم الساعة ياسيدى ، من فضلك ؟
أجابها روبيان :
ــ الثامنة والنصف ..
ــ رباه كم تأخرت !
ولكى يقول روبيان شيئا ما سألها لماذا لا تنتظر قليلا كما تطلب اليها رفيقتها ؟ فأجابته فى احترام :
ــ لا أستطيع أن أنتظر.. أتعرف أين تسكن رفيقتى ؟ انها تسكن فى شارع باسيو .. أما أنا فيجب أن أسير حتى شارع الهارمونى . والطريق من هنا الى هناك طويلة ..

٩٣

وما هى الا لحظة حتى نزلت صوفيا ، فاذا هى تجد روبيان قد تبدل تبدلا كاملا وأصبح زائغ النظر فسألته عما به ، فأجابها بأن شيئا من الصداع قد ألم به ولا شىء غير ذلك . ومضت دوندون . واستأذن مدير المصرف بالانصراف ، فشكر له باليا لطفه ، وقال ان زيارته شرف عظيم له . أين هى قبعته ؟ ووجد القبعة . وأعطاه المعطف كذلك . واذ بدا على المدير انه لايزال يبحث عن شىء ما ، سأله كريستيانو أهى العصا ؟ فأجابه المدير :
ــ لا ياسيدى . هى المظلة . أظنها هذه . نعم هى هذه . الى اللقاء ..
فقال له باليا :
ــ أكرر شكرى . شكرا جزيلا . ضع قبعتك ، فالجو رطب ، وليس بيننا تكلف . شكرا . شكرا جزيلا ..
قال ذلك وهو ينحنى له نصفين ، ويصافحه بكلتا يديه .
فلما عاد الى داخل البيت هبط الى شريكه الذى كان يصر على الانصراف . فانضم الى صوفيا يسأله أن يمكث قليلا ، ونصحه أن يحتسى قدحا من الشاى ، فيشفى من الصداع فورا . ولكن روبيان رفض . قالت له المرأة الشابة وهى تصافحه :
ــ ان بك برودة كبيرة كبرودة الثلج ، فلماذا لا تنتظر قليلا .. لا شىء أنفع من ماء المليسة ، سآتيك بشىء منه ..
فأوقفها روبيان قائلا لا داعى الى ذلك ، فهو يعرف هذا النوع من التوعك ولا يشفيه منه الا النوم . وأراد باليا أن يرسل من يحضر

له عربة . لكن روبيان أجابه بأن هواء الليل قد ينفعه ، وانه واجد عربات عند « الكاتيتى » على كل حال .

٩٤

«سوف أدركها قبل الكاتيتى» . كذلك قال روبيان لنفسه وهو يصعد شارع « البرنس » ..

لقد قدر ان الخياطة سلكت هذا الطريق . ولمح بعض القامات فى كل جهة من جهات الشارع من بعيد . وبدا له أن احداها قامة امرأة . فقال لنفسه : « لاشك انها هى » ، وأخذ فى السير . لقد كان مضطربا أشد الاضطراب ، كما تقدرون ذلك : شـــــارع انهارمونى ، خياطة ، ســـــيدة ، أبواب تفتح ثم تغلق . فليس يدهشنا ، والحالة هذه ، أن نراه يصدم فى تعجله سيدا كان يمشى الهوينى خافض الرأس . لقد صدم الرجل ، حتى انه لم يعتذر اليه ، بل أسرع مزيدا من الاسراع اذا رأى المرأة تسير هى أيضا سيرا سريعا جدا .

٩٥

ان الرجل الذى صدمه روبيـــان لم يكد يلحظ ذلك . لقد كان يسير غارقا فى أفكاره ، لكنه مغتبط منشرح الصدر خالى البال من كل هم ومن كل قلق . انه مدير المصرف الذى زار باليا معزيا . لقد شعر بالصدمة ، لكنه لم يحفل بها قط ، بل سوى معطفه ، وعاد الى تفكيره ، وتابع طريقه هادئا .

ويحسن أن نذكر فى تعليل عدم اكتراثه بالصدمة انه قد عانى خلال ساعة واحدة من هـذا اليوم ألوانا من الانفعال متعارضة أشد التعارض . لقد ذهب أول الامر الى بيت وزير من الوزراء يلتمس منه لأحد اخوته أمرا من الامور . وكان الوزير قد فرغ من غدائه فجلس يدخن هادئا لا ينبس بكلمة . فعرض عليه مدير المصرف الامر عرضا مضطربا أشد الاضطراب مكررا ومعيدا قوله ، مغفلا بعض الاشياء ، منتقلا من جملة الى أخرى بغير صلة ظاهرة . ومن أجل أن يكون فى وضعه ما يدل على الاحتشـــام والتوقير ، جلس جلسة غير مريحة ، وقد جمدت شفتاه تبسما فى احترام ، وراح يصطنع التحيات تلو التحيات فى خضوع ومذلة ويعتذر . وقد طرح عليه الوزير عندئذ بعض الاسئلة ، فأجاب اجابة طويلة بل اجابة

مسرفة فى الطول ، وأنهى كلامه بتسليم الوزير مذكرة فى الامر . ثم نهض ، وشكر ، وصافح الوزير ، ومشى ، فشيعه الوزير حتى الشرفة ، وهناك انحنى مرتين ، مرة بعلم ووعى وذلك فى أعلى السلم ، ومرة بغير وعى وذلك فى الحديقة تحت ، حيث لم يجد أمامه وزيرا بل بابا من زجاج ومصباحا للشرفة . ولم يلبث أن دس رأسه فى قبعته ومضى . لقد خرج عندئذ شاعرا بالمذلة حانقا على نفسه ، لا لعدم بلوغه غايته فحسب ، بل لما اضطر الى اصطناعه من مجاملات ، والى تقديمه من اعتذارات ، والى اتخاذه من وضع مهين ، ولسائر تلك السلسلة من أعمال التذلل التى قام بها دون أن يجنى منها فى آخر الامر أى ثمرة . وعلى هذه الحال من الشعور حتى وصل الى بيت باليا .

لكن نفسه استردت هدوءها خلال عشر دقائق ، نتيجة لتحيات الاحترام التى غمره بها رب البيت ، ولدأبه على هز رأسه تأييدا ، ولتبسمه الدائم ، ناهيك عن الشاى ولفائف السيجار التى قدمها اليه . لقد اصطنع المدير عندئذ القسوة والاستعلاء والترفع ، ولم ينبس بكلمة ، حتى لقد كشر أنفه احتقارا حين عرض عليه باليا رأيا من الآراء ، فأسرع هذا مسلما بسخافة الفكرة التى دارت فى خلده . وقد قلد المدير الحركات البطيئة التى رآها فى الوزير ، حتى اذا انصرف كان رب البيت لا مدير المصرف هو الذى ينحنى انحناء قويا .

فلما صار فى الشارع كان قد تبدل رجلا آخر . فهذا هو السبب فى مشيته الهادئة التى تفيض ثقة ، وفيما يرين على قلبه من طمأنينة ، حتى تلقى صدمة روبيان فى غير مبالاة . كان وهو يتذوق مذلة كرستيانو أمامه ، ينسى شيئا بعد شىء مذلته أمام الوزير .

حين وصل روبيان الى « الكاتيتى » كانت الخياطة تتحدث مع رجل ينتظرها هنالك ، ثم لم يلبث الاثنان أن مضيا معا الى جهة جلوريا ، وقد تشابكت ذراعاهما كأنهما زوج وزوجة . أهما متزوجان ؟ أم هما صديقان لا أكثر ؟ وغابا عن نظر روبيان عند أول عطفة . فتلبث روبيان بالمكان ساكنا لا يتحرك وهو يتذكر مرة أخرى أقوال الحوذى ، والباب ، والشاب ذا الشاربين ، والسيدة الجميلة القوام ، وشارع الهارمونى ... شارع الهارمونى... نعم لقد قالت : شارع الهارمونى ...

رقد روبيان فى سريره متأخرا ، بعد أن لبث واقفا على النافذة

مدة طويلة ، والسيجار بين شفتيه ، وهو غارق فى تأمل لانهاية له ، يحاول أن يجد تعليلا لهذا الامر كله . لاشك ان دوندون هى الشخص الثالث فى قصة الحب هذه ، لايمكن أن يكون الامر غير ذلك . لقد كان فى نظرتها تكتم وتخف . كذلك فكر روبيان ..

سأعود غدا ، سأبكر فى الخروج من البيت فانتظرها عند ناصية الشارع . سوف أعطيها مائة ألف قرش ، مائتى ألف ، خمسمائة ألف ... لكنها ستعترف بكل شىء ..

فلما بلغ منه التعب مبلغه ، نظر الى السماء . هذا هو صليب الجنوب .. آه ... ليتها وافقت على أن تنظر معه الى صليب الجنوب . اذن لتغير كل شىء بالنسبة الى الاثنين كليهما . ولاح له أن مواكب النجوم تؤيد ما ذهب اليه ظنه فهى تلتمع التماعا غير مألوف . وأخذ روبيان يتأملها وهو يتخيل ألف مشهد ومشهد من مشاهد الحب ـ حالما بما كان يمكن أن يقع . حتى اذا سئم قلبه هذا الغرام الوهمى ، تذكر فجأة ان صليب الجنوب ليس كوكبا وحسب ، وانما هو كذلك وسام شرف (١)

وسارت أفكاره عندئذ فى طريق أخرى . ان اتخاذ صليب الجنوب وساما قوميا يسعى اليه الناس هذا السعى كله فكرة عبقرية . وتذكر انه رآه قبل ذلك على صدور من خدموا الدولة . انه لزينة جميلة ، زينة نادرة بوجه خاص . وهتف يقول :

ـ عظيم ..

وكانت الساعة تشارف الثانية حين ترك النافذة . أغلق النافذة ومضى يرقد فى سريره . ولم يلبث أن نام . واستيقظ فى الغداة على صوت الخادم الاسبانى يحمل اليه رسالة ..

٩٦

استيقظ روبيان منتفضا ، وجلس فى سريره دون أن ينتبه للخط الذى على الظرف ، وفض البطاقة وقرأ :

« قلقنا أمس أشد القلق بعد ذهابك . لايستطيع كرستيانو أن يعودك الآن ، لأنه صحا من نومه متأخرا . وعليه أن يذهب الى مفتش الجمرك . طمئنا عن صحتك . تحيات ماريا بنديكتا وتحيات

صديقتك الشاكرة

« صوفيا »

---

(١) هو الوسام الامبراطورى « صليب الجنوب » .

ـ قل لحامل الرسالة أن ينتظر ..

وبعد عشرين دقيقة أعطى العبد الذى حمل الرسالة جوابها . ان روبيان هو الذى أعطاه الجواب . وسأله عن صحة السيدتين ، فقال له انهما بخير ، فناوله بضعة نقود قائلا له : اذا احتاج يوما الى شيء من المال فما عليه الا أن يجيئه فى المساء ، فدهش الصبى وحملق ، ووعد روبيان بتنفيذ كل ما يريده منه . قال له روبيان فى حنان :

ـ الى اللقاء ..

ولبث ساكتا بينما أخذ حامل الرسالة يهبط درجات المدخل ، حتى اذا أوشك أن يجتاز الحديقة كلها سمع صوتا يصيح به :

ـ انتظر ...

فعاد أدراجه ليجيب النداء . وكان روبيان قد هبط الدرجات من جهته ، فاتجه الشخصان كل منهما نحو الآخر ، فلما التقيا توقفا دون أن يقول أحد منهما شيئا . وانقضت دقيقتان طويلتان لم يفتح روبيان خلالهما فمه . وأخيرا لم يزد على أن سأله عن صحة السيدتين ، وهو السؤال الذى طرحه عليه منذ هنيهة ، فلم يكن على الصبى الا أن يؤكد له ما قاله من قبل .

وأجال روبيان طرفه فى الحديقة . ان الورد وأزهار المرجريت تفيض جمالا ونضارة ، وان القرنفل قد أخذت تتفتح أكمامه . وثمة أزهار أخرى ، ثمة بنفسج ونباتات متسلقة ، فكأن هذا العالم الصغير كله يحدق الى روبيان بعين خفية صائحا به :

ـ أيها القلب المريض ... اطفىء نار رغبتك ... اقطفنا وارسلنا ...

قال روبيان :

ـ طيب . بلغ السيدتين تحياتى . ولا تنس ما قلته لك . اذا احتجت الى ، فجيء الى . ألم تضيع الرسالة ؟

ـ لا ... لا ... هى ذى ياسيدى ..

ـ خير لك أن تضعها فى جيبك ، ولكن حاذر أن تدعكها !

قال الصبى وهو يرتب الرسالة :

ـ لن أدعكها ياسيدى .. لاتخف !

٩٧

خرج الصبى . وظل روبيان يتجول فى الحديقة ، واضعا يديه

فى جيبى ثوبه . انه ينظر الى الازهـار . أى ضـير فى ان يبعث ببعضها ؟ هى هدية معتادة ، لا بل هى هـدية يكاد يكون ملزما باهدائها . أما ينبغى له أن يرد اللطف بمثله ؟ لقد أخطأ اذ امتنع عن ارسال بعض الازهار . وهرع الى الباب ، لـكن الصبى كان قد بعد . وخطر ببال روبيـان عندئذ ان ظروف الحداد تستبعد هذا النوع من الهدايا ، فهدأت هذه الفكرة خاطره .

واستأنف تجواله فى الحديقة ، فاذا هو يرى على الارض رسالة قرب صخرة ، فانحنى وتناول الرسالة ونظر فى العنوان... انه « خطها » ، انه ذلك الخط الفريد الذى لا يكتب مثله غيرها . ومن أجل أن يزداد يقينا قارنه بخط البطاقة التى تلقاها منذ قليل. خط واحد بعينه . أما اسم المرسل اليه فليس الا اسم الشيطان : كارلوس ماريا .

قال لنفسه بعد بضع دقائق : « حقا . ان الصبى الذى حمل الرسالة الى كان يحمل هذه الرسالة أيضا ، وسقطت منه » .

وبعد أن قلب الرسالة على جميع وجوهها تساءل ماعسى أن يكون مضمونها . آه... مضمونها . ما عسى أن يكون المكتوب فى باطن هذه الورقة المجرمة ؟

هو الفسق والعهر ، وربما لغة الاثم والجنون كلها ملخصـة فى بضعة أسطر . ونظر الى الرسالة فى الضوء ليرى هل يستطيع أن يقرأ منها كلمة أو كلمتين ، لـكن الورق كثيف ، ولا يمكن أن يشف عن شىء ، فلما خطر بباله على حين فجأة ان حامل الرسـالة قد يدرك بعد قليل انه فقد الرسالة فيعود أدراجه باحثا عنها ، أسرع يضعها فى جيبه وهرع الى البيت .

حتى اذا دخل أخرجها وعاد يتأملها . ان يديه تترددان مترجحتين ترجح ضميره . انه اذا فض الرسالة عرف كل شىء . واذا قرأها ثم أحرقها لم يطلع أحد على نصها ، واستطاع هو أن يستقر على حال بدلا من أن يظل قلقا أمام هذا الركام من الفظاعات ... ليست هذه الالفاظ من اختراعى أيها القارىء الصديق ، وانما هى ألفاظه نفسها . فهو الذى كان يطلق هـذه الشتائم ويطلق غيرها أيضا ، بينما هو جالس فى وسط الصالون ساكنا محدقا الى السجادة التى تمثل رجلا تركيا مسترخيا واضعا غليونه فى فمه ومسرحا بصره التائه نحو البوسفور ... نعم ، لاشك انه البوسفور ...

— يا للرسالة الملعونة !

كذلك همهم يقول بصوت أصم ، مرددا عبارة سمعها قبل بضعة أسابيع فى المسرح . أن هـذه الجملة الصغيرة التى كان قد نسيها الى تلك اللحظة ، تعبر وحدها عن التشابه الروحى بين المشـهد والمشاهد .

وتضاعفت رغبته فى فض الرسالة . ليس عليه من أجل ذلك الا أن يقوم بحركة يسيرة . ما من أحد يستطيع أن يراه ، فاللوحات المعلقة فى الحائط هادئة لا تبالى ، والتركى الذى تمثله فى السجاد لا يزال يدخن وينظر الى البوسفور . لـكن صاحبنا ظل مع ذلك يشعر بوساوس تردعه عن فض الرسالة. صحيح انه وجد الرسالة فى حديقته ، لـكن الرسالة ليست له ، وانما هى للشخص الآخر. انها أشبه بمال وقع بين يديه ، أفليس من واجبه أن يرد المـال الى صاحبه ؟ وأعاد الرسالة الى جيبـه وهو يحس بالحسرة . وتساءل هل يبعث الرسالة الى الشخص الموجهة اليه أم يردها الى صوفيا ؟ ثم استقر رأيه أخيرا على الحل الثانى ، لانه ربما أتاح له أن يقرأ الحقيقة فى وجه المرأة الشابة . قال لنفسه : « سأقول لها اننى وجدت رسالة ، وقبل أن أعطيها اياها سأرى فى وجهها أهى خائفة أم لا . أتراها يشحب لونهـا ؟ سـأهددها عندئذ ، وسأحدثها عن شارع الهارمونى . وسأحلف لها اننى على استعداد لأن أنفق ثلاثمائة قونت ، بل ثمانمائة ، بل ألفا ، بل ألفين ، بل ثلاثة آلاف اذا اقتضى الأمر ، من أجل خنق هذا الشخص الحقير »

٩٨

لم يصل أحد من رواد البيت لتناول طعام الفداء . انتظر روبيان نحو عشر دقائق ، حتى لقد أرسل خادما الى الباب ليرى هل ظهر أحد . لم يظهر أحد ... فكان لابد له من أن يعزم على تنـاول طعامه وحده .

كان روبيان ، بوجه عام ، لا يطيق وجبات الطعام من غير ضيوف. لقد بلغ من تعوده حديث أصدقائه وملاحظاتهم ونكاتهم وما كانوا يحيطونه به أيضا من مظاهر الاحترام ، انه اذا طعم وحده فكأنه لم يطعم شيئا . لـكنه كان فى ذلك اليوم أشبه بشاول ينتظر داود قادرا على أن يطرد الروح الخبيث الذى تسلط عليه . حتى لقد أمسى ممتلئا حقدا على حامل الرسالة الذى تركها تسقط منه . لقد كان من الافضل له أن يجهل كل شىء . ثم أخذ يتردد مرة أخرى :

أيرد الرسالة أم يحتفظ بها ؟ كان روبيان يخشى أن يعرف الحقيقة. ويمكن أن نقول ان رغبته فى المعرفة لم تكن فى آخر الامر الا الامل فى أن يكشف ان ليس ثمة شيء .

وظهر داود أخيرا ، بين تناول الجبن وشرب القهوة ، ظهر فى صورة الدكتوركاماشو، الذى رجع من فاسوراس فى الليلة البارحة. وكداود الذى حدثت عنه التوراة ، كان مع الدكتور كاماشو حمار محمل خبزا ، وجرة خمر ، وماعز . لقد ترك أحد نواب ميناس مصابا بمرض خطير ، وبدا يعد العدة لترشيح روبيان بالكتابة الى مختلف شخصيات تلك الولاية . ذلك ما قصه كاماشو على روبيان منذ أولى جرعات القهوة .

ـ أنا أرشح ؟

ـ اذا لم ترشح أنت ، فمن عسى يرشح ؟

وأوضح له كاماشو انه لايمكن أن يكون هنالك من يفضله مرشحا. ألم يقدم خدمات كبيرة حين كان بميناس ؟

ـ بعض الخدمات ، نعم ..

ـ أما الخدمات التى قدمتها هنا فاها شأن كبير خاص . ألم تساعدنى فى دعم الجريدة التى تنطق بلسان المبادىء ؟ ألم تتلق معى الضربات التى كيلت لى ، ناهيك عن التضحيات التى تقوم بها جميعا من الناحية المالية ؟ لقد تم الامر ، وليس لك أن تحتج . سأعمل كل ما فى وسعى من أجلك . ذلك كل ما أريد أن أقوله لك . ثم انك بذلك تحل خلافنا .

ـ أى خلاف ؟

ـ الخلاف الذى قد يحدث بين الدكتور هرمنجلدو ، من كاتاس التاس ، والكولونيل روموالد ، اذ يقال انهما سيرشحان نفسيهما اذا شغر مكان ، ومن شأن هذا أن يشتت أصوات الناخبين.

ـ طبعا . ولكن ماذا اذا أصرا ...

ـ أعتقد انهما لن يصرا متى جعلت زعماء الحزب يؤكدون لهما هذا القرار ، ان من الاشياء التى رمونى بها اننى لست مفوضا لحسم الامر ، فاعترفت بأن هذا صحيح فى هذه الحالة التى لم تكن فى الحسبان ، ولكننى أضفت اننى أتمتع بثقة زعمائى كاملة ، وان زعمائى سيؤيدوننى ولا ريب . عليك أن تعد الامر منتهيا . ماذا تظن ؟ أتظن اننى أبذل هنا كل ما أبذل من وقت ومال وموهبة ثم لا أستطيع أن أنفع صديقا قدم كل هذه البراهين على اخلاصه

للمبادىء ؟ لا ... لا ... لابد من أن يصغو الى ويؤيدوا اقتراحى.

تأثر روبيان ، فطرح عددا من الاسئلة عن الصراع الذى سيقوم ، وعن النصر الذى سيعقب الصراع . هل من الضرورى أن نقدر النفقات منذ الآن ؟ أترانا فى حاجة الى كتاب توصية ؟ الى تقديم طلب ؟ كيف يكون فى وسعنا أن نطلع على حالة المريض ؟ الخ ... فأجاب كاماشو عن الاسئلة جميعها ، ولكنه أوصى صاحبه كذلك بكثير من الحذر ، قائلا : رب أمر يسير فى ميدان السياسة يبدل مجرى حملة من الحملات ويكتب النصر للخصم . وهبك لم تخرج من المعركة منتصرا ، فانك ستخرج منهـــا رابحا ، لأن اسمك سيسجل فى الحوليات الانتخابية ، وتلك سابقة لها قيمتها . وختم كلامه بقوله :

ـ عليك بالثبات والصبر !

ثم لم يلبث أن أضاف :

ـ وهل أنا نفسى الا مثال للصبر والثبات ؟ ان منطقتى واقعة بين أيدى طائفة من قطاع الطرق . نعم من قطاع الطرق ، فليس لهؤلاء البديارو اسم غير هذا الاسم . وأكثر من ذلك « أقول لك هذا على ألم وأرجو أن يظل سرا مكتوما بيننا » ان لى أصدقاء يتآمرون على أناسا طامحين ليس لهم ضمير يردعهم . فهم يحاولون أن يخرجونى ليحلوا محلى ... يا لهم من أوغاد ! آه ياعزيزى روبيان ... ان حكايات السياسة هذه تشبه عذاب سيدنا يسوع المسيح ... ليس ينقصـها شىء ، لا المريد المرتد ولا المريد الخائن . تاج الشوك ، والصفعات ، وخشبة التعذيب ، ثم الموت على صليب الافكار بمسامير الحسد والغيبة والنميمة ونكران الجميل ...

وهذه العبارة التى وافت قريحته من حرارة الحديث ، لاحت له جديرة بأن يكتب فيها مقالاته ، فثبتها فى ذاكرته ، ثم سجلهـا بعد ذلك على ورقة قبل أن يأوى الى فراشه . أما فى تلك اللحظة ، بينما كان يردد هذه العبارة فى ذهنه ليثبتها فى ذاكرته ، قال له روبيان ان هذه لحظة انفعال عصبى لا أكثر ، وان عهده به انه قادر دائما على الشروع فى أعمال كبيرة ... وما ينبغى له أن يخشى هؤلاء المنافقين ...

ـ أخشى هؤلاء المنافقين ؟ طبعا لا ... انى امرؤ لايخاف حتى الفيلان ان كان للفيلان وجود . انى أقف لهم ثابت القدم رابط الجأش . وليحذروا منا حين نصل الى الحكم . لسوف يدفعون

الثمن يومئذ غاليا . اسمع ما أقوله لك . فى السياسة لا شيء يغتفر ولا شيء ينسي . ما يفعله المرء يدفع ثمنه ..

ثم أردف يقول وهو يبتسم :

ـ صدقنى : ان الانتقام لذة ... لذة رائعة . اذا حسبنا حسنات السياسة وسيئاتها غلبت الحسنات السيئات آخر الامر . صحيح ان هناك أناسا ينكرون الجميل ، ولكن المرء يستطيع أن يعاقبهم : يعزلهم ، يسجنهم أو يطاردهم ..

وكان روبيان يصغى خاضعا مفتونا . ان احساسا بالقوة كان ينبع من كاماشو ، وكانت عيناه تقدحان شررا . وكانت اللعنات تنبجس من فمه كلعنات أشعيا ، حتى لكأن المرء يرى أكاليل النصر تتلألأ فوق جبينه منذ الآن . فكأن كل اشارة من اشاراته رمز ، وكأنه وهو يفتح ذراعيه بحركة متعاظمة ، يعرض برنامجا بكامله . كان يسكر أملا .. وكان فى سكره فرح . وفى لحظة من اللحظات وقف أمام روبيان وقال :

ـ اسمع أيها النائب العزيز . حاول أن تلقى خطابا تطلب فيه اغلاق باب المناقشة : « سيدى الرئيس.. » هيا ردد معى « سيدى الرئيس ، أبيح لنفسى أن أطلب اليكم .. »

فقاطعه روبيان بنهوضه على حين فجأة . لقد عراه نوع من الدوار . وها هو ذا يرى نفسه داخلا على مجلس النواب لأداء القسم والنواب قيام . ان رعشة تسرى فى جسمه . ومشيته مترددة . لكنه يجتاز القاعة رغم كل شيء ، ويصعد سدة الرئاسة ، ويحلف اليمين التقليدية . لعل صوته كان يرتجف قليلا فى تلك اللحظة ..

٩٩

كان روبيان على تلك الحالة النفسية حين نعى اليه فريتاس . فسكب دمعة حزن ، خلسة . وتكفل بنفقات الدفن . وفى الاصيل من الغد شيع الراحل الى المقبرة وقد أرادت أم صديقه حين رأته يدخل الصالون ، أن تركع عند قدميه . لكن روبيان شدها اليه من ذراعيها فى الوقت المناسب فحال بينها وبين الركوع ، فكان لهذه الحركة من بطلنا وقع كبير فى نفوس الحاضرين جميعا . وجاءه أحدهم فصافحه ، ثم قاده الى ركن من الاركان ، وأخذ يروى له بصوت خافت انه صرف من الخدمة منذ بضعة أيام بغير حق ،

عمل ظالم مرده الى المؤامرات ...
ــ هم وكر أوباش . اعذرني اذا استعملت هذه اللفظة .

وحانت ساعة الجنازة . فأخذت الأم تودع فقيدها وداعا يمزق القلب . قبلات وانتحابات وصيحات .. في آن واحد معا . ولم تستطع النســاء أن ينتزعنها من هنــاك . فالتجأن الى رجلين ، فاضطر الرجلان الى استعمال القوة . كانت تصرخ وتصر على أن تعود الى جثمان ابنها : ابني ، ابني المسكين .

وتابع الرجل المصروف من الخدمة يقول :
ــ فضيحة . ويظهر ان عملهم هــذا لم يرض عنه الوزير . ولـكنك تعرف كيف تجري الامور ، فمن أجل ألا يزعل المدير ...
ــ بم بم بم ...
كذلك كانت تدوي أصوات المطارق حين أخذوا يسمرون التابوت.

واستجاب روبيان للطلب الذي تقدموا به اليه ، وهو أن يمسك أحد حبال الغطاء الذي يغطي التابوت ، فترك الرجل المصروف من الخدمة لشأنه . وكان هنالك في الخارج عدد من المتسكعين المتفرجين. وعلى النوافذ جيران يحنون على الشارع بعضهم فوق بعض ، وقد امتلأت أعينهم بذلك الفضول الذي يوقظه الموت في نفوس الاحياء . ويجب أن نذكر انه كانت هنالك أيضا « مركبة » روبيــان الفخمة التي تختلف كل الاختلاف عن العربات الاخرى . لقد كان النــاس يتحدثون من قبل عن هذا الصديق ، صديق المتوفى ، فجاء حضوره الآن مصدقا لما كان يدور على الالسن من شائعات . وأصبح الراحل محاطا بشيء من الاعتبار .
وفي المقبرة لم يكتف روبيان بأن يهيل على التابوت أول حفنة من التراب ، استجابة لرجاء جميع النــاس ، وانما لبث بعد ذلك منتظرا ، الى أن انتهى الحفارون من ردم الحفرة بمجارفهم الكثيرة ردما تاما . وكانت عيناه مخضلتين . حتى اذا انتهى كل شيء ، مضى وقد أحاط به سائر الحاضرين . وعند باب المقبرة مد قبعته بحركة واسعة ذات اليمين وذات الشمال ، محييا جميــع الرءوس المـكشوفة المطأطئة . ولما صعد الى مركبته ، سمع هذه الـكلمات تقال بصوت خافت :
ــ يظهر انه عضو بمجلس الشيوخ ، أو قاض من قضاة محكمة الاستئناف ، أو شيء من هذا القبيل .
لقد هبط الليل بينما كان روبيان راجعا الى بيته يفكر في ذلك

المسكين الذى دفنه منذ قليل . وها هو ذا يلتقى فى شارع سان كريستافون بمركبة أخرى يتبعها جنديان على صهوتى جواديهما ، وتحمل أحد الوزراء فى طريقه الى مقابلة الامبراطور . مد روبيان رأسه من باب مركبته ، ثم عاد يدخله ، ولبث لحظة يصغي الى وقع خطوات الجوادين . انها خطوات موقعة واضحة كل الوضوح رغم الضجة الناشئة عن وقع حوافر الخيول الاخرى . وبلغ تنبه ذهن صاحبنا من القوة انه ظل يسمع وقع هذه الخطوات رغم ان المسافة بينه وبين الموكب قد أصبحت أكبر من أن يصل اليه الصوت فى الواقع .. تك .. تك .. تك ..

١٠٠

بعد وفاة دونا ماريا أوجوستا بأسبوع أقيم لها القداس التذكارى المعتاد فى كنيسة سان فرنسيسكو دو باولا . وقد حضر روبيان القداس ، ورأى هنالك ماريا . ولم يكن فى حاجة الى أكثر من ذلك حتى يستعجل رد الرسالة . فما هى الا ثلاثة أيام حتى وضع الرسالة فى جيبه وهرع الى فلامنجو . كانت الساعة الثانية بعد الظهر . لقد ذهبت ماريا بنديكتا ترد الزيارة للجيران الذين واسوها فى خلال الايام الاولى من حزنها . وصوفيا وحيدة فى البيت تهم أن تخرج .

قالت له وهى تدعوه الى الجلوس :

ــ لابأس ، سأبقى ، أو اخرج فيما بعد .

فأجابها روبيان بأنه لن يؤخرها كثيرا ، وانه لم يجىء الا ليرد اليها ورقة .

ــ اجلس على كل حال . فى وسع المرء أن يرد ورقة وهو جالس.

كانت صوفيا من الجمال بحيث تردد روبيان فى أن يقول لها الكلمات القاسية التى هيأها . كانت رائعة فى ملابس الحداد كأن ثوبها قالب أحاط بجسمها احاطة القفاز الاسود باليد . انها الآن جالسة ، ويمكن أن يرى المرء قدميها وحذاءيها الصغيرين المسطحين وجوربيها الحريرين ، وهى كلها أشياء تطلب العفو والرحمة ، أما السيف الذى فى داخل الغمد ــ وهذا هو التعبير الذى استعمله كاتب قديم فى وصف النفس ــ فكان يبدو عاجزا كل العجز عن أن يجرح أى انسان . بالعكس .. بل كأن يبدو نقيا نقاء البلور .

وأوشك روبيان أن يضعف ، لكن الكلمات الاولى التى فاه بها لا تسمح له بالتراجع .

قالت صوفيا :

ـ ما هى الورقة ؟

فأجابها متجلدا :

ـ هى ورقة أظنها خطيرة . ألا تتذكرين أو تعلمين انك أضعت رسالة ؟

ـ لا ...

ـ هل تكتبين رسائل فى كثير من الاحيان ؟

ـ فى بعض الاحيان . ولكننى لا أتذكر اننى كتبت شيئا على جانب كبير من الخطورة . أرنى ..

كانت عينا روبيان تائهتين . فلم يقل شيئا ولم يفعل شيئا . ونهض كمن يريد أن يخرج . ولكنه لم يخرج . وبعد بضع لحظات من الصمت والقلق أردف يقول فى غير غضب :

ـ ليس سرا لديك انني أحبك. أنت تعرفين ذلك ولا تطردينني. ولكنك فى الوقت نفسه لا تستجيبين لعواطفى ، وتكتفين باثارتى بهذا الموقف الذى تقفينه مني. لم أنس بعد سهرتنا فى سانتا تيريزا، ولا رحلتنا فى القطار حين كنا جالسين نحن الاثنين وبيننا زوجك . اتذكرين ؟ ان تلك الرحلة قد سببت شقائي . فمنذ ذلك اليوم سلبت قلبى . أنت خبيثة . انت كأفعى . ماذا صنعت لك ؟ اما الا تحبيني فذلك أمر أقبله ، ولكن لماذا لم تزيحى عن عينى غشاوة الضلال فورا .

قاطعته صوفيا تقول وهى تنهض وتنظر الى جهة الباب :

ـ اسكت . هذا شخص قادم .

ولم يصل أحد . لكن كان يمكن أن يسمع كلام روبيان ، لأن روبيان كان يزداد حماسة أثناء حديثه وكان يرفع لهجته شيئا بعد شيء . وها هو ذا يرفع صوته الآن أكثر من ذى قبل. انه لايرافع الآن من أجل أن يربح قضية ، وانما هو يفرغ ما فى قلبه لا أكثر من ذلك ولا أقل . صاح يقول :

ـ لا يهمني أن يسمع كلامى أحد . فى وسع الناس أن يسمعوني. سأقول لك الآن كل ما بنفسي ، وستطردينني بعد ذلك وينتهى كل شيء ... لا... ليس يحق لأحد أن يعذب انسانا هذا التعذيب .

ـ اسكت ، استحلفك بالرب .

ـ أى رب ؟ اصغى الى التتمة ، لأننى قررت ألا أبقى فى نفسى شيئا .

واشتد قلق صوفيا ، وكانت تخشى حقا أن يسمع أحد الخدم كلام روبيان فرفعت يدها وكمت بها فمه . فلما لامست هذه اليد المعبودة شفتيه عقل لسانه . فسحبت صوفيا يدها وتهيأت للخروج من الصالون . ولكنها ما أن وصلت الى الباب حتى وقفت . وكان روبيان قد مضى الى النافذة ليروح عن نفسه ، ويسترد هدوءه .

١٠١

لبثت صوفيا تتسمع بضع ثوان ، ثم رجعت الى الصالون ، ومضت مع خشخشة تنانيرها تجلس على أريكة الاطلس الازرق التي اشتروها منذ مدة قصيرة . والتفت روبيان فرآها تهز رأسها هزة تأنيب . وقبل أن يفتح فاه بكلمة وضعت أصبعها على فمها متوسلة إليه أن يلزم الصمت ، ثم أومأت اليه بيدها أن يقترب ، فأطاعها . قالت :

ـ اجلس .. اجلس على هذا الكرسى .

فلما جلس أردفت تقول :

ـ جميع الاسباب تدعونى الى أن أغضب منك ، لكننى لن أفعل ، لعلمى بأنك طيب القلب ، ولأننى أدرك انك صادق . فاذا ندمت على ما قلته لى ، صفحت عنك .

قالت صوفيا ذلك وضربت بمروحتها الجهة اليمنى من ثوبها لتسوى ثنية من ثناياه ، وحركت أساورها البللورية السوداء ورفعت ذراعيها ثم تركتهما تسقطان على ركبتيها ، وأخذت تنتظر جواب روبيان وهى تطوى مروحتها ثم تنشرها ، فاذا بروبيان يهز رأسه متمنعا على خلاف ما كانت تتوقع . قال :

ـ لست أرى ما يوجب أن أندم ، واني لأوثر الا تصفحي عني . ومهما يكن من أمر فانى لن أنساك أبدا ، شئت ذلك أم لم تشائيه . فى وسعى أن أكذب ، ولكن علام الكذب ؟ أنت التى لم تكونى صادقة ، أنت التى غررت بى ...

أنهضت صوفيا جذعها .

ـ . . . لا تغضبى ... لست أريد أن أهينك ، ولكن اسمحى لى أن أقول لك انك أنت التى غررت بى فى غير رحمة

البتة . أن تحبى زوجك ، فهذا أمر أقبله ، وقد غفرته لك . أما أن ...

قالت صوفيا :

ـ أما ماذا ؟

فوضع روبيان يده فى جيبه فأخرج الرسالة ومدها اليها . فلما رأت صوفيا اسم كارلوس ماريا امتقع لونها امتقاعا شديدا . ولاحظ روبيان شحوبها ، لكنها ما لبثت أن سيطرت على نفسها، وسألته ماذا تعنى هذه الرسالة ؟

ـ هى رسالة منك .

ـ نعم ، هى منى .

وتابعت تقول فى هدوء .

ـ ولكن ما الذى أقوله فى هذه الرسالة ؟ ثم من أعطاك اياها ؟

وهم روبيان أن يشرح ، لكنه قدر أن ما قاله حتى الآن كاف ، تحياها لينصرف .

قالت صوفيا مبهوتة :

ـ من فضلك ... فض هذه الرسالة بنفسك .

ـ لم يبق لى هنا ما أعمله .

ـ لا تذهب ، فض الرسالة ، هذه هى . اقرأها كلها .

كذلك تابعت المرأة الشابة كلامها وهى تمسك به من كمه .

لكن روبيان شد ذراعه بعنفه ومضى يتناول قبعته ، ثم خرج . ولم تجرؤ صوفيا أن تغادر الصالون ، خوفا من الخدم .

١٠٢

خلال اللحظات الاولى التى أعقبت ذلك ، ظلت صوفيا فى حالة عصبية لم تسمح لها حتى بالتفكير فى الرسالة . وأخيرا تناولتها فقلبتها ثم قلبتها وهى لا تستطيع أن تحزر مضمونها . لكنها ، بعد أن استردت كل هدوئها ، تذكرت شيئا فشيئا ان الرسالة تشتمل على منشور « لجنة الالاجواس » ومزقت الظرف فاذا هو المنشور حقا . ترى كيف وقعت هذه الورقة بين يديه ؟ ومن أين جاءته هذه الشكوك ؟ هل تصورها من تلقاء نفسه ، أم ان أحدا صورها له ؟ هل هنالك سعايات ؟ ومضت الى الصبى الاسود الذى كلف بحمل المنشور الى كارلوس ماريا ، فسألته هل أوصل

الرسالة ، فعرفت منه الحقيقة ، وهى انه حين وصل الى شارع الانفاليد ، لم يجد الرسالة فى جيبه ، فكتم الامر عن سيدته خوفا منها .

وعادت صوفيا الى الصالون وقد عدلت عن الخروج . ووضعت الرسالة والظرف ناحية من أجل أن تظهر روبيان عليهما ، فيرى بأم عينيه أن ليس فى الامر شىء . ثم خطر ببالها انه قد يحسب أن الورقة قد أبدلت ، فدمدمت تقول : « لعنة الله » ، وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا .

وأخذ سيل من الذكريات يغزو ذهن صوفيا . وتسمرت أمامها صورة كارلوس ماريا ، بعينيه اللتين تشبهان عينى طيف ، طيف محبوب ومكروه فى آن واحد . وأرادت صوفيا أن تطرده ، لكنها لم تظفر بذلك ، فهو يرافقها عن يمينها وعن شمالها ، ولا يفقد شيئا من رجولته القوية ، ولا من تعاليه الماكر . وهى تراه فى بعض الاحيان منحنيا ينطق بتلك الكلمات التى سمعتها منه أثناء احدى حفلات الرقص ، تلك الكلمات التى سببت للمرأة الشابة ساعات طويلة من الارق وأياما كثيرة من الأمل ، ثم انتهت الى الضياع فى غياهب الوهم . ان صوفيا لم تستطع أن تفهم فى يوم من الايام اخفاق هذه المغامرة . ومع ذلك فقد كان يبدو أن كارلوس ماريا يحبها حقا ، وما من أحد اكرهه على أن يكاشفها بعواطفه تلك المكاشفة الجريئة ، ولا على أن يقف تحت النافذة فى ظلمة الليل ، كما ذكر لها ذلك . وتذكرت أيضا اجتماعات أخرى به ، وكلمات عابرة مختلسة ، ونظرات حارة طويلة ، فلم تستطع أن تدرك كيف ان هذا الهوى العنيف كله لم يؤد فى آخر الامر الى شىء . ربما كان السبب فى ذلك ان الرجل لم يكن يحمل لها فى يوم من الايام حبا ، وان الامر لا يعدو أن يكون عبثا أو أن يكون وسيلة يتحقق بها كارلوس ماريا مما له على النساء من سلطان الاغراء . انه لم يكن الا رجلا مغرورا بنفسه ، وانسانا مستهترا تافها .

وماذا يعنيها آخر الامر من هذا السر ؟ ان كارلوس ماريا رجل تافه كل التفاهة . وقد أصبح لا يوقظ فى نفسها الا الاشمئزاز والاحتقار . وراحت تضحك أخيرا على كارلوس ماريا ، وهى تحس ان ضميرها يعذبها من تفكيرها فيه ، واستمرت تحوم حول هذا الموضوع زمنا طويلا رافعة عينيها الى السماء كالملاك ، منتقمة من

ذلك الابله ـ انها تسميه الآن بالابله .ـ ولـكن أليست تولى هذا الامر أكثر مما يستحقه من اهتمام ؟ والتفتت أفكارها عندئذ ، فى غضب ، نحو روبيان الذى أخرج مثل هـــذا الرجل من ظلمة النسيان بحكاية المنشور هذه ... ثم عادت الى تأملاتها الاولى ، الى كلمات كارلوس ماريا : اذا كان جميع الناس يرونها جميلة ، فلماذا لايراها جميلة وهو الذى تجرأ أن يصرح لها بذلك ؟ آه .. لعلها كانت تستطيع أن تجعله يركع على قدميها لو لم تظهر له تلك المذلة كلها ، ولو لم تتأثر بمدائحه ذلك التأثر كله .

وفجأة سمعت الخادمة التى كانت فى الحجرة المجاورة قرقعة شىء ينكسر ، فهرعت الى الصالون فرأت سيدتها واقفة هنالك وحدها . قالت صوفيا :

ـ لا شىء ..

ـ خيل الى اننى سمعت ...

ـ هو هذا التمثال الصغير قد سقط . لمى حطامه .

صاحت الخادم :

ـ الصينى !

ـ انه تمثال من القيشـانى يمثل رجلا صينيـا . تمثال برىء مسكين يوضع عادة فى أعلى أحد الرفوف . وقد وجدته صوفيا بين أصابعها ، لا تدرى كيف ، ولا متى ، فلما تذكرت مذلتها التى ارتضتها لنفسها ، لم تستطع أن تكبح جماح غضبها من نفسها ، فرمت التمثال الصغير على الارض . يا للتمثـال المسكين !.. لم ينفعه انه كان من قيشانى ولا أن باليا هو الذى أهداه اليها .

ـ ولـكن كيف أمكن ياسيدتى أن ...

ـ اذهبى !

تذكرت صوفيا موقفها من كارلوس ماريا ، تذكرت ما استطاع أن ينتزعه منها من رضوخ سهل ، وتذكرت ما كانت تقابله به من صفح ، وما كانت ترشقه به من نظرات ، وتذكرت كيف كانت تدع له يدها فى سهولة .. نعم ، ذلك هو الامر ... لقد ترامت عليه فاستهان بها .

ثم تبدلت مشاعرها . ترى الا ينبغى البحث عن سـبب آخر مختلف عن ذلك ؟ وراحت صوفيا تنبش ذاكرتها عسى أن تقع على سبب لذلك الهجران . هل بدرت منها حركة فيها فتور أو جفاء ؟ هل بدر منها شىء من الاهمال ؟ فتذكرت انها فى ذات يوم لم تجرؤ

أن تستقبله وهى وحيدة فأمرت أن يقال له انها ليست فى الدار . نعم ، من الجائز جدا أن يكون هذا هو السبب . ان كارلوس ماريا رجل ذو كبرياء تجرحه أى اهانة . لقد عرف انهم كذبوا عليه .. ذلك هو السبب الحقيقى .

۱۰۳

الفصـــل ١٠٦ ، أو قل الفصـــل الذى يتساءل فيه القـــارىء حائرا : كيف يتفق حزن صوفيا هذا والقصة التى رواها الحوذى؟ ولعله يسأل : أيكون موعد شارع الهارمونى ، وصوفيا ، وكارلوس ماريا ، وحكاية ذلك الحب العارم الآثم ، أيكون ذلك كله أراجيف؟ نعم ، انه أراجيف ، لـكنها أراجيف لفقها القارىء وروبيان ، لا ذلك الحوذى المسكين الذى لم يذكر أى اسم من الاسماء ، ولا قص حكاية واقعة . وذلك ما كان فى وسعك ، أيها القارىء ، أن تدركه لو انك تأنيت فى قراءة الاسطر التى ولدت شكوك روبيان . نعم ياصديقى العزيز .. عليك أن تتساءل بنفسك : هل يمكن أن تكون تلك القصة كلها صادقة ؟ هل كان لرجل ذاهب الى مغامرة من هذا القبيل أن يوقف عربته أمام البيت الذى يلقى فيه عشيقته؟ انه لو فعل ذلك لـكان أشبه بمن يأتى بشاهد الى مكان الجريمة. أن بين السماء والارض من الطرق أكثر مما تتخيل فلسفتك ... أليس هناك طرق تقطع ذلك الطريق ويمكن أن تنتظر فيها العربة ؟

— صحيح.. وقد أعوز الحوذى ها هنا شىء من الخيال. ولكن ما الفائدة التى يجنيها من تلفيق هذه القصة ؟

لقد قاد الحوذى روبيان الى منزل مكث فيه صاحبنا قرابة ساعتين دون أن يصرفه . ثم رآه يخرج من البيت ويركب العربة ثم ينزل منها فورا ليمشى على قدميه طالبا اليه أن يتبعه . فخلص من ذلك انه أمام زبون غريب الاطوار . ولـكنه لم يخطر بباله حتى تلك اللحظة أن يلفق شيئا . فاذا بامرأة معها صبى صغير — وهى المرأة الشابة التى ذكرنا انه رآها فى شـــارع ساودى — تمر ، فيرمقها صاحبنا بتلك النظرة العاطفية الحزينة ، فقدر الحوذى عندئذ ان الرجل ليس متلافا فحسب ، وانما هو كذلك فاسق ، فأخذ يحدثه عن الغزوات التى تخيل اسنادها اليه . ولئن ذكر شارع الهارمونى، فما ذلك الا لقربه من الحى الذى جاءا منه . ولئن قال انه قاد رجلا من شارع الانفاليد فلعل ذلك راجع الى انه قد أركب رجلا

من ذلك المكان فعلا بالامس — وربما كان هذا الرجل هو كارلوس ماريا نفسه — أو لعله راجع الى ان موقف عربته هو فى ذلك المكان . المهم انه التقط ظرفا من شأنه أن يجسد قصته ، تماما كما نتخذ من ذكريات النهار مادة ننسج منها أحلام الليل . وليس جميع الحوذيين بقادرين على أن يخترعوا حكايات ، وحسبه فضلا انه استطاع أن يبنى من قطع واقعية شيئا متماسكا .

ولم يبق الا تلك المصادفة التى جعلت احدى الخياطتين تقيم فى شارع الهارمونى . وهذه مصادفة حقا . لكن الخياطة هى المسئولة عن ذلك . فلم يكن ليعز عليها أن تجد لنفسها مسكنا فى مركز المدينة لو شاءت أن تترك زوجها ومهنتها . لكن هذين الشيئين هما اللذان كانت تحرص عليهما فوق حرصها على أى شىء فى هذا العالم . ولم يكن هذا على كل حال بالسبب الكافى لأن أسقط تلك الاسطر أو أن أختم الكتاب .

١٠٤

أما خواطر صوفيا فليس فيها شىء كثير يحتاج الى تعليل . الا تطابق الواقع مطابقة دقيقة ؟ لاريب ان كارلوس ماريا لم يستجب لآمالها الاولى ، ولا استجاب للآمال التى راودتها بعد ذلك — نعم لقد راودتها بعد ذلك آمال أخرى ، وان لم يكن فيها من الحماسة والثقة ما كان فى الاولى — وقد رأينا ان صوفيا قد ارجعت هذا الامر الى ثلاثة أسباب متتالية ومختلفة ، لأنها لم تستطع أن تجد تعليلا واحدا صادقا . غير ان هنالك سببا رابعا لعله هو السبب الصحيح ، لم يخطر ببال صوفيا ، وهو أن يكون نبت فى قلب كارلوس ماريا حب جديد أحال كل ما سبقه تافها فى نظره .

١٠٥

انقطع روبيان عن الذهاب الى فلامنجو بضعة أشهر . ويجب الاعتراف بأن تنفيذ هذا القرار لم يكن بالامر السهل . لقد كلفه كثيرا من التردد وكثيرا من عذاب الضمير . حتى انه خرج من بيته غير مرة عازما على أن يزور صوفيا وأن يسألها الصفح عنه . عم تصفح ؟ ليس يدرى . انه فى حاجة الى الصفح وكفى ! لكن ذكرى كارلوس ماريا كانت تصده فى كل مرة عن انفاذ ما عزم عليه . وجاءت لحظة أصبح فيها الزمان الذى انقضى على آخر زيارة له هو

الذى يصده . ألا يكون مستغربا حقا أن يجيء ذات يوم الى ربة الدار يطلب العفو من عينيها الجميلتين كما يفعل ولد ضال ؟ لكنه كان يذهب الى مخزن باليا من حين الى حين . وبعد انقضاء خمسة أسابيع على هذه الحال أخذ باليا يعاتبه ويلومه على طول غيابه حتى لقد سأله بعد شهرين هل هو ممتنع عن زيارتهم عامدا . فأجابه روبيان بقوله :

ـ بل أشغالي كثيرة . ان مسائل السياسة هذه لا تدع للناس دقيقة من راحة . لكنى آت اليكم يوم الاحد .

تهيأت صوفيا لاستقباله . وقد وطنت نفسها على أن تنتهز الفرصة لتشرح له أمر الرسالة شرحا مشفوعا بالايمان المغلظة ، حتى يدرك انها لا تخشى من ذكر الحقيقة شيئا . لكن ما عزمت عليه ذهب سدى . لأن روبيان لم يظهر ، وانقضى أحد آخر . وانقضت آحاد أخرى.... وأرسلت اليه صوفيا مع ذلك ذات يوم قسيمة تبرع للآلاجواس ، فاكتتب بخمسة قونتات .

قال له شريكه حين ذهب روبيان الى المخزن يحمل اليه الورقة :

ـ هذا كثير ..

فأجابه روبيان :

ـ لن أكتتب بأقل من ذلك ..

ـ أبيح لنفسى أن ألفت نظرك الى انك تستطيع أن تتبرع بكثير دون أن تتبرع بهذا المبلغ كله . هل تظن انه لايشترك فى هذا التبرع الا ثلاثة أشخاص أو أربعة ؟ ان اناسا كثيرين قد أرسلت اليهم اليوم قسيمة كالقسيمة التى أرسلت اليك ، حتى ان المرء ليرى هذه القسائم فى واجهات الحوانيت بميدان « التجارة » ... فليكن تبرعك بمبلغ أصغر .

ـ كيف أستطيع ذلك ، لقد كتبت الرقم .

ـ من السهل جدا أن تغير الرقم ٥ فتجعله ٣ ، وثلاثة قونتات مبلغ عظيم . صحيح ان هنالك مبالغ أكبر ، لكن أصحابها لايستطيعون أن يتبرعوا بأقل منها بحكم مراكزهم أو ثرواتهم . ان بومفين مثلا قد اكتتب بعشرة قونتات .

فلم يستطع روبيان أن يكبح ضحكة صغيرة ساخرة انطلقت منه ، وهز رأسه ، ولم ينزل عن قونتاته الخمسة . ولو صح لوضع وراء الرقم ٥ رقم ١ ، حتى يصبح المبلغ خمسة عشر قونتا ، فيزيد تبرعه على المبلغ الذى اكتتب به بومفين .

وأردف باليا يقول :

ــ فى طاقتك أن تتبرع بخمسة قونتـات ، بعشرة قونتـات ، بخمس عشر قونتا . لـكن رأس مالك يحتاج الى شىء من حسن التدبير ، وأنت تبعثره حقا ... لاحظ أن انتاجه قد قل منذ الآن

لقد كانت أموال روبيان مودعة عند باليا فى الصندوق الحديدى بالمخزن « أسهم ، ريع أملاك ، الخ » . كان باليا هو الذى يقبض الارباح والايرادات ، ويقبض أجور المنازل الثـلاثة التى حمله على شرائها بثمن بخس منذ زمن ، واتضح أن ريعها كبير . وكان يملك كذلك أنواعا كثيرة من قطع النقد الذهبى ، لأن روبيان كان مولعا بجمعها من أجل التمتع بتأملها . وقد أصبح باليـا أدرى بمجموع الأموال التى تتألف منها هذه الثروة من صاحبها نفسـه ، وكان يرى ما يصيبها من نقص فى غير انقطاع . فألح يقول : ان ثلاثة قونتات كافية . ومما يبرهن على اخلاصـه انه زوج مؤسسـة اللجنة . لـكن روبيـان أصر على أن يتبرع بالقونتات الخمسة ، حتى لقد انتهز الفرصة فسأل صاحبه عشرة قونتات أخرى ، لأنه فى حاجة اليها ، فأخذ باليا يحك رأسه ، وقال بعد بضع لحظات :

ــ معذرة . فيم حاجتك الى عشرة قونتات ؟ ألست توقن انك ستضيعها ، أو انك ستخاطر بها على أقل تقدير ؟

ولـكن روبيان هزأ باعتراض باليا قائلا :

ــ لو كنت أوقن انني سأضيعها لما جئت أطلبها . وفى الامر بعض المخاطرة ما فى ذلك شك ، لـكن من لم يخاطر بشىء لم يفز بشىء . انني فى حاجة اليها الأمر من الامور ، أو قل لثلاثة أمور : اثنـان منها قرضان مضمونان ، وهما لايتجاوزان قونتا ونصفا على كل حال ، والثالث مشروع يكلف ثمانية قونتات ونصفا ... لماذا تهز رأسك وأنت لا تعرف شيئا عن هذا المشروع .

ــ طبعا . لو سـألتنى نصيحتى وحدثتنى عن المشروع وعن الاشخاص ، لاستطعت أن أعرف هل لك أن تخاطر أو لا . ولكننى أخشى أن يؤدى هـذا كله الى ضياع مالك ، هل تتـذكر أسهم تلك الشركة التى كان اسمها « اتحاد رءوس الاموال الشريفة » ؟ لقد قلت لك يومئذ ان هذا الاسم الفخم لا يدل الا على ان الغاية منه هى التغرير بالناس وتشغيل عدد ممن لا يصلحون لشىء . لـكنك لم تشأ أن تصدقنى ، فرأيت بنفسك ما حدث . هبطت قيمة الاسهم الى أدنى درجة ، ولم يبق فى هذا الفصل ايرادات لها .

— ما عليك اذن الا أن تبيع هـذه الاسهم . بعها . يكفينى أن أسترد رأس مالى . أو خذ القونتات العشرة من صندوق محلنا . سآتى الى هنا مرة أخرى ان شئت . أو ارسل المبلغ الى بوتافوجو . واذا كنت تؤثر رهن بعض الاسهم ، فافعل .

فقاطعه باليا يقول فى صرامة :

— لا ... لا ... لن أفعل شيئا من هـذا . لن أعطيك عشرة قونتات . لن أخضع لك فى كل أمر بعد الآن . ان من واجبى أن أقاوم . قروض مضمونة ! ليتنى أعرف أصحاب هذه القروض ؟ الا تلاحظ انهم يقترضون مالك ، ثم لايردونه اليك أبدا ؟ أشخاص لايستحيون أن يتعشوا كل مساء فى بيت دائنهم ، مثل كورديرو الذى رأيته عندك . لا أدرى هل الآخرون مدينون لك بمال أيضا ؛ لكن ليس يدهشنى أن يكونوا كذلك . أرى أن الكيل قد طفح. ومافاتحتك فى الامر على هذا النحو الا لأننى صديقك. ولن تستطيع أن تقول ذات يوم اننى لم أحـذرك فى الوقت الذى ينفع فيه التحذير . من أى مورد تعيش فى المستقبل اذا أنت أتلفت كل ما تملك ؟ ان محلنا يمكن أن يفلس ..

— لا ... لا ...

— بلى . كل انسان يمكن أن يفلس . لقد شهدت بنفسى افلاس سوتو ، صاحب المصارف ، عام ١٨٦٤ .

كان روبيان يجيل فى خاطره آراء شريكه ، لأنه يجدها صائبة أو سديدة ، بل لأنه يراها فى صورتها الخشنة بعض الخشونة ، صادرة عن نية حسنة . فشكر لباليا نصائحه من صميم قلبه ؛ لكنه لم يأخذ بها ، فهو يصر اصرارا مطلقا على أن يعطيه صاحبه عشرة قونتات ، غير انه وعده بأن يكون فى المستقبل أشد حذرا ، وأبعد عن الاستجابة للرجاء والتوسل . ثم أليس يملك من المال ما يفيض ؟ فقال له باليا مصححا :

— ما يفيض ، ربما ... أما ما يوهب فلا ...

ثم أردف يقول :

— لقد فات الوقت اليوم . وسآتيك بالقونتات العشرة غدا . ولكن لماذا لا تجىء الى بيتنا فى فلامنجو فتأخذها بنفسك ؟ ماذا صنعنا بك حتى تقاطعنا هذه المقاطعة ؟ أو ماذا صنعتا هما بك ؟ اذ يظهر ان الخلاف بينك وبينهما ما دمت أراك هنا . ما الذى حدث حتى تعاقبهما هذا العقاب ؟

كذلك تابع باليا كلامه ضاحكا .

فحول روبيان نظرته . كانت كلمات باليا تبدو له مشتملة على شيء من السخر . انه يهزأ به كما لو كان على علم بكل شيء ، فلما عاد ينظر اليه رأى فى وجهه ذلك السؤال نفسه ، فأجابه بقوله :

ــ لم تصنعا بى شيئا . وسأجيء اليكم فى غد مساء .

ــ تعال على العشاء ..

ــ على العشاء لا أستطيع ، لأن عندى أصدقاء . لكننى سأجيء بعد العشاء .

وأضاف يقول وهو يحاول أن يضحك :

ــ لا تعاقبهما ، فانهما لم تصنعا لى شيئا .

قال باليا بينه وبين نفسه عندما خرج شريكه « لاشك ان أحدا قد تسلط عليه ... أحدا يغار من صداقتنا ، فهو ... ومن الجائز أيضا أن تكون صوفيا قد دبرت له مكيدة لتبعده عن البيت »

وظهر روبيان مرة أخرى على الباب . انه لم يكد يصل الى ركن الشارع حتى رجع أدراجه ليقول لصاحبه انه سيجيء يأخذ المال من المخزن لحاجته اليه فى وقت مبكر ، ولكنه سيزورهم فى المساء . انه فى حاجة الى المال قبل الساعة الثانية بعد الظهر .

١٠٦

فى تلك الليلة حلم روبيان بصوفيا وماريا بنديكتا . رآهما فى أرض خلاء لا ترتديان الا تنورة وقد تعرى ظهراهما تماما ، وأخذ زوج صوفيا يجلدهما فى غير رحمة بسوط ذى ستة سيوز ينتهى كل منها بدبوس ، وذلك معاقبة لهما ؛ فالدم ينزف من جسميهما واللحم يتمزق ويسقط على الارض ، وهما تعولان وتستغفران وتتلويان من فرط الالم . فاذا سألتنى الآن عن السبب الذى من أجله كانت صوفيا هى الامبراطورة أوجينا وكانت ماريا بنديكتا احدى وصيفاتها لم أستطع أن أجيبك جوابا دقيقا . وقديما صاحت احدى شخصيات دالفارس دى آزيفيدو : « كذلك هى الاحلام ، نعم ، كذلك هى الاحلام يا بانسيروزو »'. على اننى ، شخصيا ، أفضل رأى الشيخ بولونيوس الذى قال بعد أن سمع خطابا مطولا هاذيا طويلا من هاملت : «انه منسجم حتى فى هذيانه» فعندى ان فى هذا الخلط بين صوفيا والامبراطورة أوجينا شيئا

من الاتساق ، وكذلك فيما نحن قاصوه عليك الآن مما سيبدو اشد غرابة أيضا .

فما أن رأى روبيان هذا المشهد حتى أوقف العقاب مستاء ، وأمر بشنق باليا وانهاض الضحيتين . وقد قبلت احداهما ، وهى صوفيا ، أن تركب العربة المكشوفة التى كانت تنتظر روبيان ، ومضت العربة بهما كليهما خببا ، أما هي فكانت نضرة مغناجا كأنها لم تصب بشيء ، وأما هو فكانت تلوح فى وجهه معانى الانتصار والسيطرة . والعربة كان يجرها فى أول الامر حصانان ، لكن الحصانين أصبحا ثمانية ، أصبحا أربعة أزواج جميلة متوافقة . والشوارع والنوافذ سوداء من كثرة ازدحام الناس ، والازهار تهطل عليهما كالمطر المدرار ، والاهازيج تنطلق من كل حدب وصوب ... ويشعر روبيان انه الامبراطور ناپوليون الثالث . والكلب فى العربة أيضا ، الى جانب صوفيا .

ولم يقف هذا الحلم عند حد ، ولم يحدث ما يكدره . ويفتح روبيان عينيه على حين فجأة . أهو برغوث قرصه ؟ شيء من هذا القبيل على كل حال . « كذلك هى الاحلام يا بانسيروزو » . لكننى اعود فأقول اننى أوثر ما قاله بولونيوس : « انه منسجم حتى فى هذيانه » .

١٠٧

أعطى روبيان القرضين ، وحقق المشروع . فأما المشروع فكان مساهمة فى شركة يقال لها « شركة تحسين الاقلاع والرسو فى ميناء ريو دى جانيرو » ، وأما القرضان فكان أحدهما سدادا لدين متأخر على جريدة « الخفير » ، دين مستعجل تتوقف الجريدة عن الصدور ان لم يدفع ...

قال كاماشو حين ذهب اليه روبيان بالمال :

ـ عظيم . وشكرا جزيلا . تصور ان أمرا تافها كهذا كان يمكن أن يختنق بسببه صوت جريدتنا الناطقة بلساننا . هذه أشواك المهنة ويا للأسف ! ان الشعب لم يثقف ، فهو لايعرف أولئك الذين يعملون من أجله ، ولا يدعمهم ، أولئك الذين يخوضون المعركة كل يوم دفاعا عن حرياته الدستورية . تخيل اننا لو لم نملك هذا المبلغ لفقدنا كل شيء ، ولعاد كل منا الى شئونه الصغيرة ، ولحرمت المبادىء ممن يدافع عنها دفاعا صادقا .

فقال روبيان محتجا :

ــ لن يحدث هذا أبدا !

ــ انت على حق . وسنضـــاعف الجهود . وستكون جريدة « الخفير » مثل آنتي التي تتحدث عنها الاسطورة ما ان تلامس الارض مرة حتى تنهض أشد بأسا وأقوى شكيمة مما كانت !

قال كاماشو هذا ثم نظر فى رزمة الاوراق النقدية . هى قونت ومائتا ألف كروزيرو ، أليس كذلك ؟ سأل هذا السؤال ثم وضع الاوراق فى جيب سترته . واستمر يقول انهما يستطيعان الآن أن يطمئنا ، فقد هبت الريح تدفع الجريدة الى الامام . ان كاماشو يفكر فى بعض الاصلاحات المادية . حتى لقد مضى الى أبعد من ذلك فقال :

ــ علينا أن نهيىء برنامجا ، وأن نستثير همم رفاقنا فى العقيدة ، وأن نهاجمهم اذا اقتضى الامر .

ــ كيف ؟

ــ كيف ؟ بأن نهاجمهم .. لا أقصد أن نهاجمهم ، وانما أقصد أن نقومهم ! واضـــح ان جريدة الحزب قد أسرفت فى الرخاوة بعض الاسراف . واذا كنت أسميها جريدة الحزب ، فلأن جريدتنا هى جريدة أفكار الحزب . هل تدرك الفرق ؟

ــ نعم نعم !

ــ أقول أن الجريدة توشك أن تصبح رخوة بعض الرخاوة !

قال ذلك وهو يقبض بأصابعه على سيجار قبـل أن يشعله ، وتابع كلامه :

ــ فيجب اذن أن نلح على المبادىء ، ولـكن بصراحة ونبـل ، مقتصرين على قول الحقيقـة . ثق ان الزعماء فى حاجة الى أن يسمعوا الحقيقة من أفواه أصدقائهم ، من أفواه أنصارهم . أنا لم أكن فى يوم من الايام عدو المصـالحة بين الاحزاب ، حتى لقـد ناضلت فى سبيل تحقيق هذا الهدف . ولـكن المصالحة يجب الا تعنى الوقوع فى حبائل الخديعة . اليك هـذا المثال من منطقتى : ان جماعة بنيارو لايفوزون بتأييد الحكومة الا من أجل طزدى . ورفاقنا فى المبدأ ، بدلا من أن يحاربوا هؤلاء النـاس لأن الحكومة تدعمهم ، هل تعرف ماذا يعملون ؟ انهم يدعمون جماعة بنيارو .

ــ لابد ان لجماعة بنيارو هؤلاء شيئا من النفوذ .

قال كاماشو وهو يغلق اغلاقا عنيفا علبــة الــكبريت التى كان بسبيل فتحها :

ـ ليس لهم أى نفوذ . واحد منهم مجرم مشهور . وآخر كان صبى حلاف . ثم انتسب ، والحق يقال ، الى كلية رسيف ... اعتقد ان ذلك كان فى عام ١٨٥٥ ، عقب موت عرابه الذى ترك له بعض الاموال . ان حياته لفضيحة من الفضائح . انه ماكاد يحصل على الاجازة حتى دخل المجلس الاقليمى ! رجل أبله ! لو صدق أننى بابا لصدق انه مجاز من الجامعة !

وتفاهما على التغييرات الســـــياسية التى يجب ادخالها على الجريدة . وذكر كاماشو صاحبه روبيان بأن ترشيحه للانتخابات لم يخفق الا بسبب معارضة زعماء الحزب .. بسبب معارضة بعض زعماء الحزب « هكذا استدرك مصححا » . فأيده روبيان . وذلك ما سبق أن عرفه من صديقه فى حينه . وقد أضرمت هذه الذكرى ما كان يشعر به من غيظ لهذا الاخفاق . لقد كان يمكن بل كان يجب أن يدخل المجلس النيــابى . وهؤلاء الافراد هم الذين لم يشاءوا ذلك . قال روبيان بينه وبين نفسه : ولــكن سيرون فى يوم من الايام نتيجة ماجنوا من اثم وسيندمون على ماصنعوا . لسوف يذهلون ولسوف يجنون من الغيرة يوم يرونه نائبا ، عضوا فى مجلس الشيوخ ، وزيرا . كان خيال صاحبنا متى أوراه صديقه ، يقذف على الفور نارا ولهبا ، وينبغى ألا نرى فى ذلك ، على كل حال ، بغضا ولا حسدا ، يجب ألا نرى فيه الا طموحا بريئا ، واطمئنـانا هادئا الى الامجاد الباهرة التى تنتظره . وقد أسعد كاماشو أن يراه متفقا معه فى الرأى . قال :

ـ الناس جميعا يرون هذا الرأى . وأظن ان أصدقاءنا لن يؤذيهم بعض التهديد .

وفى ذلك المساء نفسه تلا على روبيان المقالة التى يناشد فيهــا الحزب ألا يؤخذ بالمناورات الغدارة التى تقوم بها الحكومة اذ تدعم فى بعض الاقاليم اناسا فاسدين لا قيمة لهم . وهــذه هى الخاتمة التى يختم بها كاماشو مقالته .

« ان الاحزاب يجب أن تكون موحدة الصفوف خاضعة للنظام . وهناك من يزعم ـ « وما أعجبه من زعم » ! (١) ـ ان هذا النظام وهذا الاتحاد يجب الا يبلغا حد ازدراء المنافع التى تسقط من بين

(١) باللاتينية فى الاصل .

أيدى خصومنا ، « ولشد ما يضحك ذلك » (١) ! من ذا الذى يستطيع أن يكفر هذا الكفر دون أن يرتعش من ذلك جسمه كله. وهب الامر كذلك ، هب المعارضة استطاعت مرة أن تغمض عينيها عن فساد الحكومة فيما يتصل بخرق القوانين واستغلال السلطة وعن كل هذا التفسخ وكل هذه المغالطات . ان مثل هذه الحالات التى يجب من جهة أخرى أن تكون حالات استثنائية ، لايمكن أن تكون مقبولة الا حين يكون المراد تشجيع العناصر الطيبة لا السيئة. ان فى جميع الاحزاب خونة ماكرين . ومن مصلحة خصومنا أن يرونا نضعف لقاء تأييد يوهب للفئة الفاسدة من الحزب . هذه هى الحقيقة . ونكرانها يؤدى بنا الى حرب داخلية ، أى الى تمزق فى روح البلاد نفسها . ولكن لا .. ان الافكار السديدة لا تموت. انها راية العدالة . لسوف يطرد الباعة من الهيكل ، ولا يبقى الا المؤمنون والاطهار ، أولئك الذين يغلبون المبادىء على المصالح التافهة ، المحلية ، الزائلة . ان جميع الذين لا يكونون على هذه الشاكلة سيجدوننا حربا عوانا عليهم . « ذلك قدر محتوم » (٢) .

١٠٨

حبذ روبيان المقالة فى حرارة . وقال انها رائعة ، ولكن لعلها ليست عنيفة عنفا كافيا ، فكلمة « الباعة » مثلا جيدة ، ولكن اذا قيل « الباعة الاوباش » كان ذلك أجود .

قال كاماشو :

ـ « الباعة الاوباش » ؟ هناك عيب واحد فى قولنا « الباعة الاوباش » هو تكرر حرف الباء فى الكلمتين . باعة أوبا .. باعة أوباش . الا تجد ان هذا لا يقع فى الاذن وقعا جميلا ؟

ـ ولكنك أتيت قبل ذلك بكلمتين يتردد فيهما حرف واحد :

ـ بل « الويل للمغلوب » هذه جملة لاتينية ! لعلنا نستطيع أن نضع جملة أخرى . نستطيع أن نقول مثلا « التجار الاوباش » .

ـ « التجار الاوباش » ... لابأس ...

ـ صحيح ، لكن كلمة « تجار » ليس فيها من القوة ما فى كلمة « باعة » .

---

(١) باللاتينية فى الأصل .
(٢) باللاتينية فى الاصل .

ـ لماذا لا تدع اذن كلمة الباعة فى محلها . ان عبارة « الباعة الاوباش » عبارة قوية . ولن يلاحظ أحد حكاية تكرر الباء هذه فى الكلمتين . أنا مثلا لا يلفت نظرى هذا النوع من الامور أبدا . اننى أحب ما هو عنيف « الباعة الاوباش » !

كرر كاماشو يقول بصوت خافت :

ـ الباعة الاوباش ، الباعة الاوباش . ان العبارة أجود . الباعة الاوباش . موافق .

وقد قال هذه الكلمة الاخيرة وهو يصحح النص ، ثم أعاد القراءة . « لسوف يطرد الباعة الاوباش من الهيكل ، ولا يبقى الا المؤمنون والاطهار ، أولئك الذين يغلبون المبادىء على المصالح التافهة المحلية الزائلة. انجميع الذين لايكونونعلىهذه الشاكلة سيجدوننا حربا عوانا عليهم . ذلك قدر محتوم . »

قال روبيان وهو يشعر بعض الشعور بأنه كاتب المقال :

ـ عظيم ...

ـ أأعجبك ؟ هناك أناس يرون أن أسلوبى قد احتفظ بالنضارة التى كانت له منذ أيام الدراسة . قد يكون هذا صحيحا ، لست أدرى ، وشعورى على كل حال هو اننى لم أتغير . يجب أن أكون قاسيا ، يجب أن تكون قساة .

الآن أريد أن أكون قد اتبعت فى هذا الكتاب الطريقة التى اتبعها كثير من المؤلفين ـ وهم جميعا من الاقدمين ـ والتى قوامها شرح مضمون فصل من الفصول بعنوانه : « كيف وقع الامر الفلانى على هذا النحو أو على ذاك » . فتلك هى الطريقة التى اتبعها برناردين ريبيرو وكثير غيره من صفوة الكتاب . وحسبى أن أذكر من بين الكتب الاجنبية ، دون أن أرجع الى سرفانتس أو حتى الى رابليه ، مؤلفات فيلدنج وسمولت التى يمكن أن يقرأ كثير من فصولها بالنظر فى عناوينها . تناول مثلا كتاب توم جونس ، الجزء الرابع ، الفصل الاول ، تجد هذا العنوان : « خمس صفحات من الورق » . الامر واضح ، بسيط ، لا يخدع أحدا . هى خمس صفحات لا أكثر من ذلك ولا أقل . فالذين لا يحبون أن يقرأوها لايقرأونها ، والذين يحبون ذلك يقرأونها ، ومن أجل هؤلاء انما يختم المؤلف هذا الفصل فى لطف قائلا : « الآن ننتقل الى الفصل التالى من غير تمهيد » .

١٠٩

فلو كانت هذه الطريقة هى المتبعة فى كتابى هـذا ايها القـارىء العزيز لـكان العنوان التالى يشرح كل شىء : « كيف ان روبيان وقد سره التصحيح الذى أدخله على المقالة أخذ ينشىء ويجتر كثيرا من العبارات حتى انتهى من ذلك الى انه كتب جميع المؤلفات التى سبق له أن قرأها » .

لعل بعض القراء لايكتفون بهذا الـكلام ، ويريدون تحليلا كاملا لهذا التطور الذى تم فى ذهن بطلنا . ولـكن هلا قدروا ان الصفحات الخمس التى كتبها فيلدنج لا تكفى لهـذا الغرض ؟ ان ثمة هوة تفصل بين الجملة الاولى التى شارك روبيان فى كتابتها وبين انتحاله لنفسه جميع المؤلفات التى سبق أن قرأها . ومن المحقق ان أصعب شىء لقيه هو الوثوب من تلك الجملة الى الكتاب الاول ، ثم سارت الامور بعد ذلك سيرا سهلا . . . ولـكن التحليل سيظل طويلا مسرفا فى الطول وسيظل مملا كثير الاملال ، حتى على هـذه الصورة . وخير لنا أن ندع هذا كله والا نتذكر الا شيئا واحدا : هو ان روبيان عد نفسه خلال بضع دقائق كاتب عدد كبير من المؤلفات التى كتبها غيره .

١١٠

ولـكننى أتساءل فى مقابل ذلك هل الفصل التالى يمكن أن يلخص كله فى عنوانه وحده .

١١١

حافظ روبيان على قراره فى ألا يرى صوفيا بعد ذلك . انه على الاقل لم يذهب الى فلامنجو . لـكنه رآها ذات يوم تمر فى عربة مع سيدة من سيدات لجنة الآلاجواس ، فحنت رأسها وهى تبتسم ابتسامة حلوة وتلوح بيدها محيية ، فرد التحية برفع قبعتـه ، وشعر بشىء من الانفعال لـكنه لم يتسمر فى مكانه محدقا اليها كما كان يتفق له ذلك فى السابق ، وانما اكتفى بالقاء نظرة على العربة وهى تتابع سيرها . وتابع سـيره هو أيضـا ، وحاول أن يفسر لنفسه ، وهو يفكر فى أمر الرسالة ، هذه التحية الودية التى حيته بها ملوحة بيدها ، هذه التحية الودية الخالية من أى تحرج ومن

أي حقد ، كأن لم يكن بينهما شيء . ترى هل مرد هذه البشاشة التي لم يكن يتوقعها من صوفيا ، الى تبعاتها كعضو من أعضاء اللجنة ، والى وجود رفيقتها معها ؟ ولكن روبيان لم يخطر بباله هذا الفرض . وانما تساءل : « أتكون مجردة من الكرامة الى هذا الحد ؟ ألا تتذكر تلك الرسالة التي وقعت عليها والتي كانت موجهة الى ذلك المتحذلق الذى يقطن شارع الانفاليد ؟ الا ان هذا لكثير ! ألا انه لاسراف ! لكأنها تتحداه ، لكأنها تريد أن تقول له انها غير عابئة ، وأنها ستكتب ما تشاء من رسائل . حسنا . لتكتب ما تشاء من رسائل . ولكن فلتكلف نفسها نفقة ارسالها بالبريد مضمونة ... وهى نفقة ليست بالباهظة كثيرا ... »

ورأى نفسه لاذع النكتة فأخذ يضحك . وكان من شأن هذا ، بالاضافة الى تحية كبيرة حياه بها رجل أثناء مروره ، أن محا من نفسه كل المرارة التي ولدتها فيه هذه الذكريات . فنسى الامر كله ، وأصبح لا يفكر الا فى القضية التى كان ذاهبا من أجلها الى « مصرف البرازيل » .

فلما وصل الى المصرف التقى بشريكه الذى كان خارجا منه . قال روبيان :

ـ أظن اننى لمحت دونا صوفيا منذ لحظة ..

ـ أين ؟

ـ فى شارع أوريف . كانت فى عربة مع سيدة أخرى لا أعرفها . وأنت كيف حالك ؟

قال باليا دون أن يجيب عن سؤال صاحبه :

ـ رأيتها ولم تتذكر شيئا ؟ ألم تتذكر ان عيد ميلادها يقع بعد غد فى يوم الاربعاء ؟ لست أسألك أن تجىء على العشاء ، فما بى من جرأة على ذلك ، ولو سألتك أن تجىء لكنت أدعوك الى ضجر . غير ان احتساء قدح من الشاى ينتهى فى لحظة . فهل لك أن تجود علي بهذه السعادة ؟

فلم يجب روبيان على الفور . لكنه قال أخيرا :

ـ سأجىء على العشاء . يوم الاربعاء ؟ ثق اننى سأجىء . يجب أن أعترف بأننى كنت ناسيا . ولكن هناك أشياء كثيرة تشغلنى . هل لك أن تنتظرنى فى المخزن ؟ سأجىء بعد نصف ساعة .

ووصل قبل انقضاء نصف الساعة ، طالبا من باليا أن ينقده قونتين . وقد أصبح باليا لا يعارض فى تبذيرات شريكه . ولئن

كان يقول له كلمة من الـكلمات من حين الى حين بهدوء ، لقد نقده المـال هذه المرة فى غير اكتراث . واشترى روبيان قبل أن يعود الى بيته قطعة من الماس ، أرسلها الى صوفيا فى يوم الاربعاء مع بطاقة ضمنها تهنئة ببضع كلمات ..

وكانت صوفيا فى مخدعها تنتعل حذاءيها حين حملت اليها الخادمة هديته . انها ثالث هدية تتلقاها فى هذا اليوم . وانتظرت الخادمة أن تفض سيدتها الصرة لترى ما فيهـا هى أيضا . فلما فضت صوفيا ألصرة ورأت الجوهرة الرائعة لبثت مبهورة . فص جميل جدا من الماس فى وسط عقد . لقد كانت تتوقع أن تكون الهدية جميلة ، لـكنها منذ وقوع الحوادث الاخيرة أصبح يصعب عليهـا أن تتصور أن يكون كريما هذا الـكرم كله ، وأخذ قلبها يخفق .

ــ ألا يزال حاملها هناك ؟

ــ بل مضى . ما أروعها ياسيدتى !

وأغلقت صوفيا العلبة ، وأكملت انتعال حذاءيها وظلت جالسة وحدها زمنا تفكر فى الماضى . ثم نهضت وهى تقول لنفسها :

ــ لاشك فى ان هذا الرجل يعبدنى عبادة !

وقررت أن ترتدى ملابسها ، لـكنها خطرت أمام المرآة فتوقفت بضع لحظات أخرى . لم تكن تحب شـيئا كما تحب أن تتـأمل نفسها فى المرآة ، وأن تقف معجبة تنظر الى تقاطيع جسمها الرائعة ، الى ذراعيها العاريتين ، وحتى الى عينيها اللتين تسطعان سطوعا قويا من اعجابها بنفسها . انها تحتفل فى هذه الايام ببلوغها السنة التاسعة والعشرين من عمرها ، فترى أنها لا تقل جمالا عن جمالها فى الخامسة والعشرين . ولم تكن فى ذلك على خطأ . ووضعت مسندها وأحكمت ربطه ، فأتاحت لصدرها أن يبرز بروزا أخاذا . وخطر لها عندئذ أن تجرب العقد لترى هل يناسبها ، فتناولته ، فطوقت به جيدها . رائع ! وأدارت رأسها من اليمين الى الشمال ، ثم من الشمال الى اليمين ، واقتربت ثم ابتعدت ، وتصنعت بعض الملامح ونشرت فى المخدع مزيدا من النور .. انه لايزال رائعـا ! وتأكدت ان قفل العقد سليم ، فاحتفظت بالعقد على جيـدها ، وكررت تقول :

ــ هذا الرجل يعبدنى عبادة !

قال روبيـان لنفسه وهو ذاهب الى العشاء فى فلامنجو : قد

يكون هناك . ولكنني أستبعد أن يكون قد قدم هدية أجمل من هديتي !

وكان كارلوس ماريا هنالك حقا ، يتحدث مع احدى سيدات لجنة الآلاجواس ، ومع ماريا بنديكتا . ولم يكن عدد المدعوين كبيرا ، وكانوا منتقين انتقاء . فلا الضابط سيكويرا ، ولا ابنته ، ولا أحد من الاشخاص الذين عرفهم روبيان أثناء العشاء بسانتا تيريزا ، كانوا هناك ، بل بضع سيدات من لجنة الآلاجواس ، ومدير أحد المصارف « هو المدير الذى زار الوزير » وزوجته وبناته ، وشخصية أخرى من شخصيات المصارف ، وتاجر انجليزى ، ونائب ، وقاض من قضاة محكمة التمييز ، وأحد مستشارى مجلس الدولة ، وعدد من رجال الاعمال . . ويكاد يقتصر الحفل على هؤلاء .

ورغم ان صوفيا كانت ذلك المساء فى قمة مجدها ، فقد نسيت سائر الحاضرين حين لمحت روبيان يدخل الصالون ويتقدم نحوها . لقد رأت فى وجهه غير ما عهدت أن ترى فيه من معان ، ورأت مشيته مشية رجل واثق بنفسه ، ورأت رأسه مرفوعا : رأته على نقيض ما كان عليه من خراقة وخجل ، سواء أكان مرد ذلك الى انه تبدل فعلا ، أم الى انها لم تره منذ زمن . وصافحته صوفيا بقوة وهى تدمدم شاكرة . حتى اذا قاموا الى المائدة ، دعته الى الجلوس قربها ، وأجلست على الطرف الآخر رئيسة اللجنة . وكان روبيان ينظر الى كل شيء نظرة من يشعر انه أعلى من غيره : لم تبهره قيمة المدعوين ، ولا فخامة الجو الذى يسيطر على القاعة ولا الترف المبسوط على المائدة : لا شيء من ذلك كله يبهره . وحتى ما كانت تبذله له صوفيا من اهتمام كبير وانتباه خاص لم يسكره رغم انه سره . ولم يزد ذلك صوفيا الا اهتماما به ورعاية له ، وكانت عيناها تغمرانه بلطف خاص . وبحث روبيان بنظره عن كارلوس ماريا فرأى انه لايزال هناك ، بين السيدتين اللتين كان يتحدث اليهما منذ برهة فى الصالون ، وهما ماريا بنديكتا وعضو لجنة الآلاجواس . ولاحظ صاحبنا ان كارلوس ماريا كان لا يعنى الا بهما ، ولا يتبادل وصوفيا نظرة .

قال بينه وبين نفسه : « لعلهما يخفيان لعبتهما ! »

وخيل اليه حين نهض جميع الناس عن المائدة انهما تراشقا نظرة ، لكنه لم يثق بهذا كل الثقة ، لما حدث عندئذ من جلبة . ذلك كل ما استطاع أن يلاحظه . وأسرعت صوفيا تتناول ذراعه ،

وقالت له وهى تسير معه :

ــ انتظرتك طوال الوقت منذ ذلك اليوم المشهود ، ولكنك لم تعد بعده أبدا . وكان من حقى مع ذلك أن أصر على رؤيتك لأستطيع أن أشرح لك موقفى . سنتحدث فى هذا الامر بعد ذلك .

ولم يلبث روبيان أن مضى الى غرفة التدخين. فأصغى هنالك الى الحديث دون أن يقول كلمة واحدة ، وقد بدا عليه الذهول. حتى اذا انصرف جميع الضيوف لبث وحده جالسا على أريكة من الجلد ، وقد خلا رأسه من أى فكرة . كان خياله وحده هو الذى يعمل ، بل كان هذا الخيال نفسه يعمل فى شىء من التثاقل والكسل .. ربما كان ذلك لأنه أفرط فى الطعام ! انه يسمع أصوات ضيوف السهرة يصلون ، والبيت يمتلىء شيئا بعد شىء ، وضجة الحديث تقوى وتشتد ، وهو لا يخرج من أحلامه. حتى صوت البيانو الذى قطع جميع الاصوات الاخرى ، لم يرده الى الارض . الا ان حفحفة حرير فى الفرفة أنهضته واثبا على حين فجأة ، فارتد الى الواقع ارتدادا كاملا . قالت صوفيا .

ــ ها ... انت هنا ... انك تعتصم فى هذا المكان تجنبا للضجر . ألا تريد حتى سماع الموسيقى الجميلة ؟ ظننت انك انصرفت ، وكنت بسبيل البحث عنك .

ولما كانت لا تريد أن تضيع دقيقة من الوقت ، راحت تقص عليه دون أى تمهيد ما تعرفه من أمر الرسالة التى عثر عليها فى حديقة بيته ، وذكرته بأنها طلبت اليه أن يفض الرسالة بنفسه وأن يقرأها ، من قبل أن تفضها هى . أى برهان كان يمكنها ان تقدمه دليلا على براءتها أقوى من هذا البرهان ؟ وكانت تتكلم بسرعة ، وقد ظهر فى وجهها الجد والوقار كما ظهر فيه التأثر والانفعال . حتى لقد اخضلت عيناها فى لحظة من اللحظات ، فجففتهما ، ولكنهما ظلتا حمراوين . فأمسك روبيان بيدها ورأى دمعة أخيرة ــ دمعة صغيرة ــ تنحدر على خدها وتصل الى ركن فمها . فحلف لها عندئذ انه يصدق كل ما قالته له ، نعم حلف لها ! ولكن فيم تبكى ؟ وجففت صوفيا عينيها مرة أخرى ، ومدت اليه يدها وهى تفيض شكرا ، وقالت :

ــ الى اللقاء القريب ..

كانت الموسيقى لا تزال تصدح . فقال لها روبيان ان أحدا لن يأتى فيزعجهما ما داموا يستمعون الى الموسيقى ، فأجابته بقولها :

ـ ولكنني لا أستطيع أن أغيب مدة طويلة . وهناك أوامر يجب أن أصدرها . الى اللقاء القريب .

فقال روبيان ملحا :

ـ أرجوك ، اسمعي . .

فوقفت صوفيا ، فقال لها :

ـ اسمعي ، دعيني أقل لك ، ربما لآخر مرة . .

ـ لآخر مرة ؟

ـ من يدري ؟ هذا جائز جدا . ليس يعنيني كثيرا هذا الرجل ومايفعله ، ولكن قد التقي به هنا ، ولست أحب أنأتشاجر معه .

ـ لسوف نلتقي به هنا في جميع الايام . ألم يبلغك كرستيانو النبأ الى الآن ؟ انه سيتزوج ماريا بنديكتا .

فتراجع روبيان خطوة الى الوراء .

وأردفت صوفيا تقول :

ـ نعم سيتزوجان . نبأ مفاجيء ولا شك ، لأنه لم يكن في الحسبان ، فاما انهما كانا يحسنان اخفاء ما عقدا عليه النية ، واما ان حبهما نزل على قلبيهما مفاجئا كنزول الصاعقة وكيف كان الامر فهما على وشك الزواج . لقد روت لي ماريا بنديكتا قصة طويلة بهذا الصدد ، وأكد لي شخص آخر صدق هذه الرواية . والامر واحد على كل حال ، هو انهما قد أعجب كل منهما بالآخر ، وصارح كل منهما الآخر . وسيتزوجان قريبا . ولقد قال له كرستيانو حين حدثه في الامر ، ان الموافقة منوطة بي أنا . . كما لو كنت أمها ! وقد وافقت فورا ، وكل ما أتمناه لهما هو أن يسعدا . والمرء يحس انه فتى طيب ، وهي فتاة فذة ما في ذلك ريب ، فكيف لا يسعدان ؟ انه لزواج موفق . لقد ورث هو عن أبويه ثروة كبيرة ، وماريا بنديكتا لا تملك شيئا البتة ، لكنني هذبتها وثقفتها كما تعلم . لاشك انك تذكر انها حين جاءت الينا كانت أشبه بحيوان متوحش : كانت لا تعرف شيئا على الاطلاق . وأنا التي هذبتها وثقفتها . ومهما يكن من أمر ، فهذا ما يحدث اليوم ، ولا شك في ان خالتي تستحقه ، ولا شك في ان ماريا تستحقه أيضا . ذلك هو الموضوع ، سيتزوجان قريبا جدا . ألم تلاحظ اليوم انهما ظلا معا لم يفترقا لحظة واحدة ؟ اننا لم نعلن الامر رسميا حتى الآن . لكن أصدقاء الاسرة قد يكونون على علم به .

الحديث طويل من شخص كان مستعجلا ذلك الاستعجال كله .

ولم تلاحظ صوفيا ذلك الا متأخرة بعض التأخر . قالت لروبيان وهى توصيه أن يذهب الى الصالون : الى اللقاء بعد لحظة .

كان البيـــانو قد صمت وكانت تسمع ضجة خفيفة من تصفيق وحديث .

١١٢

سيتزوجان ؟ اذن فكيف أمكن أن ..؟ ماريا بنديكتا ... ان ماريا بنديكتا هى التى تتزوج كارلوس ماريا ... أدرك روبيان كل شيء الآن . اذن لم يكن الامر كله الا خطأ والتباسا . ما ظن انه حدث مع شخص قد حدث مع شخص آخر . هكذا يمكن أن يصل المرء الى الغيبة بل الى الجريمة ..

تلك هى الافكار التى دارت فى رأس روبيـــان أثنـــاء اتجاهه الى قاعة الطعام حيث كان حشيم البيت يمدون مائدة الليل . وتابع يقول وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا :

ــ هه ... لقد كان باليا يريد أن يزوجنى ماريا بنديكتا ، دون أن يدور بخلده ان القدر يهيىء لها خطيبا آخر . هو فتى جميل . هو خير منها على كل حال . ان ماريا بنديكتا لاوجود لها أو لايكاد يكون لها وجود اذا قيست بصوفيا . ولــكن الحب هذا شأنه . سيتزوجان ، سيتزوجان قريبا ... أتراه يكون زواجا فخما ؟ ربما ! يخيل الى ان باليا يعيش الآن فى بحبوحة أوسع ... والقى روبيان فى الوقت نفسه نظرة على الاثاث ، وأطبـــاق القيشانى ، وأوانى البللور ، والستائر .. آ .. نعم .. سيكون زواجا فخما . ثم ان الخطيب غنى ...

وفكر روبيان بعد ذلك فى المركبة التى سيحتاج اليها فى هـــذه المناسبة ، وفى الخيول التى يجب أن تجرها . وتذكر انه رأى منذ بضعة أيام فى الانجنيو فليو حصـــانين رائعين يبهران الابصـــار . فقرر أن يوصى على حصانين آخرين شبيهين بهما تماما ، مهما يكن الثمن . ويجب عليه كذلك أن يقدم هدية الى الخطيبة . وبينما كان يفكر فيها رآها تدخل قاعة الطعام . قالت له :

ــ أين ابنة خالتى صوفيا ؟

ــ لا أدرى . كانت هنا منذ قليل .

ولما رآها تهم أن تعود أدراجها رجاها أن تبقى دقيقة وألا تغضب فوقفت ماريا بنديكتا تنتظر ، فلم يلبث أن قدم لها تهانيه دون تردد

انه يعلم انها على وشـك الزواج . فاحمرت ماريا بنـديكتا حتى اصبحت بلون القرمز ، ودمدمت ترجوه ألا يذكر الأحد عن هـذا الامر شيئا . ولم يكن ثمة أحد من الخدم ، فتناول روبيان يدها وشد عليها بكلتا يديه . قال :

ـ أنا من أهل البيت . وانك لتستحقين أن تسعدى ، وأرجو لك أن تسعدى .

فوجئت ماريا بنديكتا قليلا ، وسحبت يدها . لـكنها أخـذت تبتسم فى الوقت نفسه حتى لا تؤذى شـعوره . ولم يكن هو فى حاجة الى هذا ، فقد كان مفتونا ومسحورا . نحن نعلم ان الفتاة لم تكن بالجميلة . غير انها كانت فى ذلك المساء فاتنة . قد بدلتها السعادة . لـكأن الطبيعة قد صبت فيها فجأة كل ما عندها من فتنة . وتابع روبيان يقول مبتسما هو أيضا :

ـ ابنة خالتك هى التى أبلغتنى النبأ ، وسألتنى أن أكتم الامر. لن أسره الى أحد قبل أن يصبح رسميا . وأى ضير فى أن أتحدث به اليك . انك لفتاة طيبة ، وانك لتستحقين كل خير. لماذا تغضين طرفك . ليس الزواج عيبا . ارفعى رأسك وتبسمى .

فرفعت ماريا بنديكتا اليه عينين تشع منهما السعادة .

قال روبيان محبذا :

ـ نعم هكذا . أى ضير فى أن يسر المرء بأموره الى صـديق . اسمحى لى أن أقول لك الحقيقة كلها . أعتقـــد انك ستكونين سعيدة ، ولـكننى أعتقد انه سيكون أسعد أيضا . لا ؟ سترين ان هذه هى الحقيقة . سيقول لك عواطفه بنفسه ، فاذا صـدقك القول ستضطرين الى الاعتراف بأن نبوءاتى كانت صحيحة. أعرف انه ليس هناك موازين توزن بها العواطف ، لـكن الذى أريد أن أقوله هو انك مخلوقة تبلغين من النبل والجمال أن... هيا اذهبى، اذهبى حالا ، والا تابعت أقول الحقيقة كلها حتى تحمرى احمرارا شديدا ..

وكانت ماريا بنديكتا تحمر فعلا من شدة فرحها بكلمات روبيان. ان مشروعها قد فاز بالموافقــة اللازمة من أهل البيت ، ولـكن لا شيء عدا ذلك . وحتى كارلوس ماريا لم يظهر لها كثيرا من العاطفــة : لقد كان يحبها فى شيء من التحفظ . كان يحدثها عن السعادة الزوجية حديثه عن حق يناله من القدر ، حق هو من طبيعة الاشياء ... وينبغى أن نذكر أيضا انه لم يكن فى حاجة الى

أن يعاملها غير هذه المعاملة من أجل أن تعبده أكثر من أى شيء في هذا العالم . وطلب اليها روبيان مرة أخرى أن تذهب ، وظل ينظر اليها كأنها ابنته . ورآها تبتعد وهو على هذه الحال ، لتجتاز الغرفة وتختفى من أحد أبوابها . انها خفيفة الحركة فرحة ، تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه منذ برهة . ولم يتمالك روبيان أن هتف :

ــ مخلوقة طيبة جميلة !

١١٣

ان قصة زواج ماريا بنديكتا قصة قصيرة . وهى تستحق أن تروى رغم ان صوفيا تجدها مبتذلة . يجب أن نسلم قبل كل شيء بأنه ما كان ليتم زواج لولا وباء الالاجواس . وهذا ما يمكن أن نستخلص منه أن الكوارث مفيدة ، بل ضرورية . ولا تعوزنا الامثلة على ذلك . حسبى اليوم أن أروى هذه القصة القصيرة التى سمعتها فى طفولتى والتى سأنقلها فى سطرين : فى يوم من الايام كان كوخ يحترق على حافة طريق . وعلى مقربة منه قعدت صاحبة الكوخ على الارض « وهى عجوز فقيرة » تندب حظها وتبكى بدموع ساخنة . وفى أثناء ذلك مر رجل سكران ، فرأى الحريق ورأى المرأة ، فسألها : هل البيت الذى يحترق بيتها . فقالت له :

ــ هو بيتى ياسيدى ، وهو كل ما أملك فى هذه الحياة الدنيا .

ــ فهل تسمحين لى اذن أن أشعل منه سيجارى ..

لاشك فى ان الكاهن الذى روى لى هذه القصة قد رتب النص الاصلى ، اذ ليس من الضرورى أن يكون المرء ثملا حتى يشعل سيجاره من شقاء الناس . لله درك يا أب شاجاس ! « كان اسم الكاهن الاب شاجاس » . لله درك يا أب شاجاس ، يا من علمتنى هذه الفكرة المغرية سنين طوالا ، وهى ان المرء لايمكن أن يستغل شقاء غيره وهو مالك جميع قواه .. ناهيك عما برهن عليه هذا السكير من احترام لحق التملك حتى انه لم يجرؤ على اشعال سيجاره من الانقاض الا باذن صريح من صاحبتها . أليس هذا كله أفكارا مغرية حقا ؟ لله درك يا أب شاجاس ، لله درك !

١١٤

والآن ، وداعا أيها الاب شاجاس . لنعد الى قصة الزواج . اما ان كارلوس ماريا قد أعجب ماريا بنديكتا ، فذلك ما فهمناه ، أو

حزرناه على الاقل ، منذ الحفلة الراقصة التى أقيمت فى شارع الاركوس ، والتى رقصت صوفيا خلالها معه رقصة طويلة ، فرأينا الفتاة تتهيأ للعودة الى الريف فى الغداة . لقد هدأتها ابنة خالتها يومئذ ، قائلة انها بسبيل العثور على خطيب لها . فقدرت ماريا بنديكتا انه راقص الليلة البارحة ، وأخذت تنتظر فى صبر . ولم تفض بسرها الى صوفيا ، أولا من قبيل الحياء والخفر ، وثانيا من أجل ألا تفسد على ابنة خالتها لذة احداث المفاجأة بالكشف عن اسم الشخص . ثم انها اذا أفضت بسرها حالا كان يمكن أن تفتر حماسة الشخص الآخر ، وبذلك تعرض جميع أحلامها للدمار . ومهما يكن من أمر ، فانه لا ينبغى لنا أن نطيل الكلام فى هذه النقطة ، فما هذا كله فى آخر الامر الا حسابات صغيرة تقوم فى ذهن فتاة شبت فى قلبها نار الحب !

وجاء وباء الآلاجواس . وجندت صوفيا لجنتها . وكان من آثار ذلك أن اتسعت علاقات أسرة باليا اتساعا كبيرا . وقد دخلت ماريا بنديكتا نفسها عضوا فى احدى اللجان الفرعية ، وبذلك عرفت جميع السيدات الاخريات ، ولكنها حظيت بتقدير احداهن خاصة وهى دونا فرناندا ، زوجة أحد النواب . ودونا فرناندا لم تتجاوز الثلاثين من عمرها الا قليلا ، وهى سيدة تفيض صحة وجذلا وانطلاقا ، ولدت بمدينة بورتو أليجرى ، وتزوجت شابا من الآلاجواس يحمل شهادة الليسانس ، وقد أصبح زوجها بعد ذلك نائبا عن مقاطعة أخرى ، وهو الآن بسبيله الى أن يصبح وزيرا فيما تقول الاشاعات . وقد أدخلت دونا فرناندا فى اللجنة بحجة أن زوجها يرجع أصله الى الآلاجواس . ولم يندم أحد على ادخالها فى اللجنة ، لأنها كانت تطلب التبرع من الناس بلهجة الامر ، ولا تعانى من عقدة الخجل ، ولا تطيق أن يقابلها أحد برفض ! وكان كارلوس ماريا ابن عم هذه السيدة ، فلما وصلت الى ريو دى جانيرو جاء اليها يزورها ، فرأى انها ازدادت جمالا على جمالها سنة ١٨٦٥ — وهى السنة التى رآها فيها أول مرة — ولعله لم يخطىء . واستنتج من ذلك ان مناخ الجنوب يقوى الجسم ويضاعف المفاتن الطبيعية ، حتى لقد علل نفسه بأن يمضى الى الجنوب يقضى فيه أواخر أيامه . قالت له :

— تعال الى هناك ، وسأظفر بتزويجك . اننى أعرف فتاة من بيلوتاس هى فى الحق جوهرة ثمينة ، ولا تريد أن تتزوج الا شابا من ريو .

ـ تريد أن تتزوجني طبعا !

ـ تريد أن تتزوج شابا من ريو واسع العينين. واعلم انني لست بسبيل المزاح ، انها فتاة جنوبية فذة حقا . أنظر ، هذه صورتها !

وفتحت دونا فرناندا محفظة للصور ، فأرته صورة الفتاة . قال :

ـ ليست دميمة !

ـ فقط ؟

ـ بل هي أيضا جميلة !

ـ يا ابن عمي ، ما أكثر اظهارك للاشمئزاز !

فابتسم كارلوس ماريا دون أن يجيب. ان هذا التعبير لم يعجبه. وأراد أن يغير موضوع الحديث ، لكن دونا فرناندا عادت تتكلم عن زواج صديقتها . فهي تنظر الى الصورة وتشرحها ، وتسبغ عليها شكلا ولونا ، واصفة عيني الفتاة وشعرها وبشرة وجهها . ثم تحدثت قليلا عن تاريخ حياة سونورا . هذا هو اسم الفتاة . ان الكاهن الذي عمدها قد تردد في تسميتها بهذا الاسم ، رغم ما كان يحظى به أبو الطفلة من احترام ، وهو أحد أغنياء المالكين بالمنطقة ، لكنه رضخ لهم أخيرا ، على أساس ان فضائل الطفلة قد تؤدي الى أن يدرج اسمها في عداد القديسين .

قال كارلوس ماريا :

ـ تعتقدين ان اسمها سيدرج في عداد القديسين ؟

ـ اذا هي تزوجتك !

ـ هـذا لا يدل على شيء . فلو تزوجت الشيطان لاصبحت قديسة بالاستشهاد . القديسة سونورا : ليس هذا الاسم قبيحا ، وهو يعني ما يعنيه ، القديسة سونورا . ومهما يكن من أمر يا ابنة العم . . .

فقاطعته تقول :

ـ اسكت . . . انت زنديق . . .

ثم أردفت تقول وهي تخبيء محفظة الصور :

ـ اذن لم تحب صديقتي الجنوبية ؟

ـ لم أقل ذلك . ولكن دعيني هادئا في عزوبتي . ألا يكون المرء بذلك في منتصف الطريق الى الجنة ؟

فانفجرت دونا فرناندا ضاحكة وقالت :

ـ رحماك يارب ! هل تظن حقا انك ذاهب الى الجنة يوما ؟

ــ أنا فيها منذ عشرين دقيقة . هل يشبه هذا الصالون الهادئ الرطيب الذى يبدو بعيدا كل البعد عن جمهرة الناس فى الخارج ، الا بالجنة ؟ اننا نستطيع هنا أن نتحدث فى هدوء دون أن نسمع تجديف الناس ، ودون أن يكون علينا احتمال تلك العقول العوجاء ، المتلاة بالسل وداء الخنازير ، تلك العقول التى لا تطاق ، تلك العقول التى هى خير ما يصور الجحيم . هنا الجنة ، أو ركن من الجنة على الاقل . وما دام هذا الركن يتسع لنا ، فهو واللانهاية سيان . اننا نتحدث عن القديسة سونورا ، والقديس كارلوس ماريا ، والقديسة فرناندا التى قررت أن تزوج الفتيات ، لتختلف قليلا عن القديس جونسالو . فأين توجد جنة كهذه الجنة ؟

قالت دونا فرناندا :

ــ فى بيلوتاس .

فقال متنهدا وهو يمد ساقيه ويرفع بصره نحو ثريا الصالون :

ــ بيلوتاس بعيدة جدا .

ــ على كل حال ، هذه هجمتى الاولى . وستتلاحق هجماتى الى أن ترضخ لى .

فابتسم كارلوس ماريا ونظر الى عهنى ضفيرة الحرير التىعقدتها حول رقبتها فى اهمال . ترى هل ألقى هذه النظرة ليتأمل العينين أو ليعجب برشاقة الجسم ؟ ولاحظ مرة أخرى أن ابنة عمه امرأة جميلة حقا . وحضه هذا الجمال ، من غير أن يشعر ، على ان يرفع نظره الى أعلى قليلا ، لكن الاحترام حمله على أن يحول عينيه بسرعة. وليست الصداقة وحدها هى التى دفعته الى اطالة زيارته فى هذا البيت والى تكرارها : لقد كان كارلوس ماريا يحب محادثة النساء بقدر ما يكره محادثة الرجال عامة . فهو يرى ان الرجال متعاظمون وعاميون ومملون وثقيلون وتافهون وغليظون وسخيفون ... أما النساء فلسن عاميات ولا متعجرفات ولا مملات . وليس يجردهن من فتنتهن أن يكون بهن شىء من العجب والزهو، بالعكس ... ان بعض العيوب الثانوية تحتمل فيهن أكثر مما تحتمل فى الرجال . زد على ذلك ان لهن كل ما لجنسهن من حلاوة وعذوبة . وكان كارلوس ماريا يرى ان أكثرهن تفاهة لا تخلو من شىء . فاذا خلا بعضهن من الملاحة حقا قال انهن رجال .

وفى أثناء ذلك كانت الصلات بين دونا فرناندا وماريا بندكتا تتوثق يوما بعد يوم . وكانت الفتاة تجتاز فى تلك الآونة أزمة .

فهى الى ما تتصف به طبيعتها من حياء تظهر عليهـا الآن علامات حزن واضحة . وكان الاختلاف بين المرأتين ــ سواء من ناحية الطبع أم من ناحية المركز ــ هو بعينه ما يقرب بينهما . ان دونا فرناندا امرأة تفيض حبا للناس وعطفا عليهم . كانت تحب الضعفاء والحزانى ، لشعورها بأن عليها أن تعيد اليهم المرح والشجاعة . ويعزو الناس اليها أعمالا كثيرة من أعمال البر والتضحية .

سألت صديقتها الشابة ذات يوم :

ــ ولـكن ماذا بك ؟ انك لا تضحكين أبدا ، ولا تغيب عن وجهك امارات التفكير ، وعيناك تائهتان دائما فى أحلامك ...

ــ ليس بى شىء ، هذه طبيعتى ...

قالت ماريا ذلك مبتسمة ، وقد بدا عليها انها لا تبتسم ، من قبيل التلطف . ثم أشـارت كذلك الى فقـد أمها قائلة أن ذلك أحد أسباب كآبتها . فأخذت دونا فرناندا منذ ذلك الحين تصطحبها حيثما تذهب ، وتدعوها الى العشاء ، وتخصها بمكان فى شرفتها حين تمضى الى المسرح ، الخ .. فبفضل ذلك ، وبفضـل طبعهـا المرح أيضا ، استطاعت أن تطرد من ذهن الفتاة الافكار السود التى استولت عليها . وسرعان ماجعلتهما العادة والمودة صـديقتين حميمتين . لـكن ماريا بنديكتا ظلت تكتم سرها فى صدرها .

قالت دونا فرناندا ذات يوم لنفسها : « مهما يكن هذا السر ، فأعتقد ان خير شىء هو ان أزوجهـا كارلوس ماريا . وفى وسع سونورا أن تنتظر .. »

فقالت لها بعد يومين فى بيتها الصغير بماتا كافالوس :

ــ يجب أن تتزوجى ..

كانت ماريا بنـديكتا البـارحة بصحبة صـديقتها فى المسرح ، فرافقتها بعد المسرح الى منزلها وقضت ليلتها عندها .

ــ لا تنتفضى ، يجب أن تتزوجى وستتزوجين . اننى أهم أن اقول لك هذا منذ يومين ، لـكن هذه الامور اذا قيلت فى الصالون أو فى الشارع لا يكون لها ما ينبغى أن يكون لها من قوة الوقع ولا كذلك فى البيت . فاذا كنت تحسبين انك قادرة على أن ترافقينى فى جولة صغيرة على الرابية ، رتبنا كل شىء . هل توافقين ؟

ــ ولـكن الجو حار ...

ــ هـذا أقرب الى الشعر ياعزيزتى ! الا انك لمن مدينـة ريو حقا !.. أفى عروقكم دم أم ماء ، يا هؤلاء ؟ لنبق اذن على هـذا

المقعد . اجلسي وسأجلس الى جانبك . انني مستعدة لكل شيء . ستتزوجين أو تموتين ، ولا وسط . لا تجيبي . لست سعيدة « قالت ذلك وهي تغير لهجتها » انني أدرك انك لا تحبين الحياة ، رغم كل ما أفعل . تعالي الى هنا . حدثيني بصراحة . هل تحملين عاطفة لشخص معين ؟ اذا كنت تحملين عاطفة لشخص معين ، فاذكري لي اسمه ، وأنا أبعث في طلبه حالا .

ـ لا شيء من هذا ..

ـ عظيم ! ذلك يسهل الامور تماما . لسنا في حاجة الى أن نضع على قلبك لافتة كتب عليها : « للايجار » . عندي مستأجر ممتاز .

فالتفتت ماريا بنديكتا اليهـا التفاتة تامة ، وقد فغرت فاها وحملقت عينيها . لا يدري المرء هل سبب لها هذا العرض خوفا أو أملا . واذ لم تستطع دونا فرناندا أن تدرك الرغبة الحقيقية التي تعتمل في نفس الفتاة ، تناولت يدها وطلبت اليها أن تكاشفها بكل شيء ، فلا شك في انها تحب أحدا ، فذلك أمر واضح ، يرى في عينيها ، وينبغي لها أن تعترف به . وراحت دونا فرناندا تلح وتتضرع ، وقالت انها ستأمرها بالاعتراف اذا لزم ذلك . ولكن يد ماريا بنديكتا كانت تبرد ثم تبرد شيئا بعد شيء ، وبدا على عينيها انهما مسمرتان الى الارض. وظلت السيدتان كلتاهما صامتتين خلال لحظات .

كررت دونا فرناندا تقول :

ـ هيا تكلمي !

ـ ليس عندي ما أقوله ...

فأظهرت دونا فرناندا باشـارات عريضة انها تصـدق قولها ، وكانت في كل مرة تزداد اقترابا منها ، الى أن حضنتها آخر الامر وقالت لها بصوت خافت جدا ان عليها أن تنظر اليها نظرتها الى أم ، وراحت تقبلها من وجهها وأذنيها ورقبتها ، ووضعت رأسها على كتفهـا وهي تدغدغها باليـد الاخرى : « أريد أن أعرف كل شيء ، كل شيء » . اذا كان حبيب قلبها في القمر ، فلتجيء لها به من القمر ... لتبعثن في طلبـه حيث يكون ، الا أن يكون في المقبرة . ولـكن اذا كان في المقبرة ، فستجد لها عريسا آخر يفوق الأول وينسيها اياه في مدى بضعة أيام . وكانت ماريا بنديكتا تصغي الى هذا الـكلام مضطربة أشد الاضطراب ، خافقة القلب أشد الخفوق . انها لا تعرف كيف تتملص من هـذا الموقف ، فهي

مستعدة لأن تفضى بسرها . ولـكنها لا تزال تلزم الصمت كأن عليها أن تدافع عن حيائها وخفرها .

انها لا تنكر ولا تعترف . ولـكن لمـا كانت ترتعد من شـــدة الانفعال وكانت فى الوقت نفسه لا تبتسم البتة ، كان من السهل على المرء أن يحزر جزءا من الحقيقة .

ـ انت اذن لا تعدينني صديقة لك ، أنت لا تثقين بى ! يجب عليك أن تعامليني كما تعامل البنت أمها .

وظلت ماريا بنديكتا تقاوم بعض المقـاومة ، لـكنها استنفـدت طاقتها كلها فأصبحت تشعر أن عليها أن تبوح بشىء ما . وأصغت اليها دونا فرناندا منفعلة أشد الانفعال . كان شعاع من الشمس قد قبل حواف المقعد ، ثم لم يلبث أن امتد الى أقدامها ، ثم الى أطراف ثدييها ، حتى بلغ ركبتيها . ولـكنها لم تشعر به . لقد شغلها الحب عن كل شىء . وافتتنت دونا فرناندا افتتانا غريبـا بقصة ماريا بنديكتا . ان هذا الحب الذى يحرق الفتـاة حرقا ، لايعرفه أحد ، ولا يشارك فيه المحبوب ، ولا يتصوره ، وهو يتغير الآن شيئا فشيئا ليستحيل الى عبادة محضة . كانت ماريا فى أول الامر اذا رأت الرجل الذى تحبه تعانى حالتين نفسيتين مختلفتين كل الاختلاف : ان ما تحسه لأول وهلة لا تستطيع أن تحدده تحديدا واضحا ، فهى مفتونة ذاهلة اللب معا ، يخفق قلبها خفقانا قويا ، وتشعر انها توشك أن يغمى عليها . ثم تأخذ تتأمله ، وتلك هى المرحلة الثانية ، ولا يبقى لها الا هـذا : أن تتأمله . ولقد بكت كثيرا ، وقضت ليالى لا نهاية لها تفكر فيه وحده . لقد دفعت ثمن مطامحها الجنونية غاليا ! ولـكن لا شىء يمكن أن ينتزع من ذهنها انه خير الرجال جميعا ، وانه يشبه أن يكون الها يستحق منهـا العبادة ولو لم يعبأ بها .

فلما صمتت ماريا بنديكتا صمتا تاما ، قالت لها دونا فرناندا :

ـ حســنا . لننتقـل الآن الى الامر الجوهرى ، وهو ألا تظلى تتألمين فى غير طائل . ياعزيزتى ، ان حبك انسانا غير مكترث بك ضرب من الشعر ، لا أكثر .. فدعى عنك الشعر ! انك لم تظفرى فى هذه القضية بغير الخسران . لأنه سيتزوج امرأة أخرى ، ثم تمضى السنون ، ويمضى هواك معها ، وتستيقظين ذات يوم فاذا انت بلا حب ولا زوج . ثم من هو ذلك الانسان الذى قلبه من حجر؟

قالت ماريا بنديكتا وهى تنهض :

ـ لن أقول من هو !
فقالت دونافرناندا وهى تمسك بقبضتيها وتجلسها على ركبتيها :
ـ طيب . لا تقولى . المسألة الوحيدة هى أن تتزوجى : وما دام زواجك به مستحيلا . فلتتزوجى غيره .
ـ لا . . . لا . . . لن أتزوج .
ـ ألن تتزوجى أحدا غيره ؟
ـ حتى هو لن أتزوجه . . . لا أدرى . . . اننى أحبه كما أحب الله
كذلك قالت ماريا بنديكتا بعد بضع لحظات .
فأجابت دونا فرناندا :
ـ أيتها العذراء ! الا ان هذا لكفر . . . بل هو ياصغيرة كفران اثنان . فمن جهة أولى يجب ألا يحب المرء أحدا كما يحب الله ، ومن جهة ثانية فان أى زوج ، ولو كان سيئا ، خير من أجمل الاحلام

١١٥

« أى زوج ، ولو كان سيئا ، خير من أجمل الاحلام » .
هذه الحكمة ليست رومانسية كثيرا . واحتجت ماريا بنديكتا . أليس الحلم خيرا من البكاء ؟ ان للحلم نهاية ، أما الزوج السيىء فقد يعمر طويلا .
قالت ماريا بنديكتا تختم كلامها :
ـ انت تقولين هذا الأن الله أعطاك ملاكا . . . ها هو ذا يصل !
ـ لا تقلقى . سيكون لك ملاكك أيضا . بل اننى لأعرف ملاكا رائعا أخبئه لك . أنت تعلمين ان الملائكة ليست بعيدا جدا عنى .
ومن بعيد رآها تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، فأقبل عليهما . وكانت بيده جريدة مدعوكة . وبدون أن يحيى الضيفة اتجه بالكلام الى امرأته ، فقال لها وهو يكز أسنانه :
ـ هل تريدين أن تعلمى ماذا صنعوا لى يا نانا ؟ ان خطابى الذى القيته بتاريخ ٥ قد نشر اليوم . فانظرى فى هذه الجملة . لقد قلت فى خطابى : فى حالة الريب عليك بالامتناع ، فبذلك ينصح الحكماء . فقلبوا الجملة هكذا : فى حالة الدين عليك بالامتناع . . . حقا ان هذا لا يطاق . لاحظى ان الموضوع الذى كان يدور عليه الكلام هو موضوع اعتمادات لوزارة البحرية ، وقد قيل أثناء المناقشة . ان النفقات كانت باهظة . فمن الجائز اذن أن يبدو ذلك

غلاظة وسفاهة منى فكأننى أدعو الى الاختلاس ناصحا بالامتناع عن الدفع . هذا محال على كل حال !

ــ ولــكن ألم تقرأ تجارب المطبعة ؟

ــ قرأتها ، غير ان كاتب الشيء أعجز الناس عن قراءته قراءة صحيحة . « فى حالة الدين عليك بالامتناع » .

كذلك تابع يقرأ وهو يحدق الى الجريدة . ثم أضاف يقول بنبرة أعلى :

ــ ولــكن هذا لايمكن أن . . .

كان الرجل منصعقا . انه انسان ينعم بمواهب جمــة ، ويمتاز بكثير من الجد والحماسة فى العمــــــل . غير ان أكبر المشاريع وأعوص المشــكلات ، وأخطر المعــارك وأعمق الثورات ، والشمس والقمر والنجوم والحيوانات وجميع أجيـــــال البشر ، كل ذلك لايساوى الآن فى خطورة الشأن عنده ما يساويه ابدال كلمة الريب بكلمة الدين . وكانت ماريا بنديكتا تنظر اليه ولا تفهم . كانت تظن انها تعانى أشد ألم فى العالم . وها هى ذى ترى ألمــا لا يقل عن ألمها ، بل يزيد . الحزن البــكاوى الذى تشعر به فتاة ، ألا يساوى أكثر من غلطة مطبعيــة ؟ ولم ينتبه تيوفيلو الى وجودها الا فى تلك اللحظة ، فمد اليها يده مصافحا . كانت الفتاة فى مثل الثلج برودة . ما من أحد يستطيع أن يصطنع برودة اليدين . اذن فهى تتألم حقا . وبعد بضــــــع لحظات رمى الجريدة على الارض فى عنف ، ومضى .

قالت له امرأته وهى تنهض :

ــ ولــكن فى امكانك ، يا تيوفيلو ، أن تنشر تصحيحا فى الغد .

فلم يزد تيوفيلو على أن رفع كتفيه يائســا دون أن يلتفت . وركضت امرأته وراءه . وبهتت صديقتها وتبعتها . فلم يبق هنالك الا المقعــد ، خلا الآن من وجودهم وراح يستقبل وحده أشــعة الشمس غير مكترث بالعواطف ولا بالخطب . وقادت دونا فرناندا زوجها الى حجرة صغيرة ، واستطاعت هنالك أن تغريه بالقبــلات عن الضربة التى رماه بها الحظ فلما حان موعد الغداء بدأ يبتسم ، ولو ابتسامة شاحبة بعض الشحوب . ومن أجل أن تصرفه زوجته عن أفكاره ، بسطت له مشروعها الخاص بزواج ماريا بنديكتا قائلة انه من الضرورى أن تتزوج نائبا من النواب ، اذا كان فى المجلس نائب أعزب ، بغض النظر عن آرائه ، يستوى أن يكون من حزب

الحكومة أو من المعارضة أو من الجهتين كلتيهما ، أو ألا يكون من اى حزب البتة . فانما المهم أن يكون زوجا وكفى . واستطاعت أن تسوق حول هـذا الموضوع ملاحظات حية فكهة أمضت الوقت وأنست ذكرى الخطأ المطبعى . يالها من مخلوقة طيبة نقية !.. وأدرك تيوفيلو نية امرأته ، فاسترد صفاء مزاجه شيئا بعد شيء ، ووافقها على أن زواج ماريا بنديكتا أمر مناسب .

قالت دونا فرناندا وهى تنظر الى صديقتها :

ــ شر ما فى الامر انها تحب شخصا ولا تريد أن تبوح باسمه .

فقاطعها زوجها وهو يمسح فمه :

ــ لا داعى الى أن تبوح باسمه ، فواضح جدا ان الشخص الذى تحبه انما هو ابن عمك !

١١٦

فى يوم الاحد التالى ذهبت دونا فرناندا الى كنيسة سـانتو انطونيو دوس بدبرس . فلما انتهت الصلاة رأت ابن عمها يخرج من بين جمهور المصلين ــ الذين كانوا يلاطفون بعضهم بعضا أو ينحنون أمام المذبح ــ رأته هو نفسه منتصبا كحرف الالف ، مرتديا ثياب تقشف . ومد اليها يده وهو يبتسم ، فبادرته بالسؤال مبهوتة :

ــ هل كنت فى الصلاة أنت أيضا ؟

ــ نعم ...

هل تصلى دائما ؟

ــ دائما ، لا ... ولكننى أصلى غالبا ...

ــ بصراحة ... لم أكن أتوقع مثل هذا التقى منك ! والرجال عامة يستخفون بالدين . أن تيوفيلو لا يضع قدميه فى الكنيسة ابدا ، اللهم الا من أجل تعميد الاولاد . أنت اذن تقوم بواجباتك الدينية ؟

ــ لا أستطيع أن أجيب اجابة قاطعة . غير اننى أحتقر تلك العادة الرخيصة التى تجرى مجرى الزى ، أعنى تسفيه الدين . ولكن دعينا من هذا الموضوع ، فما جئت الى هنا للاعتراف بل للصلاة . سأصحبك الى بيتك ، فان دعوتنى الى الغداء قبلت ، الا ان ترغبى فى تناول طعام الغداء بمنزلى .. هل تعلمين أننى أقطن فى هذا الشارع ؟

قالت دونا فرناندا :

ـ لو أستطعت لذهبت من تلقاء نفسي أزف اليك نبأ يصعب شرحه بكلمتين .

فأجابها كارلوس ماريا على باب الكنيسة وهو يقدم لها ذراعه :

ـ فلنمش اذن على مهل .

وأردف يسألها بعد بضع خطوات :

ـ أهو نبأ هام ؟

ـ هام ورائع !

ـ سوف ترين ان الله بواسع رحمته سيأخذ عزيزنا تيوفيلو تاركا فى هذه الحياة الدنيا أجمل أرملة . دعيك من هذا العناد يا ابنة العم ... هاتى ذراعك . والآن ، ما هو النبأ ؟ أراهن عنى ان فتاة بيلوتاس قد وصلت !

ـ لن أحدثك فى الامر الا اذا حلفت انك ستصغى الى جادا ...

ـ سأصغى اليك جادا ...

فاعترفت له دونا فرناندا بأنها أصبحت تتردد فى أمر زواجه من بنت منطقتها. ذلك انها لاتريد أن يتعذب ضميرها بعد أن اكتشفت أن هناك فتاة تحترق هياما به . فابتسم كارلوس ماريا ، وتهيأ للمزاح ، لكن النبأ شغل باله مع ذلك . هياما ؟ « هياما » تولها ! » كذلك قالت دونا فرناندا ، لكنها أضافت ان هذا التعبير ربما كان لايصدق صدقا كاملا على العواطف التى أصبحت تشعر بها الفتاة الآن . ذلك ان هذه العواطف قد صارت الى نوع من العبادة الهادئة الصامتة . لقد بكت من أجله ليالى وليالى .

ورددت دونا فرناندا على مسامع ابن عمها كل ما أفضت به اليها ماريا بنديكتا . ولم يبق الا أن تذكر له اسم الفتاة . وأراد كارلوس ماريا أن يعرف الاسم . لكنها رفضت أن تبوح به ، قائلة انها لا تستطيع أن تكشف عنه ، فعلام تمتعه بمعرفة اسم الفتاة التى تحبه فى حين أن قلبه لا يخفق بمثل ما يخفق به قلبها ؟ ان الافضل أن يظل جاهلا باسم هذه الفتاة . ثم ان الفتاة قد كفت الآن عن البكاء ، وتبددت مطامعها ، وزالت أوهامها ، وفقدت كل أمل فى أن يحبها ، واستحالت بمضى الزمن الى عابدة ... ولكنها عابدة لا نظير لها ... فهى لا تطمع حتى فى أن يسمعها معبودها ولا فى أن يلقى عليها نظرة عطف .

ـ ابنة العم ، أنت ...

ـ أنا ماذا ؟

قال كارلوس ماريا أخيرا ان المحامية أهل للقضية التى تترافع فيها ، فاذا صح ان الفتاة تعبده هذه العبادة كلها ، فمن العدل ومن طبيعة الامور أن تهتم بها ابنة عمه هذا الاهتمام الحار كله . ولكن لماذا الامتناع عن ذكر اسمها ؟

ـ لن أذكر لك اسمها الآن ... ربما ذكرته لك فى يوم من الايام . ولكنك أصبحت تعرف لماذا يصعب على أن أزوجك من فتاة مدينتى بعد أن علمت ان هناك فتاة تحبك هذا الحب الموله كله . على ان هذه الفتاة المولهة قد لا تتألم ألما مبرحا اذا أنت تزوجت . نعم ، أنا أعلم ان هذا لا يعقل . ولكننى أعرفها : اننى لعلى يقين من انها تستطيع أن تبارك غريمتها متى عرفت أنك سعيد !

قال كارلوس ماريا بعد بضع خطوات وهو يحدق الى الارض :

ـ ليس هذا من الرومانسية فحسب ، بل هو من الصوفية أيضا . وليست الصوفية من هذا العصر ! أعندك حقا براهين على ان عواطفها هى هذه ؟

ـ عندى ... هذا هو بيتك ، أليس كذلك ؟

قالت دونا فرناندا هذا وهى تقف .

ـ نعم ...

ـ عمارة جميلة ... ويبدو انها متينة ..

ـ متينة جدا ..

ـ نافذة ، اثنتان ، ثلاث ، أربع ... سبع نوافذ . هل يحتل الصالون الواجهة كلها ؟ هذا خير ما يرجى لاقامة حفلة راقصة .

وأضافت تقول وهى تتابع سيرها :

ـ لو كان لى بيت أوسع لأقمت حفلة راقصة قبل أن أسافر الى ريو جراندى (١) . اننى أحب الحفلات حبا شديدا . والحق أن طفلى لايرهقاننى بالعمل . بالمناسبة ، أحب ادخال لوبو فى المدرسة ، فأين أجد مدرسة جيدة ؟

كان كارلوس ماريا يفكر فى العابدة المجهولة . ان ذهنه بعيد ، بعيد جدا عن التعليم والمدارس ... ما أبدع أن يحس المرء بأنه اله معبود ، على الطريقة الانجيلية ، سرا ، فى حجرة مقفلة مرتين ، لا على مرأى من جميع الناس كما فى كنائس اليهود . « وأبوك الذى

---

(١) هى ريو جراندى دوسول ، احدى ولايات البرازيل ، فى اقصى الجنوب

يرى كل شيء ، حتى أخفى ماعندك ، سيكافئك » ! نعم ... لسوف يكافئها اذا عرف اسمها . أتراها متزوجة ؟ لا ... مستحيل ... لو كانت متزوجة لما أفضت بسرها الى أحد . أتراها أرملة أم عازبة ؟ الارجح انها عازبة ... كل شيء يشير الى ذلك . أين تراها تحبس نفسها لتعبده ، لتفكر فيه ، لتبكى من أجله ، لتباركه ؟ أصبح الآن لايرغب تلك الرغبة كلها فى أن يعرف اسمها ، ولكنه يريد على كل حال أن يعرف المكان الذى تنزوى فيه .

كررت دونا فرناندا تسأله :

ـ ترى أين أجد مدرسة جيدة ؟

ـ مدرسة ؟ لا أدرى . اننى أفكر فى المجهولة . لعلك تقدرين ان شخصا يعبدنى هذه العبادة الصامتة ، من غير أمل ، يستحق أن أفكر فيه . أهى طويلة أم قصيرة ؟

ـ هى ماريا بنديكتا .

وقف كارلوس ماريا مبهوتا .

ـ ماريا بنديكتا ؟ مستحيل ... لقد تحدثت اليها كثيرا فما لاحظت شيئا خاصا . وكنت أجد دائما انها فاترة . لاشك ان ثمة خطأ . هل ذكرت لك اسمى ؟

ـ لم تذكره ، رغم توسلى . لقد اعترفت بالعبادة ، لكنها لم تشأ أن تسمى المعبود . ويالها من عبادة ! لك أن تعتز بأنك محبوب أكثر من أى انسان . لمن هذا البيت ؟

ـ من عادتك يا ابنة العم أن تضخمى الامور . قد لا يكون هذا الحب هوى قويا كالذى تصفين . محبوب أكثر من أى انسان ؟ ثم كيف عرفت اننى أنا المحبوب ؟

ـ تيوفيلو أول من اكتشف ذلك . وحين أعلنه أمامها احمرت احمرارا شديدا حتى صارت بلون شقائق النعمان ، ولقد زعمت لى بعدئذ ان هذا غير صحيح ولكنها لم تعد الى البيت منذ ذلك اليوم .

تلك هى نقطة البداية فى قصة حبها . شعر كارلوس ماريا بكثير من الاعتزاز لهذا الحب الصامت ، واستحال تحامله على الفتاة الى عطف . وازداد اختلافه اليها . وأصبح اضطراب الفتاة ومخاوفها وفرحها وتواضعها ومواقفها التى تشبه أن تكون مواقف ضراعة ، أصبحت جميع هذه الاعمال والعواطف التى هى بمثابة عبادة للرجل ، تملؤه ارتياحا . وتعلمون كيف انتهت الرواية ! لقد رأيتموهما معا

فى عيد ميلاد صوفيا ... صوفيا التى كان يسمعها قبل ذلك كلمات عذبة كل العذوبة ! ولـكن هـذا شأن الرجال : هم أشبه بالماء الذى يجرى والنسيم الذى يهب .

١١٧

قال روبيان لنفسه : « هذا أحسن ! فليتزوج » .

وبين المساء الذى علم فيه بالنبأ واليوم الذى تم فيه الزواج ، رأى صوفيا تنظر الى كارلوس ماريا عدة مرات نظرات مريبة بعض الشىء ، ولكن كارلوس ماريا ما لبث أن أجاب على هذه النظرات من قبيل التأدب ، فاستخلص روبيـان من ذلك ان الامر لايعدو أن يكون مصادفة . ثم انه لايزال يذكر الدمعة التى سكبتها صـوفيا لحظة شرحت له قصة الرسالة كاملة فى مساء عيد ميلادها .

يا لتلك الدمعة التى لم تكن مؤملة ! أيتها الدمعة التى كنت كافية لاقناع واحد من الرجال ، لعلك تظلين سرا لا يفهم بالنسـبة الى رجال آخرين . كذلك هو العالم ! ليس أمرا هاما ألا تكون هاتان العينان معتادتى البكاء ، ولا أن تبدو تلك السهرة حاضة على كل شىء الا الحزن .. حسب روبيان انه رأى انسكاب الدمعة .. على أن ثقة روبيان لم تنشأ عن انسكاب الدمعة فحسب ، وانما نشأت كذلك عن موقف صـوفيا منه منذ ذلك الحين : انها لم تكن فى يوم من الايام محتفية به هذا الاحتفاء كله ولا لطيفة فى معاملته هذا اللطف كله . لـكأنها نادمة على اساءتها اليه ، فهى تحب أن تتدارك ما فرط منها ، سواء أكان مرد ذلك الى انها شعرت نحوه بعاطفة متأخرة ، أم الى مغامرتها هى . هنالك آثام تبقى فى حيز القوة ، ولا يقترفها المرء أبدا .. هنالك « أوبرات » تظل غافية فى رءوس بعض الموسيقيين تنتظر أولى موازين الالهام ..

١١٨

ردد روبيان يقول : « يسعدنى أن يتزوج ! »

واحتفل بالزواج بعد أقل من ثلاثة أسابيع . وفى صبيحة اليوم المضروب فتح كارلوس ماريا عينه بشىء من الدهشـة : أهو الذى يتزوج ؟ نعم ، ولا يجوز الشك فى ذلك . ونظر الى نفسه فى المرآة .. انه هو ! وتذكر الايام الاخيرة المنصرمة ، وتذكر كيف جرت

الاحداث مسرعة ، وتذكر العاطفة الصادقة التى يحملها لخطيبته والسعادة الكاملة التى سيهبها لها .

وهذه الفكرة الاخيرة ، خاصة ، ولدت فى نفسه رضا قويا كبيرا. ولم تتركه هذه الخواطر خلال النزهة المعتادة التى قام بها على صهوة جواده . لقد قرر أن يمضى من جهة انجنيو فليو . ومع انه ألف أن تتابعه جمهرة من نظرات الاعجاب فى نزهته ، فقد لاحظ ان وجوه الناس فى ذلك اليوم كانت تعبر عن معنى خاص ، هو المعنى الذى يناسب النبأ العظيم ، نبأ زواجه . وحتى شجيرات احدى المزارع لم تنس حين مر بها أن تفضى اليه بأمور كثيرة ، مع انها كانت قبل وصوله ساكنة كل السكون ، أمور قد تردها عقول خفيفة الى النسيم الذى هب ، أما الحكماء فيدركون فورا انها لغة الاعراس تتكلمها الشجيرات . والعصافير كانت تثب من جهة الى أخرى وهى تفرد انشودة غزل . وهذان زوجان من الفراش — وأنتم تعلمون ان اليابانيين قد عدوا الفراش رمزا للوفاء بعد أن لاحظوا ان الفراش لا يكاد يتنقل من زهرة الى أخرى الا أزواجا — أقول هذان زوجان من الفراش أصفران مرحان ، يتبعان الحصان مدة طويلة ، ويتواثبان هنا وهناك فوق السياج الذى يحف بالطريق. وهنالك الهواء الندى ، والسماء الزرقاء ، والوجوه الفرحة ، وجوه الرجال الذين يلقاهم كارلوس ماريا فى الطريق جاثمين على ظهور حميرهم أو مائلين على نوافذ عرباتهم ليتأملوه ! ان من الصعب عليه أن يعتقد ان جميع هذه الحركات والاوضاع من الناس والحيوانات والاشجار يمكن أن يكون لها معنى آخر غير معنى التحية تزجيها اليه الطبيعة فى عرسه .

واختفت الفراشات أخيرا فى أحد الادغال الكثيفة من السياج . وظهرت مزرعة أخرى على حافة الطريق ، مزرعة بلا أشجار، ترى فى آخرها من خلال بابها الكبير بيتا قديما مهجورا كأن نوافذه الخمس التى تطل على شرفته تحدق اليك بعينين محملقتين . كم من عرس وكم من حفلة تمت وراء هذه النوافذ فى أيام روائها ، فى أيام جدتها الاخاذة والامل الذى كانت تنشر شذاه !

ولكن لا تظنوا ان الاسى الذى يفوح من هذا المشهد قد بث فى قلب فارسنا الجميل شيئا من الحزن . بالعكس... لقد كان يملك تلك الموهبة الخاصة الفذة التى تمكنه من أن يعيد الى الانقاض شبابها وأن يحيا الحياة الاولى للأشياء . حتى لقد أمتعته رؤية

البيت العتيق الخرب الذى يختلف ذلك الاختلاف كله عن الفراشات النشيطة التى كان يراها منذ برهة . ووقف حصانه ، وتصور النساء اللاتى لابد أنهن دخلن من هذا الباب الواسع : أزمنة أخرى ، ووجوه أخرى ، وعادات أخرى .. لعل طيوف أولئك الاشخاص السعداء الذين كانوا يعيشون فى الماضى قد خرجت الآن من لحودها وجاءت هى الاخرى تحييه وتعبر له بأفواه خفية لا ترى عما تحمل له من اعجاب شديد . لقد سمع هو أصواتها على كل حال ، وابتسم من ذلك ارتياحا . غير أن صوتا حادا انضم عندئذ الى هذا اللحن العذب ، صوت ببغاء كانت سجينة فى قفص معلق بجدار البيت .. « ببغاء ، ببغاء ، ببغاء الملك ، ببغاء ألبرتغال ... من هناك ؟ كوكو ، حبيبى الجميل كوكو .. غرررر .. غررور .. » واختلفت الاطياف واستأنف الحصان سيره . ان كارلوس ماريا يكره الببغاوات كرها شديدا كما يكره القرود ، وكان من عادته أن يقول عنها : « تقليدان كاذبان للانسان » .

ساءل نفسه وهو يتابع طريقه : « هل تنقطع السعادة التى سأهبها لها مثل هذا الانقطاع ؟ »

واجتازت الشارع عندئذ عصافير تغرد بلغتها ، فكان ذلك كافيا لرد الامور الى نصابها ! ان هذه اللغة التى لا تشتمل على كلام لغة مفهومة . انها تعبر عن كثير من الجمال وكثير من الطهارة ، ورأى كارلوس ماريا انها ترمز اليه : اذا امتلأت نفس امرأته اشمئزازا من الضجة التى تحدثها ببغاوات العالم ، فلسوف يخرجها من هذا الاشمئزاز بتغريد الطائر الذى يحمله فى داخله ! الا انها لأفكار من ذهب يعبر عنها صوت من ذهب !.. آ .. لسوف يسعدها أكبر السعادة . وها هو ذا يتصورها منذ الآن راكعة واضعة ذراعيها على ركبتيه ، دافنة رأسها بين يديه ، محدقة اليه ، وقد زاغت عيناها امتنانا وعبادة وحبا . لسوف تكون أمامه ضارعة كل الضراعة ، فانية كل الفناء !..

١١٩

وتخيلوا ان هذه الصورة الاخيرة قد طافت بخيال خطيبته فى اللحظة التى راودت فيها خياله . كانت واقفة على نافذة غرفتها تحدق الى الامواج التى تتلاحق فى بعيد ثم تتكسر على رمال الشاطىء ، فاذا هى ترى نفسها راكعة عند قدمى زوجها فى مذلة

ـ كركوعها عند منضدة التناول ـ من أجل أن تتلقى قربان السعادة.
قالت لنفسها : « آه .. لسوف يسعدني أكبر السعادة ! » .
كانت الخواطر والاقوال مختلفة بعض الاختلاف ، لكن الوقت هو نفسه ، والوضع هو نفسه .

١٢٠

تزوجا وسافرا الى أوربا بعد ثلاثة أشهر . ولم تبك دونا فرناندا حين ودعتهما ، بل كانت مشرقة الوجه ، كأنهما عائدان لا مسافران . لقد كان فرحها بسعادتهما أقوى من حزنها لفراقهما !

قالت لماريا بنديكتا ، عند المركب ، مرة أخيرة :
ـ اأنت مسرورة ؟
ـ جدا ...

كانت دونا فرناندا تفيض فرحا ، فرحا صافيا بريئا يسطع في عينيها ، بينما كان يصدح في قلبها لحن من تلك الالحان الايطالية التي كانت تحبها كثيرا : لعله لحن أغنية لوسيا التي تقول :

O'bell'alma innamorata (١)

أو لعله ذلك المقطع من « حلاق اشبيلية » :

Ecco ridente in cielo (٢)
Spunta la bella aurora.

١٢١

لم تذهب صوفيا الى الميناء . كانت متوعكة فأرسلت زوجها ينوب عنها . لا تظنوا ان ذلك عن حسرة أو حزن . لقد عرفت أثناء الزواج كيف تبرهن على كثير من الكتمان ، وعنيت بجهاز العروس وودعتها وهي تغمرها بقبلات تمازجها الدموع . اما ان تذهب الى المركب فقد رأت ان ذلك كثير ! لذلك زعمت انها مريضة ، ثم لزمت غرفتها حتى لا يشك أحد في صدق زعمها ، وتناولت رواية حديثة أهداها اليها روبيان . ان أشياء أخرى كثيرة في هذه الحجرة تذكرها بروبيان : لعب من جميع الانواع ، ناهيك عن الحلى المخبأة . حتى ان عبارة خاصة همس لها بها ليلة زواج

(١) أيتها النفس الجميلة الودود .
(٢) هذا هو الفجر الجميل الباسم .. يظهر في السماء .

ابنة خالتها قد انضمت الآن الى موكب هذه الاشياء الكثيرة التي تذكرها بصاحبنا .. لقد قال لها بصوت خافت في ذلك المساء :

ـ أنت ملكتهم منذ الآن . ولكن انتظري ، فلأجعلنك امبراطورة أيضا .

لم تستطع صوفيا أن تدرك معنى هذه العبارة المستغلقة . افترضت في أول الامر انه يريد أن يبهرها بانعظمة تسهيلا لاتخاذها خليلة . لكنها لم تلبث أن نبذت هذا التأويل ، لأنه يفترض في روبيان كثيرا من رقاعة المعجب بنفسه . صحيح أن روبيان ليس الآن ذلك الرجل الخجول الاخرق الذي عرفناه في الماضي ، ولكنه مع ذلك ليس معجبا بنفسه هذا الاعجاب كله ، حتى تظن فيه هذا الزهو ! فما معنى تلك العبارة اذن ؟ أتراه أراد أن يقول لها بلغة مجازية ان حبه لها سيزداد ؟ قالت صوفيا لنفسها : كل شيء جائز . وصحيح ان صوفيا لايعوزها المحبون ، حتى لقد سمعت تصريحا بالحب من كارلوس ماريا ، ولعلها سمعت مثل هذا التصريح من غيره فلم يهز ذلك الا غرورها . لكن ذلك كله كان عابرا . ولم يبق على حبه أحد غير روبيان . ولئن كان روبيان يختفي من حين الى حين عندما يعاني أزمة شكوك ، فان شكوكه كانت تذهب دائما كما جاءت .

حين شرعت صوفيا تستأنف قراءة الرواية في الصفحة التي كانت قد وقفت عندها وقعت عينها على هذه العبارة : « انه ليستحق أن يحب » . فطوت الكتاب ، وأغمضت عينيها ، واسترسلت في تأمل طويل . فلما دخل عليها العبد بعد هنيهة يحمل اليها كأسا من المرق ظن سيدته نائمة ، فقفل راجعا على رءوس الاصابع .

١٢٢

في أثناء ذلك الوقت كان روبيان وباليا ينزلان من الباخرة ويركبان القارب الذي سيقلهما الى رصيف فاروكس. انهما مطرقان صامتان . وكان باليا أول من فتح فمه بالكلام ، قال : « انقضى زمن طويل وأنا أريد أن أفاتحك في أمر هام يا روبيان .. »

١٢٣

انتفض روبيان . كانت تلك أول مرة يصعد فيها الى باخرة . وكان رأسه لايزال ممتلئا بصخب المرفأ . منظر الناس يدخلون

ويخرجون ـ ناس من جميع الانواع : برازيليون ، اجانب ، فرنسيون وانجليز وألمان وأرجنتينيون ... برج بابل ـ وخليط القبعات والحقائب والحبال والمقاعد والنظارات ذات الحمائل ، والرجال يصعدون أو ينزلون في داخل الباخرة على السلالم ، والنساء يبكين أو يضحكن ويلقين على ماحولهن نظرات استطلاع ، والإزهار أو الثمار جاء بها كثير منهن ... هذا كله كان جديدا على روبيان . ومن بعيد كان يرى الحاجز الذى ستجتازه الباخرة ، ووراء الحاجز كان يرى البحر الخضم ، والسماء الهابطة الى الافق ، والوحدة ... وارتد روبيان على غير علم منه الى الاحلام العتيقة التى كان يحلمها العالم القديم ، خالقا فى ذهنه صورة « اتلانتيد » خيالية ...

كان روبيان لايعرف شيئا من مبادىء الجغرافيا ... لذلك كون لنفسه فكرة غامضة عن البلاد الاخرى ، مسبغا عليها هالة من سحر . واذ كان لايكلفه شيئا أن يرحل على هذا النحو ، فقد أبحر بالخيال زمنا على ظهر المركب الكبير ، دون دوار ، ولا أمواج ، ولا رياح ، ولا سحب ...

١٢٤

أجاب روبيان بعد بضع ثوان قائلا :

ـ لى أنا ؟

فقال باليا مؤكدا :

ـ نعم لك أنت . كان ينبغى أن أفاتحك فى هذا الامر منذ زمن طويل ، غير ان حكايات الزواج ولجنة الآلاجواس وما الى ذلك قد شغلتنى فلم تتح لى فرصة التحدث اليك ... أما الآن ، قبل الغداء ... هل تقبل أن تتغدى معى ؟

ـ نعم ، ولكن ما هو الامر ؟

ـ أمر هام ...

قال ذلك وهو يتناول سيجارة ، ويفضها ، ويخرج تبغها بين أصابعه ثم يلفه مرة أخرى بورقة ويشعل عود ثقاب . لكن الهواء يطفىء الشعلة ، فيطلب الى روبيان أن يتفضل بأن يمسك له قبعته من أجل أن يستطيع اشعال عود آخر . فيطيعه روبيان وقد نفد صبره . لعل شريكه قد أطال انتظاره عامدا من أجل أن يجعله يتصور أسوأ الاحتمالات ، حتى اذا عرف الحقيقة روح ذلك عن

نفسه . سحب كرستيان من سيجارته نفسين ، ثم قال :
ـ أنوى أن أشرع فى تصفية عملنا ، لاننى رجيت أن أعين موظفا بأحد المصارف ، هى وظيفة مدير فى الواقع ، وأعتقد اننى ساقبل.
فتنفس روبيان وقال :
ـ طبعا . ولـكن هل يجب أن تتم هذه التصفية فورا ؟
ـ لا ... ولـكن يجب أن تتم فى آخر السنة القادمة ..
ـ وهل ذلك أمر لابد منه حقا ؟
ـ هو بالنسـبة الى أمر لابد منه . ولو كانت حكاية المصرف هذه غير مضمونة لما جازفت طبعا فتركت الفريسة من أجل الظل.. ولـكنها مضمونة تماما .
ـ اذن ففى نهاية السنة القادمة سنحل الصلات التى تجمعنا...
ـ بل قبل ذلك ، فى نهاية هذه السنة .

لم يفهم روبيان . غير أن شريكه أوضح له أن من المفيد ان تحل الشركة منذ الآن ، ليستطيع أن يصفى المخزن بعد ذلك وحده . ذلك ان المصرف قد يتقدم انشاؤه قليلا وقد يتأخر ، ولا داعى الى ان يجعل صديقه رهنا بهذه الاحتمالات . ومن جهـة أخرى ألم يؤكد الدكتور كاماشو ان روبيان سيحتل مقعده فى المجلس النيابى قريبا وان سقوط الوزارة أمر محقق ؟
وختم كلامه بقوله :
ـ وكيف كان الامر ، فمن الافضل حل الشركة فى الوقت المناسب وأنت على كل حال لا تعيش من التجارة ، ولئن اشتركت فى هـذا المشروع برأس المـال اللازم ، لقد كان فى وسعك أن تستثمره أيضا فى مشروع آخر ، أو أن تحتفظ به لا أكثر ولا أقل .
قال روبيان :
ـ أنا موافق ...
وأردف يقول بعد بضع لحظات :

ـ ولكن قل لى : هل وراء هذا العرض سبب مخبـأ . أهـذه قطيعة ؟ أهى نهاية صداقتنا ؟ كن صريحا ، وقل لى كل شىء ..
فأجاب باليا :
ـ ما هذا الـكلام العجيب ؟ قطيعة ؟ نهاية صداقتنا ؟ أأنت مجنون ؟ لاشك ان دوار البحر هو الذى جعلك فى هـذه الحالة ! أتظن اننى وقد عملت فى سبيلك ما عملت ، وجعلتك صـــديق أصدقائى ، وعاملتك معاملة القريب قريبه بل معاملة الاخ اخاه ،

أتظن اننى أقاطعك فجأة من غير سبب ؟ وحتى ماريا بنديكتا كان ينبغى أن تتزوجك أنت لا أن تتــزوج كارلوس ماريا ، لولا أنك رفضت.. أنت تعلم ذلك. ان فى وسع المرء أن يقطع احدى الصلات دون أن يقطع سائر الصلات ، والا كان سخيفا حقا . هل جميع الاصدقاء الذين فى العالم شركاء فى تجارة ؟ فما القول اذن فيمن ليس لهم تجارة ؟

اقتنع روبيان بالحجة ورآها رائعة ، فاحتضن صديقه. وصافحه كريستيان راضيـا أعظم الرضـا : لسوف يتحرر من شريك قد يوقعه تبذيره المتزايد فى حرج ذات يوم . المشروع سليم دقيق ، ومن السهل أن يعطى روبيان حصته ، باستثناء الديون الشخصية التى اقترضها منه قبل ذلك . ان باليا لا يزال مدينا لصــاحبه ببعض الديون التىاعترف بها لزوجته فىذلك المساء بسانتا تيريزا، ذلك المساء الذى وصفنا حوادثه فى الفصــل الخمسين . انه لم يسدد من تلك الديون الا قليلا . ولــكن يجب أن نذكر أن روبيان هو الذى كان يتمنع حين يثار هذا الموضوع . وذات يوم أراد باليا أن يجبره على قبول بعض المــال سدادا ، فذكر له المثل القديم : « من رد ديونه اغتنى » ، فما كان من روبيان الا أن أجابه مازحا:

ــ امتنع عن الدفع تزدد غنى .

فقال باليا وهو يضحك ويرد المال الى جيبه :

ــ حلوة جدا !

١٢٥

لا مصرف ، ولا وظيفة مدير ، ولا تصفية .. ذلك كله مختلق ! ولــكن كيف يستطيع باليا أن يسوغ حل الشركة اذا قال الحقيقة وحدها ؟ لذلك اخترع تلك القصة ، ومما سهل عليه اختراعها انه يحب المصارف حقا ، وانه يحترق شــوقا الى ادارة مصرف من المصارف . والواقع ان حياة هذا الرجل كانت ناجحة كل النجاح ، فمشروعه مزدهر جدا ، ومن الاساليب التى دعته الى الانفصال عن شريكه انه يريد ألا يقاسمه الارباح المقبلة . وكان باليا عدا ذلك يملك «أسهم» من جميع الانواع ، كما يملك سندات ذهبية من قرض أيتابوراهى ، وقد تولى بالتعاون مع شركة من الشركات الكبرى ، تنفيذ تعهدين لتموين الجيش جنى منهما أرباحا طائلة . حتى لقد اتصــل بأحد المهندسين المعماريين من أجل أن يبنى لنفسه قصرا

خاصا . وكان يحلم حلما غامضا بأن ينال لقب بارون ...

١٢٦

من كان يخطر بباله ان أسرة باليا هذه ستعاملنا هذه المعاملة ؟ نحن الآن فى نظرهم أقل من لا شىء . لا تحاول أن تدافع عنهم .

ـ لست أدافع بل أشرح . لابد ان هناك التباسا .

ـ تحتفل بعيد ميلادها ، وتزوج ابنة خالتها ، ثم لا توجه أى دعوة الى الماجور ، الماجور العظيم ، الماجور الذى لا يضارع ، الماجور العزيز !.. هذه هى الاسماء التى كانت تنعتنى بها . كنت لا أضارع ، وكنت عظيما ، وكنت صديقهم القديم ، وكنت أشياء أخرى لم أعد أتذكرها .. أما الآن فلا شىء .. لا دعوة ، حتى ولا رسالة شفهية مع صبى من العبيد : « سيدتى تحتفل بعيد ميلادها أو بزواج ابنة خالتها ، وتبلغكم ان بيتها بيتكم . وترجوكم أن ترتدوا الملابس الرسمية » . لو دعتنا لما ذهبنا . فالحفلات الرسمية ليست من أجلنا ، ولكننا نكون قد خطرنا ببالها ... رسالة شفهية على الاقل ، صبى من العبيد ترسله الى الماجور الذى لا يضارع ...

ـ بابا !

هكذا قالت تونيكا ، فشجع ذلك روبيان على أن يدافع عن أسرة باليا دفاعا طويلا . حدث هذا كله فى منزل الماجور الذى أصبح لا يقطن فى شارع « الثانى من كانون الاول ـ ديسمبر » ، بل فى طابق أرضى متواضع بشارع باربونوس . كان روبيان مارا هناك ، وكان الماجور واقفا الى النافذة فناداه . ولم تستطع تونيكا أن تخرج من الصالون لحظة لتلقى نظرة على نفسها أمام المرآة ، وغاية ما استطاعت أن تفعله هو امرار أصابعها فى شعرها وترتيب الوشاح الذى يطوق عنقها وانزال تنورتها قليلا لتخفى حذاءيها العتيقين .

قال روبيان ملحا :

ـ أقول لابد ان التباسا قد حدث ... أن كل شىء قد انقلب رأسا على عقب بسبب لجنة الآلاجواس هذه !

فقاطعه الماجور سيكويرا قائلا :

ـ وهذا مثال أحسنت اذ ذكرته . لماذا لم يطلبوا الى ابنتى أن تشترك فى لجنة الآلاجواس هذه ؟ لا ... لا ... اننى منذ زمن طويل أدرك ما يحدث فى الماضى كانت لا تقام حفلة الا وتدعى اليها .

كنا روح كل شيء . ثم أخذت الامور تتبدل منذ زمن . أصبحوا يستقبلوننا بفتور ، وأصبح الزوج لايحيينى اذا هو استطاع التهرب منى . لقد تبدلت الامور منذ زمن طويل . كانوا فى الماضى لايفعلون شيئا دوننا ... لماذا تتحدث عن الالتباس ؟ هل تعلم اننى قبل حفلة عيد ميلاد دونا صوفيا بيوم واحد ذهبت أزوره فى المخزن لاشتباهى فى انهم قد لايدعوننا الى الحفلة ؟ فماذا فعل ؟ لم يفتح فمه بكلمة واحدة ، وتعمد الكتمان . قلت له آخر الامر : « كنا أمس فى البيت نتناقش أنا وتونيكا فى موعد عيد ميلاد دونا صوفيا ، فكانت هى تقول انه قد مضى ، وكنت أنا أؤكد أنه اليوم أو غداً ». فلم يجب ، وتظاهر بالانهماك فى حساباته ، ونادى المحاسب يسأله شرح بعض الامور . فأدركت الحيلة ، وكررت كلامى ، فكرر لعبته فانصرفت ! بالياء .. هذا الشقى العاثر ... يفعل هذا ؟ أصبحوا الآن يتعايرون بى ويخجلون من صحبتى . فى الماضى كانت الاغنية غير هذه : « ماجور ... عليك انت أن تقترح شرب النخب » وكنت أقترح شرب النخب ، لأن لى فى هذه الامور براعة خاصة! وكنا نلعب كذلك بالورق . أما الآن فقد أخذه جنون العظمة... انه لا يعاشر الا علية القوم ! آ ... باطل الاباطيل ! تصور اننى منذ مدة صادفت زوجته مع سيدة أخرى فى مركبة فخمة ! تصور ، صوفيا فى مركبة فخمة ... تظاهرت بأنها لا ترانى ، ولكنها حرصت على أن تعرف هل أراها أنا ، وهل امتلأت اعجابا بها ! باطل ! كل شيء باطل على الارض ! من لم يذق القشدة فى حياته يمرغ وجهه بها حين يأكلها أول مرة !..

قال روبيان :

ـ معذرة ... ان أعمال الجمعية تتطلب بعض المظاهر !

ـ نعم ومن أجل هذا لم تدخل ابنتى فى اللجنة .. حتى لاتوسخ المركبات الفخمة !..

ـ ثم ان المركبة الفخمة قد تكون للسيدة الاخرى التى معها .

فمشى الماجور بضع خطوات ، واضعا يديه وراء ظهره ، ثم وقف أمام روبيان وقال :

ـ للسيدة الاخرى ... أو للأب مانديس . بالمناسبة ، كيف حاله ؟ رضى البال طبعا ...

قاطعته تونيكا قائلة :

ـ ولكن يا بابا قد لا يكون ثمة شيء البتة . انها لا تزال لطيفة

معي كل اللطف . وحين مرضت فى الشهر الماضى أرسلت عبدا تسأل عن صحتي مرتين ...

فصاح أبوها :

أرسلت عبدا ... أرسلت عبدا . ما أعظمه من تفضل ! « ياعبد ... اذهب الى بيت ذلك العسكرى المتقاعد ، واسأله هل تحسنت صحة ابنته . لن أذهب الى هناك ، لانني بسبيل صقل أظافرى!» نعم ... انه لتفضل عظيم ! انت يا ابنتى لا تصقلين أظافرك ... أنت تعملين ! أنت فقيرة يا ابنتى العزيزة ، فقيرة ولكنك شريفة !

قال الماجور ذلك وأخذ يبكى ، ولكنه لم يلبث أن كفكف دموعه فجأة ، وتأثرت ابنته تأثرا شديدا ، وانتهت الى الشعور بالمذلة هى أيضا . والحقيقة ان الحجرة نفسها كانت تحدث عن فقر هذه الاسرة أكثر من أى شىء آخر : مقاعد قليلة ، ومنضدة مدورة عتيقة ، وأريكة بالية ، وعلى الجدارين صورتان منقوشتان محاطتان باطار اسود ، احداهما تمثل الماجور عام ١٨٥٧ ، والثانية مشتراة من شارع السنيور دوس باسوس وتمثل فيرونيز بالبندقية . لكن المرء يشعر بعمل تونيكا فى كل موضع من الحجرة : الاثاث يلتمع نظافة ، وعلى المنضدة غطاء مطرز من صنعها ، وعلى الاريكة مخدة . ومن الخطأ أن يقال ان تونيكا لا تصقل أظافرها . فلئن لم يكن عندها مسحوق ولا جلدا شاموا ، فقد كانت تستعيض عن ذلك كل صباح بحك أظافرها على قطعة صغيرة من القماش .

١٢٧

أظهر لهما روبيان مودة كبيرة ، وكف عن الدفاع عن أسرة باليا حتى لا يحزن الماجور كثيرا . واستأذن بالانصراف بعد ذلك بقليل. واعدا أن يجىء اليهم « ذات يوم » ليتعشى معهم ، دون أن يدعى الى هذا . فقال له الماجور :

ــ عشاء فقراء . ليتك تنبئنا بمجيئك قبل حين اذا استطعت.

ــ لا أريد وليمة . سأجىء فى أول يوم يخطر ببالى أن أجىء فيه.

قال ذلك واستأذن بالانصراف. وشيعته تونيكا حتى السلم، لكنها لم تمض الى أبعد من ذلك بسبب حذاءيها العتيقين ، ثم وقفت الى النافذة لتراه وهو يخرج .

١٢٨

حتى اذا انعطف روبيان عند ناصية شارع مانجيراس ، رجعت تونيكا ومضت نحو أبيها الذى كان قد تمدد على الاريكة بعيد قراءة كتابه القديم « سان كلير الجزر أو المنفيون فى جزيرة البارا » . انها أول رواية قرأها ، ويزيد عمر النسخة التى عنده منها على عشرين عاما ، وهى كل مكتبة الاب وابنته . فتح سيكويرا الجزء الاول وأخذ ينظر فى بداية الفصل الثانى . كان يحفظ هذه البداية عن ظهر القلب ، ولـكنه يجد لها الآن بسبب كروبه الحديثة مذاقا خاصا : « صاح سان كلير يقول : اترعوا أقداحكم ، ولنفرغها فى أجوافنا دفعة واحدة . هـــذا هو النخب الذى أقترحه : نخب المضطهدين من خيار الناس وشجعانهم ، نخب القصاص الذى سينال مضطهديهم . فرفعوا أقداحهم جميعا فى اثر سان كلير ... »

ــ فى رأيى يا أبت أن تشترى غدا علب طعام محفوظ من سمك وبسلى وغير ذلك ، حتى اذا جاء للعشاء يوما لم يكن علينا الا أن نضعها فوق النار لتسخن، فنستطيع بذلك أن نقدم له عشاء أجود.

ــ ولـكن ليس معى الا ثمن فستانك .

ــ فستانى ! سنشتريه فى الشهر التالى أو الشهر الذى بعده . سأنتظر .

ــ واذا لم نجد فستانا بمثل هذا الثمن فى ذلك الوقت ؟

ــ سنجد حتما . سأنتظر يا أبت !

١٢٩

انتهز هـذه الفرصة لأقول لـكم ــ وذلك ما لم أستطعه حتى الآن لأن الفصول قد تدافعت تدافعا أثناء الكتابة ــ أن دائرة علاقات روبيان كانت قد اتسعت اتساعا كبيرا فى أثنـاء ذلك . لقد وصله كاماشو بعدد كبير من رجال السياسة ، ووصلته لجنة الاجواس بعدد من السيدات ، ووصلته المصارف والشركات بشخصيات من رجال الاعمال والمال ، ووصلته المسارح بروادها ، وصله شـارع أوفيدور بجمهرة من الناس ، حتى صار أسمه وشخصه معروفين. فمتى رأى الناس لحية وشاربين طويلين ، وردنجوتا محكما وصدرا مريضا وعصا من قرن الـكركدن ، متى رأوا هـذا كله على مشية واثقة مسيطرة ، قالوا على الفور انه روبيان ــ ثرى ميناس .

حتى لقد أصبحوا يحيطونه بأسطورة . فهم يقولون انه تلميذ فيلسوف كبير أورثه ثروة طائلة تقدر بألفين ، بثلاثة آلاف ، بخمسة آلاف من القونتات . وكان بعضهم يستغرب أن الرجل لا يتكلم فى الفلسفة ، ولكن الاسطورة كانت تعلل هذا الصمت بأنه من المنهج الفلسفي الذى يلتزمه الاستاذ ، وقوام هذا المنهج ألا يعلم هذه الفلسفة الا لاصحاب النيات الطيبة . ولكن أين تلاميذه ؟ انهم يذهبون الى بيته كل يوم ، وقد يذهبون مرتين فى اليوم : صبحة ومساء . فهذا هو الاسم الذى أصبح الناس يطلقونه على الآكلين الشاربين فى بيت روبيان . أما انهم تلاميذ فلا ، واما انهم من أصحاب النيات الطيبة ، فنعم ... ان لهم من النيات الطيبة ما يفيض عنهم ويزيد ... كانوا يصرخون من الجوع وهم فىانتظار « امفتريون » مضيفهم ، ثم يصغون الى خطبه صامتين وقد علت البسمة شفاههم . حتى لقد قام نوع من التنافس بين القدماء منهم والجدد ، وهو تنافس كان القدماء يقوونه بظهورهم أمام الجدد بمظهر فيه الكثير من التيه والتفاخر . انهم أقرب الى رب البيت مودة ، يأمرون الخدم ويطلبون السيجار وينتقلون الى الحجرات الخلفية ويصفرون فى غير تحرج ، وهلم جرا ... الا ان العادة قد أدت بهم أخيرا الى أن يحتمل بعضهم بعضا ، وكانوا مجمعين على تمجيد فضائل رب البيت . ولم يلبث الجدد أن أصبحوا هم أيضا مدينين له بمال ، سواء أكان الدين نقدا أم كان كفالة أو ضمانة يسددها روبيان خفية .. حتى لا يشعروا بغضاضة !

وكانوا مجمعين على تدليل الكلب كونكاس بوربا . فهم يصفقون بأصابعهم ليثب ، حتى ان بعضهم يقبله من رأسه . واستطاع بارع منهم أن يقعده على ركبتيه وهم جلوس الى المائدة ليطعمه كسرات من الخبز .

قال روبيان محتجا فى أول مرة :

ـ لا ... هذا لا ...

فأجاب الضيف سائلا :

ـ أى ضير فى هذا ؟ ليس ثمة غرباء ...

ففكر روبيان لحظة ثم قال :

ـ ان فى داخل هذا الكلب انسانا عظيما .

فأكمل الضيف يقول وهو يجيل نظره فى الجدد ليظهر لهم مدى ما بينه وبين روبيان من علاقات وثيقة :

ـ الفيلسوف ، كونكاس بوربا الآخر .
لـكنه لم يستطع أن يحتكر لنفسه هـذه الميزة ، لان جميع « القدماء » رددوا عندئذ يقولون :
ـ صحيح ، الفيلسوف .

وراح روبيان يشرح للجدد هذه الاشارة الى الفيلسوف ويوضح لهم السبب الذى من أجله يطلقون هذا الاسم على الـكلب . ووصفه لهم كونكاس بوربا « المرحوم » بأنه رجل من أعظم رجال زمانه ، وانه يفوق جميع معاصريه . فيلســـوف عظيم ، قلب عظيم ، صديق عظيم ...
وصاح روبيان يقول بعد لحظة من صمت وهو ينقر على المائدة بأصابعه :
ـ لو كان حيا لجعلته وزيرا .

فهتف أحد الضيوف يقول من غير اقتناع ، بل من باب القيـام بالواجب :
ـ آ ... طبعا .
ولم يكن أحد من هؤلاء الناس يعرف شيئا عن التضحيات التى كان يرتضيها روبيان فى سبيلهم . لقد كان يرفض حضور حفلات العشاء ويرفض الاشتراك فى النزهات ، ويقطع الاحاديث المتعة ، فى سبيل أن يعود الى البيت مسرعا ليتعشى معهم . غير انه استطاع ذات يوم أن يوفق بين الامور ، فقـال ان على الخدم أن يقدموا العشاء لاصدقائه اذا لم يعد هو الى البيت فى الساعة السادسـة تماما . وقد أثار هذا احتجاجات كثيرة . قالوا : لا ... مستحيل ... انهم مستعدون للانتظار حتى السابعة أو الثامنة اذا اقتضى الامر ، فلا لذة فى عشاء لا يشارك هو فيه ...
فقال روبيان :
ـ ولـكن قد لا أعود أبدا .

وكذلك كان . ولم يفت الضيوف أن يضبطوا ساعاتهم على ساعة بيت بوتافوجو . فكانوا متى أزفت السـاعة السادسـة يجلسون جميعا الى المائدة . وقد حدث فى اليومين الاولين شىء من التردد طبعـا . ولـكن الاوامر التى صـدرت الى الخدم كانت صريحة صارمة . وكان روبيان يصل فى بعض الاحيان بعد السادسة بقليل ، فتقوم عندئذ قهقهات ونكات ولدعات ... فهذا يقول انه أراد أن ينتظر ، ولـكن الآخرين ... فاذا بالآخرين يهبون الى تكذيبـه ،

ويقولون ان صاحبهم هذا هو الذى حملهم على البدء بالعشاء ، وانه كان قد بلغ من فرط الجوع انه أجهز على المائدة فلم يبق الا على الصحون . وكان روبيان يضحك معهم جميعا ...

١٣٠

آن أكتب فصلا لا لشىء الا أن أقول ان ضيوف روبيان كانوا فى أول الامر أثناء غيابه يدخنون من سيجاره بعد العشــاء ، فذلك شىء قد يبدو تافها حتى لأكثر الناس تعلقا بالامور اليسيرة . لــكن أصحاب الشأن سيقولون لــكم ان هذا الامر التفصيلى هام ولو بدا فى الظاهر خليقا بأن يهمل .

ففى ذات مساء خطر ببال واحد من أقدم رواد البيت أن يمضى الى حجرة مكتب روبيان . وكان قد مضى الى هذه الحجرة مرات كثيرة من قبل . ففيهاكانت علب السيجار ــ لا أربع علب أوخمس، بل عشرون أو ثلاثون علبة ، من أصناف شتى وحجوم مختلفة ــ وكان عدد كبير من هذه العلب مفتوحا . أشعل الخادم «الاسبانى» النور . وتبع سائر الضيوف الضيف الاول . واختــار كل منهم سيجاره . والذين كانوا لا يعرفون الحجرة قبلذلك ، أعجبوا بالاثاث الذى فيها ، وهو اثاث جميــل أحسن ترتيبــه . وكانت هنالك منضدة من خشب الابانوس فازت باعجابهم جميعا : قطعة متينة قاسية ، رائعة النسب . غير ان هناك شيئا جديدا كان ينتظرهم جميعا : تمثالان من المرمر وضعا فى أعلى المنضدة أحدهما لنابوليون الاول ، والآخر لنابوليون الثالث .

ــ متى وضع هذان التمثالان هنا ؟

فقال الخادم :

ــ ظهرا هذا اليوم .

انهما تمثالان عظيمــان . الى جانب نظرة النسر التى هى نظرة العم ، هناك نظرة ابن الاخ الحالمة التائهة فى الغموض ، وذكر الخادم أن سيده بعد أن تلقى التمثالين ووضعهما فى هذا المكان ظل مدة طويلة يتأملهما معجبا ، وبلغ من استغراقه فى تأملهما ان الخادم نظر هو أيضا اليهما ، لــكنه لم يشاركه اعجابه بهما . قال الخادم وهو يقوم بحركة مسرحية :

ــ لا يعجبنى هذان الشخصان (١)

(١) بالاسبانية فى الاصل (المترجم)

١٣١

كان روبيان يرعى الآداب رعاية كبيرة . وكان الناشر الذى ينشر كتابا مصـــدرا باهـــداء اليه يضمن أن يبيع منه مائتى أو ثلاثمائة نسخة على الاقل . وغرق روبيان فى ركام من صكوك الشرف التى نهديها اليه الجمعيات الادبية والموسيقية والدينية وغيرها. وكان عضـــوا فى جماعة كاثوليكية وعضـــوا فى جماعة بروتستانتية فى آن واحد ، لأنه لم يتذكر انتســـابه الى أولاهما حين عرض عليه أن ينتمى الى الاخرى . وكان ما يعمـــله هو على كل حـــال أن يدفع الاشتراكات الشهرية الى الجمعيتين كلتيهما . وقد اشترك أيضـــا فى جرائد لايقرؤها . وعلى هذه الصورة علم ذات يوم من الجابى حين دفع له اشتراكه فى الجريدة عن ســـتة أشـــهر أن الجريدة حكومية ، فما كان منه الا أن شتم الرجل ...

١٣٢

غير ان الرجل لم يعبأ بالشتيمة ، وأخذ قيمة الاشتراك فى آخر الامر . واذ كان يملك موهبة الملاحظة التى يملـــكها جباة المال فى العادة ، دمدم يقول وهو فى الشارع :

ــ هذا رجل يحتقر الجريدة ويدفع اشتراكها مع ذلك ، فكم من رجل يعبدها عبادة ولا يدفع شيئا البتة .

١٣٣

ولـــكن ــ يا للحظ ويا للعدالة الطبيعية ! ــ لئن كانت تبذيرات صاحبنا داء لا علاج له ، فهناك الآن ما يعوض عنها . لقد انتهى العهد الذى كان فيه روبيان يقضى وقته كسلان خالى الذهن من أى فكرة ! ولئن أعوزته الافكار ، ان رأسه ليفيض الآن بالاخيلة . كان قبل ذلك يعيش بالآخرين أكثر مما يعيش بنفســه ، فلا يتأتى له تحقيق توازنه الداخلى ، فى ساعات من الفراغ تبدو له طويلة لاتنتهى ... أما الآن فان كل شىء قد أخذ يتبدل ، وأصبح للخيال فى نفسه أكبر نصيب . صار يستطيع الآن أن يقضى صبيحة بكاملها جالسا فى مخزن برناردو دون أن يبدو له الوقت طويلا ، ودون أن يرى ان شـــارع أوفيدور الضيق يســـد أمامه الافق . ان رؤى لذيذة ــ كتلك التى تتصل برؤى عرسه « الفصل ٨١ » ــ رؤى

تتنازعه فيها العظمة والمتعة ، تهدهد الآن روحه من جديد . وكان يراه الناس فى مثل تلك اللحظات يثب من كرسيه على حين فجأة مرات كثيرة ويمضي الى الباب لينعم النظر الى أحد المارة . أهو يعرفه ؟ أم هو أحد يشبه الشخص الذى كان يراه بخياله ؟ تلك أسئلة أكثر من أن يجيب عنها فصل واحد . وحسبى أن أقول الآن انه هرع ذات مرة الى البـــاب دون أن يكون ثمة مار به . وقد أدرك هو نفسه انه واهم ، وعاد الى الداخل فاشترى لعبـــة من البرونز لابنة كاماشو التى يحتفل اليوم بعيد ميلادها والتى ستتزوج قريبا ، ثم انصرف .

١٣٤

وصوفيا ؟ هـــــذا هو السؤال الذى تطرحه القارئة التى نفد صبرها ، كما كان أورجون يسأل : وطرطوف ؟ ولــكن الجواب أيتها العزيزة هو نفسه : انها هى أيضا تأكل وتنام كما تشاء ، وهــذا لايمنعها طبعا من أن تحب متى أرادت أن تحب . واذا كانت هذه الملاحظة الأخيرة هى السبب الخفى الذى دفعك الى طرح هـــــذا السؤال ، فاسمحى لى أن أقول لك انك لا تحسنين الــكتمان ، وأنا امرؤ لا أتفاهم شخصيا الا مع المتحفظين من الناس ...

أعود فأقول انها تأكل وتنام كما تشاء . وقد قامت بأعمال لجنة الآلاجواس خير قيام ، وأثنت عليها الصحافة ثناء عاطرا ، حتى أن جريدة « الخفير » قد خلعت عليها لقب « ملاك المواساة » . ولكن يجب ألا يقع فى ظنك ان هذا اللقب قد ملأها فرحا ، رغم ما فيه من مديح . اذ قدرت أنه حين ينسب اليهـــا وحدها الفضل فيما تحقق من عمل ، فقد يؤدى ذلك الى ايذاء صـــديقاتها الجديدات فتفقد فى يوم واحد ما عملت له خلال شهور طويلة ، وهــذا هو السبب فى أن الجريدة نفسها نشرت فى عددها التالى مقالا جديدا ينعت جميع سيدات اللجنة بأنهن « نجوم من أرفع طراز» ، ويصف أسهام كل منهن فى العمل المشترك ويمجده أعظم التمجيد .

ولم تحتفظ أسرة باليا بعد انتهاء أعمال اللجنة بجميع العلاقات التى عقدتها ، غير ان علاقات كثيرة منها قد توطدت وترسخت ، ولم يكن من الصعب على صوفيا طبعا أن تجعلها ثابتة بما تملك من موهبة . كان زوجها هو الذى يرتكب الخطأ فى هذا ، اذ يسرف فى الظهور بمظهر الرجل الورش الطافح حركة ، فيدل على انه يرى

هؤلاء الناس يغمرونه بلطف وكرم وعطف يوشك الا يستحقه .
ولم يفت صوفيا ان تزجى اليه النقد والنصح ضاحكة من أجل أن تصلح الامر ، فهى تقول له مثلا : « كنت اليوم لا تطاق ، لكأنك واحد من الخدم .. » أو تقول له : « كرستيانو ، حاول أن تراقب نفسك عندما نستقبل الزائرين . تجنب أن تخرج عيناك من رأسك ، وأن تثب من جهة الى جهة كطفل أعطى حلوى » .

وكان باليا يتكر ويتعلل ويحاول أن يسوغ سلوكه ، لكنه كان يعترف فى آخر الامر دائما بأنها على حق ، وبأن عليه ألا يشعر الآخرين بكونه أدنى منهم . يجب أن يكون كيسا ولطيفا ، ولكن لا أكثر من ذلك ... — تماما . ولكن يجب أن تتحاشى الافراط والتفريط كليهما . يجب ألا تصبح فظا شرسا ...

فكان باليا يمثل الدورين فى آن واحد ، فهو فى أول الامر فظ فاتر ، يوشك أن يكون متعجرفا . لكنه ما يلبث أن يسترد حماسته المعتادة شيئا بعد شىء ، سواء أكان ذلك عن تفكير أم لا ، وما يلبث فى الوقت نفسه أن يسترد مبالغته وانطلاقات صوته على حسب الاحوال . غير ان صوفيا كانت تصلح الموقف لحسن الحظ ، بما تملك من قدرة على الملاحظة والمحاكاة . ان الضرورة والمواهب الطبيعية سرعان ما أكسبتها ما لم يمن به عليها محتد كريم أو ثراء عظيم — وكان من حظها انها فى ذلك العمر المتوسط الذى يجعل صاحبه محبوبا من الفتيات اللاتى هن فى العشرين ومن النساء اللاتى هن فى الاربعين . كانت محببة الى هؤلاء السيدات فهن يعبدنها عبادة ، وكان عدد كبير منهن يغرقها بالمديح . وعلى هذا النحو استطاعت صاحبتنا أن تخلق حول نفسها جوا جديدا ، شيئا بعد شىء . فقطعت علاقات الاسرة بجميع الاصدقاء القدامى ، رغم ان قطع بعض هذه العلاقات ولا سيما الحميمة منها لم يكن بالامر السهل . لكن صوفيا كانت تتمتع الى أقصى حد بتلك الموهبة التى تمكن صاحبها من أن يستقبل فى غير حرارة ، وأن يصغى بغير اهتمام ، وأن يودع على غير أسف . فاذا بأولئك المساكين المتواضعين ، أولئك الاصدقاء الذين ليس لهم شأن يذكر ، أولئك الاشخاص الذين لايحسنون اصطناع الآداب الراقية وارتداء الملابس الانيقة وتعاطى التسليات الرفيعة ، أولئك الذين لاتدل عاداتهم الا على التأخر والبساطة ، كل هؤلاء أخذوا يختفون واحدا بعد واحد .. كانت تتصرف مع الرجال ذلك التصرف الذى وصفه

الماجور ، حين صادفته وهى راكبة عربتها ... « يجب أن نذكر هنا ان العربة كانت عربتها حقا » . والفرق الوحيد انها أصبحت تمتنع حتى عن القاء نظرة خاطفة على الناس لتتأكد من انهم رأوها. لقد انقضى العهد الذى كانت لا تزال تسمح فيه لنفسها بذلك . انها الآن تشيح بوجهها فى قسوة ، فتستبعد بحركة حاسمة كل تردد ، وتجبر أصدقاءها القدامى على ألا يحيوها .

١٣٥

أراد روبيان أن يتوسط للماجور ، لكن صوفيا صدته ، وظهر على وجهها من الضجر ما جعل صاحبنا يؤثر أن يسألها ألا يزال الاتفاق قائما على أن يذهبوا صباح الغد فى نزهة الى توجوكا . فقالت صوفيا :

ــ حدثت كرستيانو فى أمر هذه النزهة ، فذكر انه على موعد من مواعيد العمل فى الغد ، وان الافضل ارجاء القيام بالنزهة الى يوم الاحد القادم .

أردف روبيان يقول بعد هنيهة :

ــ فلنذهب نحن الاثنين . أن فى وسعنا أن نرحل فى ساعة مبكرة ، فنقوم بالنزهة ، ونتغدى هناك ، ثم نعود فى الساعة الثالثة أو الرابعة .

فنظرت اليه صوفيا وفى عينيها من الرغبة فى الموافقة على اقتراحه ما جعل روبيان يقول دون أن ينتظر جوابها :

ــ اتفقنا اذن .. سنذهب !

ــ لا !

ــ كيف لا ؟

وكرر سؤاله مرة أخرى ، لأن صوفيا لم تعقب على رفضها بأى شرح . وكان السبب الذى يدفعها الى الرفض واضحا مع ذلك ، واضطرت بسبب الحاحه أن تشرح له ان زوجها قد يقتدى بهما فيرجىء موعده من أجل أن يرافقهما ، وهى لا تحب أن تزعجه فى أعماله . ألا يمكنهما أن ينتظرا ثمانية أيام ؟

وكانت نظرات صوفيا ترافق هذا الشرح باقتناع وتوافق يعادلان توافق أصوات البوق مع الصلاة الربانية . نعم لقد كانت تحب أن تذهب فى نزهة مع روبيان فى صباح الغد : وها هى ذى تتصور نفسها فوق صهوة جوادها تجرى به خببا تارة ، وعدوا تارة

أخرى ، وتقف على الطريق من حين الى حين ، منتصبة القامة على ظهر حصانها ، متقدة الوجه حماسة ولذة ، لا تشعر بشيء من كآبة ولا تغرق فى أحلام باطلة ... حتى اذا بلغت القمة نزلت عن حصانها ووقفت وحيدة بين السماء العالية والمدينة البعيدة ... ثم مالت على الحصان ومرت بيدها على لبته ، وأصغت الى روبيان يمتدح جسارتها وحذقها ... بل كأنى بها تشعر منذ الآن بقبلة تلامس نقرتها .

١٣٦

وما دمنا بصدد الكلام عن الخيل فمن المناسب أن نذكر ان خيال صوفيا قد أصبح الآن أشبه شيء بحصان جامح وثاب قادر على أن يقطع التلال والغابات فى غير ارتباك ... أن هذا التشبيه لا يصلح لأى ظرف غير هذا الظرف . ولكنه هنا خير تشبيه . الا يذكر الحصان بالجموح والقوة والعدو ؟ الا يذكر فى الوقت نفسه بالهدوء الذى يتميز به حين يعدو الى اسطبله على الطريق المستقيم ؟

١٣٧

قال روبيان وقد لاحظ بريق عينى صوفيا :

ــ اتفقنا . نذهب غدا !

ولكن الحصان كان قد عاد من جولته الخيالية المجنونة متعبا ، فهو الآن فى اسطبله ناعس وسنان . كانت صوفيا قد تبدلت ، فالدوار الذى عصف برأسها منذ دقائق ، والجولة الجامحة التى تخيلتها ، واللذة التى منت بها نفسها صاعدة معه فى طريق توجوكا ، كل ذلك قد اختفى الآن ... واذ قال لها روبيان انه سيستأذن زوجها فى قيامهما بهذه النزهة ، أجابته بلهجة وانية :

ــ أأنت مجنون ؟ فلندع هذا الى يوم الاحد القادم !

ثم ثبتت نظرها على قطعة القماش التى كانت تطرزها وتسميها « تسلية » ... بينما راح روبيان يطوف ببصره على ركن صغير بائس من حديقة تمتد أمام حجرة المكتب التى كانا فيها . وكما استمرت صوفيا ، وهى جالسة عند طرف النافذة ، تعمل محركة اصابعها بمرونة ورشاقة وخفة فكذلك راح خيال روبيان يخلق حفلة

امبراطورية من الوردتين المبتذلتين اللتين كانتا فى ركن الحديقة ، حتى نسى الحجرة والمرأة فى آخر الامر ونسى معهما نفســــه .
لا أعرف على وجه اليقين كم مضى من الوقت وهما صامتان هـذا الصمت كله ، غريبان أحدهما عن الآخر هذه الغرابة كلها . ثم لم يعودا الى الواقع الا عندما جاءتهما احدى الخادمات بالقهوة . فلما فرغ روبيان من احتساء قهوته ، مد لحيته وأخرج ساعته واستأذن بالانصراف . وكانت صوفيا تنتظر انصرافه بصبر نافد ، فسرها كثيرا ان يهم بتوديعها ، لـكنها أخفت سرورها وراء اصطناع التعجب الـكاذب قائلة :

ــ الآن ؟

فأجابها :

ــ نعم ! ان شخصا ينتظرنى قبل الساعة الرابعة . هل ألغيت النزهة اذن ؟ طيب ... سألغى طلب الخيل . ولـكن هل أكيد اننا سنقوم بالنزهة يوم الاحد القادم ؟

ــ أكيد ، أكيد ، لا . ولـكن أظن اننا سنقوم بها يوم الاحــد القادم . أنت تعلم ان زوجى رجل الموانع والحوائل .

وشيعته صوفيا الى الباب ، ومدت اليه يدها فى غير اكتراث ، وأجابت مبتسمة عن كلمة عابرة لا قيمة لها ، ثم عادت الى الحجرة الصغيرة التى كانت فيها ، وجلست عند طرف النافذة نفسها . ولـكنها لم تستأنف شغلها فورا ، وانما وضعت ساقا على ســاق دون أن تنسى بحكم العــادة أن تشد تنورتها الى أسفل ، وألقت نظرة على الحديقة التى أتاحت وردتاها لصاحبنا أن يتخيل مشهدا امبراطوريا ، فلم تر صوفيا فيهما أكثر من زهرتين خرساوين . ومع ذلك فقد حدقت اليهما بضع لحظات ، ثم عادت الى «تسليتها» ، فاشتغلت قليلا ، ثم لم تلبث أن توقفت عن العمل واضعة يديها فوق ركبتيها ، وعادت الى الشغل بعد قليل ثم تركته مرة أخرى ، وهبت واقفة ، فرمت كبب الخيطان والمكوك فى سلة صغيرة من الخيزران كانت تضع فيها أدوات « شغلها » . ان السلة هدية من روبيــان .

ــ رجل مضجر ! ممل !

كذلك قالت صوفيا ، ثم مضت تستند الى النافذة المطلة على ذلك الطرف من الحديقة الذى كانت فيه الوردتان المبتذلتان تذبلان . ان الورد حين يكون نضرا لا يحفل كثيرا أو لا يحفل البتة بما فى نفوس

الناس من أنواع الغضب . لكنه حين يذبل يتفنن في ايلام قلب الانسان . وأغلب ظني أن مرد هذه العادة الى قصر عمره . لقد كتب أحدهم يقول : « البستاني خالد في نظر الورد » . وهل من وسيلة الى الاستخفاف بهذا الموجود الخالد غير الاستهزاء ؟ « أمضي أنا وتبقى أنت . أما أنا فلم أزد على انني تفتحت وعطرت وأرضيت النساء والفتيات وكنت رسالة حب وزينت أعراس الرجال أو فنيت فوق غصني . ما مستني يد ولا رأتني عين الا في اعجاب وحنان . وأما أنت ، أيها الخالد ، فشأنك شأن آخر . أنت تغضب ، وتتألم ، وتبكي ، وتحزن . ان خلودك لايساوي دقيقة واحدة من دقائقي » .

لذلك ، حين وصلت صوفيا الى النافذة المطلة على الحديقة ، أخذت الوردتان تضحكان وهما تنشران أوراقهما . قالت احداهما : أحسنت .. أحسنت .. أحسنت ... ثم أضافت :

ــ من حقك أن تغضبي أيتها المخلوقة الجميلة ، ولكن يجب الا تغضبي منه بل من نفسك . ما قيمته هو ؟ انه رجل مسكين لا فتنة له ولا سحر . قد يكون صديقا طيبا ، وقد يكون كريما ، لكنه منفر ، أليس كذلك ؟ وانت ، أنت التي يغازلك كثيرون غيره ، أي شيطان يحضك على أن تصيخي بسمعك الى هذا التافه ؟ غضي طرفك مذلة أيتها المخلوقة الرائعة ، فأنت أنت سبب ما تشكين من داء . تحلفين انك ستنسين هذا الرجل ، ثم لا تفعلين شيئا البتة . وهل أنت في حاجة الى نسيانه ؟ أليس يكفيك أن تنظري اليه ، وأن تسمعي كلامه ، حتى تحتقريه ؟ انه لا يقول شيئا أيتها المخلوقة الغريبة ، وأنت ...

فقاطعتها الوردة الثانية تقول بصوت هادىء ساخر :

ــ في هذا شيء من المبالغة . انه يقول شيئا ما ، بل انه يكرر ما يقول منذ زمن طويل : لا ينسى أبدا ، ولا يتبدل قط . انه ثابت ، ولا يزال الامل يملأ قلبه رغم حزنه . ان حياته الغرامية كلها شبيهة بنزهة تيجوكا التي سمعنا حديثها منذ قليل « تؤجل الى الاحد القادم ! » . قليلا من الرحمة على الاقل ! شيئا من الشفقة ياصوفيا ، يا ذات القلب الطيب ! واذا كان عليك أن تحبي أحدا غير زوجك ، فأحبيه ، أحبيه هو ، هو الذي يحبك ، ويكتم حبه هذا الكتمان كله . تشجعي ، واندمي على هذا الموقف الذي وقفته منذ برهة . ما اساءته ؟ هل ذنبه انك جميلة ؟ واذا كان ثمة

ذنب ، فليس ذنب السلة ، على كل حال ، ولا ذنب كبب الخيطان، ولا ذنب المكوك الذى أرسلت الخادم لشرائه . انت شريرة يا صوفيا ، أنت ظالمة ...

١٣٨

وكانت صوفيا تصغى وتصغى ... وسألت نباتات أخرى ، ولكن هذه النباتات الاخرى لم تجبها بغير ما قالته لها الوردتان ... هناك مصادفات عجيبة من هذا النوع ... ان من يعرف أسرار الحياة يعرف ان جدارا ومقعدا وسجادة ومظلة يمكن أن تزخر بالافكار والعواطف حين نزخر نحن بهذه الافكار والعواطف ، وان تبادل الآراء بين البشر والاشياء ظاهرة من ألطف ظواهر الحياة على هذه الارض.
يقول تعبير برتغالى « تحدث فلان مع أزراره » . قد يبدو هذا التعبير مجازا من المجازات لا أكثر ، ولكنه فى الواقع ملىء بالمعنى؛ ملىء بمعنى عيانى واقعى . ان الازرار تستجيب لنا على نحو ما نستجيب لها ، فى وقت واحد ، ويتألف منهما مجلس كمجلس الشيوخ ، مجلس مناسب قليل التكاليف ، يقترع دائما بالاجماع على اقرار ما نعرض عليه من اقتراحات .

١٣٩

تمت رحلة تيجوكا . ولم يقع فيها الا حادث سقوط ، لحظة نزلوا عن خيولهم . لم يسقط روبيان ، ولا باليا ، ولكن زوجة باليا — لا أدرى ماذا راود ذهنها من أفكار — أخذت تضرب حصانها بالسوط حانقة ، فخاف الحصان فرماها الى الارض . وقد سقطت فى خفة ورشاقة . لقد كانت رشيقة رائعة وهى فى ثوبها الامازونى، وكانت خليقة بأن تغرى الشيطان نفسه ... لو رآها عطيل على هذه الحال لما فاته أن يهتف قائلا : « أيتها المقاتلة الجميلة» . أما روبيان فقد اكتفى بأن دمدم يقول لها فى أول الرحلة : « أنت ملاك ! » .

١٤٠

— اشعر بألم فى ركبتى .
كذلك قالت صوفيا حين عادت الى البيت ، وكانت من جهة

اخرى تعرج طوال الوقت . قال لها زوجها :
ــ أريني !
فلما وصلت الى غرفتها ، وضعت قدمها على مقعد صغير ، وأطلعت زوجها على الركبة الموجعة . كانت الركبة قد تورمت قليلا ــ قليلا جدا ــ وكانت صوفيا تأخذ بالتأوه اذا مست ركبتها ، ومن أجل ألا يسبب لها باليا مزيدا من الالم اكتفى بأن لامس بشفتيه موضع الوجع .
سألته صوفيا :
ــ ألم أكن فى وضع غير لائق حين سقطت ؟
ــ لا ... ثم ان ثوبك طويل جدا ... لم نكد نرى الا طرف القدم . صدقيني . لم يحدث شيء ذو بال ..
ــ أتحلف ؟
ــ ما أكثر ارتيابك يا صوفيا ! أحلف لك بأقدس شيء ، بضياء الشمس ، بسيدنا يسوع المسيح . هل اقتنعت الآن ؟
وكانت صوفيا تستر ركبتها .
ــ أريني مرة أخرى . أظن ان الصدمة بسيطة . ضعي على ركبتك قليلا من المرهم . أرسلي من يسأل الصيدلي عن أحسن مرهم ؟
قالت وهي تحاول أن تخفض ثوبها :
ــ طيب .. طيب .. دعني أذهب لأخلع ثيابي !

ولكن باليا أخذ يطوف ببصره فى باقي ساق صوفيا الى الموضع الذي يختفى تحت الحذاء . الحق إن هذه الساق التى كان جوربها الحريري يزيد فى ظهور جمالها ، كانت آية من آيات الطبيعة ... وراح باليا ، على سبيل المزاح ، يسأل امرأته هل تشعر بألم هنا أو بألم هناك أو هنالك أيضا ، مشيرا الى الموضع بيده التى كانت تهبط شيئا بعد شيء . « انها لو كشفت عن أى جزء من هذه الآيات حين سقطت ، لبهرت الاشجار والسماء جميعا» . كذلك قال باليا ، بينما كانت صوفيا تخفض تنورتها وتسحب قدمها عن المقعد . فأجابته قائلة :
ــ جائز . ولكن الاشجار والسماء لم تكن وحدها ، بل كانت هنالك عينا روبيان أيضا .
ــ صحيح ... روبيان ! انه لم يردد على مسامعك سخافات كتلك التى قالها فى سانتا تيريزا ، أليس كذلك ؟

ـ أبدا . ولـكن هل تحلف حقا ياكريستيانو ؟

ـ أنت تريدين دائما أن أعزز ايمانى بشىء أقدسه ! لقد حلفت لك بالله فما اكتفيت . فهأنذا أحلف بك أنت . هل اقتنعت الآن ؟

خرج كرستيانو أخيرا من غرفة امرأته ، واتجه الى غرفته . ان هذا الخفر الوجل المرتاب يملؤه ارتياحا : لقد برهنت له بذلك على انها له وحده ، على انها كلها له وحده . ولما كانت ملـكه ، كان لابد له من أن يتصرف تصرف مالك كبير لايكتـرث أى اكتـراث بنظرة عارضة سريعة يلقيها أحد الناس على جزء مستتر من مملكته . حتى لقد أسف على أن الحادث لم يكشف الا عن طرف القدم ... ليس هذا الا مخفرا أماميا على حدود المملـكة .

ولـكن الطلائع الاولى من هذه المملكة ، الطلائع التى تصل الى الموضع الذى أصيب عند القدم ، ربما كانت أحسن دلالة على كنوز الملـكة ... وبينما كان باليا يغتسل بالصابون ويحك وجهه وعنقه ورأسه فوق اناء كبير من الفضة ، وينظف أسنـانه بالفرشـاة ، ويتنشق ويتعطر ، كان يحلو له أن يتصور الدهشة والرغبة اللتين كان يمكن أن يشعر بهما ذلك الرجل الوحيد الذى شهد الحادث ، لو ان الحادث قد كشف عن مزيد من ...

١٤١

وفى هـــذه الفترة بالذات أغرق روبيان أصحابه جميعا فى حيرة ودهشة . فبعد نزهة تيجوكا بيومين « وكنا يومئذ فى شهر كانون الثانى ـ يناير من عام ١٨٧٠ » طلب الى مزين فى شارع أوفيدور أن يرسل اليه فى الساعة التاسعة من صباح الغد من يحلق له لحيته . فجاءه فى الموعد المضروب رجل فرنسى يقال له لوسيان كان فى الماضى ضابطا . فما أن وصل لوسيان حتى أدخله الخادم الى مكتب سيده ، عملا بالاوامر التى أصدرها اليه .

ـ غرررررر ...

كذلك صوت كونكاس بوربا الذى كان قابعا على ركبتى روبيان . وحيا لوسيان رب البيت ، لـكن هذا لم ينتبه اليه البتة ، لا ولا سمع غرغرة كونكاس بوربا . كان مستقرا على كرسى طويل ـ هل يناسب الاحلام شىء أحسن من الاستقرار على كرسى طويل ؟ ـ

وكان قد طار بعيدا بعيدا . أما عدد الفراسخ التى قطعها فى طيرانه فذلك ما لايستطيع أن يقوله باز ولا نسر ... والامر المحقق على كل حال هو انه كان ماضيا الى القمر وانه أصبح لايرى على هذه الارض الا الافراح الابدية التىأغرقته من المهد — حيث كان يحرسه موكب جنيات — الى أن صار على شاطىء بوتافوجو حيث حملته هذه الجنيات على بساط من ورد وياسمين ، فلا أثر للمصائب أو الاخفاق أو الفقر فى هذه الحياة البعيدة المنسوجة من ذهب ولذه ... كان ماضيا الى القمر حقا .

وألقى الحلاق نظرة على المكتب . فلفتت نظره منضدة الكتابة التى كان عليها تمثالا نابوليون ولويس نابوليون . وفيما يتصل بلويس نابليون كانت هنالك على الحائط أيضا لوحة تمثل معركة سولفيرنيو ، وصورة للامبراطورة أوجينا .

وكان روبيان ينتعل خفين من الدمقس لهما حواف مذهبة ، وعلى رأسه قبعة يزينها شريط من حرير أسود . وكانت ترتسم على فمه ابتسامة سماوية كاللازورد .

١٤٢

— سيدى !

— غرررر ...

كذلك غرغر الكلب مرة أخرى وقد وقف الآن على ركبتى سيده .

فثاب روبيان الى الواقع ، ووجد نفسه أمام الحلاق أنفا لأنف ، كان يعرف وجه الحلاق ، وقد لمحه منذ وقت قصير فى دكان المزين . فنهض عن مقعده ، بينما كان الكلب ينبح كأنما هو يريد أن يحميه من الدخيل .

قال له روبيان :

— اهدأ ! اسكت !

فخفض الكلب اذنيه وراح يندس وراء سلة الورق . وكان لوسيان يفض فى أثناء ذلك أدواته .

قال بالفرنسية :

— ستفقد لحية جميلة . أعرف اناسا فعلوا ذلك ، ولكنهم فعلوه ارضاء للسيدات . لقد كنت نجى عدد كبير من الرجال المحترمين ، يفضون الى بأسرارهم ، ويبوحون لى بما يعتمل فى أنفسهم ...

فقاطعه روبيان بقوله :
ـ تماما ..

ولم يكن قد فهم من كلام الحلاق شيئا . ذلك انه رغم المامه ببعض مبادىء اللغة الفرنسية ، كان لا يحسن فهمها قراءة فكيفه يحسن فهمها حديثا ! ولـكنه ـ وهذا وحده لا يخلو من عجب ـ لم يخبط فى جوابه خبط عشواء ، وانما وصلت اليه كلمات الحلاق مديحا أو ثناء .. وأعجب من ذلك انه حين أجاب عنها بالبرتغالية كان يتخيل انه يجيب بالفرنسية .

وعاد يقول :
ـ تماما . أريد أن أرد الى وجهى هيئته القديمة .

واذ أشار بأصبعه الى تمثال نابوليون الثالث ، أجابه الحلاق بقوله :

ـ آ .. الامبراطور ! تمثال جميل حقا . نعم نعم ، أثر فنى رائع جدا . هل اشتريته من هنا ياسيدى ، أم استقدمته من باريس ؟ كلا التمثالين رائع . هذا هو الاول ، الـكبير . لقد كان عبقريا . وكان بلا خيانة ! آه من الخونة ياسيدى ، ان الخونة لأسوأ من قنابل أورسينى نفسها ..
ـ أورسينى ! ياله من شقى !
ـ لقد دفع الثمن غاليا .
ـ الثمن ، دفعه . ولـكن القنابل ولا أورسينى تصمد لنجم رجل عظيم . حين تضع القوة الخفية المسيطرة على مصير الشعب تاج الامبراطورية فوق رأس رجل عظيم ، فما من خيانة تصمد .. أورسينى ! ياله من غبى !

ولم يلبث الحلاق أن أخذ يقص لحية روبيان ، فلا يدع له الا الشاربين ، والا كثة الشعر الصغيرة التى تميز ذقن نابليون الثالث . وكان كلما أمعن فى قص اللحية ، كال لها المديح وأشاد بجمالها ، قائلا ان قصها تضحية كبيرة يقوم بها روبيان ...

فقاطعه روبيان بقوله :
ـ أيها الحلاق ، ما أنت الا ثرثار ! لقد قلت لك ماذا أريد . رد الى وجهى القديم ! وانظر الى التمثال يرشدك الى ما يجب أن تفعله .

ـ طيب ياسيدى . سأتبع تعليماتك ، وسترى ما سيكون من شبه .

وبعد فترة فرغ من اعمال المقص فى لحية روبيان ، وأخذ يحلق خديه وجزءا من ذقنه . ودامت المهمة زمنا طويلا : فهو يتمهل فى الحلق ويقارن به وجه صاحبنا ووجه التمثال ، فيلقى نظرة على وجه الرجـل وأخرى على وجه التمثـال ، حتى ليتقهقر فى بعض الاحيان خطوتين الى وراء ليحسن الرؤية ، ينظر الى هذا ثم ينظر الى ذاك ، ويسأل الرجل أن يلتفت الى هذه الجهة أو تلك ، ويمضى ليرى فى التمثال ما يناسب أحد جانبى وجه روبيان .

سأله روبيان :

ــ هل يسير الامر على ما يرام ؟

فطلب منه الحلاق باشـارة من يده أن يسكت ، وتابع عمله . وعاد يقلم كثة الشعر التى على الذقن ، دون أن يمس الشاربين ، ثم أخذ يمعن فى قصها مرة أخرى ، وقد ظهرت فى وجهه علامات الجد والرصانة ، وعلامات الـكلل والملل . ما من رغبة فى وجه روبيان أو ذقنه ، مهما تكن دقيقة لا ترى ، كان يمكن أن تفلت من أصابعه المرنة الرشيقة ! وكان روبيان يتعب فى بعض الاحيـان من النظر الى السقف بينما يقوم الحلاق بآخر مراحل عمله ، فيطلب اليه أن يمهله بضـع دقائق ... وفيما هو يستريح ، كان يجس وجهه ، فيشعر بتغير ملمسه .

قال :

ــ الشاربان ليسا طويلين طولا كافيا ...

ــ لا يزال على أن أسوى رأسيهما ، لقد جئت بالمكواة الصغيرة التى تجعد الشعر من أجل أن أعقفهما فوق الشفة ، وسنعنى بعد ذلك برأسيهما . آه .. انى لأوثر أن أقوم بعشرة أعمال ليس فيها تقليد ، على أن أقوم بعمل واحد من أعمال النسخ .

وانقضت عشر دقائق أخرى قبل أن يفرغ الحلاق من الشاربين والـكثة تماما . وانتهى العمل أخيرا . فوثب روبيان من مقعده ، وهرع الى المرآة فى الحجرة المجاورة . حقا انه الاخ ، أو قل انهما شخص واحد ، أى انه هو نفسه !

ــ تماما !

كذلك قال وهو يعود من جديد الى حجرة عمله ، حيث كان الحلاق يداعب كونكاس بوربا بعد أن لم أدواته .

واتجه روبيان الى منضدة الـكتابة ، ففتح أحد الادراج ، وأخرج منه ورقة نقدية بمبلغ عشرين ألف رايش ، ومدها الى الحلاق .

قال الحلاق :

ـ ليس معى نقود لأرد الباقى ...

فأجاب روبيان وهو يحرك يده فى عظمة :

ـ ليس عليك أن ترد شيئا . اقتطع منها ما تدفعه لسيدك ، واحتفظ بالباقى لك أنت .

١٤٣

حين بقى روبيان وحده ، قعد على كرسي ، وأخذ يستعرض صورا من أكثر الصور عظمة وفخامة . انه الآن فى بيارتس أو فى كومبيين ، يصعب تحديد ذلك ... لعله فى كومبيين ... استلم أزمة الدولة ، واستقبل الوزراء والسفراء ، ورقص ، وتعشى ، وعمل أشياء أخرى كثيرة كان قد قرأها فى الصحف وبقيت فى ذاكرته . حتى نباح كونكاس بوربا لم يستطع أن يوقظه . لقد كان بعيدا كثير البعد ، عاليا شديد العلو ! لاشك ان كومبيين تقع فى منتصف الطريق الى القمر : لاشك انه كان ماضيا الى القمر !

١٤٤

وحين هبط من القمر سمع نباح الكلب ، وشعر فى الوقت نفسه ببرودة فى خديه . فهرع الى المرآة ، ورأى ان تخليص وجهه من اللحية ليس بالامر الذى لايناسبه ، وان يكن الفرق كبيرا بين وجهه الحليق ووجهه الملتحى . وقد خلص جلساؤه الطفيليون الى هذه النتيجة نفسها . قالوا له :

ـ حقا لقد أحسنت صنعا ! وكان يجب أن تفعل هذا منذ زمن طويل .. لسنا نقصد ان اللحية الطويلة تجرد وجهك النبيل من أى شىء . ولكن وجهك مع احتفاظه بنبله ، قد أصبح الآنعصريا .

ـ أصبح عصريا ، نعم .

وذهل الناس فى الخارج هذا الذهول نفسه . وأكدوا له صادقين ان هذا المظهر الجديد يناسبه أكثر من المظهر القديم . غير ان شخصا واحدا هو الدكتور كاماشو ، ألقى فى سمعه انه ليس من المستحسن عامة أن يغير المرء ملامح وجهه « وان كان يرى ان الشاربين وكثة الذقن تناسب صديقه جدا » : ذلك انالوجه مرآة النفس ، فعلى الوجه أن يصور ما تمتاز به النفس من صلابة وثبات . وختم كلامه بقوله :

ــ لا أقول ما أقوله اشادة بنفسي .. ولـكنك ان ترى فى وجهى أى تبـدل فى يوم من الايام . فذلك عندى ضرورة اخلاقيـة . ان حياتى التى أضحى بها فى سبيل المبـادىء ــ ذلك اننى لم أحاول يوما ان أصالح بين المبادىء أو بين الاشخاص ــ أقول ان حيـاتى هذه هى صورة أمينة لوجهى ، والعكس صحيح .

فكان روبيان يصغى الى كلام صديقه فى كثير من الجد ، ويهز رأسه مؤيدا : نعم ، هـذا صحيح ، ولا يمكن أن يكون الامر غير ذلك . وشعر عندئذ انه امبراطور الفرنسيين . حتى اذا نزل الى الشـارع عاد الى حقيقته . ان دانتى الذى رأى كثيرا من الامور العجيبة يؤكد انه شهد فى الجحيم معاقبة نفس فلورنسية التفت حولها أفعى طولها ستة أقدام وهصرتها حتى أصبح الرائى لايعرف أهو أمام شخص واحد أم أمام شخصين. أما روبيان فقد كان اثنين. أن شخصه وامبراطور الفرنسيين لايختلطان فيه ، بل يتعاقبان . حتى ان كلا منهما ينسى الآخر . انه حين يكون روبيان فحسب ، يكون ذلك الرجل العادى الذى نعرفه . حتى اذا ارتفع الى مقـام امبراطور أصبح امبراطورا فحسب . وكل واحد من الشـخصين مكتف بنفسه كل الاكتفاء ، ولـكنه مضاد للآخر .

١٤٥

سألته صوفيا حين جاء الى بيتها فى آخر الاسبوع :

ــ ما هذا التبدل ؟

فأجابها بقوله :

ــ جئت أسأل عن ركبتك ، هل تحسنت ؟

ــ تحسنت . شكرا .

الوقت هو الثانية بعد الظهر . وكانت صوفيا تنتهى من استعدادها للخروج حين قالت لها الخادم ان روبيان هناك ، ولـكن وجهه قد بلغ من التبدل ان من يراه يحسبه شخصا آخر . فنزلت صوفيا لتراه وقد امتلأت فضولا ، فوجدته واقفا فى الصـالون ينظر فى بطاقات الزيارة .

كررت تقول :

ــ ولـكن ما هذا التبدل ؟

فأجابها ، وقد هجره كل شـعور امبراطورى ، بأنه قدر ان الشـاربين والـكثة الصغيرة أنسب له ، وختم كلامه قائلا :

ــ أم ترين اننى ازددت دمامة ؟
ــ بل ازددت جمالا .
وقالت صوفيا بينها وبين نفسها انها قد تكون السبب فى هـذا التبدل . وجلست على الاريكة ، وأخذت تلبس قفازيها .

سألها روبيان :
ــ أأنت خارجة ؟
ــ نعم ، ولـكن العربة لم تصل بعد .

وافلت أحد القفازين من يديها . فمال روبيان يريد أن يلتقطه ، ومالت هى أيضا ، فأمسكا بالقفاز معا ، واذ أراد كلاهما أن يلتقطه اصطدم وجهاهما ولمس أنف روبيان أنف صوفيا ، الا ان شفاههما لم تتلامس ، وظلت اذن حرة طليقة تستطيع أن تضحك ، وهذا ما فعلاه .
ــ هل أوجعتك ؟
ــ لا ... هل أوجعتك أنا ؟
وأخذا يضحكان من جديد . ولبست صـوفيا قفازها . وحدق روبيان الى قدم من قدمى صوفيا كان يتحرك فى مكر ، الى أن جاء الخادم يعلن أن العربة قد وصلت . فنهضا ، وضحكا مرة أخرى .

١٤٦

حين خرجت صوفيا ، فتح السائق باب المركبة الفخمة ، فى كثير من التأدب خافضا قبعتـه الى تحت . وقدم لها روبيـان ذراعه ليساعدها على الصعود ، فقبلت أن تتناولها وركبت .
ــ والآن ، الى ...

ولم تستطع أن تكمل جملتها . فقد دخل روبيان فى اثرها وجلس الى جانبها . وأغلق السائق باب العربة ، وتسلق الى مقعـده ، وتحركت المركبة .

١٤٧

تم ذلك بسرعة كبيرة ارتج معها على صوفيا خلال بضع لحظات. ولـكنها لم تلبث أن ثابت الى نفسها فقالت :

ــ ما هذا ؟ أوقف العربة ياسيد روبيان .

ــ أوقف العربة ؟ أما قلت لى انك خارجة وانك كنت تنتظرين العربة ؟
ــ ما كنت أريد أن أخــرج معك . الا ترى ان . . . أوقف العربة . . .
وأرادت أن تأمر الســائق بالوقوف وقد بلغ بها الارتبــاك كل مبلغ . لــكن خوفها من حدوث فضيحة هو الذى صدها عن ذلك فى آخر لحظة . أن المركبة تدخل الآن فى شارع بلادابرنيزا . وطلبت صوفيا من روبيان مرة أخرى أن يدرك انه ليس من اللائق أن يكونا معا على هذه الصورة أمام الله وأمام الناس جميعا ... فاحترم روبيان وسواسها واقترح اســدال الستائر ... وقال شارحا :
ــ لا ضير فى أن يرانا الناس معا . ولــكن أحدا لن يرانا اذا نحن أسدلنا الستائر . هل يرضيك هذا ؟
ودن أن ينتظر الجواب ، أسدل ســتائر كل جهــة من جهــات العربة ، فصارا بذلك وحيدين ، يســتطيعان أن يريا المــارة من الداخل ، ولا يستطيــع أحــد أن يراهما من الخارج . انهما الآن وحيدان ، وحيدان تماما ، كما كانا يوم صب عليهــا روبيان ، فى بيتها ، جام غضبه ، فى مثل هذه الساعة . ولــكن المرأة الشــابة كانت فىبيتها طليقة الحركات على الاقل، أما الآن ، فى هذه العربة المغلقة ، فهى تتساءل عما عسى يحدث ...

وفى أثنــاء ذلك كان روبيــان يستقر فى مكانه مرتاحا ولا ينبس بكلمة .

١٤٨

لطت صوفيا فى زاوية العربة . وكان يمكن أن يفسر ذلك بغرابة الموقف أو حتى بالخوف وحده ، ولــكن الواقع ان هذا الرجل لم يوقظ فى نفسها يوما كل ما يوقظه الآن من كره أو اشمئزاز !..

أين الاحلام التى كانت تصوغها قبل أيام قليلة ؟ انكم تذكرون رحلتهما الى تيجوكا ، وخلوتهما هنالك ، وتذكرون كيف عدت معه على صهوة جوادها فى الجبل ، وكيف نزلت عن حصانها ، وكيف سمعت منه كلمات الحب ، بل وكيف شعرت بقبــلة طبعهــا على ثغرها . أين النظرات الناعسة ، واليدان المتلاصقتــان والساقان المرتعشتان ، والــكلمات الرقيقة ، والاذنان المتــأهبتان للصفح سلفا ؟ لقد نسيت صوفيا كل شيء ، واختفى من نفسها كل شيء ،

فى هذه اللحظة التى ضمتهما العربة وحيدين مهددين بفضيحة .
واستمرت الخيل تتقدم وهى تضرب الارض بحوافرها على ايقاع مطرد ، وتقود العربة طوال شارع بيللا دايرنميزا . ما عساها تفعل حين تصل الى الكاتيتى ؟ أتصحبه الى مركز المدينة ؟ وخطر لها عندئذ أن تذهب الى احدى صديقاتها : تتركه فى العربة ، وتقول للسائق أن يتابع طريقه ، ثم تقص على زوجها كل شيء . وفى وسط القلق الشديد أخذت تنبثق فى ذهنها على حين فجأة ذكريات لا قيمة لها ، أو ذكريات لا تمت الى الموقف الراهن بصلة من الصلات : نبأ عن سرقة مجوهرات قرأته فى الصحف هذا الصباح ، الاعصار الذى هب البارحة ، شكل قبعة من القبعات ، وما لا أدرى أيضا ... لكنها انتهت أخيرا الى أن استولى على ذهنها خاطر واحد هو هذا التساؤل : ما الذى سيقوله لها روبيان؟ ولاحظت انه لايزال ينظر أمامه صامتا ، وقد أسند ذقنه الى قبضة عصاه . الحق ان هذا الوضع الهادىء الرصين الذى يكاد يعبر عن قلة الاكتراث مناسب له . ولكن لماذا صعد الى العربة ، وأرادت صوفيا أن تقطع الصمت، حتى لقد حركت يديها مرتين فى اضطراب . انها تكاد تغتاظ من هدوء روبيان ، الذى لايمكن تفسير فعلته هذه الا بغرامه القديم القوى . وأخذت تتصور بعد ذلك انه الآن نادم على ما فعل ، فلم تلبث أن عبرت له عن تصورها ، فما كان منه الا أن أجابها وهو يلتفت اليها :

ـ لا أرى ان هناك ما يمكن أن أندم عليه . فحين قلت لى انه لا يحسن أن يرانا الناس معا على هذه الحال أسدلت الستائر . أننى لم أوافقك على رأيك ولكننى أطعت أوامرك .

فقاطعته صوفيا قائلة :

ـ وصلنا الى الكاتيتى . هل تريد أن أنزلك عند بيتك ؟ اننا لا نستطيع أن نمضى معا الى مركز المدينة .

ـ نستطيع أن نضرب فى الارض على غير هدى .

ـ كيف ؟

ـ نعم ، على غير هدى ، تتابع الخيل تقدمها ، ونتحدث فى هدوء دون أن يسمعنا أحد ، ودون أن يحزر أحد أن ...

ـ لا تكلمنى هكذا ، ناشدتك الله . دعنى . أخرج من هذه العربة .. والا نزلت أنا فى هذا المكان نفسه ، وتركتك تتدبر الامر وحدك . ثم ما الذى تريد أن تقوله لى ؟ تكفى دقائق معدودة ..

انظر .. لقد انعطفنا نحو مركز المدينة .. قل للسائق أن يذهب الى بوتافوجو ، فتنزل عند باب بيتك ...

ــ لقد خرجت من بيتى منذ برهه قصيرة ، وأريد أن أذهب الى مركز المدينة . أى ضير فى ان توصلينى الى هناك ؟ أما اذا كنت تخشين أن يرانا الناس ، فسأنزل فى اى مكان ، سأنزل عند شاطىء سانتا لوزيا مثلا ، من جهة البحر ..

ــ الافضل أن تنزل هنا حالا .

ــ ولكن لماذا لايمكننا أن نمضى حتى مركز المدينة ؟

ــ لا ، لا ، مستحيل . أناشدك بأقدس ما عندك .. دعنا من الفضائح . ما الذى يجب أن أفعله حتى تستجيب لهذا الرجاء البسيط ؟ هل تريد أن أركع لك ضارعة فى هذه اللحظة ؟

قالت ذلك وأخذت تثنى ركبتيها فعلا رغم ضيق المكان ، لكن روبيان أسرع ينهضها ، قائلا لها فى لطف :

ــ لا .. ليس من الضرورى أن تركعى .

ــ شكرا . أناشدك الله ، أناشدك بأمك التى فى السماء ..

ــ لاشك انها فى السماء . لقد كانت امرأة قديسة . الامهات جميعا طيبات . ولكن الذين عرفوا أمى لايستطيعون الا أن يصفوها بالقداسة . أمثالها قلة قليله : كانت ممتازة فى كل شىء . يا لها من ربة بيت ! مثلا : كان يستوى عندها أن يكون الضيوف خمسة أو خمسين . انها تعنى بكل شىء فى اللحظة المناسبة . لقد اشتهرت بهذا ! وكان الخدم ينادونها : « سيدتنا الام » ، لانها كانت فى الحق أما لجميع الناس . نعم ، لاشك انها فى السماء .

قاطعته صوفيا قائلة :

ــ طيب ، طيب . أناشدك اذن بأمك الا فعلت . ألنت موافق ؟

ــ أفعل ماذا ؟

ــ تنزل .

ــ ثم أذهب الى مركز المدينة سيرا على الاقدام ؟ لا ، مستحيل . حقا انك لغريبة الاطوار . ألم أقل لك انه لايرانا أحد . ثم ان خيلك رائعة . هل تلاحظين مشيتها الجميلة ، الرصينة .. تيك .. تاك .. تيك .. تاك .

وكلت صوفيا من التوسل اليه ، فصمتت ، وعقدت ذراعيها على صدرها ، وابتعدت الى أقصى ركن بالعربة .

قالت لنفسها : « الآن عرفت ماذا أصنع . سأوقف العربة على

باب مخزن كرستيانو . فأقول له كيف دخل هذا الرجل الى العربة وكيف توسلت اليه أن ينزل ، وما الذى أجابنى به . ذلك خير من انزاله سرا فى أى شارع » .

وظل روبيان هادئا هدوءه ذاك . وكان من حين الي حين يدير خاتم اصبعه ، وهو خاتم رائع ذو فص كبير من الماس . انه لاينظر الى صوفيا ، ولا يقول لها شيئا ، ولا يسألها عن شىء . هما الآن أشبه بزوجين يشعران بسأم عميق . وأصبحت صوفيا حائرة فى فهم السبب الذى دفعه الى ركوب العربة . لايمكن أن يكون السبب رغبته فى الانتقال الي حيث كان يريد أن يذهب ! لا ولا يمكن أن يكون هو حب الظهور . لقد أسدل الستائر منذ أعلنت له استياءها من أن ترى وحيدة معه . ثم انه لا يلاطفها بكلمة واحدة ، ولا يلمح ما يكنه لها من حب ، ولا يتوسل اليها ولا يتضرع .. انه حقا شخص لايمكن فهمه ، شخص شاذ غريب !

١٤٩

قال روبيان فجأة :

ـ صوفيا ..

ثم أردف بعد برهة قصيرة :

ـ الايام يا صوفيا تمضى ، ولكن ما من رجل ينسى المرأة التى احبها حقا ، والا كان لايستحق أن يسمى رجلا . ان حبنا لن ينسى : لن أنساه أنا طبعا ، ويقينى انك لن تنسيه أنت . لقد منحتنى يا صوفيا كل شىء ، وعرضت حياتك نفسها للهلاك فى سبيل ذلك . صحيح ياجميلتى اننى كنت سأثأر لك لو قتلوك ، واذا كان الثأر يفرح الموتى ، فلا شك انك كنت ستشعرين بأعظم لذة . ولكن نجمى قد حمانا لحسن الحظ ، فاستطعنا أن نتحاب دون أن تقوم عقبات ، ودون أن تراق دماء ...

وكانت المرأة الشابة تصغى اليه مشدوهة . وتابع كلامه يقول :

ـ لا تقلقى ، فلن نفترق . لا ، لا ، لست أفاتحك فى أمر الفراق . لا تقولى أن فراقنا سيجهز عليك . اننى أعلم انك ستذرفين كل ما فى عينيك من دموع اذا افترقنا . ولن أبكى أنا ـ لاننى لم أجىء الى هذا العالم من أجل أن أبكى ـ ولكن هذا لاينفى أن لوعتى ستكون كبيرة . بل ان الاحزان التى يحبسها المرء فى قلبه أشد ايلاما من غيرها . فالدموع تحسن الى صاحبها لانها

تخفف عنه . وانما أقول لك هذا الكلام ياعزيزتي ، لأن علينا أن نلتزم الحذر الذي قد ينسيناه ما يضطرم في نفسينا من هوى لايشبع . لقد تعرضنا لمخاطر كثيرة ياصوفيا . واذ ان كلا منا قد خلق للآخر ، فقد يوهمنا ذلك اننا زوجان ، وبهذا نتعرض للمخاطر. اسمعي ياعزيزتي ، اسمعي يا قلب قلبي ... ان الحياة جميلة ! ان الحياة عظيمة ! ان الحياة رائعة ! ولكن ما من كلمة يمكن أن تفصح عن كل ما أشعر به حين أكون معك ؟ هل تذكرين موعدنا الاول ؟

قال روبيان هذه الكلمات الاخيرة وهم أن يتناول يدها . لكن صوفيا تراجعت في الوقت المناسب . لقد اشتدت حيرتها ، وأصبحت لا تفهم من الامر شيئا ، وأخذت تشعر بخوف . وما انفك صوت روبيان يزداد دويه قوة ، حتى صار من الممكن أن يسمع الحوذي شيئا من كلامه !.. وفي هذه اللحظة انما راودتها هذه الشبهة : قالت في نفسها : ربما كان روبيان يقصد أن يسمع الحوذي كلامه ، ليكون التخويف وسيلة للتضييق عليها ، أو ليشهر بها بين الناس. تمنت أن تهجم عليه ، وتمنت أن تستغيث ، وأن تخرج من هذا الموقف بفضيحة . لكن روبيان استأنف يقول بعد برهة قصيرة من صمت :

ـ أما أنا فأذكر موعدنا الاول ذاك ، كأنه كان بالامس . لقد وصلت على عربة . ليست هي هذه العربة . كانت عربة مستأجرة. ونزلت منها وجلة كل الوجل ، وقد حجبت وجهك بنقاب . كنت ترتعشين ارتعاش ورقة في مهب الريح ... لكنك لم تلبثي أن لجأت الى ذراعي تعتصمين بها . كان على الشمس أن تقف في ذلك اليوم ، كما وقفت ليسوع ... ومع ذلك بدت لي تلك الساعات ، يا ملاكي ، طويلة طويلة ، لا أدري لماذا ! كان يجب أن تبدو لنا قصيرة ، أليس كذلك ؟ لعل مرد هذا الى أن حبنا كان لاينضب ، وما زال لاينضب ، وسيظل لا ينضب ... أما الشمس فسرعان ما اختفت : لقد غابت في الجهة الثانية من الجبال حين خرجت حبيبتي صوفيا الى الشارع وجلة ، وركبت عربة اخرى . أكانت عربة أخرى أم كانت العربة الاولى نفسها ؟ أحسب انها كانت العربة الاولى نفسها . لا تستطيعين أن تتصوري الحالة التي تركتني عليها. كنت كالمجنون . قبلت كل ما أصبته بلمس . قبلت حتى عتبة الباب . أظن انني حدثتك عن هذا كله قبل الآن . عتبة الباب ! وأوشكت ،

أوشكت أن أزحف زحفا لأقبل درجات السلم ... لكننى لم أفعل ، بل رجعت الى البيت ، وأوصدت الباب بالمفتاح ، حتى احتفظ بعطرك كله ! كان عطر بنفسج ، اذا صدقت ذاكرتى ...

لا .. يستحيل أن يكون قصد روبيان أن يوهم الحوذى بصدق هذه المغامرة الكاذبة . ان روبيان يتحدث بصوت بلغ من الخفوت والعمق ان صوفيا تكاد لا تسمعه . ولئن عجزت عن سماعه واضحا ، فلقد كانت عن فهم معناه أعجز . ماهذه القصة التى لم تحدث يوما ؟ ولو سمعها سامع مع ذلك لاعتقد انها صادقة من أول كلمة الى آخر كلمة ... فقد كان روبيان يرويها بلهجة تبلغ مبلغا كبيرا من الصدق ، والعاطفة ، والاحتمال ، حتى فى أدق التفاصيل... وتابع روبيان يكشف عن مكنونات قلبه ، ويدمدم لها بذكريات لم توجد يوما الا فى أحلامه !

هتفت صوفيا آخر الامر تقول :

ـ ولكن ما معنى هذا المزاح ؟

فلم يجبها صاحبنا ، لأن رؤيا جديدة قد خطرت عندئذ أمام بصره ، حتى انه لم يسمع السؤال . تابع كلامه . أخذ يتحدث عن حفلة موسيقية للفنان جوتشالك . كان العازف العظيم يعزف لحنا عاطفيا ، وكانا يصغيان اليه معا حين علق شيطان الموسيقى نظر كل منهما بنظر صاحبه ، فاذا بكل ما عدا ذلك يختفى من الوجود عندهما . حتى اذا وقفت الموسيقى ، وانطلق التصفيق ، ارتدا الى الواقع . أسفا ! لقد ارتدا الى الواقع فاذا باليا ينظر اليهما نظرة نمر مفترس ! لقد ظن روبيان فى تلك الليلة أن زوجها سيقتلها .

ـ سيدى روبيان !..

ـ لا ، لا تناديني نابوليون ، بل قولى لويس . أنا «لويسك» ، أليس كذلك أيتها المخلوقة الجميلة ؟ أنا « لويسك » ، «لويسك» انت . قولى : يا لويسى ، يا لويسى العزيز . ليتك تعرفين اللذة التى اشعر بها حين أسمعك تنطقين بهذه الكلمة « لويسى » . وانت ، انت صوفياى ، صوفياى الحلوة العذبة ، صوفيا قلبى الفاتنة . ولكن مالنا نضيع هذه اللحظات الثمينة سدى ؟ هلا قلنا أشياء عاطفية ، ولكن بصوت خافت ، خافت جدا ، حتى لايسمعنا هؤلاء الاوغاد القابعون على المقعد أمامنا ؟ لماذا وجد الحوذيون على هذه الارض ؟ لو كانت العربة تسير من تلقاء نفسها ،

لاستطعنا أن نتحدث كما نشاء ، وأن نمضى على هذه الصورة الى آخر العالم .

وكانا قد أخذا يقطعان شارع باسيو بوبليكو . ان صوفيا لم تتنبه الى ذلك ، فقد كانت تحدق الى روبيان . ان هذا الهذيان لايمكن أن يكون صادرا عن رجل راغب فى تعذيبها ، لا ولا يمكن أن يصدر عن رجل محب للمزاح . انه هذيان . نعم انه هذيان ، ان فيه لنبرة صدق .. كشخص يرى أو رأى ما يرويه .

قالت المرأة الشابة بينها وبين نفسها : « يجب أن أنزله » . ثم تسلحت بالشجاعة وسألته

ـ أين نحن ؟ أظن ان قدآن لنا أن نفترق . انظر من هذه الجهة. اين نحن ؟ أحسب انه الدير . نحن اذن فى ساحة آجودا . قل للحوذى أن يقف ، أو انزل فى ساحة كاريوكا اذا كنت تؤثر ذلك . ان زوجى ...

ـ سأعينه سفيرا . أو أعينه عضوا فى مجلس الشيوخ . كما يريد . والافضل أن يكون عضوا فى مجلس الشيوخ فبذلك تبقيان كلاكما هنا . اذا جعلته سفيرا فلن أوافق على أن تصحبيه.. وهناك ألسنة السوء .. انك تعرفين المعارضة التى على أن أواجهها ، وتعلمين أنواع الغيبة والنميمة التى يمكن أن يلوكها الناس .. آه من هؤلاء الاشرار ! هل قلت : دير آجودا ؟ مالك وللدير؟ أتريدين أن تترهبى ؟

ـ بل قلت اننا مررنا أمام دير آجودا . فهل أتركك فى ساحة كاريوكا . أم نذهب الى مخزن زوجى ؟

مرة أخرى بدا لصوفيا ان هـــذا الحل الثانى أفضل ، فهو لايفسح للحوذى مجال الريب والاشتباه ، وهو يصلح لاقامة البرهان لباليا على براءتها ، حين تروى له كل شىء ، منذ دخل روبيان الى العربة بغتة حتى مشهد الهذيان الاخير . ولـكن ما سر هـــذا الهذيان ؟ وتصورت انها ربما كانت هى السبب فى هذا الهذيان ، فجعلها هذا التصور تبتسم شفقة ورأفة .

قال روبيان :

ـ لماذا ؟ سأنزل هنا . ذلك أبعد عن الشبهة . علام نوقظ فى نفسه الشكوك ، فنحمله على أن يسىء معاملتك بعد ذلك ؟ صحيح ان فى وسعى أن أعاقبه ان هو فعل ، ولـكن ذلك لن يحررنى ابدا من عذاب الضمير الذى سأشعر به نتيجة ما سببت لك من أذى.

لا ، لا ، ياملاكى المقدس ! ولكن ثقى اننى قادر على أن أزيل الهواء من الفضاء اذا هو اجترأ على لمسك لانه يكون هواء سيئا . انك يا صوفيا لا تعرفين كل ما أملك من قدرة . اعترفى بذلك .

واذ لم تعترف صوفيا بشىء ، أخذ روبيان يشيد بجمالها ، ثم قدم لها الخاتم الماسى الذى كان فى اصبعه . ولكن صوفيا ، رغم حبها للمجوهرات ورغم ما كان يضطرم فى نفسها من شوق الى امتلاك خاتم ذى فص وحيد من الماس ، رفضت هذا العرض فى وجل .
قال روبيان :

ـ اننى أفهم ترددك . ولكن رفضك هذا لن يضيع عليك شيئا . ذلك انك ستتلقين خاتما آخر أجمل من هذا أيضا ، وستتلقينه من يد زوجك .. لسوف أجعلك دوقة . هل سمعت ؟ سوف أخلع عليه هذا اللقب . ولكننى سأفعل هذا من أجلك انت . دوق .. دوق ماذا ؟ سأحاول أن أجد له لقبا جميلا . بل أدع لك انت أن تختارى اللقب الذى تشائين ، لاننى انما أفعل ذلك من أجلك انت ، لا من أجله هو ، يا وردتى . وليس عليك أن تختارى فورا ، فكرى فى الامر حين تعودين الى المنزل . واياك والخجل الزائف . ما عليك الا ان تبلغينى اللقب الذى تؤثرين حتى أبعث بالمرسوم حالا . وفى وسعك أيضا أن تفعلى شيئا آخر : تختارين اللقب وتذكرينه لى أثناء لقائنا القادم فى المكان المعهود . أريد أن أكون أول من يناديك دوقة : أيتها الدوقة العزيزة . ثم يصل المرسوم بعد ذلك . يا دوقة قلبى !

قالت كالتائهة :

ـ نعم نعم . ولكن فلنقل للسائق أن يذهب بنا الى كرستيانو .

ـ لا بل انزل هنا . قف ! قف !

وأزاح روبيان الستائر ، وجاء السائق يفتح له الباب . ومن أجل أن تجنب صوفيا ذهن السائق أى ارتياب ، طلبت من روبيان مرة أخرى أن يرافقها حتى مخزن زوجها ، وقالت له ان زوجها يريد أن يحدثه فى أمر مستعجل . فنظر اليها روبيان بشىء من الدهشة ، ثم ألقى نظرة على السائق وعلى الشارع ، ورفض أخيرا أن يستجيب لطلب صوفيا قائلا انه سيذهب اليه فى وقت آخر .

١٥٠

ما ان افترقا حتى قامت فى نفسيهما عواطف متناقضة كل التناقض .

أما روبيان فانه حين أصبح فى الشارع التفت ذات اليمين وذات الشمال ، وعاوده الاحساس بالواقع ، وتبدد هذيانه شيئا فشيئا. انه يسير ويقف أمام أحد الحوانيت ، ويجتاز الشارع ، ويعترض شخصا من معارفه يسأله عن الانباء وعن رأيه فى الموقف الراهن ، ويحاول على غير شعور أن يطرد ذاته الثانية التى كانت له منذ قليل.

وأما صوفيا فقد حدث لها نقيض ذلك . انها بعد أن انقضت لحظات أولى شعرت خلالها بالخوف والذهول ، غرقت فى أحلام عميقة. ليتكم تعلمون كم أيقظت تخيلات روبيان فى نفسها من حنين : حنين الى ماذا ؟ لعله « حنين الى الجنة » ، كما كان يقول الاب برناردیس متحدثا عن أشواق المسيحى الطيب . وهى فى مثل هذا الامر لا تعوزها الاسماء .

ذلك أمر شائق ، أليس كذلك ؟ لقد راحت صوفيا تستعرض بخيالها العربة العتيقة التى ركبتها على عجل وخرجت منها مرتعشة لتصعد خلسة على سلم ينتظرها فى أعلاه رجل تمتم لها بأجمل ما فى العالم من كلمات الحب ، ثم ردد هذه الكلمات على مسامعها منذ قليل وهو الى جانبها فى هذه العربة نفسها. ولكنه لم يكن روبيان ، لايمكن أن يكون روبيان . فمن كان اذن ؟ انها فى هذا الامر لا تعوزها الاسماء .

١٥١

لم يلبث نبأ جنون روبيان أن ذاع فى الناس . وكان بعضهم يلقاه وهو فى غير حالات هذيانه ، فيريد أن يتحقق من صدق الشائعة التى تتناقلها الالسن ، فيدير الحديث على شئون فرنسا والامبراطور ، فاذا بصاحبنا روبيان يتردى فى هوة الجنون من جديد ، فينفض عنه محدثوه وقد اقتنعوا بصدق الشائعة .

١٥٢

وانقضت بضعة شهور وشبت الحرب الفرنسية البروسية ، فكانت نوبات روبيان تتفاقم شيئا بعد شيء ، وتتكاثر يوما بعد يوم. فاذا وصل بريد أوربا فى وقت مبكر ، رأينا روبيان يخرج من بوتافوجو قبل الافطار ويهرع ينتظر الجرائد . كان يشترى جريدة « مراسلات البرتغال » ، ويمضى يقرؤها فى كارسلير . وأيا كانت الانباء فانه كان يؤولها على أنها انتصارات . كان يعد عدد الموتى

والجرحى ، فيجد انه هو المتفوق . سقوط نابليون الثالث ، فهمه على انه وقوع الملك غليوم فى الاسر، وثورة «٤ ايلول — سبتمبر» ، فهمها على انها مائدة أولها البونابارتيون .

وفى بيته كان ضيوفه المعهودون لايجسرون أن يبددوا ضلاله ، ولكنهم فى الوقت نفسه لايشاركونه عبثه ، لانهم يستحيون بعضهم من بعض ، فهم يبتسمون ويغيرون الحديث . غير ان روبيان قد رفعهم جميعا الى مناصب عسكرية عالية ، فهذا مارشال توريس ، وهذا مارشال بيو ، وهـــذا مارشال ريبيرو ، وكان لايفوتهم أن يستجيبوا لألقابهم هـــذه . ان روبيان لا يراهم الا فى ملابسهم العسكرية . وهو يصدر اليهم أمره بأن يكتشفوا مواقع العدو أو أن يقوموا بهجوم ، ولـكنهم لم يكونوا فى حاجة الى الخروج من اجل أن يطيعوا أوامره ، فلقد كان كل شىء يتم فى دماغ المضيف .

فاذا ترك روبيان ساحة المعركة وعاد الى مكانه على المائدة ، رأى المائدة مختلفة كل الاختلاف . ورغم ان الادوات الفضيـة وأطبـاق القيشاني والبللور لم يبق منها شىء فان المـائدة تبـدو له فخمة فخامة ملـكية . انه يرفع الفراريج الفقيرة الهزيلة الى مقام الديكة البرية الـكبيرة . واللحوم المفرومة العادية والمتبلات البســيطة الـكريهة لها فى منخريه أريج الاطعمة اللذيذة الذكية . وكان ضيوفه الطفيليون يرون ما آلت اليه حال المائدة ، ولا يفوتهم أن يعلقوا فيما بينهم على هذا الاهمال أو أن يلفتوا اليه نظر الطباخ . ولـكن ماذا يمكن أن يعمل المرء حين يكون داعيه لوكولوس ؟ هذا الى أن المنزل كله ، وقد أفسده الزمن والتهاون « فلم يبق ثمة الا سجاد مبقع واثاث مكسر وستائر رثة ... » كان لايبدو لروبيان على حقيقته ، وانما كان يكتسى فى نظره مظهرا لا مثيل له من مظاهر الابهة والترف! وحتى لغة روبيان قد تغيرت فأصبحت أكثر تقعرا وتصنــعا .

وكذلك أفكاره التى غدا بعضها خارقا للمألوف كأفكار صديقه الراحل كونكاس بوربا : ان تلك النظريات التى لم يفهم منهـا شـيئا حين سمعها فى بارباسينا أصبح الآن يرددها فى جلاء بل وفى اقتناع ، مستعملا فى بعض الاحيان عبارات صاحبه الفيلسوف نفسها. كيف تعلل ترديده أمورا كانت غامضة فى ذهنه ذلك الغموض كله ، كيف تعلل علمه بأمور كان يعجز عن فهمها ذلك العجز كله ، بينما كان يبدو أن تلك الالفاظ وتلك النظريات جميعا قد ذرتها الرياح ؟ وكيف كانت هذه الذكريات كلها تختفى حين يعود روبيان الى وعيه ؟

١٥٣

ان الشفقة التى شعرت بها صوفيا نحو روبيان ـ بعد أن عللت مرضه بحبه لها وهيامه بها ـ كانت شعورا مخففا معتدلا ، فلا هى بالعطف المحض ولا هى بالانانية الفاضبة ، بل هى مزيج من الامرين معا . حسبها ان تتحاشى تكرر وضع شبيه بالوضع الذى تم فى العربة ، حتى تجرى الامور كلها على مايرام. ان صوفيا تصغى اليه بانتباه وتتحدث اليه باهتمام حين يكون فى حالات صحوه ، لاسيما وأن مرضه الذى كان يبث فيه كثيرا من الجرأة فى ساعات الهذيان كان يضاعف خجله فى الحالة الطبيعية . وهى لا تبتسم كما يبتسم باليا حين يرتقى روبيان العرش أو حين يقود جيشا. كانت تعتقد انها سبب مرضه ، وهى لذلك تغفر له كل شيء ، فاذا تصورت انه أحبها حقا الى حد الجنون ، جعله هذا التصور فى نظرها مقدسا .

١٥٤

ـ لماذا لا يعالج ؟ قد يشفى .

كذلك قالت دونا فرناندا ذات مساء ، وكانت قد عرفت روبيان فى منزل أسرة باليا قبل ذلك بسنة . فأجاب باليا بقوله :

ـ ما أظن الامر خطيرا . صحيح انه يعانى نوبات من الهذيان ، لكنها نوبات هادئة كما رأيت : تراوده أفكار عظيمة ما تلبث أن تنقضى . لاحظى من جهة أخرى ان كلامه سوى تماما على كل حال ، ربما ... ما رأيك ياسيدى ؟

فأجاب تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، قائلا ان ذلك ممكن . وأردف يسأل :

ـ ماذا كان يعمل ، وماذا يعمل الآن ؟

ـ لا شيء ، لا الآن ولا من قبل ! كان غنيا ، ولكنه كان مبذرا متلافا . وقد عرفناه عند وصوله من ميناس ، وكنا له أشبه بالمرشدين فى ريو دى جانيرو التى لم يكن قد جاءها منذ سنين طويلة . انه رجل شهم . وهو يحيط نفسه دائما بأكبر مظاهر الرخاء والترف ، هل تتذكر ؟ ولكن ما من ثروة الا وتنضب حين يبذر صاحبها راس ماله . وذلك ما فعله روبيان . أظن انه لم يبق له الآن كبير شيء ...

ـ ربما كنت تستطيع أن تنقذ له القليل الباقى ، بتعيين نفسك وصيا على أمواله أثناء معالجته ، أنا لست طبيبا ، ولكننى أحسب أن شفاء صديقك يجب الا يكون مستحيلا .

ـ لا أقول لا . ان ذلك لخسارة حقا ... ان له أيادى جميلة على جميع الناس ، وهو لا يفكر الا فى اسداء الخدمات لمن هم فى حاجة اليها . هل تعرف انه أوشك أن يكون نسيبنا ؟ نعم لقد أراد أن يتزوج ماريا بنديكتا .

قاطعت دونا فرناندا تقول :

ـ على ذكر ماريا بنديكتا ، أوشكت أن أنسى اننى أحمل رسالة منها ، يجب أن أطلع عليها زوجتك . لقد تلقيت الرسالة أمس . لابد انكم تعلمون انهما عائدان قريبا . هذه هى الرسالة .

ومدت الرسالة الى صوفيا ، ففضتها هذه فى غير حماسة ، وقرأتها فى ضجر . انها ليست رسالة مبتذلة كتلك التى يرسلها الناس عامة أثناء السفر ، وانما هى رسالة تفضى فيها ماريا بنديكتا بذات نفسها فى ثقة : هى نجوى حميمة كاملة تصدر عن نفس سعيدة تعترف بالجميل ... ان ماريا تروى المراحل الاخيرة من رحلتهما بقليل من الاضطراب ، لان المسافرين هما اللذان يحتلان من الحديث منزلة الصدارة ، ولأن أجمل التحف الفنية التى ابتدعها الانسان أو التى ترى فى الطبيعة لم تكن فى رسالتها شيئا بالقياس الى الاعين التى تراها . رب حادث بسيط وقع فى الفندق أو الشارع يحتل فى الرسالة من المكان والاهتمام أكثر مما يحتل غيره ، لا لشىء الا لأنه فرصة تنتهزها ماريا بنديكتا لابراز مزايا زوجها ! ان ماريا بنديكتا لا تزال تحب زوجها كما أحبته فى أول يوم ، ان لم يكن أكثر . وفى حاشية بذيل الرسالة تعلن ماريا بنديكتا فى خجل ، انها ستصبح أما ، وتوصى بكتمان هذا الامر .

وطوت صوفيا الرسالة . ان ما تشعر به الآن ليس الضجر بل هو الحسرة ، وذلك لسببين متناقضين . ولكن التناقض من طبيعة الانسان ... حين تقارن صوفيا بين هذه الرسالة وبين الرسائل التى تلقتها هى من ماريا بنديكتا ، تلاحظ ان حديث ماريا بنديكتا اليها هو حديث شخص الى شخص يعرفه معرفة ولا تربطه به أى صلة عائلية أو عاطفية . ومع ذلك فان صوفيا لا تتمنى أبدا أن تحدثها ماريا بنديكتا عن هذه السعادة التى تصفها همسا من الطرف الآخر من الاوقيانوس ، هذه السعادة التى تفيض فى ذكر

التفاصيل ، واطلاق النعوت ، وارسال الصيحات ، والتى تفيض خاصة فى ترديد اسم كارلوس ماريا ، وفى الحديث عن عينى كارلوس ماريا ، وعن كلمات كارلوس ماريا ، وعن ابن كارلوس ماريا أخيرا انهذا كله يبدو لها تحديا ، ويكاد يدل على تواطؤ فرناندا فى الامر .

لكن صوفيا بارعة تعرف كيف تخفى مشاعرها حين يجب اخفاؤها ؛ لذلك كتمت حسرتها وردت رسالة ابنة خالتها الى صاحبتها . وأرادت أن تقول ان هذه الرسالة تدل على ان سعادة ماريا بنديكتا لابد أن تكون كاملة كمالها فى لحظة السفر ، ولكن الكلمات وقفت فى حلقها ، فتولت دونا فرناندا استخلاص النتيجة قائلة :

ـ واضح انها سعيدة .

ـ أعتقد ذلك ..

١٥٥

لو لم يكن اليوم التالى ممطرا ، فلربما كان مزاج صوفيا مختلفا . ان الشمس لا توقظ فى النفس أفكارا ممتعة دائما ، ولكنها تتيح للمرء أن يخرج على كل حال ، وتغير الجو يبدل العواطف فى كثير من الاحيان . حين استيقظت صوفيا كان المطر لا يزال ينهمر مدرارا ، وقد التقت السماء بالبحر من فرط انخفاض الغيوم وشدة كثافة الضباب .

الضجر يطوف بكل مكان ، ويلف الفضاء كما يلف قلب صوفيا ، فلا شيء يمكن أن يسلى عينيها ولا أن يسرى عن قلبها . لقد وضعت صوفيا قلبها فى تابوت من خشب الارز ، وسجنت هذا التابوت فى تابوت آخر من رصاص هو هذا الجو المطر ، وأرادت أن تعد نفسها ميتة . كانت تجهل ان الموتى يفكرون هم أيضا ، وان طائفة من المعانى الجديدة تأتى فتحل عندهم محل المعانى القديمة ، فيأخذون فى نقد العالم الذى هجروه ، كالمشاهدين الذين يخرجون من المسرح فيأخذون فى نقد التمثيلية التى شهدوها والممثلين الذين رأوهم . وسرعان ما لاحظت جميلتنا المتوفاة أن بعض المشاعر وبعض العواطف لا تزال تحيا فيها . ان هذه المشاعر والعواطف تخطر فى ذهنها على غير نظام ، ولكن نقطة بدايتها واحدة : انها الرسالة التى قرأتها البارحة وذكرى كارلوس ماريا التى أيقظتها الرسالة فى نفس المرأة الشابة .

كانت صوفيا تظن صادقة انها أبعدت من خيالها صورة ذلك الرجل البغيض الى الابد . وها هو ذا الآن يظهر أمامها مرة أخرى، ويبتسم لها ، ويحدق اليها ، ويهمس فى أذنها بتلك الكلمات الدعية الأنانية ، التى دعاها بها يوما الى رقصة الخيانة الزوجية ثم تركها وحدها فى وسط الصالون . وهذه أطياف أخرى تظهر لها أيضا : ماريا بنديكتا مثلا ... هـذه التافهة التى نقلتها هى من الريف وخلعت عليها رواء المدنية ، فاذا هى تنسى الآن جميع ما أسبغت عليها من نعم ولا تفطن الا الى مطامحها الصغيرة . ودرنا فرناندا أيضا ... عرابة هذا الحب ... دونا فرناندا التى تعمدت البارحة أن تحمل اليها رسالة ماريا بنديكتا مع الحاشية التي تسر اليهـا فيها بالنبأ... ولم يخطر ببال صوفيا انسرور صديقتها قد يكون هو السبب الذى أنساها ان الرسالة شخصية ، ولا خطر ببالها ان طبع دونا فرناندا لايسمح بتصور هذا القصد . وهزتها أفكار أخرى وصور أخرى ، ثم عادت تهزها الافكار الاولى والصـور الاولى . وفى زحمة هذا الذهاب والاياب بين الافكار والصـور ، انبثق أمام بصرها مشهد من مشاهد البارحة : نظرة الاعجاب التى رمقها بها زوج دونا فرناندا . يجب أن نذكر انها كانت بالامس فى أبهى حلة ، وان ثوبها كان يبرز جمال صدرها ورشاقة قدها وحسن استدارة خصرها ... لقد كانت ترتدى ثوبا من حرير بلون القش.

فلما أثنت دونا فرناندا على ثوبها عقب وصـولها قالت صـوفيا وهى تضحك :

ـ انه بلون القش ، وقد اخترعت هذا اللون لانه يذكرني بهذا السيد (١) !

ويصعب على المرء أن يخفى سروره بالمديح ، لذلك ابتسم ابتسامة مزهوة وهو يحاول أن يقرأ فى وجوه الآخرين ما أحدثه فى نفوسهم هـذا البرهان الصريح على حب زوجته له . وكان تيوفيليو قد أثنى هو أيضا على ثوب صوفيا ، ولـكن كان من الصعب جدا الا ينظر أيضا الى الجسم الذى يلبس الثوب ... وذلك ما يفسر لها تلك النظرة الطويلة التى رمقها بها عندئذ ، وهى والحق يقال نظرة خالية من الشهوة لم تتكرر الا مرة واحدة ، ومع ذلك فان هذه الذكرى ، ذكرى تلك الحركة المبرأة من الاغواء وذلك الاعجاب المنزه من الرغبة ،

---

(١) يقال للقش باللغة البرتغالية باليا .. ومن هذا الجناس بين القش واسم باليا نفهم نكتة صوفيا . (المترجم)

هي ما تمثل الآن في خاطر صوفيا في هذه اللحظة التي كانت لا تفكر خلالها الا في خبث صديقتها معها .

كارلوس ماريا ، تيوفيليو .... ان صوفيا لا تعوزها الاسماء في هذا الباب ، كما ذكرت لكم في الفصل ١٥٤ ، وانبعثت هذه الاسماء في ذهنها جميعا ، لأن المطر لايزال ينهمر ، ولأن السماء والبحر لايزالان متحدين بضباب واحد . انبعثت هذه الاسماء في ذهنها جميعا ... وانبثق مع الاسماء أصحاب الاسماء .. بل ان أشخاصا بلا أسماء قد انبثقوا في خاطرها أيضا : أشخاصا بعيدين ، مجهولين ، لم يروها الا مرة واحدة ، لكنها وقد عزفوا لها نشيد الاعجاب ، تصدقت عليهم بنظرة لطيفة . لماذا لم تحتفظ بواحد من هؤلاء المجهولين الكثر لتصفي اليه مدة أطول ، ولتجعله أغنى ؟ صحيح أن صدقة صغيرة لم تفن أحدا في يوم من الايام ، ولكن أليس هناك مكافآت أعظم قيمة ؟ ولماذا لم تحتفظ أيضا بواحد من تلك الاسماء الجميلة ، بل المشهورة ، التي تزدحم الآن في خاطرها ؟ ان هذا السؤال الاخرس يدوي في عروقها ، في أعصابها ، في دماغها ، لكن شعورا واحدا كان يرد عليه ، هو الشعور بالاضطراب والاستطلاع .

١٥٦

في أثناء ذلك انقطع هطول المطر لحظة ، واستطاع شعاع من الشمس أن يخترق الضباب لكنه كان أحد تلك الاشعة المحملة بالرطوبة ، الشبيهة بالنظرات المخضلة بالدموع . ظنت صوفيا انها تستطيع أخيرا أن تخرج . انها تتعجل أن تغير افقها ، وان تسير لتنفض عنها خمولها ، وهي تأمل أن تسطع الشمس فتطرد المطر وترين على السماء والارض من جديد . لكن الكوكب الساطع سرعان ما أدرك ان هذه المرأة تنوئ أن تتخذه مصباحا كمصباح ديوجين ، فقال للشعاع الرطب : عد ، عد الى حضني أيها الشعاع العف الفاضل . لا تقدها الى حيث تسوقها شهوتها . فلتعشق اذا رغبت في ذلك ، ولترد على رسائل غرام اذا هي تلقت رسائل غرام ولم تحرقها . أما أنت يا نور صدري ، ويا ابن أحشائي ، أنت أيها الشعاع ، يا أخا أشعتي ، فلا تكن لها مصباحا .. »

وأطاع الشعاع فالتحق بمركز النار ، وقد دهش بعض الدهشة من مخاوف الشمس التي رأت مع ذلك كثيرا من الامور المألوفة

والخارقة للعادة ، وعادت طبقة السحب كثيفة كما كانت ، بل لقد ازدادت جهامة وظلاما ، واستأنف المطر هطوله غزيرا .

١٥٧

اذعنت صوفيا لبقائها فى البيت . ان الاضطراب الذى غزا قلبها شبيه بالاضطراب الذى يرين على الجو . ان جميع الصور وجميع الاسماء التى حاصرتها تصب الآن فى أمر واحد هو الرغبة فى الحب. ومن الانصاف مع ذلك أن تقول انها كانت تحاول ، حين تخرج من هذه الحالات النفسية المبهمة الغامضة ، أن تصرف ذهنها الى أمور أخرى ، تخلصا من تلك الرغبة . غير ان ما يحدث لها عندئذ شبيه بما يحدث لاولئك الذين يغالبون النعاس : فما يكادون يغمضون أعينهم حتى يفتحوها ، ومايكادون يفتحونها حتى يغمضوها. وكفت أخيرا عن تأمل المطر والضباب ، وقامت تقلب صفحات العدد الاخير من « مجلة العالمين » (١) نشدانا للراحة . ان سيدة أنيقة من السيدات التى عرفتها صوفيا أيام لجنة الالاجواس ، هى التى سألتها ذات يوم فى زحمة أعمال اللجنة هذا السؤال :

ـ هل تقرئين رواية فوييه فى « مجلة العالمين » ؟

فأجابتها صوفيا :

ـ نعم ، وأراها شائقة جدا ..

والواقع ان صوفيا لم تقرأ الرواية ، حتى لقد كانت لا تعرف هذه المجلة أصلا لكنها أسرعت تطلب من زوجها فى الغداة أن يشترك فى المجلة ، فقرأت رواية أوكتاف فوييه ، ثم قرأت الروايات التى نشرت بعدها ، وأصبحت تتحدث عن جميع الروايات التى قرأتها أو التى هى بسبيل قراءتها . فبعد أن قلبت ذلك العدد الاخير الذى كان بين يديها ، وتصفحت قصة من القصص ، مضت الى غرفتها واستلقت على سريرها . واذ كانت قد أرقت فى الليلة البارحة ، لم تلبث أن غرقت فى نوم عميق خلا من الاحلام الا فى النهاية حيث وافاها جثام : رأت نفسها محاطة ببساط من ضباب كضباب ذلك النهار . لكنها فى عرض البحر منبطحة على مقدمة قارب ، تكتب بأصبعها على صفحة الماء هذا الاسم : كارلوس ماريا . والاحرف تظل منقوشة فى الامواج ، حتى ان زبد الاخاديد يهب لها مزيدا من الوضوح ، لا شيء يبعث على الخوف كثيرا حتى

(١) هى مجلة Revue des Deux Mondes الفرنسية (المترجم)

الآن ، اللهم الا ما فى هذا الامر من سر . ولكن من المعروف ان الاشياء التى تشتمل على أسرار تبدو فى الاحلام طبيعية . وفجأة ينقشع بساط الضباب ، فاذا بكارلوس ماريا يظهر لعينى صوفيا بشخصه : ها هو ذا يتقدم اليها ، ثم يضمها الى صدره بذراعيه ، ويهمس لها بألف كلمة عاطفية ، كالكلمات التى قالها لها روبيان منذ بضعة أشهر . لكن هذه الكلمات لا تبعث فيها ما بعثته كلمات روبيان من اشمئزاز ، فهى تصغى اليها فرحة ، وتكاد من نشوتها تنقلب الى الوراء كأنها تتخاذل . وليست الآن فى قارب وانما هى فى عربة ، وقد وضعت يدها فى يد نسيبها . وفتنتها أمازيحه المرحة الرائعة . وهذا أيضا ليس فيه ما يفزع . وانما حدث الامر المفزع حين وقفت العربة ، فاذا بأشخاص ملثمين يحيطون بالعربة ، فيقتلون الحوذى ، وينزعون الابواب ، ويطعنون كارلوس ماريا ، ويرمون جثته الى الارض ، ثم يجىء واحد منهم كان يبدو انه رئيس العصابة فيقعد فى مكان المتوفى ، ويحسر القناع عن وجهه ويطلب من صوفيا ألا تصرخ مستنجدة ، ويقول لها انه يحبها أكثر مما يحبها الآخر ألف مرة ، ثم يمسك بقبضتها ويطبع على شفتيها قبلة ، لكنها قبلة مبللة بالدم ، قبلة تفوح منها رائحة الدم ... فتطلق صوفيا صرخة مذعورة وتستيقظ . كان زوجها عندئذ الى جانب سريرها . فسألها :

ـ مالك ؟

فزفرت صوفيا :

ـ آه ...

وسألته :

ـ صرخت ، أليس كذلك ؟

فلم يجبها باليا بشىء ، وكان مبهم النظرة يفكر فى بعض الاعمال . وشعرت زوجته عندئذ بخوف : اذا كانت قد تكلمت حقا ، فمن الجائز أن تكون قد تمتمت بكلام أو اسم هو الاسم الذى كانت تخطه على صفحة الماء . ولم تلبث أن رفعت ذراعيها فألقتهما على كتفى زوجها مشبكة أصابعها وراء نقرته ، ودمدمت تقول له فى نصف فرح ونصف حزن :

ـ حلمت بأنهم يقتلونك ...

فتأثر باليا تأثرا شديدا . ان شعوره بأنه سبب لها ألما ولو فى المنام يملؤه شفقة عليها ، لكنها شفقة مترعة باللذة الى أبعد

الحدود . ترى أى اسم يمكن أن نطلقه على هـذه العاطفة الخفية الصادرة من أعمق أعماق نفسه ، هذه العاطفة التى تجعله يتمنى لو تحلم زوجته أحلاما ثقيلة أخرى من هذا النوع ، فتراه يقتل أمامها مرة ثانية ، لتصرخ ذعرا من جديد وقد امتلأت نفسها ألما وهلعا ؟

١٥٨

وفى الغد كانت الشمس ساطعة دافئة ، والسماء صافية ، والجو طريا . فركبت صوفيا عربتها وخرجت تتنزه وتقوم ببعض الزيارات . انها تستعجل الخلاص من هذا الانحباس فى المنزل ، فكان لمجرد رؤية هذا النهار الجميل تأثير حسن فى نفسها . لقد ارتدت ملابسها وهى تدندن بعض الاغنيات . واستطاعت بشاشة السيدات اللاتى زارتهن فى بيوتهن أو التقت بهن فى شـارع أوفيدور ، وضوضـاء الطريق وأصداء المجتمع وأمازيح الاصدقاء أن تطرد من ذهنها هموم البارحة الى غير رجعة .

١٥٩

هكذا نرى ان ما كان يبدو رغبة مسعورة لم يكن فى حقيقة الامر الا نزوة عارضة . فما هى الا ساعات حتى كانت جميـع الافكار السيئة التى هزت صوفيا قد عادت الى الظل ... فلو سألتنى هل عانت المرأة الشابة شيئا من عذاب الضـمير لم أعرف حقا كيف أجيبك . ذلك ان للتقريع درجات أيضا ... والشعور لاينتقل من الجدة الى البلى ومن الخوف الى قلة الاكتراث شيئا بعد شىء فى ميدان الاعمال فحسب بل فى خطايا الخيال كذلك . ان خطايا الخيال تخضع لهذه القاعدة نفسـها . فاذا أنت تعودت التفكير فى بعض الامور ، فسرعان ما تألفها . فاذا أنت تراها بعد ذلك طبيعية فلا تحاول أن تطردها من ذهنك . ثم ان فى وسع المرأة فى الحالة التى نحن بصددها أن تجد فى الطهارة الخارجية ملجأ أخلاقيا ، فحسبها انها صانت جسدها نقيا من كل دنس .

١٦٠

حادث واحد خلال ذلك النهار الصافى الساطع أزعج صوفيا ، هو التقاؤها بروبيان . لقد دخلت احدى المكتبات بشارع أوفيدور

لتشترى رواية ، وفيما هى تنتظر أن يرد لها البائع باقى النقود رأت صديقنا يدخل المكتبة على حين فجأة . فأسرعت تشيح بوجهها ، وتنظر الى كتب منضدة على أحد الرفوف « كتب تشريح واحصاء » حتى اذا تناولت نقودها ، وضعتها فى حقيبتها ثم هرعت تخرج كالسهم خافضة الرأس ، ومشت صاعدة فى الشارع . ولم تسترد هدوءها الا بعد أن خلفت شارع أوريفس وراءها .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، بينما كانت تهم أن تدخل منزل دونا فرناندا ، وجدت نفسها وجها لوجه أمامه فى فناء المنزل . واذا قدرت انه صاعد الى البيت وطنت نفسها على أن تصعد معه رغم محاذرتها ، لكن روبيان كان نازلا فتصافحا فى مودة وتمنى كل منهما على صاحبه أن يراه مرة أخرى فى القريب !

قالت صوفيا لدونا فرناندا بعد أن ذكرت لها لقاءها به فى فناء المنزل :

ــ هل يجيء الى هنا كثيرا ؟

فأجابتها دونا فرناندا :

ــ هى المرة الرابعة أو الخامسة . لكنه لم يهذ الا فى الزيارة الثانية ، وكان فى المرات الاخرى كما رأيته اليوم هادئا بل بارعا فى الحديث . غير ان المرء يلاحظ فيه على الدوام شيئا ينم عن حالته . ألم تلاحظى نظراته الجامدة بعض الجمود ؟ أما عدا هذا فحديثه طبيعى . صدقى يا دونا صوفيا ان هذا الرجل يمكن أن يشفى . لماذا لا تحاولين أن تجعلى زوجك يهتم بهذا الامر ؟

ــ ينوى كرستيانو أن يعرضه على طبيب لفحصه ومعالجته . لا تقلقى ، فسأتعجل تدبير الامر .

ــ تحسنين صنعا . يبدو لى انه يحمل لك وللسيد باليا كثيرا من عاطفة الصداقة .

تساءلت صوفيا بينها وبين نفسها : « أتراه قال عنى أثناء هذيانه شيئا غير لائق ؟ هل يجب أن أكشف لها عن الحقيقة ؟ » .

ولكنها قررت ألا تكشف لها عن شيء ، لأن كل ما يمكن أن يقوله روبيان من أمور غير لائقة يمكن أن يعزى الى مرضه . ووعدت صاحبتها بأن تحض زوجها على الاسراع فى معالجة المريض ، حتى لقد فاتحته بالامر فى ذلك اليوم نفسه بعد الظهر . قال باليا : « يا لها من مسخرة ! » وسأل زوجته : ما فائدة دونا فرناندا من

اثارة هذا الموضوع مرة أخرى . ولماذا لا تتولى بنفسها معالجته ؟ انه لن أزعج المزعجات عندى أن أهتم بروبيان وأن أصحبه الى الطبيب وأن أجمع وأصون ما بقى له من مال — اذا كان قد بقى له منه شيء — وأن أسمي وصيا على أرزاقه كما اقترح ذلك تيوفيليو ... ذلك كله لا يجلب الا الصداع !

ثم اردف يقول :

— ان على عاتقى من المشاغل والهموم ما يكفينى يا صوفيا . ثم ما الذى يحدث بعد ذلك ؟ هل نأتى به الى بيتنا ؟ هذه فكرة لا أستحسنها كثيرا . فأين نضعه اذن ؟ فى مستشفى .. نعم .. فاذا لم يقبلوه ؟ لن ارسله على كل حال الى برايا فرمليا (١) .. والمسئوليات التى تترتب على هذا كله؟ هل وعدت حقا بأن تفاتحينى فى الامر ؟

أجابت صوفيا وهى تبتسم :

— وعدت .. بل أكدت انك فاعل . وقد لا يكون الامر على هذه الدرجة من التعقيد الذى تتصوره .

والحت صوفيا مزيدا من الالحاح . لقد تأثرت بعطف دونا فرناندا تأثرا كبيرا . ووجدت فيه نوعا من الشهامة والنبل. فقالت لنفسها : اذا كانت دونا فرناندا تظهر هذا الاهتمام كله بأمره ، دون أن تكون لها به صلة قوية ، فهل أكون دونها أريحية وكرما ؟ ذلك أمر لا يليق .

١٦١

وتم كل شيء فى هدوء . استأجر باليا منزلا صغيرا فى شارع « ابرنسيب » قرب البحر ، وأسكن فيه روبيان مع قليل من الاثاث ومع صديقه الكلب . وقد قبل روبيان هذا التغيير دون استياء ، حتى لقد تحمس له حين عاوده الهذيان . فتوهم انه فى قصره بسان كلود . أما أصدقاء منزله ببوتافوجو فلم يرق لهم ذلك بل استقبلوا النبأ على أنه قرار نفى . لقد كان كل شيء فى المنزل جزءا من حياتهم : الحديقة والباب والاشجار والدرج والمنظر نفسه... كانوا قد حفظوا كل شيء عن ظهر قلب ... ولم يكن عليهم الا أن يدخلوا فيعلقوا قبعاتهم وينتظروا فى الصالون . حتى لقد أصبحوا آخر الامر لا يحسون انهم ضيوف ، وانما هم أصحاب

(١) ملجأ للمجانين « المترجم »

المنزل . وهنالك الجيران ! لقد تعود كل واحد من أصدقاء روبيان أن يرى الاشخاص الذين يقطنون الحى ، رجوه الصباح ووجوه الاصيل ... بل لقد كان بعضهم يحييهم كأنهم جيرانه . ولكن صبرا ! سيذهبون الآن الى بابل،كما نقل من قبلهم مبعدو صهيون! ولعلهم واجدون حيثما ينتقل الفرات صفصافات يعلقون عليها قيثاراتهم التى تعزف ألحان الحنين ، أو قل انهم سيجدون مسامير يعلقون عليها قبعاتهم . والفرق الوحيد بينهم وبين الانبياء انهم سيعودون الى تناول قيثاراتهم بعد أسبوع من غير شك ، ليعزفوا عليها من جديد ، بتلك الرشاقة نفسها وتلك القوة نفسها . لسوف يدندنون أناشيدهم القديمة ، وستبدو هذه الاناشيد جديدة كجدتها فى اليوم الاول : لسوف تعود بابل فتصبح صهيون ، فقدوها ثم وجدوها !

قال لهم باليا قبل الانتقال من بوتافوجو بيوم :

ــ ان صديقنا فى حاجة الى شىء من الراحة بعض الوقت . فلا شك أنكم لاحظتم ان صحته فى الايام الاخيرة قد ساءت قليلا ، حتى انه يفقد فى بعض اللحظات ذاكرته ، فتختلط الامور فى ذهنه وتضطرب . سوف يعالج ، ومن أجل هذا يجب أن يرتاح . وقد وجدت له بيتا صغيرا ، ولكن قد نضطر الى نقله الى مستشفى من المستشفيات .

فأصغوا الى كلامه مصعوقين ، الا ان واحدا منهم ، هو بيو ، استرد صحو ذهنه قبل غيره ، فأجاب بقوله : كان ينبغى لنا أن نفعل هذا منذ زمن طويل ، غير ان ذلك كان يقتضى أن يكون لنا تأثير حاسم فى روبيان .

وأضاف :

ــ كثيرا ما قلت له ، ولكن بعبارات مهذبة جدا بطبيعة الحال ، ان عليه أن يستشير طبيبا ، اذ يبدو لى انه يشكو من قرحة فى معدته . وكنت أقصد من ذلك الا ألفت انتباهه طبعا . ولكنه كان يجيب دائما بأنه لا يشكو من شىء ، وأنه يهضم هضما جيدا .. فكنت أقول له : « ولكن اقبالك على الطعام قد قل ، حتى انك فى بعض الايام لا تكاد تأكل شيئا . وقد أصابك من ذلك نحول ، ومال لونك الى شىء من الشحوب .. » لم أكن أستطيع أن أصارحه بالحقيقة طبعا . حتى لقد ذهبت الى طبيب من أصدقائى لأستشيره فى الامر . غير ان عزيزنا الطيب روبيان رفض أن يستقبله

وكان الاربعة الآخرون يهزون رءوسهم مؤيدين هـذه القصة الملفقة . وهل ينتظر منهم حقا أكثر من ذلك بعد هذه الضربة التى سقطت على رءوسهم . وأخيرا سألوا عن عنوان المنزل الجديد من اجل أن يذهبوا اليه سائلين عن صحته . مسكين صديقنا ! وحين استطاعوا فى نهاية الامر أن ينتزعوا أنفسهم من البيت انتزاعا ، وأن يستأذن بعضهم بعضا بالانصراف حدث ما لم يكن فى حسابهم : لقد أصبح يصعب عليهم أن يفترقوا ؟ لا لان شيئا من الصداقة أو الاعتبار كان يربطهم بعضهم ببعض ، فان مصالحهم قد جعلتهم متباغضين . غير أن ما تعودوه من الاجتماع كل يوم ، من تناول الغداء والعشاء معا على مائدة واحدة ، قد أوجد بينهم رابطة من أقوى الروابط : انهم فى أول الامر لم يحتمل بعضهم بعضا الا بحكم الضرورة . ثم أصبحوا بمضى الزمن يحتاجون بعضهم الى بعض ! ان كلا منهم سيؤلمه انه لايرى الوجوه والاشارات واللحى والشوارب والصلعات والحركات الغريبة التى ألف أن يراها . ان كل واحد منهم سيشعر بالحنين الى ما يتميز به رفاقه من طرق فى الحياة وأساليب فى الطعام والكلام ... هذا أكثر من فراق ، هذا تفتت !

١٦٢

لاحظ روبيان انهم لم يرافقوه الى منزله الجديد ، فأرسل يستدعيهم . ولكن لم يجىء منهم أحد ، فامتلأ صاحبنا حزنا لغيابهم ... حتى لقد شعر بأن أسرته تهجره . وحاول أن يتذكر هل جرحهم بعمل من أعماله أو قول من أقواله ، فلم يتذكر شيئا .

١٦٣

ــ تحدثت الى الرجل ، فوجدت حقا ان عنده تصورات جنونية ، لكننى أعتقد ، رغم كونى غير أخصائى فى الامراض العقلية ، ان شفاءه ممكن . وهل تعرفين ماذا اكتشفت ؟ لقد اكتشفت أمرا شائقا ...

قالت دونا فرناندا دون أن تجيب عن سؤال الدكتور فالون :

ــ تعتقد ان شفاءه ممكن ؟

ان الدكتور فالون نائب ، نائب وطبيب معا . وهو رجل أعزب ، مثقف ، لكنه فاتر ريبى ، واذ كان صديقا للأسرة ، رجته دونا

فرناندا أن يفحص روبيان ، بعد سكناه فى شارع البرنسيب بمدة قصيرة .

ـ نعم ، أعتقد ان شفاءه ممكن ، شريطة أن يعالج علاجا منتظما. قد لا يكون لمرضه سوابق فى أسرته . يجب أن يفحصه طبيب أخصائى . ولكن ألا تريدين أن تعرفى الامر الشائق الذى اكتشفته؟

ـ ماذا اكتشفت ؟

قال وهو يبتسم :

ـ هنالك شخص تعرفينه قد يكون هو السبب فى مرضه ..

ـ من ؟

ـ دونا صوفيا ..

ـ كيف ؟

ـ لقد كلمنى عنها فى حماسة ، وقال انها أجمل امرأة فى العالم ، وانه منحها لقب دوقة لأنه لم يستطع أن يجعلها امبراطورة ، ولكن يجب ألا يندفع الى آخر الطريق ، اذ قد يفعل ما فعله عمه : يطلق امرأته ليتزوج دونا صوفيا واستنتجت من ذلك انه قد أحب صديقتك حبا قويا ، وشجعنى على هذا الاعتقاد ما ألاحظه من انه يرفع الكلفة حين يتحدث عنها : صوفيا جاءت ، صوفيا ذهبت ، صوفيا قالت ... لا تؤاخذينى ، اننى أعتقد ان هذا الحب كان متبادلا ...

ـ آه ... لا ...

ـ دونا فرناندا ، أعتقد انهما قد أحب كل منهما الآخر هل يدهشك هذا ؟ أنا لا أعرفها كثيرا . وأظن انك أنت أيضا لم تعرفيها منذ مدة طويلة ولا صاحبتها مصاحبة حميمة . انه من الجائز جدا أن يكونا قد تحابا ، وأن يكون هذا الهوى العنيف قد ... ولنفرض انها طردته من بيتها ... صحيح ان به جنون العظمة ... ولكن هذا لا ينفى ذاك ...

كانت دونا فرناندا لا تنظر اليه ، لانزعاجها من هذا الافتراض الذى يفترضه . انها تريد أن تتحاشى الجدال فى هذا الامر ، لاعتقادها بأنه موضوع لا يليق الخوض فيه ، وظلت الى ذلك ترى أن هذه الشبهة مستحيلة لايمكن أن تصدق وليس لها أساس تقوم عليه . لن تستطيع يوما أن تصدق وجود هذا الحب الذى يشتمل على خيانة زوجية ، ولو أكد صدقه روبيان نفسه . أليس روبيان مجنونا ؟ وهبه عاقلا غير مجنون ، فلن تصدقه ... لا لن تصدق.

انها لا تستطيع أن تتصور ان صوفيا قد أحبت هـــذا الرجل ، لا بسببه هو ، بل بسببها هي ، لأنها امرأة قويمة عفيفة . يستحيل. وأرادت أن تنبرى للدفاع عن صوفيا . لـكنها أحجمت مرة أخرى عن الخوض في هذا الموضوع ، رغم ما بينها وبين الدكتور فالون من صداقة حميمة ، واكتفت بأن كررت السؤال الذى سبق أن طرحته :

ـ انت تقدر اذن أن شفاءه ممكن ؟

ـ أعتقد ان شفاءه ممكن . لـكن فحصى لايكفى . أنت تعلمين ان الافضل فى مثل هذه الامور أن يؤخذ رأى طبيب أخصائى .

وبينما كان الدكتور فالون فى الشارع بعد برهة من الزمن ، ابتسم ... ابتسم لاشمئزاز دونا فرناندا من تصـــديق ظنونه . وقال لنفسه : « من المحقق مع ذلك ان شيئا قد حـدث . ان الرجل وسيم وان لم يكن كأدونيس جمالا ، وان فى عينيه لبريقا . هـذا محقق .. » وتذكر بعض عبارات روبيان ، وتذكر حركاته ، وتذكر ما كان فى صوته من رنين حنون ، فكانت شكوكه تزداد وضوحا . « هذا أكيد .. » . وأصبح يرى ان من المستحيل الا يكونا قد أحب كل منهما الآخر . وبدا له ان رفض دونا فرناندا لهذه الفكرة يدل حقا على سذاجة كبيرة ! اللهم الا أن يكون ذلك الرفض منها وسيلة لتغيير مجرى الحديث ولتحاشى الخوض فى هذا الموضوع . نعم ، هو كذلك ...

وفى تلك اللحظة تسمر النائب فى مكانه فجأة على غير ارادة منه . لقد مرت بخاطره شبهة جديدة . لـكنه لم يلبث أن هز رأسه بعد بضع لحظات على نحو قاطع ، كمن يكذب نفسه ويحكم على ظنـــه بأنه سخيف . واستأنف سيره . غير أن الشكوك عنيدة ، وهى حين تكون راسخة فى قلب أحد الناس رسوخا وطيدا ، لا تكترث بهزات الرأس ولا باشارات النفى ! « من يدرى ؟ لعل دونا فرناندا قد أولعت هى أيضا بعينيه الجميلتين . ألا يمكن أن يكون اهتمامها به استمرارا لحبها ؟ الخ ... »

وكلما أوغل الدكتور فالون فى طرح هذه الاسئلة ، كان شىء ما فى قرارة نفسه يجيب عنها بنعم . وقاوم ظنونه بعض المقاومة : انه صديق الاسرة ، وهو يحترم دونا فرناندا ، ويعرف فضـــيلتها . ولـكنه ظل يقدر ان من الجائز مع ذلك أن تكون قد نشـــأت فى نفسها عاطفة مكنونة خفية ... من يدرى ؟ لعل غرام صاحبتها بالرجل هو الذى حرض هذه العاطفة فى نفسها ! وهذا كثيرا ما يقع!

ان عدوى الجذام تفسد أطهر دم ، ورب جرثومة صغيرة تهدم أقوى جسم !

وهكذا كانت رغبته في المقاومة تتراجع شيئا بعد شيء أمام شعوره بأن الامر جائز ، فمرجح ، فمحقق . لقد سمع عن بعض أعمال البر والاحسان التي تقوم بها دونا فرناندا . ولكن الحالة التي نحن بصددها الآن حالة خاصة جدا . ان هذا الاهتمام الشديد الذي تبديه دونا فرناندا برجل لا هو بالذي يختلف الى المنزل كثيرا ولا هو بالصديق القديم ولا هو بالقريب ، ولا هو بالزميل لزوجها ، رجل لا تربطه بحياتها رابطة من علاقات ولا رابطة من أسرة ، حتى ولا رابطة من عادة أو ألفة ، ان هذا الاهتمام الشديد الذي تبديه بهذا الرجل لايمكن أن يكون مرده الا الى باعث خفي ، هو الحب من غير ريب . ان حب الاطلاع قد يجر امرأة شريفة الى الخطيئة ، وقد يجرها من ثم الى عذاب الضمير . لعل دونا فرناندا قد عرفت كيف تتوقف حين وجب التوقف ، لكن بقى لها مع ذلك شيء من العطف على المريض . من ذا الذي يعرف والحالة هذه ما وقع ؟

١٦٤

من ذا الذي يعرف والحالة هذه ما وقع ؟ ذلك ماردده الدكتور فالون في صباح الغد . ان الليل لم يبدد شكوكه . من ذا الذي يعرف في هذه اللحظة ؟ نعم ، ان هذا لايمكن أن يكون عطفا فحسب . وأخذ الدكتور فالون يؤول هاملت دون أن يعرفه شكسبير !

« ان بين السماء والارض ياهوراس أشياء كثيرة لا تستطيع أن يتخيلها نزوعك الباطل الى حب البشر وخيرهم .. » ان شيئا من الحب قد مازج هذا كله . لاحظوا ان الدكتور فالون لا ينتقد شيئا ولا يأسف لشيء . ألم أقل لكم انه ذو عقل ريبي ؟ ولكنه لم يفض الى أحد بشيء من شكوكه ، لانه كان رجلا متكتما أيضا .

١٦٥

لما عاد كارلوس ماريا وزوجته الى ريو ، انقطع اهتمام دونا فرناندا بروبيان الى حين . لقد استقبلتهما في المرفأ ، وأقلتهما

الى تيجوكا ، حيث كان أحد أصدقاء كارلوس ماريا قد استأجر بيتا وأعده ، عملا بما أوصاه به صديقه . ولم تذهب صوفيا الى المرفأ ، وانما اكتفت بارســـال مركبتها تنتظرهما على رصـــيف فاروكس . غير ان دونا فرناندا كانت قد أخذت عربتها ، فأقلت بها جميع المستقبلين ومنهم باليا . وبعد الظهر ذهبت صـــوفيا تزور القادمين .

كانت دونا فرناندا لا تتمالك نفسها من شـــدة الفرح . ان رسائل ماريا بنديكتا قد صورت ما يشعران به من سعادة ، غير انها فى أول الامر لم تلاحظ فى حركات الزوجين ولا فى عينيهما ما يؤيد ذلك . فكل ما يظهر عليهما هو انهما راضيان. وقد أجهشت ماريا بنديكتا بالبكاء حين قبلت صـــديقتها ، وكذلك فعلت دونا فرناندا ، وتعانقت المرأتان كما تتعانق أختان . وفى الغد سألت دونا فرناندا صـــديقتها هل هما ســعيدان ، فلمـــا أجابتها بنعم تناولت يديها وحدقت اليها طويلا دون أن تجد ما تقوله ، ثم لم تستطع الا أن تكرر سؤالها :

ــ أنتما اذن سعيدان ؟

فأجابت ماريا بنديكتا :

ــ نعم ..

ــ لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما أشعر به من ارتياح لهذا الجواب : لا لأن عذاب الضمير كان يمكن أن يقلقنى كثيرا لو لم تحققى السعادة التى رجوت أن أوفرها لك ، لا هذا فحسب ، بل أيضا لأن رؤية سعادة الآخرين تبعث فى النفس كثيرا من السرور. هل يحبك كما أحبك فى أول يوم ؟

ــ أعتقـــد انه يحبنى أكثر مما أحبنى فى أول يوم ، لاننى أنا أعبده عبادة .

لم تفهم دونا فرناندا معنى هذه الـكلمات الاخيرة فهما واضحا « أعتقد انه يحبنى أكثر مما أحبنى فى أول يوم ، لاننى أنا أعبده عبادة .. » الحق أن النتيجة لا يبـــدو ان لها صلة بمقدماتها . ولـكن ينبغى هنا أن نشرح هاملت مرة أخرى فنقول : « ان بين السماء والارض ياهوراس أمورا كثيرة لا يتصورها تفكيرك المنطقى الباطل » . وأخذت ماريا بنديكتا تحدث صـــديقتها عن رحلتهـــا وتسرد لها مشاعرها وذكرياتها بأدق التفاصيل . واذ انضم اليهما زوجهـــا أثناء ذلك ، أخذت تلجأ اليه فى كثير من الاحيـــان ليسد ثغرات ذاكرتها ، فتسأله :

ـ كيف كان هذا يا كارلوس ماريا ؟

فكان كارلوس ماريا يروى ، ويشرح ، ويصحح ، ولكن دون أى اهتمام ، بل وبشىء من الملل والضجر . وقد أدرك أن ماريا بنديكتا أشركت صديقتها فى جميع أسرار سعادتهما ، فكان لايستطيع أن يخفى استياءه من ذلك . ما حاجتها الى ذكر انها كانت سعيدة معه ، ما دام الامر لايمكن أن يكون غير ذلك ؟ وفيم تذيع بين الناس ملاطفاته وكلماته العاطفية الرقيقة وسائر النعم والآلاء التى أسبغها عليها فى جلال كجلال اله رحيم ؟

ان عودتهما الى ريو دى جانيرو لم تكن الا نزولا عند رغبتها . لقد أرادت ماريا بنديكتا أن تعود الى ريو دى جانيرو لتلد ، وقد رضخ زوجها لارادتها على مضض ، ولكنه رضخ .. لماذا على مضض ؟ ذلك ما يصعب شرحه كما يصعب فهمه . لقد كانت لكارلوس ماريا آراء شخصية غريبة فى الامومة ، آراء مدفونة فى قرارة نفسه لم يفض بها يوما الى أحد . كان يرى ان الطبيعة لم تكن على شىء من الحشمة حين جعلت الحمل أمرا يعرفه جميع الناس وتراه جميع الانظار ويحتل مكانة خطيرة حتى انه ليشوه الجسم ويذكر بأمور ليس فيها شىء من الاحتشام ومن أجل ذلك كان يرغب فى العزلة والتخفى والغياب . كان فى الاشهر الاولى يتمنى لو يعيش فى منزل منعزل قائم على رابية عالية موصد الابواب لا يطرقه زائر ، تنزل منه امرأته ذات يوم حاملة طفلها بين ذراعيها وفى عينيها سطوع فرح الهى !

لكنه لم يقترح على زوجته شيئا من ذلك ، اذ لو فعل لاضطر أن يناقش ، وهو امرؤ لايحب المناقشة ، ويؤثر أن يرضخ على أن يناقش . وطبيعى أن ماريا بنديكتا كانت تهزها مشاعر تختلف عن هذه المشاعر كل الاختلاف . لقد كانت تعد نفسها مستودعا الهيا سريا يعيش فيه اله هو ابن اله آخر . وكان حملها مصحوبا بأوجاع وانزعاجات تخفيها عن زوجها ما وسعها الاخفاء ، ولكن ذلك كان لايزيد على أن يسبغ على الكائن الجديد الذى سيولد شأنا أعظم . وما دام احتمال الآلام شرطا لمجىء هذا الكائن الجديد الى العالم ، فلقد كانت ماريا بنديكتا تحتملها فى اذعان ، ولعلها كانت تستقبلها فى فرح ... انها تخضع لقوانين «الطبيعة» راضية ... وكانت تردد جواب مريم الناصرية صامتة : « انا خادمة الرب . فلتكن مشيئته .. »

١٦٦

قالت ماريا بنديكتا لزوجها حين أصبحا منفردين :

ــ ما بك ؟

ــ أنا ؟ لا شيء .. لماذا ؟

ــ كان يبدو عليك الضجر ؟

ــ لا ... لم أكن ضجرا ...

ــ بل كنت ضجرا ...

فابتسم كارلوس دون أن يجيب . ان ماريا بنديكتا تعرف حق المعرفة هذه الابتسامة الصفراء الخاصة التى كانت ترتسم على شفتيه فى بعض الاحيان ، تلك الابتسامة التى لا يفهم كنهها ولا تعبر عن حنان ولا عن ملامة . فلم تلح ، بل خرجت وهى تعض على شفتيها .

فلما صارت فى غرفتها لم تستطع بعض الوقت أن تفكر فى شيء آخر غير تلك الابتسامة الغامضة الخرساء التى تدل دلالة واضحة على انزعاج لابد أن تكون هى سببه . وأخذت تستعرض كل الحديث الذى جرى ، وجميع الحركات التى صدرت عنها ، فلم تعثر على شيء يمكن أن يكون سبب هذا الفتور وهذا الموقف الغريب من كارلوس ماريا . أتراها أسرفت فى الافضاء بذات نفسها ؟ انها فى لحظات السرور تحب أن تفتح قلبها للأصدقاء والغرباء على السواء . وكارلوس ماريا يشجب هذه العادة ، ويرى ان اظهار السعادة الحميمة على هذا النحو أمر عامى مبتذل . وتذكرت ماريا بنديكتا أنها لما كانت فى باريس ، وسط الجالية البرازيلية ، شعرت غير مرة باستياء زوجها من افاضتها فى الكلام ، وحاولت يومئذ أن تمسك عن الحديث . ولكن أليس شأنها مع دونا فرناندا شأنا آخر ؟ أليست دونا فرناندا أصل سعادتها ؟ لذلك استبعدت ماريا بنديكتا هذا الافتراض ، وبحثت عن افتراض آخر . فلما عجزت عن ايجاد فرض آخر عادت الى الاول ، وانتهت على عادتها الى الاقرار بأن زوجها على حق ، فمهما تكن الصداقة التى بينها وبين دونا فرناندا حميمة ، ومهما يكن شكرانها لها قويا ، فما كان ينبغى لها أن تطلعها على جميع تفاصيل حياتها ، لقد كان ذلك منها خفة وطيشا ...

ووافتها غثيانات قطعت حبل تأملاتها . ان « الطبيعة » تذكرها في الوقت المناسب بأن هناك سرا كبيرا ــ سر بقــاء النوع ــ هو اخطر شأنا وأشد لجاجة من جميع انزعاجات زوجها . وخضعت لهذه الضرورة . لــكنها مضت الى زوجهــا بعد بضــع دقائق ، فأحاطت عنقه بذراعها اليمنى . كان زوجهــا جالسا يقرأ مجلة انجليزية . فتناول يدها المتدلية على صدره وأتم قراءة الصفحة التى كان يقرؤها .

سألته ماريا بنديكتا حين رآته يطوى المجلة :

ــ هل تسامحنى ؟ لن أثرثر بعد اليوم هذه الثرثرة كلها !

فتناول كارلوس ماريا كلتا يديها ، وأشار برأسه اشارة تأييد وهو يبتسم ، فكأن شعاعا من أشعة الشمس سرى فيها ، فأخذت تسطع جذلا وغبطة ، حتي لــكأن ابنها كان وهو فى رحمها يشاركها هذا الفرح ويبارك أباه !

١٦٧

ــ عظيم ! على هذه الصورة انما كنت احب أن أراكما .

كذلك صاح صوت من جهة الشرفة ..

فابتعدت ماريا بنديكتا عن زوجها بسرعة . ان واحدا من الابواب الثلاثة التى تصل الصالون بالشرفة كان مفتوحا ، ومن ذلك الباب انما وصل الصوت . انه روبيان يفاجئهما مبتسم الوجه . وهما يريانه أول مرة بعــد عودتهما . ولم ينهض كارلوس ماريا ، بل رمقه بنظرة رصينة سائلة . لــكن وجه روبيان ذا الشــــاربين الطويلين الدقيقين ظل يبتسم منقلا بصره بينهما ، وهو يردد :

ــ عظيم ! على هذه الصورة انما كنت أحب أن أراكما !

ودخل روبيــان ومد اليهما يده فصافحاه بغير حرارة ، وراح يغدق على ماريا بنديكتا عبارات المديح فى حماسة : انها فاتنة وان زوجها ممتاز . ولاحظ ان اسمهما واحد ، ماريا ، فقال أن ذلك يدل على ان اقترانهما مكتوب منذ الازل . وختم خطابه بقوله ان الوزارة قد سقطت .

فلم يتمالك كارلوس ماريا أن سأله :

ــ الوزارة سقطت ؟

فأجابه روبيان :

ــ لا حديث للمدينة غير هذا .

ثم أردف يقول وهو يجلس على أحد المقاعد مسندا كلتا يديه الى العصا التى كانت الى ذلك الحين تحت ذراعه :

ــ أحسب اننى سأستغنى عن استئذانكما بالجلوس ، مادمتما لا تدعواننى اليه . نعم ، لقد قدمت الوزارة استقالتها . سأعين وزارة أخرى . وسأشرك فيها باليا ، صديقنا باليا ، قريبك باليا ، وانت أيضا ياعزيزى ستكون وزيرا اذا أحببت . أريد أن يكون مجلس الوزراء ممتازا ، ألا يضم الا أصـــدقاء ، على أن يكونوا جميعا نشيطين مستعدين للتضحية بحياتهم فى سبيلى . سأستدعى مورفى ، وبيو ، وكاماشو ، وروهر ، والمـاجور سيكويرا . هل تتذكرين الماجور ياسيدتى ؟ ستكون له وزارة الحربية فيما أظن. لا أعرف رجلا أقدر منه فى الشئون العسكرية .

كانت ماريا بنديكتا تذرع الصالون جيئة وذهابا وقد استبـد بها الضجر والملل ، آملة أن يرسلها زوجها فى طلب شىء من الاشياء. وأشار اليها زوجها بحركة من رأسه أن تذهب ، وكانت لا تتمنى أكثر من ذلك ، فاعتذرت من الزائر وخرجت . واستمر روبيان يكيل لها المديح بعد خروجها : انها لملاك حقا . ثم لم يلبث أن استدرك ضاحكا : بل هناك ملاكان ، هناك ملاكان فى هذا البيت ! بارك الله فيهما ! ومد اليه كارلوس ماريا يده كمن يســـتأذنه بالانصراف .

ــ سيدى العزيز ...

ــ هل استطيع أن أضمك الى الوزارة ؟

فلما لم يفز بجواب ، أول الصمت بأنه قبول ، ووعد صاحبه بأن يسند اليه وزارة مرموقة « ستكون وزارة الدفاع للماجور. ووزارة العدل لـكاماشو . الا تعرفهما ؟ هما رجلان عظيمان ، وربما كان كاماشو أعظم من الماجور أيضا .. » واتجه كارلوس ماريا نحو الباب ، فتبعه روبيان يسير فى طريق الخروج من غير أن يشعر . لـكنه لم يخرج بسرعة . وها هو ذا يتوقف على الشرفة قبل أن ينزل الدرج ، ويأخذ بالتحدث الى كارلوس ماريا فى عدد من الشئون الحربية . قال انه قد رد المانيا الى الالمان ، فتلك بادرة حسنـة وسيـاسـة حكيمة ، وانه أعطى فينيسيـا للايطاليين ، لانه لم يعد فى حاجة الى أرض جديدة . وهناك الاقاليم الرينانية ، لـكنه لا يتعجل الآن استرجاعها .

قال كارلوس ماريا ملحا وهو يمد اليه يده :

ـ سيدى العزيز ...

وظفر أخيرا بحمله على الاستئذان بالانصراف ، واغلق الباب . ولفظ روبيان بضع كلمات أخرى ثم هبط الدرج . كانت ماريا بنديكتا تراقبهما من قرارة البيت ، فلما نزل روبيان ، لحقت بزوجها ، وأمسكت يده لترى روبيان وهو يجتاز الحديقة . كان يتكلم أثناء سيره ، وكان لا يسير قدما ، بل يتوقف من حين الى حين ، ويحرك يديه ببعض الاشارات ، أو يتناول غصنا من الاغصان اليابسة ، وينظر فيرى حوله ألف شيء من الاشياء التى يفوق جمالها جمال ربة البيت وتفوق بتميزها زوجها ! وكان الزوجان ينظران الى بطلنا من وراء النافذة ، فلما ندت عنه حركة غليظة ، لم تستطع ماريا بنديكتا أن تمنع نفسها من الضحك ، أما كارلوس ماريا فلم يفقد شيئا من هدوئه المعهود فيه .

١٦٨

قالت ماريا بنديكتا :

ـ هل تعرف من سيصبح وزيرا اذا صح ان الوزارة قد سقطت ؟

فنظر اليها كارلوس ماريا نظرة السائل ، فأجابته :

ـ نسيبك تيوفيلو . لقد ذكرت لى نانان انه يأمل هذا ، وانه انما بقى فى ريو دى جانيرو هذا العام لهذا الغرض . فأغلب الظن ان الكلام على سقوط الوزارة دار منذ ذلك الحين ، أو لعله تنبأ بسقوطها ... من الجائز جدا ان يكون قد تنبأ بسقوط الوزارة ... لا أذكر الآن ما الذى قاله لى على وجه الدقة ، ولكن يبدو على كل حال انه سيشترك فى الوزارة الجديدة ..

ـ جائز ...

ـ انظر ، هل رأيت ؟ روبيان يذهب من هناك . هو ذا يقف وينظر الى الفضاء . لعله ينتظر عربة . لقد كانت له عربة فى الماضى . لا ... هو ذا يستأنف المشى ...

١٦٩

هتف كارلوس ماريا يقول :

ـ اذن سيصبح تيوفيلو وزيرا ؟

ثم لم يلبث أن أردف :

ــ احسب انه سيكون وزيرا ممتازا . وأنا ، هل تودين أن أصبح وزيرا ؟

ــ اذا أردت أنت ذلك فكيف أستطيع أن أمنعك ؟

ــ هل معنى هذا انني لن أصبح وزيرا لو كان الامر منوطا بك وحدك ؟

تساءلت ماريا بينها وبين نفسها وهى تفحص وجه زوجهـا : « بماذا أجيب ؟ » .

لـكنه صاح يقول وهو يضحك :

ــ اعترفى بأنك تعبدينني ولو لم أكن الا حاجب وزير !

قالت المرأة الشابة وهى تطوق عنقه بذراعيها :

ــ طبعا ...

فوضع كارلوس ماريا يده على شعرها فى رفق ، ودمدم يقول فى كثير من الجد :

ــ لقـد أصبح برنادوت ملـكا وأصبح بونابارت امبراطورا ، فهل تودين لو تكونين أم ملك السويد ؟

فلم تفهم ماريا بنديكتا معنى هذا السؤال فهما واضحا ، ولا شرحه لها زوجها ، ولو فعل لـكان مضطرا أن يقول لها انها ربما كانت تحمل فى رحمها برنادوت جـديدا . لـكن هـذا الافتراض يشتمل على رغبة ، وهذه الرغبة تساوى اعترافا بأنه دون ذلك . وداعب كارلوس ماريا شعر امرأته مرة أخرى بحركة تكاد تقول : « لقد اخترت يا ماريا أحسن نصيب ... » وكأن ماريا بنديكتا فهمت معنى هذه الحركة ، فها هى ذى تهتف قائلة :

ــ نعم ، صحيح !

وابتسم زوجها وتناول المجلة الانجليزية من جديد . وكانت ماريا بنديكتا مسندة ظهرها الى المقعد فراحت تمرر أصـابعها فى شعره بخفة وصمت ، ما وسعها ذلك ، حتى لا تزعجه . وعاد يقرأ ويقرأ ويقرأ ... فكفت المرأة الشـابة عن مداعبتـه شـيئا فشيئا ، نازعة أصابعها واحدة بعد أخرى ، ثم تركت الصالون ، بينما كان كارلوس ماريا يتابع قراءة مقال بقلم سير تشارلز ليتل ، الحائز على شهادة الماجستير فى الفلسفة ، عن تمثال نرجس الشهير الموجود فى متحف نابولى .

١٧٠

حين هبط المساء ، وذهب روبيان الى منزل دونا فرناندا ، قال له الخادم انه لا يستطيع الصعود ، فسيدته مريضة وسيده يلازمها ، وهما فى أغلب الظن ينتظران الطبيب ، فلم يظهر صاحبنا أي عناد ، بل عاد أدراجه .

والواقع عكس ما زعمه الخادم . فان تيوفيلو هو الذى كان مريضا ، وان دونا فرناندا هى التى كانت تلازمه . لكن الخادم لايستطيع الا أن ينفذ الامر الذي صدر اليه . وهناك خادم آخر أحس بأن السيد هو المريض لانه رآه عند عودته الى البيت منهوك القوى .

وكانت تصل الى الخدم من غرفة سيديهما ، التى تقع فوقهم تماما ، أصوات تقوى تارة وتضعف تارة أخرى ، ويتخللها الصمت فى كثير من الاحيان . وهذه خادمة صغيرة السن تصعد على رءوس الاصابع الى فوق ، وتعود قائلة انها سمعت مولاها يئن . لاشك ان دونا فرناندا كانت فى ذروة الضيق ! لم يبق ثمة الا آذان تنصت ، والا همسات ووشوشات .. وراح الخدم يخمنون ... لاحظوا ان سيديهم لا يطلبان شيئا ، لا ماء ولا دواء ، حتى ولا حساء ! وكانت المائدة قد أعدت ، وكان خادم الطعام قد ارتدى ثيابه ، وكان الطباخ يحترق زهوا وقلقا فى آن واحد ، فغداء اليوم من أطيب ما أعد فى حياته من أطباق .

ما الذى جرى ؟ كان تيوفيلو لايزال منهوك القوى كما كان عند وصوله . انه جالس على احدى الارائك متعريا من ملابسه زائغ البصر مبهم النظرة . ودونا فرناندا جالسة الى جانبه ، ممسكة بيده ، تتوسل اليه أن يهدىء روعه ، مؤكدة له أن الامر كله لايستحق أن يجعله على هذه الحالة التى هو عليها . وهى تميل لترى وجه زوجها ، وتشده نحوها ، وتدعوه أن يضع رأسه على كتفها ...

والنائب يقول لها متمتما :

ــ دعينى ، دعينى ...

ــ الامر لا يستحق هذا كله يا تيوفيلو ؟ أهذا كله من أجل وزارة ؟ لماذا ؟ ما فائدة وظيفة تدوم وقتا قصيرا وتسبب المتاعب وتجلب الاهانات وتوجب القيام بأعمال السخرة ؟ اليست الحياة

الهادئة خيرا من مثل هذه المراكز ألف مرة ؟ اما ان هناك ظلما قد وقع ، فنعم ، وانني لاعتقد انك تستحق أن تكون وزيرا ، ولكن أهذه خسارة كبيرة الى هـــذا الحد ؟ هلم يا عزيزى ، هدىء روعك ... هيا بنا الى الغداء !

وكان تيوفيلو يعض على شفتيه وهو يشد أحد جانبى لحيته. انه لم يسمع شيئا مما قالته امرأته ، ولم يسمع شيئا من نصائحها ولا من تعزياتها . انه لا يتذكر الآن الا الاحاديث التى دارت فى الليلة البارحة وفى صبيحة هذا النهار . لا يتذكر الا الترتيبات السياسية التى اقترحت ، والا الاسماء التى ذكرت ــ أسماء من رفضوا وأسماء من قبلوا . ما من ترتيب من هذه الترتيبات قد ضم اسمه ، رغم انه كلم كثيرا من الاشخاص على المعنى الحقيقى للموقف الراهن . لقد أصغى اليه بعضهم فى اهتمام ، وأصغى اليه بعضهم الآخر بملل وضـــجر . وفى ذات مرة وقعت عليه عينا الشخص الذى يؤلف الوزارة كأنها تسأله ، لـكن ذلك كان سريعا ، وكان توهما ! أن تيوفيلو يعيش الآن بخياله ذلك الاضطراب كله ، وتلك الجلبة كلها ، فيرى أولئك الذين كانوا يلاحظـــونه بطرف العين ، وأولئك الذين كانوا يبتسمون ، وأولئك الذين كان وجههم كوجهه ... لقد أصبح فى آخر الامر لا يفتح فمه بكلمة واحدة . ان الآمال الاخيرة التى كانت لا تزال تسطع فى عينيه قد ذابت كذوبان الثلج تحت أشعة الشمس . لقد سمع أسماء الوزراء وانتظر أن يثنى عليهم جميعــا ! ولـكنه كان فى حاجة الى ارادة جبارة حتى يستطيع أن يقول بضع كلمات ! وكان يخشى أن يلاحظ انهيار قواه ، أو أن تلاحظ لوعته ، غير أن جميـــع الجهود التى بذلها من اجل أن يخفيهما ، ما زادتهما الا ظهورا ، فكان لونه شاحبا ، وكانت أصابعه ترتجف !..

١٧١

كررت دونا فرناندا تقول :

ــ هلم الى العشاء !

فضرب تيوفيلو ركبته براحة يده ونهض ، واخذ ينطق بكلمات حانقة غير موصولة وهو يسير فى طول الغرفة وعرضها ويضرب الارض بقدمه ويحرك يديه باشارات تهديد ووعيد . وأسقط فى يد دونا فرناندا أمام هذه الموجة الجديدة من الحنق ، فأصبحت

أمنيتها ألا تطول . ولم تطل موجة الحنق ، فان تيوفيلو لم يلبث أن تهالك على أحد المقاعد وهو يهز رأسه ، وهوى مرة أخرى فى انهيار عميق . فأخذت دونا فرناندا كرسيا وجلست الى جانب زوجها .

ــ انت على حق يا تيوفيلو ، ولكن يجب أن تكون رجلا . انك شاب ، وانك قوى ، والمستقبل كله أمامك ، بل ان مستقبلا عظيما ينتظرك ! من يدرى .. لعل دخولك فى الوزارة اليوم أن يجلب لك ضررا فيما بعد . لسوف تدخل فى وزارة أخرى . عسى أن يكره المرء شيئا وهو خير له .

تمتم يقول وهو ينظر اليها :

ــ كل ذلك نفاق ، ومؤامرات . انى لأعرف هؤلاء الأوغاد جميعا . لو قصصت عليك كل شىء ، كل شىء ... ولكن ما فائدة ذلك ؟ الافضل أن أنسى ..

ثم أردف يقول بعد بضع لحظات :

ــ ليس حرمانى من كرسى حقير فى الوزارة هو الذى يزعجنى . ليس لكراسى الوزارة من قيمة البتة . ان أى انسان يستطيع بقليل من العمل ومن الموهبة أن يسخر من كراسى الوزارة ، وأن يبرهن على انه فوقها قيمة وشأنا . ولكن الذى يؤلمنى هو أن معظم هؤلاء الاشخاص لا تطاول أعناقهم ركبتى ! هذا أمر أعرفه حق المعرفة ، وهم أيضا يعرفونه . يا للمتآمرين القذرين ! أين يمكن أن يجدوا من الاخلاص والامانة والحماسة فى النضال مثل الذى يجدونه عندى ؟ من ذا الذى كافح فى الصحافة مثلما كافحت أيام الابعاد ؟ انهم يعتذرون قائلين أن مجالس الوزراء تأتى من سان كرستوفون مشكلة جاهزة (١) آ ... ليتنى أكلم الامبراطور !

ــ تيوفيلو ...

ــ لو قابلت الامبراطور لقلت له : « مولاى ، صاحب الجلالة ، انك تجهل كل شىء عن المؤامرات التى تتم وراء الكواليس ، وعن سياسة التواطؤ وتبادل المنافع هذه التى يتبعونها . انك تود يا صاحب الجلالة أن يكون خيار الناس هم الذين يعملون فى مجالسك ، ولكن التافهين يصلون وحدهم الى هذه المجالس . فلا قيمة للجدارة والكفاءة البتة .. »

ذلك ما سأقوله له فى يوم من الايام ، بل ربما قلته له غدا .

(١) قصر الامبراطور (المترجم)

وصـمت تيوفيلو ، ثم نهض بعد برهة ومضى الى غرفة مكتبه التى تجاور هذه الغرفة . وصحبته زوجته . كان الظلام قد خيم ، فأشعل تيوفيلو المصباح ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد أسدل الاسى على عينيه غلالة . ان هناك أربعة رفوف تملؤها كتب وتقارير وميزانيات وكشوف عن « الخزانة » . وهنالك أيضـا منضدة مرتبة أحسن ترتيب ، وثلاث خزائن عالية تضم مخطوطات وبيانات ومذكرات وحسابات وسجلات ، منظمة معنونة : اعتمادات استثنائية ، اعتمادات اضافية ، اعتمادات عسكرية ، اعتمادات بحرية ، قرض ١٨٦٨ ، السكك الحديدية ، الدين الداخلى ، فترة ٦١ ـ ٦٢ ، ٦٢ ـ ٦٣ ، ٦٣ ـ ٦٤ .. الخ . وتيوفيلو انما كان يعمل هناك صباح مساء ، هنالك كان يكتب ، ويحسب ، ويجمع عناصر خطبه وتقاريره ، لانه كان عضوا فى ثلاث لجان برلمانية ، يعمل فى سبيل نفسه عامة ، ويعمل فى سبيـل زملائه السـتة أيضا . وكان زملاؤه هؤلاء لا يزيدون على أن يستمعوا ويوقعوا . بل ان واحدا منهم كان يوقع حتى دون أن يسمع ، وذلك حين تكون التقارير طويلة ، فهو يقول :

ــ لقد أصبحت ياعزيزى أستاذا فى المادة ، وهذا يكفى . هات القلم .

ان كل ما فى البيت يشهد بالاجتهاد والعناية والعمل ، العمل الدائب الدقيق الخصب . حتى انك لترى جرائد الاسبوع معلقة فى الحائط ، لا تنزل عنه الا لتصنف وتجلد بعد ذلك فى مجلدات يضم كل منها أعداد ستة أشهر ، من أجل أن تكون وثائق يرجع اليها . وكانت خطب النائب مطبوعة مغلفة تحتل هى أيضا رفا بكامله . ولست ترى فى مقابل ذلك لوحة ولا تمثالا ولا زينة . لا شىء للتسلية والمتعة ، بل كل شىء جاف دقيق يتصل بشئون الادارة وما اليها ...

سأل تيوفيلو امرأته بعد أن ألقى على ما حوله نظرة حزينة :

ــ فما فائدة هذا كله اذن ؟ فيم نفعتنى تلك الساعات الطويلة المتعبة التى قضيتها هنا والتى كانت فى بعض الاحيان تمتد الليل كله حتى مطلع الفجر . لايستطيع أحد أن يدعى ان هذا المـكتب يدل على الفراغ والبطالة . انه يدل على العمل ، أليس كذلك ؟ أنت شاهدة على اننى أعمل ! ولـكن ما فائدة هذا العمل كله ؟

دمدمت زوجته تقول :

ـ سر عن نفسك بالعمل ..
لـكنه أجاب فى حدة :
ـ يالها من تسرية جميلة ! لا .. لا .. انتهى ... لا أريد بعد اليوم أن أعرف شيئا من هذا كله . انظرى .. ان جميع الناس فى المجلس يستشيروننى ، حتى الوزراء . أؤكد لك انه ما من أحد يجهل أننى أعنى بشئون الدولة أشد العناية . من أجل أى مكافأة ؟ من أجل أن آتى الى هنا فى شـهر ايار (مايو) لاصفق لهؤلاء السادة ؟
قالت له امرأته فى رفق :
ـ لا تصفق لأحد . هل تريد أن تسرنى ؟ هلم بنا نسـافر فى شهر اذار (مارس) أو نيسان (ابريل) لقضاء سنة بأوربا ! وفى شهر ايار (مايو) من المـكان الذى نكون فيه ، من وارسو مثلا ، تكتب الى المجلس طالبا اجازة .
ثم أضافت وهى تبتسم وتمسك وجه زوجها بيديها :
ـ بى رغبة فى زيارة وارسو . وافقنى . يجب أن تحبينى حتى استطيع أن أكتب الى ريو جراندى فى هذا اليوم نفسه ، لان باخرة البريد تقلع غدا . اتفقنا . انت موافق على أن نسافر الى وارسو، أليس كذلك ؟
ـ دعيك من هذا المزاح يا نانان ، فما هذا أوان المزاح !
ـ لـكننى أتكلم جادة لا مازحة . وقد أردت منذ مدة طويلة أن أقترح عليك القيام برحلة عسى أن أغير أفكارك وأن انسيك هـذه الفراطيس الجهنمية . كفى يا تيوفيلو ! لقد أصبح انتزاعك من بين أوراقك لحظة للقيام بزيارة أو نزهة شبه مستحيل. وأصبحت لا تتكلم ، وأصبح أولادنا لايرون أباهم ، لإنه لا يجوز الدخول عليك أثناء عملك . انت فى حاجة الى شىء من الراحة . اننى اطلب اليك سنة من هدوء ، أطلب هـــذا جادة لا مازحة . فلنسافر الى أوربا فى شهر آذار (مارس) !
فتمتم يقول :
ـ مستحيل ..
ـ لـماذا ؟
والواقع ان ذلك كان مســـــتحيلا . فلأن تطلب اليه اجتثاث احشائه أهون عليه من السفر . ان السياسة تعلو عنده على كل شىء . صحيح أن فى البلاد الاخرى سياسة أيضا . ولكن ما شأنه

هو بذلك لا ان تيوفيلو لايعرف شيئا عما يجرى فى الخارج . ان معارفه تقتصر على مشكلة المال الذى تدين به البرازيل للندن ؛ وان علاقاته تقتصر على عدد من رجال الاقتصاد . غير ان تيوفيلو لم ينس أن يشكر لامرأته نيتها . وقال لها :

ـ أنت طيبة ..

ان شعورا غامضا بالامل قد رد الى صوت النائب مافقده خلال هذه الازمة النفسية من رفق ولطف . ان منظر هذه الاوراق الكثيرة يحضه هو نفسه على استرداد شجاعته . انه ينظر الى هذه الكومة من الدراسات كما ينظر المزارع الى حقل فلحه وبذره . سوف تنبت البذور وشيكا ، سوف ينال العمل مكافأته ، سوف تثمر الشجر عاجلا أو آجلا . ذلك ما قالته له زوجته بكلام أدق وأوضح ، ولكن صاحبنا لم يدرك هذا الامكان الا فى هذه اللحظة . وتذكر نوبات الغضب والاستياء واليأس التى عاناها منذ قليل ، وتذكر الشكاوى التى صدرت عنه ، فاستحى من نفسه ... وأراد أن يضحك من ذلك كله ، لكن ضحكته لم تنطلق صادقة . وفى أثناء العشاء واحتساء القهوة تحدث الى أولاده الذين سمح لهم فى ذلك المساء بأن يناموا متأخرين ، وقال نونو الذى كان تلميذا فى الكلية . وسمع بتغيير الوزارة ، قال لأبيه انه يريد أن يكون وزيرا ، فعبس تيوفيلو وقال له :

ـ يابنى اختر ما تشاء الا أن تكون وزيرا !

ـ يقولون جميعا ان الوزارة جميلة يا بابا . ويقولون ان الوزير يتجول فى مركبة جميلة ووراءه جندى يحرسه ..

ـ سأعطيك عربة !

ـ وانت يا بابا ، هل كنت وزيرا فى يوم من الايام ؟

فحاول تيوفيلو أن يبتسم ، ونظر الى امرأته . فانتهزت امرأته الفرصة لترسل أولادها الى النوم ..

قال الاب وهو يقبل رأس نونو :

ـ نعم نعم ، كنت وزيرا ، لكننى أصبحت لا أريد أن أكون وزيرا . الوزارة مزعجة جدا ، متعبة كثيرا . أما أنت فستكون كاهنا .

ـ ما معنى كاهن ؟

أجابت الام :

ـ معنى كاهن هو أن تذهب الى سريرك يانونو .

فى الغداة ، أثناء الغداء ، تلقى تيوفيلو رسـالة .ان جنـديا معاونا هو الذى جاء بالرسالة .

ــ جندى معاون ؟

ــ نعم ياسـيدى ، وهو يقول انه يحمـل الرسـالة من رئيس مجلس الوزراء .

ففض تيوفيلو الرسالة بيد مرتعشة . ما عساها تكون ؟ لقـد رأى فى الجرائد قائمة الوزراء الجدد : فالوزارة كاملة ، ولم يكن اسم من الاسماء موضوع أخذ ورد. ما عساها تكون اذن ؟ وكانت، دونا فرناندا أمام زوجها تحاول أن تحزر مضمون الرسـالة من تعبير وجهه . فرأت وجه تيوفيلو يشرق ورأت شفتيه تنفرجان عن ابتسامة رضا ، أو عن ابتسامة أمل فى أقل تقدير .

أمر تيوفيلو الخادم :

ــ قل له أن ينتظر ..

ومضى الى مكتبه ، ثم رجع بعد بضع دقائق مع الجواب . وعاد يجلس الى المائدة صامتا ، ريثما يوصل الخادم الرسالة الىالجندى المعاون . واذ كان فى هذه المدة متنبها فقد سمع حوافر الحصان يعدو فى الشارع . وشعر النائب عندئذ بارتياح يغزو قلبه .

قال :

ــ اقرئى !

فقرأت دونا فرناندا رسالة رئيس مجلس الوزراء . انه يرجو من تيوفيلو أن يجىء اليه فى الساعة الثانية بعد الظهر لحديث .

ــ أهى الوزارة اذن ؟

فأسرع زوجها يقول لها :

ــ الوزارة كاملة ، والوزراء سموا وانتهى الامر .

وكان تيوفيلو لايعنى كلمة واحدة مما يقول ، لانه تصور على عكس ذلك أن كرسيا من كراسى الوزارة قد شغر فى آخر لحظة ، فأصبح يجب ملؤه فورا . قال :

ــ لابد انه اجتماع سياسى ، اللهم الا أن يكون رئيس مجلس الوزراء يريد أن يكلمنى فى أمر الموازنة أو أن يعهـد الى باعداد تقرير من التقارير .

لم يقل هـذا الا تضليلا لزوجته . لـكنه لم يلبث أن أدرك

أن التخمينات التي قالها لزوجته قد تكون صحيحة ، فاستبد به اليأس مرة أخرى . وبعد ثلاث دقائق تدفقت فى نفسه موجة جديدة من الامل . موجة من الامل ؟ بل اوقيانوس ...

١٧٣

انتظرت دونا فرناندا عودة زوجها والقلق يلتهمها التهاما : كأنها هي التي ستنال منصب الوزارة ، وكأن منصب الوزارة هـذا سيملؤها فرحا خالصا من كل تعب ، بريئا من كل هم .. والحق انه كان يكفيها أن يرضي زوجها حتى تسير جميع الامور على ما يرام . وعاد تيوفيلو فى الساعة الخامسة والنصف ، وكان يكفي أن يراه المرء حتى يدرك انه راض . وهرعت اليه زوجته تسأله :

ــ ماذا ؟

ــ مسكينة أنت يا نانان . ها نحن أولاء مشرفون على انتقال . لقد طلب الى المركيز ، فى كثير من الالحاح ، أن أقبل منصب حاكم من الدرجة الاولى . فهو بعد أن عجز عن اشراكى فى مجلس الوزراء على ما كان يتوقع ، يود بل يريد اشراكى فى المسئولية السياسية والادارية التي تضطلع بها الحكومة ، فطلب منى تولى هذا المنصب وهو من جهة أخرى يأمل أن أتولى وظائف رئيس الاغلبية فى المجلس النيابى ، لأنه لايستطيع بأى حال أن يستغنى عما أتمتع به من سمعة وتأثير « هذه كلماته نفسها » فما رأيك ؟

أجابت دونا فرناندا :

ــ رأيى أن ننتقل ..

ــ هل ترين انني كنت أستطيع الرفض ؟

ــ لا ..

ــ مستحيل، أليس كذلك ؟ ان المرء لا يستطيع أن يرفض تقديم خدمة من هذا النوع لحكومة صديقة . والا كان الافضل أن يعتزل السياسة . وقد كان المركيز لطيفا فى محادثتي غاية اللطف. كنت أعرف انه رجل ممتاز ، ولـكن لا تستطيعين أن تتصورى كم كان محببا وكم كان مرحا . وهو يريد أيضا أن أحضر اجتماعا يضم عددا من الوزراء والاصدقاء.. عددا صغيرا جدا .. ستة فقط.. وأسر الى ببرنامج حكومته ..

ــ متى نسافر ؟

ــ لا أدرى . يجب أن أراه مرة أخرى فى مساء غد . لقد

عينت الساعة الثامنة موعدا للاجتماع .. ولـكن ، ألا ترين اننى أحسنت صنعا بقبول المنصب ؟

ــ طبعا ..

ــ نعم ، اذ لو رفضت للامونى ، ولـكان من حقهم أن يلومونى . ان أول شيء يفقده الانسان حين يعمل فى السياسة هو حريته . وفى وسعك أن تبقى هنا اذا شئت . ستبدأ دورة المجلس النيابى بعد خمسة أشهر أو أربعة ، وهى لا تكاد تعطينى الوقت الكافى للالمام بالوضع هنالك .

١٧٤

قبلت دونا فرناندا هذا العرض . فهو يسمح للأولاد بألا تنقطع دراستهم ، ولن يطول الفراق أكثر من أربعة أشهر على كل حال . وسافر تيوفيلو بعد بضـعة أيام . ومضى فى صبيحة سـفره الى مكتبه يودعه . ألقى نظرة أخيرة على كتبه وتقاريره وميزانيـاته ومخطوطاته ، على كل ذلك الجزء من حياته الذى لم يكن له معنى ولا شأن الا عنده . وربط بعض الاوراق والاضـبارات حتى لا تضيع ، كما أوصى امرأته بألف وصية ووصية فى هذا الامر .

ــ لا تقلق . سأعنى بجميع أشيائك ، وسأنفض عنها الغبـار بنفسى كل يوم .

فقبلها تيوفيلو .. ان كل امرأة كان يمكن أن تحزنها هذه القبلة حين تلاحظ ان زوجها يحب كتبه حبا شديدا حتى لـكأنه يؤثرها عليها . لـكن دونا فرناندا شعرت بسعادة ..

١٧٥

منـذ يوم الازمة الوزارية ، لم يعد روبيان الى منزل دونا فرناندا . فهو لم يعلم اذن شيئا لا عن المنصب الذى أسند الى تيوفيلو ولا عن سفره . وكان يعيش بين كلبه وخادم واحد ، دون أن يعانى نوبات شديدة ، ولـكن دون أن يمر بفترات طويلة من الهدوء أيضا . وكان الخادم يقوم بخدمته على غير نظام لكنه كان يقبل كل ما ينقده اياه روبيان من « بقاشيش » ، وينعم عدا ذلك بلقب مركيز . وكان فى سائر الوقت يتسلى ... فحين يبـدو لسيده أن يكلم الجدران ، يهرع يتجسس عليه ، فيشهد كل الحوار الذى يدور بينه وبينها ــ ذلك ان روبيان كان يجيب الجدران كما

لو كانت تطرح عليه أسئلة . وفى المساء كان الخادم يمضى يثرثر مع أصدقائه من الجيران .

ــ كيف حال المجنون ؟

ــ خير حال . لقد طلب اليوم الى كلبه أن يغنى ، فنبح الكلب كثيرا ، فسر هو بذلك سرورا عظيما ، كمن يشرب نبيذا . مهرج كبير ! حين توافيه النوبة ، يصبح كرجل يحكم العالم حقا ! حتى لقد قال لى أمس ، أثناء الغداء : « أيها المركيز ريموندو ، أريد منك أن ... » ، وبلغ كلامه من الاضطراب انني لم أفهم شيئا البتة . وفى نهاية الامر أعطانى بضعة نقود !

ــ وأخذتها ؟

ــ يا له من سؤال !

وحين كان الهذيان يترك روبيان ، كان يعقب كلامه العجيب حزن أخرس فى بعض الاحيان . وكانت حياته الباطنية تحاول عندئذ أن تمحو كل أثر من آثار حالته السابقة . كأنه رجل يبذل جهدا كبيرا مؤلما ليخرج من الهوة التى تردى فيها ، يتسلق الجدران الوعرة ، ممزقا جلده ومحطما أظافره ، من أجل أن يصل الى أعلى فلا يسقط مرة ثانية فى الهوة التى يوشك أن يضيع فيها الى الابد . وكان فى هذه الحالة يمضى يزور بعض الاصدقاء ، وكان بعض هؤلاء الاصدقاء جددا وبعضهم قدامى مثل الماجور وكاماشو .

الا ان كاماشو قد أصبح منذ زمن أقل ثرثرة مما كان . وحتى السياسة أصبحت لا تقدم له مادة يصوغ منها خطبه التى عهدناها فيه . وأصبح اذا ظهر روبيان على بابه يتأفف ثم لا يلبث أن يكبح تأففه . ولاحظ فيه روبيان هذا التبدل ، فأخذ يخمن أسبابه . أتراه قد أساء الى صديقه دون أن ينتبه الى ذلك ، أم انه قد أخذ يبعث فى نفسه الضجر والسأم ؟ ومن أجل أن يغفر له صديقه تلك الاساءة ــ أو ذلك الضجر ــ كان يتكلم متبسما متهللا ، ولا ينسى أن يصمت فترات طويلة ليسمح لصاحبه بأن يقول شيئا . لكن جهوده كلها كانت تذهب سدى . وعبثا كان يعمد الى الكلام عن الماركيز بارانا الذى كانت صورته لا تزال معلقة بالحائط ، والى الاشادة بمزاياه التى سمعها من كاماشو : الماركيز العظيم ... السياسى المحنك . فكان صاحبه يؤيد كلامه بحركات من رأسه ، ثم يستمر فى الكتابة : فيفتح اضبارات ويستشير مؤلفين « لوبون ، كوليوذا روشا » ويستشهد بنصوص ، ويشطب سطورا ،

ويرجو روبيان الا يؤاخذه ، لأن عليه أن يسلم مذكرة قانونية فى اليوم نفسه . وكان يتوقف فى بعض الاحيان ليمضى الى المكتبة .

قال له روبيان ذات يوم :

ــ هذه الحجرة مظلمة ..

ولكنه لم يتلق أى جواب ، فالى هذا الحد كان المحامى يبدو منهمكا فى قراءة اضباراته ... قال روبيان لنفسه : « لعلنى أزعجه حقا » . وأخذ يراقب وجه كاماشو الرصين الموصد ، وأخذ يرصد طريقته فى الامساك بالقلم للاستمرار فى كتابة مذكراته التى لا تنتهى .. وبعد عشرين دقيقة من صمت مطبق ، رآه يضع القلم ، وينهض صدره ، ويتمطى ويفرك عينيه ... فقال له فى اهتمام :

ــ تعبت ، أليس كذلك ؟

فلم يزد كاماشو على أن أومأ برأسه أن نعم ، ثم استعد لاستئناف الكتابة . نهض صاحبنا منتهزا هذه الهدنة القصيرة ليودعه ..

ــ سأعود حين تكون أقل انشغالا ..

ومد يده الى كاماشو ، فصافحه كاماشو بغير اكتراث ، واستأنف عمله . وهبط روبيان السلم ، وهو يشعر من برودة صاحبه الشهير بدهشة يمازجها الالم . ترى ماذا صنع له ، وفيم أساء اليه ؟

١٧٦

ومن المصادفات انه وقع بعد ذلك على الماجور سيكويرا . قال له :

ــ كنت ذاهبا اليك . فهل أنت ذاهب أيضا الى بيتك ؟

ــ نعم ، لكننا لا نقطن الآن فى المكان نفسه ، وانا نسكن كاجديرا ، بشارع برنسيزا ..

ــ سيان ، هلم بنا الى هناك ..

وأحس روبيان مرة أخرى بالدوار الرهيب يغزو عقله ، فشعر بمزيد من الحاجة الى التشبث بالواقع على أى صورة من الصور . ومع ذلك كان من الاتزان والثقة فى كلامه بحيث ظن الماجور انه يملك عقله كاملا ، فسأله :

ــ هل تعرف ان عندى نبأ هاما أزفه اليك ؟

ـ قل ، أسرع !

ـ لا ، لن اقول شيئا قبل أن نصل !

ووصلا الى المنزل . انه مؤلف من طابقين . وفتحت لهما تونيكا الباب . كانت ترتدى ثوبا جديدا ، وتحمل فى أذنيها قرطين .

قال الماجور وهو يمسك ذقن ابنته بيده :

ـ أنعم النظر فيها !

فتراجعت تونيكا وقد امتلأت خجلا .

قال روبيان :

ـ انعمت النظر ...

ـ ألا يدرك من يراها انها على وشك الزواج .

ـ ها . تهانى كلها !

ـ نعم ، ستتزوج . طبعا لم تصل الى هذا بغير عناء ، لكنها وصلت آخر الامر ! لا أدرى أين وجدت خطيبا يعبدها عبادة كسائر الخطاب ... أنا شخصيا كنت أعبد خطيبتى عبادة تفوق الخيال . ستتزوج . لقد اصطادت خطيبا . طبعا لم تصل الى هذا بغير عناء ، لكنها وصلت آخر الامر ! انه رجل رصين ... أما عمره فهو بين بين ! وهو يقضى جميع أمسياته هنا . وفى الصباح ، حين يمر أمام البيت فى طريقه الى مكتبه ، ينقر على النافذة فيما أظن ... الا أن تكون هى فى انتظاره من قبل أن يمر . وأنا أتظاهر بأننى لا أرى شيئا ...

كانت تونيكا تومىء برأسها أن لا ... ولكن ابتسامتها كانت تقول نعم ... مضطربة كل الاضطراب ! لقد أصبحت لا تتذكر انها منت نفسها أن تتزوج روبيان ، وان روبيان كان أحد أحلامها الاخيرة ، بل كان حلمها الاخير ... ودخلوا الى الصالون ، فمضت تونيكا الى النافذة ثم عادت رافعة الرأس : انها تمشى بلا هدف واضح معين ، لكنها تمشى مشية من تصالح مع الحياة ..

كرر الماجور يقول :

ـ انه رجل جيد ، شخص طيب ... تونيكا ، هاتى صورة خطيبك ...

فجاءت تونيكا بالصورة . انها صورة شمسية لرجل متوسط العمر ، قصير الشعر ، قليله ، ينظر الى الامام نظرة مدهوشة ، نحيل الوجه ، دقيق العنق ، مزرر السترة فى احكام حتى أعلاها .

ـ ما رأيك ؟

ـ وسيم جدا .

وتناولت تونيكا الصورة مرة أخرى ، وحدقت اليها بضع لحظات . لكنها لم تلبث أن حولت عنها بصرها وظلت جالسة فى تعقل ، بينما طار خيالها على جناحين الى لقاء رودريك . اسمه رودريك . انه أقصر منها ـ وذلك ما لايظهر فى الصورة ـ وهو يعمل موظفا فى مكتب بوزارة الحربية . لقد ماتت زوجته تاركة له ابنين ، أحدهما جندى ، والثانى ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، مصاب بالسل ميئوس من شفائه .. ولكن ما قيمة هذا كله ؟ أليس رودريك هو « الخطيب » المنشود ؟ ان تونيكا تركع كل مساء قبل النوم أمام صورة سيدتنا مريم العذراء ، سيدة الحبل بلا دنس ، تشكر لها نعمها وآلاءها وتسألها أن تسعدها . وهى تحلم منذ الآن فى أن تنجب ولدا . وقد تسميه ألفارو !

١٧٧

استمع روبيان الى خطاب طويل من الماجور . اغلب الظن أن الزواج سيتم بعد شهر ونصف . ان على الخطيب أن يفرغ أولا من اعداد البيت ، ولما كان غير غنى وكان يعيش من راتبه وحده ، فقد كان لابد له من اقتراض مبلغ من المال . صحيح انه احتفظ ببيته القديم ، وانه لم يؤذ ميزانيته بشراء أثاث جديد ، غير أن هناك أشياء صغيرة لايستغنى عنها على كل حال .. خلاصة الامر انهما سيرتبطان بروابط الزواج المقدسة بعد خمسة أسابيع أوستة.

وختم الماجور كلامه بقوله :

ـ وبذلك أتخلص أنا ...

فقال روبيان محتجا :

ـ ها ...

لكن تونيكا ضحكت . لقد تعودت أمازيح أبيها ، وكانت من الفرح بحيث لايستطيع شىء أن يؤذى شعورها ، ولو أشار الماجور الى سنيها الاربعين ، لما تأذت من ذلك . هل جميع المخطوبات فى الخامسة عشرة من سنهن ؟

قال روبيان لتونيكا :

ـ سترين مدى حسرته عليك فيما بعد !

فقال الماجور :

ـ كيف ؟ فى وسعى أن أتزوج أنا أيضا !

ونهض روبيان فجأة ، فمشى بضع خطوات. ولم يلاحظ الماجور تعبير وجهه ولا أدرك ان عقل ضيفه يهم أن يختل ، وانه يشعر بذلك هو نفسه . ورجاه سيكويرا ان يجلس ، وأخذ يحدثه عن زواجه وعن معاركه الحربية . حتى اذا وصل ، بعد اللف والدوران اللذين تتميز بهما أحاديثـــه ، الى الكلام على معركة مونتى كازيروس ، كان نابليون الثالث قد انتصب أمامه . لقد لزم روبيان الصمت لحظة ، ثم هنأ الماجور ببضع كلمات ، وذكر سولفيرينو وماجنتا ، ووعد سيكويرا بوسام ينعم به عليه . فنظر الاب وابنته كل منهما الى الآخر . ولم يلبث المـاجور أن قال ان الجو ينذر بعاصفة . ولقد كانت السماء متلبدة حقا ببعض الغيوم . أفليس من الخير أن ينصرف روبيان قبل أن يهطل المطر ؟ انه لم يصطحب مظلته ، ومظلة الماجور عتيقة جدا ، وهى من جهة أخرى المظـلة الوحيدة التى يملـكها .

قال روبيان فى هدوء :

ـ ستأتى مركبتى لتقلنى .

ـ لا .. لا .. لقد وقفت تنتظرك فى كامبو . الا ترين المركبة من هنا ياتونيكا ؟

فأومأت تونيكا ايماءة مبهمة مترددة . انها لا تريد أن تكذب ، ولـكنها من جهة أخرى خائفة بعض الخوف ، تتمنى لو ينصرف روبيان . انه من المستحيل على المرء أن يرى كامبو دا اكلاماسون من هذا المنزل . على ان أباها قد أمسك بذراع روبيــان وأخذ يسير به نحو الباب .

ـ عد غدا أو بعد غد ، كما تشـاء !

ـ ولـكن لماذا لا أستطيع أن انتظر هنا حتى تصل مركبتى . ان الامبراطورة لا تريد أن تتعرض للمطر .

ـ الامبراطورة ذهبت .

ـ ما كان ينبغى لها أن تفعل. ماكان ينبغى لاوجينا أن تذهب. أيها الجنرال .. لماذا يجب أن تبقى فى رتبة ماجور ؟ أيها الجنرال، لقد رأيت صورة صهرك . وأريد أن أعطيك صورتى . خذها من قصر التويلرى . أين مركبتى ؟

ـ تنتظرك فى كامبو ..

ـ استدعها الى هنا ..

وكانت تونيكا واقفة عندئذ الى النافذة ، فاذا هي تلتفت لتقول :
ــ هذا رودريك قد وصل ..
وأخذت تنظر في الشارع وهي تميل وتبتسم ، بينما كان أبوها في داخل البيت يستمر في توجيه روبيان نحو الباب في رفق وحزم معا . وكان روبيان يتوقف في بعض الاحيان ليقرع الماجور :
ــ أنا امبراطورك أيها الجنرال !
ــ أعرف ، ولكن تفضل يا صاحب الجلالة بمرافقتي ...

ووصلا الى الباب ، ففتحه سيكويرا في اللحظة التي ظهر فيها رودريك على عتبة المنزل . وتقدمت تونيكا لتستقبل خطيبها ، لكن أباها وروبيان كان يسدان عليها الطريق . ورفع رودريك قبعته ، فظهرت شعراته القليلة البيضاء . ان على خديه بقعا حمراء مبعثرة لكن له ابتسامة عذبة متواضعة ــ متواضعة أكثر مما هي عذبة ــ وانه رغم العامية التي تظهر في حركاته كما تظهر في شخصه كله ، يبعث في النفس شعورا بالارتياح . ليس في نظرته ذلك التعبير الزائغ الذي يظهر في الصورة : أغلب الظن ان مرد ذلك التعبير الزائغ الى انه أراد اتخاذ وضع خاص يظهره في الصورة بمظهر جميل ...
قال الماجور لروبيان :
ــ هذا السيد هو صهرى المقبل ...
ثم اتجه الى رودريك يسأله وهو يغمز بطرفه :
ــ ألم تر في كامبو مركبة مع حرس من الفرسان ؟
ــ أظن ياسيدى ..
فقال سيكويرا وهو يلتفت الى روبيان :
ــ هل صدقت !. لا تضيع الوقت . تنعطف بعد شارع سان لورنسو . ثم تسير قدما الى كامبو . الى اللقاء . الى الغد .

فنزل روبيان ثلاث درجات « وكانت خمسا » ، ووقف أمام القادم الجديد ، فحدق اليه بضع لحظات ، ثم قال له انه سعيد جدا بمعرفته وانه يتمنى أن يراه زوجا سعيدا وأبا طيبا . ما اسمك ؟
ــ جوان جوزه رودريك .
ــ رودريك . سأبعث اليك بوسام صغير تزين به صدرك . هذه هديتي اليك لمناسبة زواجك . ذكرني بذلك يا سيكويرا .
فأمسك سيكويرا ذراعه لينزله الدرجتين الاخيرتين ، وليضعه

أخيرا فى الشارع .
– قلت ان المركبة فى كامبو ، أليس كذلك ؟
– نعم فى كامبو ..
– الى اللقاء ..

١٧٨

سرعان مانسي روبيان المركبة وكوكبة الفرسان ، فنزل الى أدنى المدينة ، وبعد أن لف ودار كثيرا ، وجد نفسه فى آخر الامر يصعد شارع سان جوزه . انه منذ مر أمام القصر الامبراطورى لم ينقطع عن القيام بحركات واشارات متحدثا الى شخص يتخيل انه متأبط ذراعه : انها الامبراطورة نفسها . ولكن أهى أوجينا أم هى صوفيا ؟ انها كلاهما أو أقل هى الثانية تحمل اسم الاولى ! وكان الناس يتوقفون فى الشارع أو يهرعون من داخل المخازن الىالابواب ليروه ، فبعضهم يضحك ، وبعضهم يظل غير مكترث ، وبعضهم الآخر يحول بصره أحيانا حتى لايرى المنظر المحزن ، منظر الجنون! وكان يتبع روبيان لفيف من الصبية العبيد وكان بعضهم يتبعونه عن كثب فلا تفوتهم كلمة مما يقول . وسرعان ما انضم الىجمعهم الصغير صبية آخرون . وأثارهم ما رأوا من فضول عام ، فأخذوا يرددون هذه الصيحة بصوت واحد :
– المجنون ... المجنون ...

وكان من شأن هذا الصياح طبعا أن يثير انتباه الناس مزيدا من الاثارة : فهذه نوافذ تفتح فى جميع طوابق المنازل ، وهؤلاء مستطلعون من الجنسين ومن جميع الاعمار يظهرون . ان بينهم مصورا ، وبائع سجاد ، وأشخاصا آخرين ، والرءوس جميعها بتراكم بعضها فوق بعض ، لترى ولتتابع بنظرها هذا الرجلالذى يكلم الجدران باشارات تفيض عظمة وفخامة .
ويقول الصبية صائحين :
– المجنون ... المجنون ...

وهذا واحد منهم ، هو أصغرهم جميعا ، يتشبث بسروال واحد آخر أطول منه كثيرا ، ليستطيع متابعة الموكب الذى أقبل الآن على شارع آمودا . وظل روبيان لا يسمع شيئا . لقد أحس بصيحات الجمهور مرة ، لكنه اعتقد أنها هتافات فحيا الجمهور تحية كبيرة من قبيل الشكر . وكانت الصيحات تزداد بغير انقطاع.

وسمع بين الاصوات على حين فجأة صوت امرأة تصيح بابنها من على باب أحد المخازن قائلة :

ــ ديولندو ، عد الى البيت يا ديولندو !

لكن ديولندو ، وهو الطفل الذى كان يتشبث بسروال ولد آخر أطول ، لم يستجب لنداء أمه ، ولعله لم يسمع النداء أصلا ، من شدة الضجة ، ومن شدة حماسته هو فى الصياح بصوته النحيل .

ــ المجنون ... المجنون ...

ــ ديولندو !

وحاول ديولندو أن يختبىء وراء الآخرين تحاشيا لنظرة أمه . لكن أمه ركضت نحو جمهرة الاطفال فانتزعته منها . حقا انه أصغر من أن يشترك فى زحمة من هذا النوع !

ــ ماما ... دعينى أنظر !

ــ تنظر ؟ ماذا تنظر ؟ هيا سر !

وأدخلته الى البيت وظلت على الباب تنظر الى ما يجرى فى الشارع . وكان روبيان قد توقف ، فاستطاعت أن تراه من قرب ، وأن تسمع كلامه ، وأن تلاحظ اشاراته . وأن ترقب طريقته فى نفخ أوداجه ، وفى تحية الناس من حوله .

قالت لاحدى جاراتها وهى تبتسم :

ــ حقا ان للمجانين أطوارا مضحكة فى بعض الاحيان !

وظل الصبية يصرخون ويضحكون . واستأنف روبيان بعدئذ سيره يتبعه حرسه . وعند باب المخزن طلب ديولندو من أمه ، وقد رأى القافلة تبتعد ، أن تسمح له بالمضى مع القافلة ، أو أن ترافقه اذا شاءت . فلما رأى الا أمل فى ذلك ، استجمع قواه كلها ليصيح مرة أخيرة بصوت حاد :

ــ المجنون ..

١٧٩

أخذت الجارة تضحك . وضحكت الام . واعترفت بأن ابنها شيطان صغير ، وبأنه لا سبيل الى وقفه فى مكان . يستحيل أن اغفل عنه لحظة واحدة . ما يكاد يسمع أيسر ضجة حتى يصير فى الشارع . وذلك منذ كان صغيرا جدا . انه لم يكن قد أتم السنتين من عمره حين أوشك فى هذا المكان نفسه أن تسحقه

عربة . كان بينه وبين الموت شعرة . فلولا ان رجلا كان يمر فى الشارع ، « رجلا حسن الهندام » فأسرع الى انقاذه لمات فى تلك الساعة نفسها . وفيما كانت الام تقول لجارتها هذا الكلام كان زوجها يصل الى الرصيف الثانى ثم يجتاز الشارع، فيقطع الحديث بين المرأتين . كان متجهم الوجه ، فلم يكد يسلم على الجارة ويدخل حتى لحقت به زوجته . ماذا جرى ؟ فروى لها حكاية الصيحات ، فقالت :

ــ رأيتهم ، لقد مروا من هنا !

ــ ألم تعرفى هذا الرجل ؟

ــ لا ...

فكتف ذراعيه ، وظل صامتا جامد النظر لحظة من الزمن . سألته زوجته من هذا الرجل ؟ فأجابها قائلا :

ــ هو ذلك الذى انقذ ديولندو من الموت ..

فارتعشت المرأة قائلة :

ــ أمتأكد انك لم تخطىء ؟

ــ كل التأكد . لقد صادفته عدة مرات ، لكنه لم يكن على الحالة التى هو عليها الآن . مسكين . ما قولك فى هؤلاء الصبية الذين يجرون وراءه ؟ ماذا ؟ أليس فى هذا البلد شرطة ؟

ليس مرض روبيان هو ما عذب المرأة ، لا ولا الصيحات التى كانت تلاحقه ، وانما عذبها خاصة ان ابنها نفسه ، ابنها الذى انقذه هذا الرجل يوما من الموت ، قد شارك الآخرين فى الصياح . لم يكن فى وسع الولد أن يعرفه طبعا ، ولا أن يعلم انه مدين له بحياته . ولكن ذلك لا يمنعها من أن تشعر بقلق من هذه المصادفة المشئومة ! ثم انتهت الى القاء اللوم كله على نفسها . لو راقبت طفلها أكثر من ذلك لما استطاع أن يخرج الى الشارع وأن ينضم الى عصبة الصبية . وظلت قلقة ترتعش من حين الى حين . وجذب الزوج ابنه اليه ، وطبع على رأسه قبلتين .

سأل زوجته :

ــ هل رأيت المشهد كله ؟

ــ نعم ..

ــ وددت لو آخذه من ذراعه وأجىء به الى هنا ، لكننى استحييت ، فان صبية السوء هؤلاء ما كانوا ليتورعوا عن اساءة معاملتى أنا أيضا لو فعلت . وقد حولت وجهى عنه مخافة أن

يعرفني ! مسكين لاحظى انه كان كمن لا يسمع شيئا ، وانه كان يتابع سيره راضيا كل الرضا ! واحسب انه كان يضحك ... الا ان فقدان العقل الأمر محزن !

وكانت المرأة لا تزال تفكر فى مشاركة ابنها فى هذه القصة كلها. لكنها لم تحدث زوجها عنها بكلمة واحدة ، ورجت جارتها الا تشير اليها . وفى الليل لم تستطع اغماض جفنيها الا فى ساعة متأخرة : لقد استقر فى ذهنها ان ابنها سيصبح بعد عدد كبير من السنين مجنونا ، وان عقابه سيكون هذا العقاب نفسه : تلاحقه عصبة من الصبية كهذه العصبة التى رافقت روبيان . وتصورت نفسها وهى فى غمرة الاستياء تبصق فى وجه السماء مجدفة !

١٨٠

بعد مشهد شارع آجودا بساعتين وصل روبيان الى منزل دونا فرناندا . وكان الصبية الذين يلاحقونه قد تفرقوا شيئا بعد شىء ، والفراغ الذى كان يخلفه تفرقهم لم يملأه صبية آخرون . لم يبق منهم بعد قليل الا ثلاثة ، وحدوا أصواتهم فقذفوه بآخر وداع حاد . وسار روبيان وحده . ان المارة يكادون لا يلاحظونه الآن ، لان اشاراته قلت كثيرا ، أو اختلفت كثيرا على كل حال . أصبح الآن لا يكلم الجدران ، أو قل لا يكلم الامبراطورة التى يصورها له خياله ، ولكنه لايزال امبراطورا . كان يسير ، ثم يتوقف على حين فجأة ، فيدمدم بكلام لا يفهم ، وهو لايزال غارقا فى أحلامه ، ملفعا بذلك الضباب الذى يرى من خلاله كل شىء رؤية تختلف عن الواقع كل الاختلاف وتتفوق عليه فى جمالها تفوقا كبيرا . كل فانوس يستحيل فى نظره الى حاجب ، وكل ركن من أركان الشارع يتخذ أمام عينيه صورة بساط رائع . انه ذاهب الى قاعة العرش قدما ، ليستقبل أحد السفراء ، لكن القصر واسع حقا ، فلا بد له من اجتياز قاعات لا نهاية لها ، وأروقة ليس لها آخر . وهو يتقدم سائرا على سجادة بين صفين كبيرين قويين من حملة الحراب !

وكان معظم الناس الذين يتوقفون فى الشارع أو ينحنون من النوافذ لرؤيته ينسون أفكارهم الحزينة أو المملة بضع لحظات ، ينسون مشاغلهم اليومية وأحقادهم وهمومهم — من دين أو مرض أو لوعة حب أو خيانة صديق . كانت كل مصيبة من مصائبهم

الصغيرة تختفي على حين فجأة ، وهذا خير ما فى الدنيا من ألوان العزاء ! غير ان لحظات النسيان هذه كانت سريعة كالبرق : فما أن يمضي عنهم المجنون حتى يجدوا أنفسهم أمام الواقع مرة أخرى وجها لوجه ، وحتي تعود الشوارع شوارع ، لان روبيان كان ينقل معه قصره المنيف ... وقد شعر أكثر من واحد منهم بعطف على هذا المجنون البائس ! وقارن بعضهم بين حظه وحظه فحمد الله على نصيبه : لئن كان يجد نصيبه مرا ، انه لسليم العقل على الاقل ! كان الناس جميعا يؤثرون خرائبهم الواقعية على القصر الذى يتصوره خيال بطلنا !

١٨١

حجز روبيان فى مستشفى للمجاذيب . لقد نسي باليا العهد الذى استطاعت صوفيا أن تنتزعه منه ، وصوفيا نفسها كانت لا تتذكر العهد الذى قطعته على نفسها لدونا فرناندا . ذلك انهما كليهما كانا لا يفكران الا فى بيتهما الجديد «قصر خاص فى بوتافوجو» الذى قطع بناؤه أشواطا كبيرة ، ويريدان أن يدشناه فى الشتاء ، حين يجتمع المجلسان — مجلس النواب ومجلس الشيوخ — وينزل الناس من مصيفهم فى بتروبوليس . لكن الوعد نفذ أخيرا ، فدخل روبيان مستشفى من المستشفيات احتل فيه غرفة وصالة ، عملا بتوصية الدكتور فالون وباليا . ولم يظهر روبيان أى نوع من أنواع المقاومة ، بل تبع صديقيه راضيا ودخل المنزل الجديد دخول من يعرفه كل المعرفة . وحين ودعه الدكتور فالون وباليا ووعداه بأن يجيئا اليه قريبا ، دعاهما الى استعراض عسكرى فى يوم السبت القادم .

سأله فالون :

— السبت ؟ طيب ...

وأردف روبيان :

— السبت يوم مبارك . وتعال أنت أيضا يا دوق باليا .

فقال باليا وهو يخرج :

— سأجيء ...

— اسمع . سأرسل اليك احدى مركباتي ... مركبة متلألئة جديدة ... يجب أن تضع زوجتك جسمها الجميل فى مكان لم يجرؤ أحد أن يجلس عليه من قبل . وسائدها مخمل ودمقس ،

وعدتها من فضة ، وعجلاتها من ذهب . أما الخيل فسليلة الحصان الذى كان عمى يمتطى صهوته يوم مارنجو . الى اللقاء يادوق باليا.

١٨٢

قال الدكتور فالون بينه وبين نفسه وهو يخرج : « أما أنا فالامر عندى واضح. انهذا الرجل كانعشيق زوجة هذا المحترم»

١٨٣

لبث روبيان فى المستشفى . وعبثا أراد كونكاس بوربا ، من أجل مرافقة سيده ، أن يدخل العربة التى تقله ، أو أن يتبعها راكضا . فان الخادم قبض عليه بعد عناء فتغلب عليه ، وأدحله المنزل . وهكذا تكرر الوضع الذى شهدته باربا سينا تكرارا تاما دقيقا . ولكن ألا تعرف ، ياسيدى العزيز ، ان الحياة لاتتألف على وجه الاجمال الا من أربعة أوضاع مختلفة أو خمسة ، وأن نزوات الظروف هى التى تبدلها فى أنظارنا وتكثرها ؟ وأيا كان الامر ، فقد طلب روبيان فى كثير من الالحاح أن يرسل اليه الكلب. وأخذت دونا فرناندا تتهيأ لتلبية رغبة المريض بعد أن نالت موافقة مدير المستشفى على ذلك . فقررت ان تكتب الى صوفيا ، لكنها عزمت أمرها أخيرا وذهبت الى فلامنجو بنفسها .

١٨٤

قالت صوفيا :
ـ سأذهب لآتى به ، المكان قريب من هنا كل القرب .
ـ فلنذهب كلانا . ذلك خير . ثم اننى قد خطر ببالى شيء . هل الاستمرار فى استئجار البيت مفيد حقا ، مع ان المعالجة قد تطول ؟ أليس الافضل أن يفسخ العقد ويباع الاثاث ويبقى مايبقى بعد ذلك ؟

وذهبتا سيرا على الاقدام الى فلامنجو ، شارع البرنسيب ، فلم يستغرق وصولهما الى البيت غير ثلاث دقائق أو أربع. كان ريموندو فى الشارع ، لكنه حين رأى ناسا على الباب ، جاء يفتح . كان كل شيء فى داخل البيت مهجورا كل الهجر ، فلا يلاحظ فيه حتى مظهر الركون والسكون اللذين بفضلهما كانت

الاشياء تحتفظ بجزء من الحياة التى كانت تسرى فى المنزل. ذلك ان الاهمال قد سبق ههنا الهجر . والفوضى التى فى الاثاث تعبر عن جنون الشخص الذى كان يسكن البيت وعما كان يمتلىء به رأسه من دخان الافكار الهوج .

ــ هل كان غنيا كثيرا ؟

كذلك سألت دونا فرناندا ، فأجابتها صوفيا بقولها :

ــ كان على جانب كاف من الغنى حين وصوله من ميناس . لكننى أظن انه بذر كل ما يملك . حذار ! ارفعى ثوبك ! لكأن الارض لم تكنس منذ قرن !

ولم تكن الارض وحدها وسخة ، فان الاثاث كان مغطى بطبقة كثيفة من الغبار . ولكن الخادم لم يشعر بأى حاجة الى ان يشرح أسباب هذا الاهمال واكتفى بالنظر والاصغاء وهو يصعر بصوت خافت لحنا رائجا من ألحان رقصة البولكا . ولم تبد نه صوفيا أى ملاحظة بشأن نظافة البيت ، فقد كان كل همها أن تهرب من هذا المكان « المقزز » ــ ذلك عو النعت الذى نعتت به البيت بينها وبين نفسها ــ ولم تكن تريد الا أن تحصل على الكلب غرض هذه الزيارة . ومع ذلك كانت لا تحب أن تظهر بمظهر من يهتم بهذا الكلب ، ولا بأى شيء آخر . ان ما يشيع فى هذا البيت كله من مظاهر العامية يبعث الاشمئزاز فى قلبها وفى فكرها جميعا ، ولم تساعدها ذكرى المجنون أبدا على تخفيف شعورها بطول الوقت . وكانت فى قرارة نفسها تحكم على رفيقتها بأنها اما خيالية واما متصنعة ! « هذا كله غباء ! » . كذلك كانت تقول بينها وبين نفسها ، دون أن تتخلى مع ذلك عن ابتسامة التأييد التى كانت تستقبل بها ملاحظات دونا فرناندا .

قالت دونا فرناندا للخادم :

ــ افتح النوافذ ، الجو هنا ممتلىء برائحة العفونة ..

فزادت صوفيا وهى تتنشق مشمئزة :

ــ آه ... نعم ... انه لجو لايطاق !

ورغم هذا النداء لم تقرر دونا فرناندا أن تمضى . فان هذا البيت البائس ، مع انه لايوقظ فى نفسها أى ذكرى شخصية ، كان يبعث فيها انفعالا قويا عميقا ليس ذلك الانفعال الشائع الذى يخالط نفوس الناس عامة عند رؤية الاطلال . ان هذا المنظر الحزين لم يكن عندها ذريعة للتفلسف ، فلا هو علمها ان الدهر قلب ولا ان

العالم شقى ، وانما ذكرها بالعذاب الذى ألم بإنسان ، انسان لا تعرفه كثيرا من جهة آخرى ، ولم تهيأ لها أسباب التحدث اليه الا لماما . وظلت على هذه الحال مدة طويلة تنظر فيما حولها دون أن تفكر فى شيء ودون أن تستنتج شيئا أو أن تنبس بكلمة. كانت حزينة منطوية على نفسها انطواء كاملا . وكانت صوفيا من جهتها لا تجرؤ أن تفتح فاها ، مخافة أن تزعج الشخصية المحترمة التى ترافقها ! وقد رفعتا كلتاهما ذيل الثوب حتى لا يتجرر على الغبار . ومن قبيل الاحتياط الاضافى ، كانت صوفيا لا تنقطع عن تحريك مروحتها أيضا ، تحريكا عنيفا متأففا كأنها توشك فى كل لحظة أن تختنق ، حتى لقد سعلت عدة مرات .

سألت دونا فرناندا الخادم :

ــ والكلب ؟

ــ سجين الغرفة ، هناك فى آخر البيت !

ــ ائتنى به !

وظهر كونكاس بوربا هزيلا مهدما ، ووقف على باب الصالون . انه لم ينبح حين رأى السيدتين ، رغم انه لم يعرفهما ، ولم يزد على أن رمقهما بنظرة منطفئة . وهم أن يدور ليعود الى داخل البيت ، لولا أن صفقت دونا فرناندا بأصابعها ، فوقف وهو يحرك ذيله .

سألت دونا فرناندا :

ــ ما اسمه ؟

فأجابها الخادم بصوت بطيء وهو يضحك :

ــ كونكاس بوربا . اسم شخص . تقدم يا كونكاس بوربا . السيدة تناديك !

فكررت دونا فرناندا :

ــ تعال يا كونكاس بوربا . كونكاس بوربا !

فاستجاب كونكاس بوربا للنداء ، ولكن من غير أن يثب ، ومن غير أن يظهر أى علامة من علامات الفرح . ومالت دونا فرناندا عليه ، فحدثته عن سيده ، وسألته هل هو فى شوق اليه ، وهل يريد أن يزوره . وكانت ، وهى مائلة على الكلب هذا الميل ، تسأل الخادم عن عنايته بالكلب .

ــ نعم ياسيدتى . انه يأكل الآن . أما عند ذهاب سيده ، لقد كان لا يأكل ولا يشرب . حتى لقد ظننت انه أصيب بداء الكلب.

ـ والآن يأكل ؟
ـ يأكل ، ولكن قليلا .
ـ هل يبحث عن سيده ؟
أجاب ريموندو وهو يختنق ضحكا :
ـ يبدو باحثا عنه . وقد سجنته فى الغرفة لأمنعه من الهرب . انه الآن لا يبكى ، أما فى أول الامر فقد كان يبكى كثيرا .

كانت دونا فرناندا تحك رأس الكلب فى رفق . تلك أول علامة عطف ينعم بها بعد أيام كثيرة من العزلة والهجران . وحين انقطعت دونا فرناندا عن دغدغته ونهضت ، كان كل منهما ينظر الى صاحبه نظرة عميقة ، حتى لكأنه لم يبق بينهما سر !.. أن حب الآخرين ! وهو جوهر هذه السيدة النبيلة ، دونا فرناندا ، يمحو من نفسها أمام هذه التعاسة الغامضة كل نوع من أنواع التكبر الانسانى... وكان هذا الحب الشامل يغمر الحيوان ويفتنه ، ويسمره عند قدمى دونا فرناندا ... وكانت دونا فرناندا تشعر من جهتها ، وهى ترى الكلب ، بذلك الحزن نفسه الذى سيطر عليها حين علمت بجنون سيده ، كأنها لا تفرق كثيرا بينهما . واذ أحست ان وجودها يحسن الى الحيوان ، رفضت أن تحرمه من هذا العزاء .

قالت صوفيا :
ـ سيسرى اليك القمل .

فلم تسمعها دونا فرناندا ، بل ظلت تنظر الى عينى الكلب الحزينتين الوديعتين ، الى أن خفض الكلب رأسه وأخذ يسير فى الغرفة كلها باحثا مفتشا . لاشك انه كان يتشمم رائحة سيده . وكان الباب المطل على الشارع مفتوحا . فلولا أن ريموندو أسرع يقبض عليه لهرب . وعندئذ نقدت دونا فرناندا الخادم بعض المال وهى ترجوه أن يغسل الحيوان وأن يأخذه الى المستشفى . وأوصته بالعناية به أشد العناية ، فيحمله بين ذراعيه أو يربطه بحبل على كل حال . وتدخلت صوفيا فى هذه اللحظة ، فأمرته بأن يجىء اليها أولا .

١٨٥

وانصرفتا . نظرت صوفيا يمنة ويسرة قبل أن تسير فى الشارع لترى هل هناك أحد . من حسن الحظ ان الشارع كان خاليا . وما ان تركت صوفيا هذه الاوساخ كلها أخيرا حتى استردت فجأة

قدرتها على الـكلام ، كما استردت فى الوقت نفســه ذلك الفن المرهف الاخاذ ، فن فتنة الآخرين . فوضعت ذراعها تحت ذراع دونا فرناندا فى رقة ولطف ، وأخـذت تحدثها عن روبيـان وعن الشقاء الرهيب الذى أصــابه ، لـكنها حدثتها كذلك عن قصرها الخاص ببوتافوجو .. لماذا لا تذهبان معا الى هنـاك لتريا سـير الاعمال فى بناء القصر ؟ لن يكون عليهمـا الا أن تسرعا فى شرب الشاى ، ثم تذهبا الى هناك فورا .

١٨٦

وفى نحو ذلك الوقت رزقت ماريا بنديكتا بنتا ، وقد جاء هـذا الحادث يعزى دونا فرناندا عما سببه لها موضوع روبيان من هم ، فهرعت الى تيجوكا وغمرت الام بالقبل ، ومدت يدها أخيرا الى كارلوس ماريا .

صاح الاب الشاب وهو ينحنى قائلا :

ـ طافحة فياضة على عهدى بك دائما !

ـ وأنت فظ غليظ على عهدى بك دائما ..

ورفضت دونا فرناندا أن تترك ماريا بنـديكتا ، رغم محاولات المقاومة التى قام بها ابن عمها ، ولازمتهـا طوال مدة النقـاهة ، وكانت من نبل النفس وحسن المودة ولطافة المرح انها كانت اما بركة حقا ! ان سعادة بعض الناس تنسيها شقاء بعضهم الآخر .. ولـكن ما ان استردت الام الشابة عافيتها تماما ، حتى شغلت دونا فرناندا بالمريض من جديد .

١٨٧

« آمل أن أثيب اليه عقله فى بحر ستة أشهر أو ثمانية . لقد تحسن كثيرا .. »

ونقلت دونا فرناندا الى صوفيا هـذا الجواب الذى قاله مدير مستشفى الامراض العقلية ، وعرضت عليها فى الوقت نفسـه أن تزور المريض اذا كانت لا ترى فى ذلك ضيرا . فأجابتها صـوفيا ببطاقة صغيرة كتبت عليها : « أى ضير يمكن أن يكون فى ذلك ؟ اننى أنا التى لا أملك من الشجاعة مايمكننى من احتمال زيارته . لقد كان على صلة بنا تبلغ من القوة اننى لا أدرى هل أطيق رؤية هـــذا الانسان البائس وهل أطيق التحدث اليه . وقد أطلعت

كرستيانو على رسالتك فقال لى انه شرع فى تصفية أموال السيد روبيان ، وقد بقى له ثلاثة قونتات ومائتا كروزيرو »

١٨٨

قالت دونا فرناندا لنفسها : « ستة أشهر أو ثمانية ... مدة تنقضى بسرعة »

وتتابعت الاشهر ، وتتابع معهـا موكب كبير من الاحـداث : سقوط الوزارة ، تشكيل وزارة جديدة فى شـهر آذار ، عودة زوج دونا فرناندا ، مناقشة القانون الخاص بأولاد العبيد ، موت خطيب تونيكا قبل الموعد المقرر لزواجهما بثلاثة أيام .. لقد ذرفت تونيكا آخر ما فى مآقيها من دموع ، حبا بالمرحوم من جهة وحزنا على نفسها من جهة أخرى ، وقد أورثها هذا البكاء احمرارا فى العينين اذا رآه الرائى ظن انها مصابة بمرض فى البصر .

وتيوفيلو الذى أولته الحكومة الجديدة من الثقة مثل ما أولته الحكومة السـابقة ، قام بدور نشيط جدا فى مناقشـات الدورة البرلمانية . وصرح كاماشو فى جريدته ان قانون أولاد العبيد يجعل الناس يغفرون للحكومة عجزها وجرائمها . وفى شهر تشرين الاول اكتوبر دشنت صوفيا صالوناتها فى بوتافوجو بحفلة راقصة كانت فاتحة الموسم . وكانت فى هذه الحفلة فتانة باهرة ، تعرض ذراعيها وكتفيها بغير غرور مصطنع ، وتحمل جواهر جميلة بينها عقد روبيان ، وهو من أوائل الهدايا التى قدمها اليهـا « يجب أن نذكر هنا أن هذا النوع من الحلى لا يتغير زيه كثيرا » . وأعجب الناس جميعا بما فى سنيها الثلاثين من غضارة ونضـارة وخفـة ورشاقة . وتحدث بعض الناس بحسرة عن فضائلها الزوجية ، وعن الحب العميق الذى تكنه لزوجها .

١٨٩

فى غداة الحفلة الراقصـة استيقظت دونا فرناندا من نومهـا متأخرة . ومضت الى مكتب زوجها فوجدته قد قرأ خمس جرائد أو ستة ، من أول سطر الى آخر سطر ، وكتب ست رسائل ، وأخذ الآن يرتب بعض الـكتب فى مكتبته .

قال لها :

ـ تلقيت هذه الرسالة منذ برهة ..

فقرأت دونا فرناندا الرسالة . انها من مدير المستشفى يعلن فيها ان روبيان قد اختفى منذ ثلاثة أيام ، وانه لم يمكن العثور عليه رغم الجهود التى بذلها رجال الشرطة وبذلها هو نفسه . وختم المدير رسالته بقوله : « وما يزيد دهشتى من هذا الهرب أن تحسن صحته كان كبيرا ، واننى كنت آمل أن أشفيه شفاء تاما فى غضون شهرين » .

ذعرت دونا فرناندا . وحملت زوجها على أن يعدها بأن يكتب الى رئيس الشرطة والى وزارة العدل راجيا أن تقوم السلطات المختصة بأقصى ما تملك من جهد فى البحث عنه . لم يكن تيوفيلو يعنيه أمر معالجة روبيان فى قليل ولا كثير ، ولم يكن يعنيه أن يعثر عليه أو ألا يعثر عليه ، ولكنه أراد أن يسر امرأته التى يعرف شهامتها ، وربما كان أيضا لا يمتعض من مراسلة اناس يحتلون مثل هذه المناصب الرفيعة .

١٩٠

ولكن كيف عساهم يعثرون على روبيان وكلبه وقد سافر الاثنان الى باربا سينا ؟ لقد كتب روبيان الى باليا ، قبل ثمانية أيام ، راجيا منه أن يأتى اليه . وذهب كرستيانو الى المستشفى، فلاحظ ان شريكه القديم قد استرد سلامة تفكيره ، فليس فى حديثه أثر من جنون ... قال له روبيان :

ـ لقد مرت بى أزمة عقلية . أما الآن فقد انتهى الامر ، انتهى تماما . فأرجوك أن ترحلنى من هذا المكان . وأحسب ان المدير لن يعارض فى ذلك . ولما كنت أحب أن أترك هدية صغيرة للأشخاص الذين خدمونى وخدموا كونكاس بوربا أيضا ، فاننى أرجوك أن تسلفنى ثلاثمائة كروزيرو ؟

ففتح باليا محفظته بدون تردد ، ونقده المبلغ . وقال :

ـ سأحاول اخراجك من المستشفى . واحسب انه سيكون عليك أن تمكث بضعة أيام أخرى « كان ذلك قبل الحفلة الراقصة بيوم » . ولكن لا تقلق : ستخرج فى بحر أسبوع ..

وقبل أن ينصرف حدث مدير المستشفى فى الامر ، فقال له المدير ان حالة المريض حسنة ، لكنه أضاف ان أسبوعا واحدا قليل ، وان شفاءه الكامل ، يقتضى نحو شهرين .

فاعترف باليا بأنه رآه صحيح العقل ، ولـكنه لايدعى انه يعرف من الامر مثل الذى يعرفه محدثه ، وان المدير هو الذى يحدد موعد خروج روبيان ، وانه لا ينبغى تعجل الامور على كل حال ، ولو وجب الانتظار سبعة أشهر أو ثمانية .

۱۹۱

ما أن وصل روبيان الى باربا سينا ، وأخذ يصـعد الشـارع الذى يسمى الآن شارع تيرادنتس حتى وقف مناديا :

ــ للغالب البطاطا !

كان قد نسى العبـــارة والقصـــة منذ زمن طويل . لـكن المقاطع خرجت الآن من بين شفتيه من تلقاء نفسها حتى لـكأنها ظلت فى الهواء كاملة سليمة تنتظر من يستطيع أن يسبغ عليهـا معنى . لقد اهتدى بطلنا الى العبارة ، ونطق بها فى تعاظم شبيه بذلك التعاظم الذى شهدناه عليه فى اليوم المعهود ، يوم أن اتخذها رمزا للحياة والحقيقة . والحق انه أصبح لا يتذكر القصة بكاملها تذكرا واضحا ، ومع ذلك فهو يهب للعبـارة معنى غامضـا من معانى الصراع والنصر .

وصعد روبيان مع كلبه حتى آخر الشارع ، ومضى يقف أمام الـكنيسة . لم يفتح له الباب أحد ، ولا رأى ظلا لخادم من خدام الـكنيسة . وكان كونكاس بوربا الذى لم يأكل شيئا منذ ساعات طويلة ، خافض الرأس ، ملتصقا بحذاء سيـده ، ينتظر ... والتفت روبيان وأخذ يتأمل المنظر الممتد أمامه من أعلى الشارع . انها هى ، هى نفسها ، باربا سينا ، مدينته القديمة التى رأى فيها النور . ومن أعمق أعماق نفسه أخـذت الذكريات فى تلك اللحظة تنبجس شيئا فشيئا ! هنا الـكنيسة ، وهناك السجن ، وهنالك الصيدلية التى كان يشترى منها الادوية لـكونكاس بوربا الآخر ، انها مدينته بنفسها ! لقد كان يعرف ذلك عند وصوله ، لـكنه كلما طوف بصره فيها ازدحمت ذكرياته فى خاطره وتكاثرت ... ولم ير أحدا البتة . وأحس لحظة أن أحدا يتجسس عليه وراء نافذة على اليسار ، أما ما عدا هذا فخلاء ...

قال روبيان لنفسه : « لعلهم لا يعرفون اننى وصلت » .

وومض برق على حين فجأة ، وسرعان ما تلبدت السماء بالغيوم . ثم ومض برق آخر أقرب من الاول ، وأعقب البرق رعد ! وأخذ

المطر ينهمر ، وما انفك يغزر حتى انطلقت الصاعقة . لقد ترك روبيان الكنيسة منذ هطلت أولى قطرات المطر ، وهو الآن يهبط الشارع الذى صعده ، ولا يزال كلبه معه أمينا وفيا جائعا . لقد طاش صواب الاثنين من قوة العاصفة ، فهما هائمان على وجهيهما بلا أمل فى مأوى أو طعام . ان المطر يجلدهما بسياطه فى غير رحمة . وهما عاجزان حتى عن الركض ، أما روبيان فلأنه يخشى أن ينزلق وأن يسقط ، وأما الكلب فلأنه لا يريد أن يضل عن سيده . وفى منتصف المنحدر تذكر روبيان الصيدلية فجأة فدار الى وراء ، رغم الريح التى أصبحت الآن تسفع وجهه . لكنه ما ان قطع عشرين مترا حتى كانت هذه الفكرة قد غادرت رأسه : وداعا للصيدلية ! ووداعا للمأوى ! أصبح روبيان لا يتذكر السبب الذى حمله على أن يقفل راجعا ، وعاد يهبط الشارع من جديد مع كلبه ، سائرا على كعبيه . والكلب مع ذلك لا يفهم شيئا ولا يهرب من رفيقه . وبلغ الاثنان حدا واحدا من التبلبل والاضطراب فى مواجهة هذه العاصفة الحاقدة التى لا تنتهى .

١٩٢

وظلا هائمين على هذا النحو زمنا طويلا . كانت معدة روبيان تعول من الجوع ، ولكن من حسن الحظ ان الهذيان كان يعوض عن هذه الحاجة القوية بفضل الموائد المصفوفة فى قصر التويلرى غير ان كونكاس بوربا لا يستطيع أن يلجأ الى حيلة من هذا النوع . وظلا يصعدان ثم يهبطان ، ويهبطان ثم يصعدان ! ومن حين الى حين كان روبيان يقعد على الارض ، فيتسلق الكلب على ركبتيه عسى أن ينسى الجوع بالنوم ، ولكنه ما يلبث أن ينزل لانه يجد سروال سيده غارقا فى الماء من فرط البلل . واذا عاود التسلق رغم ذلك ، فلأن هواء تلك الليلة — التى شارفت على الانتهاء — كان هواء متجلدا حقا . ومر روبيان بيده على الحيوان وهو يتمتم له ببعض الكلمات الغامضة .

وحين ظفر كونكاس بوربا باغماض عينيه أخيرا رغم كل شىء ، لم يلبث أن استيقظ ، لان روبيان قام يذرع جنب الرابية جيئة وذهابا من جديد . ان الريح تجلد المتشردين فى غير رحمة ، وتجعلهما يرتعشان ويرتعدان . وأصبح روبيان يمشى بطيئا ، لان التعب لا يسمح له الآن بأن يخطو خطوات كبيرة كما كان يفعل فى

أول الامر ، حين أخذ المطر بالهطول . حتى لقد ازداد توقفه عن السير من حين الى حين . أما الـكلب الذى كاد يميتـه الجوع والتعب ، فلم يكن يفهم معنى هـذه الرحلة الغريبـة ولا الدافع اليها . ونسى المـكان الذى هو فيه ، وأصبح لايسمع شيئا البتة. اللهم الا ذلك الصوت الاصم ، صوت مولاه . انه لايرى النجوم التى تتلألأ الآن فى سماء صـافية انجابت عنهـا الفيوم . ولـكن روبيان كان يراها . فحين رجع الى النقطة التى بدأ منها ، أعنى باب الـكنيسة ، وقعد على الارض ، رأى النجوم تسطع فى قبة السماء . وكانت تبلغ من الجمال انه حسـبها ثريات فى القـاعة الـكبرى . وامر باطفاء الثريات . لـكنه لم يستطع أن يتحقق من أن أوامره نفذت ، لانه نام فورا والـكلب الى جانبه . حتى اذا استيقظا فى الصباح كانا يبلغان من التصاق كل منهما برفيقه انه أصبح من الصعب على المرء أن يميز أحدهما عن الآخر .

١٩٣

ـ للفالب البطاطا .

كذلك صـاح روبيان وهو يلقى نظرة على الشارع الذى طردت الشمس الساطعة كل أثر من آثار العاصفة فيه .

١٩٤

ان السيدة انجليكا هى التى آوت روبيان وكلبه . لقد لمحتهما حين مرا أمام بيتها . فعرفها روبيان وقبل المأوى والطعام اللذين قدمتهما اليهما .

ــ ولـكن ما هذا كله ياصديقى ؟ كيف وصلت على هذه الحال؟ ثيابك غارقة فى المـاء من البلل . انتظر ... سـأعطيك سروال ابن أخى .

كان روبيـان محموما . فلم يأكل الا قليلا ولم يشعر للطعام بلذة . وسألته السيدة عندئذ أن يقص عليها حياته فى العاصمة ، فأجابها بأن ذلك يقتضى وقتا طويلا ، وان الاجيال القادمة هى التى ستختم هذه القصة . وأضاف يقول بحركة متعاظمة : « انأحفاد أخيك هم الذين سيزوننى فى أوج مجدى » . وأخـذ مع ذلك يروى لها خلاصة عن حياته : لـكن الوقائع والافكار التى عرضها

تها بلغت من الجنون ان السيدة انجليكا أصبحت بعد عشر دقائق لا تفهم منها شيئا البتة . حتى انها بعد خمس دقائق أخرى أخذت تخاف . فلما انقضت عشرون دقيقة ، استأذنت منه ، وذهبت الى احدى الجارات تقول لها ان روبيان يبدو فاقدا عقله . وعادت اليه تصحبها الجارة وأخوها . لكن هذا الاخ لم يمكث مدة طويلة ، بل خرج ينشر النبأ بين الناس . فأخذ الناس يتوافدون مثنى مثنى ، بل ورباع رباع ، فما هى الا ساعة حتى كان الشارع يغص بجمهور كبير جاء ليشاهد بطلنا .

فكان روبيان يصيح فى المستطلعين قائلا :

ـ للغالب البطاطا . أنا هنا الامبراطور ! للغالب البطاطا !

وراح الناس فى الشارع يرددون هذه الجملة الغامضة الناقصة ، ويقلبونها على وجوهها المختلفة ، ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يفهم ما تعنيه . ودخل الى البيت بعض أعداء روبيان القدامى ، دخلوا بغير كلفة ، ليمتعوا أبصارهم برؤيته على هذه الحال . قالوا للسيدة انجليكا ان البقاء معه فى بيت واحد أمر خطر وان من الواجب أن يرسل الى السجن ، ريثما تقتاده السلطات الى مكان آخر . وقال شخص أرحم منهم : بل لعل الافضل أن يستدعى الطبيب . فأجابه آخر :

ـ وماذا يفعل الطبيب ؟ الرجل مجنون !

ـ لعله هذيان الحمى لا أكثر ! ألا ترى أن يديه تحترقان احتراقا !

وشجع انجليكا حضور هذا العدد الكبير من الناس ، فجسنت نبض المريض ، فوجدته محموما . فاستدعت الطبيب ، وهو ذلك الطبيب نفسه الذى عالج المرحوم كونكاس بوربا . وقد عرفه روبيان ، وأجابه بأن الامر بسيط ، لقد أمر بحبس ملك بروسيا ، ولكنه لما يقرر بعد أيأمر باطلاق الرصاص عليه أم لا . ومن المحقق على كل حال انه سيطالب بغرامة مالية ضخمة . سوف يطالب بخمسة مليارات من الفرنكات . وختم كلامه بقوله وهو يضحك :

ـ للغالب البطاطا .

١٩٥

ومات روبيان بعد بضعة أيام .. لكنه مات وهو فى أوج المجد!

انه قبيل أن يشرف على النزع ــ ولم يدم نزعه الا قليلا ــ قد وضع على رأسه تاجا . ولم يكن هذا التاج قبعة عتيقة ولا أى شيء آخر يمكن أن يوهم بأنه تاج . لا ياسيدى . ان يدى روبيان قد تناولتا فراغا ، ورفعتا فى الهواء فراغا ، ووضعتا على جبينه فراغا ... وكان هو الشخص الوحيــد الذى رأى الشــارة الامبراطورية ، المصنوعة من ذهب ثقيل ، والمرصعة بفصوص من ماس وأحجار كريمة أخرى . لـكن الجهد الذى بذله عندئذ من أجل أن ينهض جذعه لم يطـل كثيرا ، فما هى الا لحظة حتى سقط من جديد ، غير ان وجهه كان يسطع مجدا .

ودمدم يقول :

ــ احفظوا تاجى للغالب ...

ولاح فى وجهه الجد .. لأن الموت جد ... وما هى الا دقيقتان من نزع ، وما هى الا انتفاضة رهيبة ، حتى كان روبيان قد وقع صك تنازله عن العرش .

١٩٦

أريد أن أتحدث أيضا عن نهاية كونكاس بوربا الذى مرض هو أيضا ، وظل يئن حتى تقطعت أنفاسه ، ثم فر يبحث عن مولاه يائسا ، وعثروا عليه بعد ثلاثة أيام عند الصباح ميتا فى أحد الشوارع . ولـكننى أقدر أيها القـارىء انك ، حين ترانى أفرد لموت الـكلب فصلا خاصا ، ستسألنى هل يشير عنوان الـكتاب الى اسم الـكلب أو الى اسم سميه الراحل ، ولماذا يشير الى واحد من الاسمين دون الآخر ؟ ذلك سؤال يثير أسئلة أخرى كثيرة ... والحديث فى ذلك كله أمر يطول . هلم أيهـا القـارىء الـكريم ... توســل بالشـجاعة ، واذرف دموعك على الميتين كليهما ، اذا شعرت بأنك قادر على ذرف الدموع ، أما اذا كنت لا تحب الا أن تضحك ، فاضحك ! ألا تدرى ان البكاء والضحك سيان ! ان صليب الجنوب الذى لم تشأ صوفيا أن تتأمله كما سألها ذلك روبيان ، هو الآن من البعد الشاسع بحيث لا يميز بين بكاء البشر وضحكهم !

انتهت

هذه الرواية

مؤلف هذه الرواية من اعلام الادب البرازيلى .. نشأ فى بيت متواضع من بيوت العمال بمدينة « ريودوجانيرو » واضطرته الظروف أن يعمل اجيرا فى مطبعة . وظل يعانى مرارة الفقر والحاجة وقتا طويلا . ولكن ذلك لم يحل بينه وبين التعمق فى دراسة الادب وقراءة الروايات والقصص فى اوقات الفراغ حتى نضجت موهبته القصصية فألف مجموعة من الروايات صادفت رواجا كبيرا وترجمت الى عدة لغات .. فأدبه أدب برازيلى لأن أبطاله يعبرون عن جو البرازيل ، ولكنه فى الوقت نفسه أدب عالمى . لأنه ـ كما يقول أحد النقاد ـ يضع أرضه وزمانه فى مؤلفاته ، ولكنه يخرج منهما عطرا يصلح لأناس من ارض أخرى وأزمنة اخرى .

وهذه الرواية تعتبر نموذجا رائعا من كتاباته القيمة الحافلة بالسخرية والتهكم . والسخرية فيها ليست ترفا ، وليست نوعا من اظهار « الفكاهة » أو مجرد تعبير عن مزاح .. انها لا تستبعد من القصة مرارة الدمعة » ولكنها تحيل الدمعة قطرة مضيئة من الندى ..

الثمن ١٠ قروش